

إشراف:
بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

ترجمة: سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم:
د. فيصل درّاج

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

العنوان الأصلي للكتاب :

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

إشراف
بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

ترجمة : سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم : د . فيصل درَّاج

بؤس العالم

الجزء الثاني

نهاية عالم

إشراف: بيير بورديو

ترجمة: سلمان حرفوش

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق – ص.ب 443 هاتف 2134433

الطبعة الأولى: 2001 / 1000

التنفيذ: دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

بمثابة تقديم

د . فيصل درَّاج

تشكّل مقولة «اقتصاد السوق»، المسيطرة عملياً ونظرياً على المستوى الكوني، المرجع الرئيسي للعالم الذي نعيش. وتبدو هذه المقولة وقد استبعدت، ظاهرياً، السياسة والإيديولوجيا، موضوعية، بل تعبيراً عن «علم خالص» شديد الموضوعية. ويمتلك السوق، في هذه المقولة، عقلاً خاصاً به، يصحح أخطاء السوق ويمنع عنه عثراته، ويلبي، لزوماً، حاجات الناس، دون الإضرار بهم على الإطلاق. وبسبب «عقلانية السوق»، التي هي صورة أخرى عن علم اقتصادي عقلاني، فإن العالم كله يسير نحو سوق متجانس عالمي، يؤمّن حاجات البشر دون تمييز. وهذا «السوق العاقل»، وقد سيطر وتعمّم، يفرض على الظواهر الاجتماعية المختلفة أن تكون تابعة له، فتخضع الثقافة والفن لمنطق السوق، وتمارس السياسة دورها بما يحفظ «استقلال» السوق و«عقلانيته».

تمثّل هذه الوقائع، التي تروّج لها الليبرالية الجديدة، مرحلة جديدة من مراحل الرأسمالية العالمية المنتصرة، مع فرق أساسي، هو أن كل مرحلة جديدة تحمل معها المزيد من الثراء والسيطرة لطرف معين والفقر والحصار لطرف آخر. فبعد أن كان التفاوت في توزيع الثروة بين ما يمثّل 80٪ من سكان الأرض، لا يتجاوز حدود نسبة الواحد إلى اثنين قبل الثورة الصناعية، أضحت هذه العلاقة، وبعد قرنين من التوسع الرأسمالي على المستوى

العالمي، تساوي نسبة الواحد إلى ستين، في الوقت الذي أصبح فيه سكان المراكز الرأسمالية العالمية يمثلون 20٪ من سكان العالم لا أكثر. وإذا كان سمير أمين يسوق هذه الملاحظة، في كتابه «ثقافة العولمة وعولمة الثقافة»، بلغة هادئة، فإن إدواردو غاليانو، وفي «اللوموندديبلوماتيك» (الربيع الماضي) يعيد صياغة هذه الهوة الفاجعة بين الفقر والغنى بالشكل التالي: «في عام 1960، كان 20٪ من سكان العالم، وهم الأكثر يسراً، أغنى بثلاثين مرة من الـ 20٪ الأكثر فقراً. وفي عام 1990 أصبح الأكثر يسراً أغنى بستين مرة. وهكذا تكوّنت بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء هوة ساحقة». وبلغة أخرى، فإن مائة وعشرين شخصاً، وهم الأكثر غنى في العالم، يملكون ثروة تتجاوز ما يملكه مليار ونصف من سكان هذا الكوكب.

وعلى الرغم من أن البنك الدولي، وهو لا يكترث بالفقراء على أية حال، قد اعترف بتلك الهوة الساحقة، التي تغني البعض إلى ما لا نهاية وتفقر آخرين بلا حدود، فإن خطاب الليبرالية الجديدة المنتصرة، التي وطدت مواقعها منذ نهاية الثمانينات، يتابع مقولاته عن «اقتصاد السوق، والديمقراطية وحقوق الإنسان»، معتبراً أن العوز والبطر شأن من شؤون الآخرة. والمقصود بـ«اقتصاد السوق» تقويض جميع العوائق التي تعوّق حركة الرأسمال العالمي، لا بمعنى فتح الأسواق واستغلال اليد العاملة بأجور فقيرة واستنزاف ثروات الشعوب المهزومة فقط، بل بمعنى تحويل كل شيء إلى نقود، وهو ما دعاه سمير أمين بـ: الأمْوَلَة. وإذا كانت فكرة «نهاية سيادة الدولة»، وبعد الثورة المعلوماتية والإعلامية الجديدة، تبدو للبعض فكرة غنائية فاتنة، إذ كل إنسان ينعم بالحرية التي يريد، فإن المقصود بها هو تقويض أسس «الدولة الوطنية»، بشكل يجعل الرأسمال العالمي حراً وطليقاً، يراكم ثروات المركز الأوربي - الأمريكي، ويقوض اقتصاد دول الأطراف. وبداهة، فإن الحديث عن «نهاية الدولة» يتوجه إلى دول الأطراف، أي دول الجنوب، في الوقت الذي تتدخل فيه «دولة الشمال» في القضايا الأساسية، التي تحفظ ديمومتها وقوتها واستمرارها.

ولهذا يكون منطقياً، أن يكثر الحديث عن «حقوق الإنسان»، وهو مفرد وبلا تحديد، دون الاكتراث بـ«حقوق الشعوب»، التي يعيش بعضها إبادة بطيئة، كما هو الحال في بعض دول غربي افريقيا. وفي تصور كهذا، فإن شعار «حقوق الإنسان»، لا يلتفت إلى مفرد أو مجموع، بل يكون سلاحاً ايديولوجياً وإعلامياً وسياسياً، تستعمله الرأسمالية العالمية المنتصرة ضد البلدان التي لا تستسلم كلياً لمطالب رأس المال العالمي.

لقد أنجزت الليبرالية الجديدة، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج الثانية، ثلاثة انتصارات أساسية: انتصرت على البديل الاشتراكي الذي ناهضها وصارعها منذ بدايات هذا القرن تقريباً. وانتصرت على الليبرالية الرأسمالية التقليدية، التي كانت تأخذ بـ«اقتصاد السوق»، دون أن تقيم القطع القائم الآن بين الاجتماعي والاقتصادي. ومع أن «اقتصاد السوق» كان قائماً في الليبرالية الأولى، كما في الثانية، فإن المنطق الاقتصادي في الليبرالية التقليدية لم يكن منخلعاً عن المنطق الاجتماعي، كما هو الحال في الثانية، لا لأن الرأسمالية لم تكن قد دخلت مرحلتها الجديدة فقط، بل لأن السياق الاجتماعي - السياسي، المتميّز بفاعلية الأحزاب والتجمعات العمالية كان يفرض عليها التعامل مع الشأن الاجتماعي، أي المصالح الاجتماعية، باهتمام ومسؤولية أكبر. وواقع الأمر أن انهيار البديل التحرري جلب معه انهيار الأحزاب السياسية المدافعة عن المصلحة الاجتماعية، بل جلب معه انطفاء فكرة السياسة. ولذا لا يكون غريباً أن تعمل الليبرالية الجديدة على تهميش البنى الجماعية، سواء تمثلت في دول وطنية أو في أحزاب سياسية ذات مشروع اجتماعي.

ولعل تصور «النهاية» الذي بشّر به فوكوياما، قد دفعته الليبرالية الجديدة، وفي حملة تضليل كبيرة، إلى حدوده القصوى. فبعد نهاية «التاريخ، الجغرافيا، القومية، الإيديولوجيا،..» جاءت، بالضرورة، نهاية «السياسة»، كما لو كان الزمن، الذي سبق انهيار الاتحاد السوفييتي، هو زمن الايديولوجيا والسياسة، والزمن الذي أعقبه هو زمن جديد

«موضوعي» لا انحياز فيه ولا تغيير. وزمن «النهاية» هذا، لا يعبّر عن ايديولوجيا انتصارية إلا بقدر ما يبشّر بالاستسلام الكامل، طالما أن التاريخ قد وصل إلى مآله الأخير وانغلقت صفحاته. ومن أجل تمكين اليأس وتثبيت هندسة الخضوع، يصبح مطلوباً تدمير فكرة السياسة، من حيث هي مشروع تحويلي، وحصار كل فعل جماعي نقدي، بدءاً بالنقابات والجمعيات، وصولاً إلى العائلة، التي تضطرب علاقاتها في زمن ينبهر فيه الشباب بفتنة السلع أكثر مما ينصتون إلى نصائح الآباء.

ولن يكون الأمر مختلفاً في حقل الثقافة. فلقد شكّل إنتاج الثقافة ونشرها عنصراً داخلياً أساسياً في برامج وممارسات القوى السياسية التي كانت تكافح من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وذلك في صيغة تأخذ شكل البداهة، ترى في التثقيف وجهاً آخر للتسييس. أما الليبرالية الجديدة فتأخذ بمنظور مختلف. فبعد القول بـ«نهاية السياسة» يأتي القول بـ«نهاية الثقافة»، أي نقلها من حقل السياسة إلى حقل التجارة، ومن مدار الأحزاب السياسية إلى مدار رجال الأعمال. وبعد الحديث عن الإبداع والخلق والتجديد يأتي حديث الريع والربح والمردود المالي، مما يؤكد رجل الأعمال، المأخوذ بالربح السريع، مرجعاً للإبداع الثقافي، عوضاً عن الناقد والجمهور. ولا غرابة في حال كهذه، أن تصبح الآثار شأناً تجارياً - سياحياً، يحدد الربح الاهتمام بها أو اقتلاعها.

وعلى الرغم من مطاردة الليبرالية الجديدة لـ «الإيديولوجيا»، فإن الأخيرة قائمة، وبشكل غير مسبوق، في الممارسة الثقافية لليبرالية الجديدة، فالثقافة التي تدعو إليها تستأصل العقل والمحاكمة، سعياً وراء جمهور متجانس، يمجّد الاستهلاك والعنف والفردية الزائفة والقدرية البائسة، ويؤسس لكل ما يدمر أسس الذات المستقلة الواعية. وعلى الرغم من الحديث المتواتر عن ثورة الاتصالات، فإن النظر النقدي والمدقق يعثر على دلالة واحدة لا أكثر: تؤمّن ثورة الاتصالات في زمن العولمة حركية غير مسبوقة لرؤوس الأموال ومراقبة فعالة للأسواق المالية، «يصحح» فيها كل

ما يعوّق الربح أو يبطئ مساره. كأن التقنية المتطورة، وهي إبداع إنساني عام، قد كُرِّست لأهداف نخبة عالمية تقف فوق البشر وعليهم في آن. ولهذا فإن زمن الاتصالات، وبالمعنى الإنساني العام، هو زمن «غياب الاتصالات» بامتياز، ذلك أن الفضائيات والأنترنيت تدفع بالإنسان إلى عزلة متزايدة، وتنتج جمهوراً جديداً ينظر صامتاً إلى ما تبثّه الأجهزة السمعية - البصرية المتطورة. وفي حدود هذا الجمهور الهائل المتماثل، الذي أنجبته صناعة الإذعان، كما يقول تشومسكي، يتطاير معنى الديمقراطية، طالما أن الديمقراطية تحيل على الشعب القادر على المحاكمة والنقد والاختيار. ولا يبقى إلا عملية الانتخابات، بعد أن تحوّلت إلى طقس شكلاني يوهم الفرد، بين فترة وأخرى، أنه قادر على اختيار السياسيين الذين يمثّلونه.

وإذا كانت التقنية المتطورة، في زمن العولمة، قد أتاحت لليبرالية الجديدة وسائل التحكم بالأسواق المالية والسياسية والثقافية، من وجهة نظر الربح والربعية، فإن التحولات الاجتماعية والسياسية، وعلى الصعيد العالمي، أعطت ما يسهّل أعمال الليبرالية الجديدة وغاياتها. فالتجربة الاشتراكية المخفقة، همشت القوى السياسية المرتبطة بها، والأجيال الجديدة، عمالية كانت أو غير عمالية، تنظر، غالباً، إلى مشاريع التغيير الاجتماعي، دون إيمان صغير أو كبير، والتطورات التقنية تلغي، بشكل متزايد، الحاجة إلى اليد العاملة غير المؤهلة. إضافة إلى كل هذا، هناك دفق المهاجرين من الجنوب الفقير الباحثين عن عمل في الشمال الغني. ولأن التهريب، أو الدخول غير الشرعي، يلعب دوراً كبيراً في رحلة البؤس من الجنوب إلى الشمال، فإن العمال المهاجرين حريصون أولاً على العمل، بشروط موافقة، أو بشروط بخسة، كما هو الأمر في أغلب الأحوال.

انتصرت الليبرالية الجديدة، إذن، على الليبرالية القديمة وعلى بديلها الاجتماعي - السياسي. غير أن هذا الانتصار أفضى بالضرورة، وبعد تداعي مشاريع التحرر الوطنية، إلى انتصار الشمال على الجنوب، أي انتصار البلدان الرأسمالية الكبرى على بقية الشعوب في العالم. وبما أن

العلاقة بين الشمال والجنوب قائمة على فكرة الانتصار فعليها، لزوماً، أن تحمل نتائج هذا الانتصار، أي أن تكون مسكونة بأكثر من مفارقة. فهذا العالم الذي يبدو، في نهاية القرن، فردوساً لدى البعض، يتكشّف جحيماً سافراً لدى بعض آخر، وآية ذلك بعض الشعوب الإفريقية المحتضرة. أكثر من ذلك، أن الاقتصاد العالمي بحاجة إلى أسواق متزايدة تؤمّن الربح المطلوب، وهذه الأسواق موجودة بالضرورة في بلدان الجنوب وبلاد أوربا الشرقية. وبسبب طبيعة الوضع الدولي، يفرض الشمال الأوامر والقواعد على غيره، أي يحدّد ما يجب استيراده واستهلاكه. وهذه العلاقة الاقتصادية، القائمة على الفرض والإلزام، أي على تهميش المصالح الشعبية والوطنية، هي في أساس «السلطات السياسية الحاكمة» في أكثر من بلد، حيث دور السلطة هو تغليب المصالح الخارجية على المصالح الوطنية.

يفسر شكل العلاقة الاقتصادية بين دول الشمال ودول الجنوب الكثير من الظواهر التي عرفتها البلدان الأخيرة، مثل الفساد، ودوره في ضخ الثروة الوطنية إلى الخارج، وظهور السلطة - المافيا، كما هو الحال في زمن الروسي يلتسن، حيث دور السلطة هو تدمير قواعد الدولة، وتشجيع النزوعات الاجتماعية التدميرية، وتقويض شروط الأمن الاجتماعي واجتياح القانون.. وإذا كان تعبير «الدولة الوطنية التحررية» هو الشعار الأكثر رواجاً بعد الحرب العالمية الثانية لدى شعوب الجنوب، فإن الخصخصة وبيع القطاع العام وتقليص دور الدولة والتخلص من المرافق الاجتماعية الأساسية هو الشعار الأكثر رواجاً في زمن العولمة، وذلك في بلدان لم تؤمّن فيها الدولة، أحياناً، شروط وجودها الفعلية. والمقصود طبعاً هو تنصيب الشركات الرأسمالية العالمية الكبرى بديلاً عن الدولة والسلطة والشعب في فضاء تفكك اجتماعي، أو في فضاء حروب أهلية سافرة أو مضمرة. وما الحرب القبلية في افريقيا، أو الاحتراب العنصري والطائفي في أماكن أخرى، إلا الأداة الملائمة لـ«تدمير الدولة» وتنصيب رأس المال الأجنبي حاكماً وحيداً. وهذا ما يجعل بلدان الجنوب، أو بعضها على الأقل، تقف على هامش السياسة العالمية، إن لم يفتها قطار التاريخ إلى أمد قصير أو إلى الأبد.

سعياً إلى تحويل الشعوب إلى سوق استهلاكية كبيرة لا أكثر، يظهر الإعلام آلة جهنمية ساحقة في العقد الأخير. وللإعلام في زمن الليبرالية المتوحشة، بلغة إدواردو غاليانو، غاياته المحددة، التي تنطوي على تقديس المال والرفاهية والفصل بين الربح وأدواته. بيد أن حلم الاستهلاك في المجتمعات الفقيرة في الجنوب، كما لدى بعض الفئات الشعبية في الشمال، لا يستقيم بطرق عقلانية ومشروعة، مما يجعل اللاأخلاقي واللامشروع واللاعقلاني درباً وحيداً إلى الاستهلاك الجميل المفترض. وبهذا المعنى، فإن الإعلام الاستهلاكي، وفي أحيان كثيرة، هو مدرسة أنيقة للجريمة لا أكثر. ويتكشّف الحض على الجريمة في أكثر من اتجاه: يخلط التلفزيون، غالباً، بين مستوى الحياة وكمية الأشياء التي ينبغي استهلاكها، ويفترض، مسبقاً، أنه أمام جمهور من المتفرجين المتساويين في الدخل وقوة الشراء، أي أنه يخترع مشاهداً وهمياً قبل أن يتوجّه إلى مشاهد حقيقي. لكنه لا يلبث أن يحوّل الوهمي إلى حقيقي عن طريق الجريمة أو الدعارة والتعاطي مع كل ما هو معادٍ للمعايير الأخلاقية. ولذلك فإن تصاعد الفساد السياسي في بلاد الجنوب يتلازم مع صعود ظواهر أخرى: الرقيق الأبيض، تجارة الأولاد، تعاطي المخدرات، شبكات الدعارة، وصولاً إلى الزج بملايين الأولاد، دون سن السادسة عشرة، في عمل أسود لا رحمة فيه، كما يؤكد ديفيد هارفي. كل هذا يجعل من العنف، في كل أشكاله القائمة والمحتملة، عنصراً أساسياً من عناصر الحياة اليومية في العالم، بسبب الفقر والحرمان من ناحية، والوسائل الإعلامية، التي لا تحض على العنف إلا بقدر ما تقدم كل المشاكل في العالم كـ«فرجة» مريحة.

وبالتأكيد، فإن كلمة الليبرالية الجديدة لوحدها تبدو كلمة متطهرة، لا تتهم طرفاً بعينه، وهو أمر غير صحيح، وفي العالم القائم الآن تملك الولايات المتحدة سياسة عالمية شاملة، تحدّد معنى التجارة، والثقافة والديمقراطية والإرهاب.. والولايات المتحدة، وقد أصبحت مركز القرار السياسي العالمي، حدّدت دورها منذ بداية التسعينات، حين تكلم بوش عن

«النظام الدولي الجديد»، أو «النظام الأمريكي الجديد» بلغة سمير أمين، وأعادت تحديد دورها حين صدّق حلف الناتو في نيسان 1999، وبعد حرب كوسوفو، على «نظرية كلينتون». فوفقاً لهذه «النظرية» أصبح حلف الناتو أداة أمريكية، يحق له التدخل، ووفقاً للمشيئة الأمريكية طبعاً، في آسيا وافريقيا، لا لضرب أهداف عسكرية معادية فقط، بل للتصدي لـ«الجريمة الدولية» مثل: «تجارة المخدرات، والإرهاب والتسلح الخطير». إن الموقع العسكري والسياسي المسيطر للولايات المتحدة يقيم علاقات تناظر بين النظام العالمي الجديد والعولمة والليبرالية الجديدة والسياسة الأمريكية العالمية. ولن يكون تعامل الولايات المتحدة مع الاقتصاد أكثر عدلاً من تعاملها مع العراق، ولا تعاملها مع الثقافة أكثر رأفة من تعاملها مع الشعب الفلسطيني وإقليم كوسوفو. ففي عالم يبدأ بالربح وينتهي بالربح لا يرث الفقراء شيئاً.

كل مرحلة تنتهي لأنها مرحلة، سبقتها مراحل وتتلوها أخرى. والليبرالية الجديدة، المتوّجة بالسيطرة الأمريكية مرحلة بين مراحل أخرى. ومع أنها تبدو المرحلة الأكثر لا عقلانية في التاريخ الإنساني القريب، رغم كمّ العقل الذي أوصل إليها سابقاً وكمّ العقل الذي يوظف لأغراضها الآن، فإن على البشر الباحثين عن العدالة أن لا يتخلوا عن آمالهم، مثلما يتم التخلّي عن حصان محتضر.

ميشيل بيالو وستيفان بود

انهيارات

دائمون ومؤقتون

أيلول 1989: الإضراب في مصنع بيجو في سوشو بدأ منذ أيام. المسيرات الأولى في قسم الهياكل. مئات من المضربين، من الـ OS (العمال المختصين)، انضم إليهم حفنات من المهنيين، وقام الجميع بالسير في الورشات الهائلة للهياكل من حول سلاسل التركيب (التي منها خرجت منذ قليل البيجو 605 الجديدة، والتي يعود تاريخ طرحها في السوق إلى مطلع هذا الشهر). وتحوّل الإضراب إلى نوع من الشعائر الثابتة. ففي كل يوم، تجري الأمور تقريباً بالطريقة نفسها. من بعد الاجتماعات العامة المعقودة في أسفل عبّارة خط الإنهاءات، يتظاهر العمال، يطلقون بأصوات عالية تصم الآذان الصرخات، والصفرات، والشعارات والهتافات. يحتلون كامل عرض الممرّات خارج السلاسل الإنتاجية ويتقدّمون، وفي المقدمة عشرة متكاتفون، على رأسهم المندوبون النقابيون.

لقد أصبح مصنع الهياكل رهان معركة بخصوص عدد المشاركين في الإضراب وآثار هذا الإضراب. فالإدارة تؤكد أن عمل السلاسل الإنتاجية لم يتضرّر إطلاقاً ذلك الضرر الملحوظ، وأن معظم السيارات تخرج بشكل اعتيادي، وذلك في محاولة لقطع الطريق على الحركة ومنعها من ضمّ غير

المضربين وباقي عمال مجموعة بيجو، وكذلك لتبرهن لأرباب المال أن الوضع تحت السيطرة. أما المضربون فقد دعوا الصحفيين للدخول إلى الورشات ليتبيّنوا، بأم العين، أن الحركة الإنتاجية مشلولة على نطاق واسع بسبب الإضراب. وللحقيقة، فالعديد من العمليات لم تعد تنجز، أو أنها لا تنجز كما يجب: فجميع السيارات المنتهية يجب إعادة النظر فيها لاحقاً.

معنى هذه المسيرات متعدد الأبعاد: فهي تهدف في الوقت نفسه إلى تعطيل الإنتاج، ودعم معنويات الذين أصبحوا في عداد المضربين، وإلى دفع عمال آخرين للالتحاق بالحركة. يمشي المضربون على مهل. في بعض اللحظات يشكّلون كتلة متراصة، متجانسة. وفي اللحظات الأخرى، يتباعدون، وترتفع نكاتهم الساخرة. في الطليعة غالباً ما يتقدم المناضلون المقاتلون، المندوبون النقابيون، يحملون أحياناً مكبرات، ويتبعهم الآخرون دونما نظام. هم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، والسعادة تغمر وجوههم بشكل ملحوظ. كلهم تبدو عليهم السعادة لأنهم بذلك العدد الوفير، ويعود الحديث عن إضراب سنة 81. هناك ضجيج كثير، إنما دون أي تخريب. وأحياناً يخبط بعضهم بإيقاع منتظم، زيادة في الضجيج. على خزائن معدنية.

على امتداد سلاسل الإنتاج، جرى نشر «طابور» من الكوادر، من الفنيين، من الموظفين، من عناصر الانضباط -غالباً من كبار السن، بالسترة وربطة العنق- (يبدو بعض المهندسين الشبّان كالضائعين، لكنهم تجنبوا إيجاد تماس بين المضربين وبين الشباب، جماعة الـ BTS (شهادة تعليم مهني عالٍ)، وهم من الجدد الكثيري العدد المختصين بالمعلوماتية). هم هناك، أمام سلاسل الإنتاج، تجنباً لتخريب «الأداة الإنتاجية»؛ وكان بينهم محضر. يقف هؤلاء وبين الواحد والآخر مسافة مترين لمراقبة «مرور» الموكب، مع تجنب النظر مباشرة في عيون المضربين. فمنهم من ينظر إلى قدميه، ومنهم من لا يكف عن إمالة رأسه يميناً ويساراً. إنها لحظة صعبة. وغالباً ما ينادي المضربون، وهم يسيرون، فلان أو علاّن؛ وأحياناً يدور حوار. فنفهم بسرعة

أن هؤلاء الكوادر (هؤلاء «التبّع»، واللقب يطلق عليهم غالباً في المصنع، وهو من مفردات السبعينات) قد صدرت إليهم توجيهات ألا يردّوا على المازحات الجارحة أو «الاستفزازت».

الجو مشحون بالتوتر. ويمكن في كل لحظة حصول مشاجرة تسمّم كل شيء، بحيث لا يعلم أحد إلى أين تنتهي الأمور. عند الاقتراب من السلسلة رقم أربعة –تلك التي تابعت العمل وأرادت الإدارة عن طريقها إثبات دوران عجلة الإنتاج– يتصاعد التوتر: إذ تزداد الصفوف تراصاً، والشتائم المقذعة عنفاً، وتوضع المكبرات أحياناً على بعد سنتمترات من وجوه جماعة طابور الانضباط. وتكرر أكثر من مرّة التدافعات بالأيدي لكن الجانبين يسعون جهدهم لتخفيف حدة التماس.

والحقيقة، فالوضع حول هذه السلسلة الرابعة غريب. فمن بين العمال الذين يشتغلون، من كبار السن غالباً، من يؤدون عملهم دون أن يرفّ لهم جفن، رافعين رؤوسهم من حين لآخر للرّد على الشتائم وعلى المازحات المقذعة، معلنين دون مواربة صفتهم كغير مضربين؛ لكن منهم، ظاهرياً، من يبدو في ضيق وحرج. بل بدا جلياً أيضاً أن منهم، تحت وطأة الحرج، من كان يغادر السلسلة حين وصول الموكب، بموافقة من رؤوسائهم. ومفهوم أنهم سوف يعودون بعد أن يمضي الموكب بعيداً. غير أن آخرين يظلون هناك، مبتعدين قليلاً إلى الوراء، مبتسمين، ممن يبدو عليهم أنهم يعيشون أغلب الأحيان هذه المواقف دون انفعال. أولئك هم «الشباب»، العمال المؤقتون. فهم إلى حدٍّ ما كما لو كانوا خارج هذا النزاع. أحياناً، يضعون أدواتهم للحظات، معطين بعض إشارات التضامن، موجهين غمزات بأعينهم إلى المضربين، ثم يعاودون عملهم. ويتجنب المضربون، عند المرور أمامهم، رفع أصواتهم بالشتائم، لكنهم يعطون بعض إشارات بأيديهم ويوجهون إليهم كلمات وديّة. هم غير معروفين بصفة شخصية، فلا يناديهم أحد بالكنية أو بالاسم. هم كتلة واحدة، هناك، بصفة جماعية (إنهم «جماعة المؤقت»). ويبدو على الجميع أنهم يعتبرون هذا طبيعياً. لقد وضع بعض المؤقتين إلى

جانبهم لوحة كرتونية، بل هي قطعة كرتون خربشوا فوقها كلمة «مؤقت»، على أن صغر سنهم الواضح للعيان يكفي للتعرف إليهم بأنهم من المؤقتين. وتشكل هذه الصفة ما يشبه درع الوقاية. فلا يمكن، بكل وضوح، أن يتوقع أحد منهم ما قد يطلب من الآخرين (وقد جرى تداول حكاية انتشرت بسرعة في الورشات مفادها أن بعضاً من «جماعة الفاصولياء» تظاهروا بأنهم من المؤقتين ليفلتوا من الشتائم). ولمن أراد الحقيقة فمن بين أولئك الذين يشتغلون أثناء الإضراب -وعلى السلسلة، في أوجع المواقع وأكثرها حساسية، حيث يتقرر نجاح أو فشل الإضراب- زمرتان: قسم تنظر إليهم غالبية العمال المضربين على أنهم من «جماعة المتحمسين»، أو «الصُفر»، وقسم يمنحون دون تلكؤ صفة الحالة الاستثنائية- وهؤلاء هم المؤقتون.

تلك مشاهد تثير الدهشة والاستغراب خاصة إذا ما ذهب الفكر إلى حدة المصادمات أثناء إضراب عام 81، أو خلال العقود السابقة[1]. فالإضراب هو ساعة الحقيقة، فأنت إلى هذا المعسكر أو ذاك. فالقول عن مطلق شخص إنه «مُضرِب» أثناء النقاشات العادية (خارج إطار أي إضراب) هو نوع من التوضيح بأنه ملتصق بالثقافة السياسية لفريق العمل (حتى لو لم يكن، من طرف آخر، مناضلاً أو تابعاً لنقابة)، بأنه ينتمي إلى جماعة

---

[1] من الجدير الإشارة إلى سوشو، ربما أكثر من أي مكان آخر، وخاصة حين نأخذ بعين الاعتبار التاريخ الخاص بالمصنع (قتيلان في إضراب عام 68 وسياسة القمع حيال المناضلين في السبعينات)، لننبه إلى أن الإضراب هنا عمل نادر، وبالغ الأهمية والخطورة. فالإضراب هو اللحظة التي على المرء فيها «أن يختار معسكره»، حيث يُجري كل فريق اختباراً لقوته، حيث مواقف المؤيدين والمعارضين يُحكم عليها من الإدارة ومن فريق المناضلين: فالذين شاركوا في الإضراب تصبح لهم «فيشة» في الإدارة التي تأخذ بالتالي كل مداها بـ «عقاب» المضربين و«ثواب» غير المضربين (بالتوزيع الكيفي للمكافآت الاختيارية، بلجم أو تسريع تحسن رواتب العمال وذلك بالتلاعب بسلم نقاط التصنيف). والذين لم يشاركوا في الإضراب تصبح لهم هوية لدى فريق المناضلين، وهكذا فالإضراب هو الفرصة لبناء وتحطيم السمعة. حتى الذين لم يُضربوا سوى يوم أو يومين، يجري تصنيفهم على حدة، فقد أظهروا شكلاً من أشكال التضامن، فيمكن تفهّم موقفهم، وأما الذين رفضوا بإرادة وتصميم فيدانون علانية، دون مواربة. وخلال ما يتبع الإضراب، تُصفّى الحسابات (من الجانبين)، فـ «الصُفر» يُنبذون، يُشار إليهم بالأصابع في مجموعة العمل.

العمال الذين لا يناصرون رب العمل. وحتى بعد عامين أو ثلاثة، تمارس إدانة قوية جداً على أولئك الذين لم يشاركوا يوماً في أي إضراب.

وكان المسؤولون النقابيون المحليون، بصدد هذا الإضراب، قد اهتموا بإعطاء شعارات محددة وتعليمات دقيقة كي لا يصبح المؤقتون هدفاً للمضربين. فهم في موقع حسن الاطلاع ويعلمون أن «القاعدة» غير مستعدة لتتقبل بسهولة أن يكون يتنازل «أحد» بحيث يتم إعطاء «الحق» للمؤقتين {بطريقةٍ ما} في متابعة الشغل في إضراب كبير كهذا. وفي مثل هذه الشروط، فلماذا يقتنع جميع العمال، حتى أشدهم تصلّباً حول احترام «القيم» العمالية والنضالية (الذين لا يوجد عذر مقبول في نظرهم لغير المضربين)، بأن الاستثناء الممنوح للمؤقتين مشروع؟

إذا ما سألنا القدامى، يأتيك جوابهم كأنه التعبير عن حقيقة لا لبس فيها: «هذا ليس غلطهم»، «لا يمكنهم ممارسة ترف الإضراب»، «لو أنهم يشاركون في الإضراب ليوم واحد، فإن مكتب العمل المؤقت وإدارة المشروع سوف يتفاهمان على طردهم مباشرة إلى الشارع». الرهان خطير -أمل التثبيت- فلا يمكن أن تطلب منهم مثل هذه التضحية. فالمؤقتون غير المشاركين بالإضراب لا ينظر إليهم رغم موقفهم على أنهم من «مفشّلي الإضراب»، ويمنحون عن طيبة خاطر «ظروفاً تخفيفية». الكل يعلم أنه ليس أمامهم سوى المصنع للخروج من أزمتهم المعيشية لأنهم جميعاً تقريباً من الفاشلين دراسياً، وأن عقوبة الفشل المدرسي هي اليوم أثقل نتائجاً بكثير مما كان عليه الحال «في زمن القدامى». فالمضربون، الذين تتراوح أعمارهم بين 35 و55 عاماً يبدو وكأنهم يُسقطون على وضعية المؤقتين مخاوفهم بشأن مستقبل أبنائهم أنفسهم، خاصة وأنهم بمواجهة العقبة الجديدة: ضرورة الحصول على دبلوم («زوّادة» لا بد منها) للحصول على وظيفة. بهذا المعنى، لم يكن المؤقتون في نظرهم، في تلك اللحظة المحددة و «الفوّارة» من لحظات الإضراب، كمنافسين في العمل -وهم كذلك موضوعياً- وإنما هم شركاء للمعاناة نفسها التي يعيشها أبناؤهم. وما كان يمكن تفسيره، إذا ما

نظر إليه من داخل المصنع، على أنه تعارض بين عمال دائمين («عمال على الملاك») وشباب عابرين، يأخذ دلالة مختلفة كلياً فور دمج الحيّز الاجتماعي المحلي ضمن منظور الرؤية: فنلمح حينذاك تقارباً اجتماعياً تحديداً في الموقع الذي كانت وجهة النظر «المصنعية» لا تسمح برؤية سوى التباعد الوظيفي بين جيلين من العمال.

يضاف إلى تقدير حالة العجز تلك الأمل -وهو أمل قوامه المراهنة على وحدة المصالح. كل ما يجري يعطي الانطباع كما لو أن المضربين الأكثر تسيّساً يُسلفون مسبقاً المؤقتين تلك الوضعية الحساسة، ذلك الموقف الذي سيساعدهم على مقاومة رؤسائهم (وهو اعتقاد يتشجع بالإشارات الصغيرة من المؤقتين أنفسهم). فهم يقدمون إليهم روح القتال التي كانوا هم أنفسهم يتحلّون بها أيام الشباب في المصنع، وتكفيهم أبسط إشارة تضامن متواطئ، كما لو كان يكفي هؤلاء التحرّر من النير الذي يرزحون تحته ليتبنّوا بصورة تلقائية تقريباً «ردات الفعل» نفسها، ومواقف الدفاع التي ربما كانت لهم في شبابهم. لكنهم يغفلون أن البعد الذي يفصل بينهم ليس مجرد اختلاف في الأعمار بالمعنى البيولوجي، وإنما هو أكثر من ذلك. فتعاقب الأجيال العمالية انقطع تواصله بسبب عشرة أعوام توقف فيها التوظيف، وبالتالي، فهؤلاء المؤقتون، الذين هم «نتاج» سنوات من «البحث المضني» ومن الأعمال التافهة، يصلون إلى العمل وقد صاروا «خاضعين» سلفاً بدرجة كبيرة.

فكأنما هناك، على أساس من سوء التفاهم، اتفاق ضمني صامت، بين المضربين والمؤقتين، ويمكن بالتالي فهم وضع لوحة «مؤقت» لحظة مرور موكب المضربين على أنه نوع من التذكير «حكّ لي، أحكّ لك»: فكأنّ المؤقتين يقدرون «شجاعة» المضربين ويقدمون إليهم هذا التقدير، لكنهم يطلبون سلفاً بالمقابل تسامح المضربين، وهؤلاء يقابلون المؤقتين بمنحهم «الغفران» لعدم مساهمتهم في الإضراب ويطلبون التزاماً أدبياً أن يقفوا لاحقاً، بمجرد تثبيتهم، في جانب المضربين. فالمضربون قد يميلون عفوياً إلى تأويل تلك المبادرة كإشارة بسيطة إلى العجز الاجتماعي بينما الأكثر تسيّساً بينهم

لا بد يفضلون أن يروا فيها عرضاً لاحقاً للمشاركة في المعركة العمالية، وإشارةً للانتماء الضمني إلى جماعة المضربين، ونوعاً من الإقرار بمصداقية النضال الذي يقودونه، بل والانتماء إلى الثقافة السياسية التي ينهض عليها. فاللوحة -لوحة «مؤقت»- يمكن تأويلها إذن كوعد لاندماج «مستقبلي» بالجماعة وإعادة توحيدها (على أساس تفاوت الأعمار). كأن كل شيء يُترك للزمن كي يفعل فعله بهدف استعادة نظام تعاقب الأجيال العمالية لمجراه الطبيعي.

بعد مرور عام، في تموز 90، عانت صناعة السيارات في فرنسا من تقلّص وتيرة الإنتاج، ولم ينج من ذلك مصنع سوشو، فالتنبؤات الاقتصادية باتت قاتمة، وميل الدورة الاقتصادية في الاتجاه المعاكس للنمو فاقمته أحداث الخليج العربي. وقد عُلم قبل العطلة الصيفية تحديداً أن عقود المؤقتين لن تجدد عند الرجوع من العطلة في أيلول. وقد تم منذ ذلك الحين تكييف الكوادر العمالية مع تنبؤات الإنتاج للمدى القصير. في تلك الفترة، كان التوتر شديداً جداً في الورشات الجديدة للهياكل[2] (HC1)، ولم تتحقق أهداف الإنتاج إلا بالخروج، بالوتيرة المشدودة، خروجاً خطيراً إلى هذا الحد أو ذاك على قواعد تسيير العمل، وخصوصاً بتعبئة كثيفة لكوادر العمال الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على التكيف مع هذه الطريقة الجديدة في الإنتاج (الوتيرة المشدودة وتعميم المعلوماتية)[3]، وقد أُخضعوا لرفع إيقاع العمل في السلسلة الإنتاجية، مثلما يطلب منهم الجاهزية الكاملة دائماً. وما تزال التقانة الإنتاجية بعيدة عن أن تكون تحت السيطرة الكاملة في هذه

---

[2] HC1 (اي تجهيز الهياكل 1) وهو المصنع الجديد للهياكل، المبني على بعد كيلو مترين من المصنع القديم. لقد بدأ بالعمل في 1989: للمعلوماتية فيه حصة أكبر في الإنتاج، ويرتدي العمال سروالاً أخضر، ويجب عليهم توقيع «عهد»، وفي لحظة الإقلاع بالعمل، لم يكن يحق لهم التدخين في الورشات.

[3] نشر المعلوماتية لتشرف على الإنتاج يتيح الإنتاج الجماعي الموحد لأكثر أجناس السيارات تنوّعاً، وهذا ما يفرض على العامل المختص أن يراعي نوع القطعة الواجب تركيبها على كل سيارة (لم يعد عليهم تركيب القطعة ذاتها مرات عديدة على الموديل نفسه) مع ضرورة القراءة السريعة لتعليمات التركيب التي توجد على ورقة ملصقة على الهيكل.

الورشة الفائقة الحداثة، ويبدو وكأن مصمّمي هذا المشروع الصناعي الضخم (مصنع عام 2000) قد بالغوا في حجم الضخامة أو «التكنولوجيا» فيه: فالأعطال تتزايد، والهدف المرجو «انعدام العيوب» يصعب الحصول عليه على سلاسل التركيب، فالسيارات الواجب «روتشتها» يزداد عددها أكثر فأكثر، و«الروتشة» تعني هنا إخراج السيارة من الخط الإنتاجي لتصبح بين أيدي عمال يشتغلون في قطاعات مستقلة تجري فيها الإصلاحات اللازمة.

الأعصاب مشدودة إلى مداها الأقصى. وإذا كانت ورشات قسم الهياكل الجديد حديثة، جميلة، فسيحة، مشعشعة، فإنه تسود فيها في شهر تموز حرارة خانقة، يكاد يتعذر تحمّلها (لم يُلحظ فيها أي نظام تكييف أو تبريد). في أيام الحر القاتل، تقدم جماعة المطافئ في المصنع مساعدتها لترطيب الورشات، برشقات ماء قوية على سطح البناء، ويقول العمال أن هذا الإجراء لتفادي تعطيل أنظمة المعلوماتية للإنتاج. وتذكر الشهادات التي حصلنا عليها من العمال أن مناخ العمل في هذه الورشات متدهور وتتزايد فيها حوادث اصطدام بين العمال يشترك فيها الشباب غالباً.

تموز 92: لم يعد من مؤقتين في موقع سوشو، إذ رحل أواخرهم مع نهاية شهر كانون أول 90. ووكالات العمل المؤقت التي ازدهرت في الفترة السابقة في جميع المدن الصغيرة المجاورة للمصنع أغلقت أبوابها الواحدة بعد الأخرى. تقديم عروض العمل المؤقت في قسم الأعمال الميكانيكية اختفى نهائياً، و «الإرسالية» المحلية للتوظيف تغصّ بروّادها: فالشباب الذين ما عاد بإمكانهم العثور على عمل «في المؤقت» يتوافدون إليها طلباً لـ «الدورات التدريبية» (يتبين المستشارون، بوعي غامض، أن هذا الأمر يسمح للشباب بقبض الـ 2400 فرنك كقرضٍ شخصي للتدريب CFI). وكعدد إجمالي، استُخدم مئات من المؤقتين في ذلك الموقع.

لقد جرى تشغيل المؤقتين بأعداد كبيرة في فترة ازدهار وتوسع مشروع المصنع (1987–1990). وكانت أعدادهم تتزايد تزايداً منتظماً وكبيراً:

كانوا أكثر من 1500 أثناء إضراب الـ 89، ووصلوا إلى النسبة القصوى 3500 في تموز 90. وقد تمركزوا في بعض ورشات التركيب أو الدهان (في أيام الإضراب، 70٪ منهم في قطاع التصميغ- ألك). كانت الاستعانة بالمؤقتين على قدم وساق حتى أن كثيراً من العمال أصبحوا على اقتناع أن عدداً كبيراً منهم سوف يثبّتون. في المصنع، كانوا يلحقونهم منذ اليوم الأول بمراكز على سلسلة الإنتاج؛ فيقوم عامل في المركز بشرح العمل لهم وكانوا يتقنون، أحياناً، في يوم واحد العمل المطلوب منهم. بعضهم، خاصة أبناء المنطقة، ما كانوا يبقون إلا ليوم واحد، في حين كان آخرون يمكثون لفترة أطول على أمل الحصول على «التثبيت» (عقد بمدة غير محددة). كان عملهم على وجه الخصوص في قسم تركيب مصنع الهياكل كخط الإنهاءات مثلاً، فكانوا يُكلَّفون غالباً في مراكز معروف عنها بأنها من «أشق» المراكز التي تتطلب تحمّلاً جسدياً وسرعة تنفيذ. كان يصعب على «القدامى» الصمود فيها في تلك الفترة من التصاعد السريع لوتيرة العمل. بالنسبة للقدامى، كان المؤقتون أولئك الشباب، المجهولي الهوية، الذين «يتوافدون في صباح يوم مشرق» إلى الورشة، فيقودهم «الرئيس» فوراً إلى موقع عملهم. ما كان من عملية تعريف، وكانوا يظلون غالباً لفترة هي من القصر بحيث لا يتعرف إليهم عمال الموقع؛ ومن ظل منهم، تكون علاقته قليلة مع قدامى العمال في قسمه، كما لو كان كل طرف يريد أن يظل في وضعية التأهب، بما يشبه سوء الظن المتبادل.

كان المؤقتون، من بعد انقضاء فترة التلاؤم مع العمل، يعانون أقل بكثير من العمال المختصين الموظفين منذ 20 عاماً صعوبة ملاحقة وتيرة العمل على سلسلة الإنتاج. وكانوا يستغربون في الغالب تلك الانتقادات الدائمة عند «القدامى» الذين لا يكفون عن «البربرة» والانفعال في مواقع عملهم. ولم يتم تعايش «القدامى» و «الشباب» في العمل دون مصادمات، فالتوتر غالباً على أشدّه والمشاجرات عديدة، ومنشؤها زيادة صعوبة وتائر العمل (تكثر الشهادات حول رفض المؤقتين لكل الحجج التي يقدمها العمال

لتخفيف إيقاع العمل). كما كان من مصادر النزاع عدم احترام القادمين الجدد للقواعد غير المكتوبة للتعامل أو لممارسة المعاشرة الاجتماعية التقليدية في ورشات العمال المختصين (خاصة استهلاك الكحول في الورشات)، وهي من العادات التي فرضت نفسها بحكم الأمر الواقع بالنسبة للعمال المختصين الذين دخلوا المصنع في الستينيات والسبعينيات، فالعديد من المؤقتين (على الأخص بينهم من كان غريباً عن المنطقة) يكتشف تلك العادات بذعر، وأحياناً باستنكار شديد.

لقد أصبح المؤقتون في نظر الكثير من العمال المختصين (أو من «القدامى» كما أصبح يطلق عليهم داخل الورشات)، رمزاً لتنسيقهم، ولتنسيق مواصفات معرفتهم المهنية. فكانوا إلى حد ما البرهان الحي على أن القدامى أصبح بالإمكان تبديلهم دون عناء والاستعاضة عنهم بشباب دون أي تأهيل مهني، ميزتهم الوحيدة أنهم شباب و «طازجون» بدنياً. كان وجود قوة العمل الشابة والقادرة إلى جانبهم يزيد من وطأة شعورهم بالشيخوخة، بالمقارنة العفوية التي ما كان لأحد إلا أن يلاحظها، على المكشوف أو من وراء ستار.

أصبح العمال من الآن فصاعداً مقسومين إلى فئتين، فئة «القدامى» -وقوامها الغالبية العظمى من العمال الذين دخلوا المصنع في الستينيات والسبعينيات (توقف توظيف العمال في المصنع في عام 79)- وفئة «الشباب» الذين هم، في معظمهم تقريباً، من المؤقتين القديمين الذين جرى انتقاؤهم بين 88-و89 ثم تم تثبيتهم في المصنع. يبلغ عددهم المئات، ويدركون بأنهم آخر من قدّر له تمثيل الموجة الكاسحة للمؤقتين التي انحسرت في أيامنا هذه انحساراً كلياً. على أن اسمهم استمر في الـ 92 وهو «المؤقتون». ولا يمكن لمن يقترب منهم أن ينسى بأن الجيل «الشاب» تمثله أفواج هامة -تتعاظم أهميتها- من الفنيين الشباب الذين غالباً ما يشار إليهم بالـ «BTS»، الذين تم توظيفهم في النصف الثاني من الثمانينات، والذين يشتركون في أنهم لا يعتبرون أنفسهم «عمالاً» وإنما فئة لها وضعها الخاص. والاختلاف

بين هاتين الفئتين لا يكمن في العمر، بالمعنى البيولوجي، فحسب، بل هو أشد أهمية في الطريقة التي دخلوا بها إلى المصنع. وعلى أي حال، فبعض «القدامى» ليسوا من الكبار جداً في السن. لقد دخلوا في نهاية السبعينات فيمكن النظر إليهم، ببعض سلوكيات حياتهم، وطريقة معيشتهم، باعتبارهم من الشباب، والعكس صحيح، فهناك عدد من المؤقتين الشباب ممن ليسوا «شباباً» إلى الدرجة التي يظنها المرء، فمنهم من تجاوز الثلاثين.

ما يميّزهم فعلاً هو نمط الجيل، «جيل المصنع» فالمختصون دخلوا المصنع قبل الأزمة فهم في تعارض مع «جيل العابرين» الذين يبحثون دائماً عن عمل مستقر، ويتضاعف هذا التعارض بتعارضات مشابهة (مسيّس/غير مسيّس، نقابي/معاد للعمل النقابي..) ويمكن القول، على سبيل التوضيح، إن شباب الأمس المختصين ينتمون إلى جيل دراسي كان الكثيرون فيه يبدأون العمل في سن الـ 16، فالخروج دون شهادة كان ما يزال كثير الرواج نسبياً. بينما عابرو هذه الأيام يعتبرون أنفسهم ويعيشون حياتهم على أنهم «فاشلون» أو «مطرودون» من الحلقة الدراسية فلم يكن بإمكانهم النجاة من الـ LEP المدرسة المهنية ومن الـ CAP (شهادة تعليم مهني). مثل هذا التغيير في العلاقة بين النظام الاقتصادي والنظام التعليمي وتدعيم سلطة العقاب في النظام المدرسي الناتج عن «الأزمة» الاقتصادية شدّد الوطأة إلى أبعد حد على الشباب الذين يفتقرون إلى المؤهلات الدراسية.

وهكذا فإن تحديث مصنع سوشو (تقنياً واجتماعياً وفي مكان العمل) قد نتج عنه «قدامى نسبيّون» ليسوا فقط مستهلَكين بسبب عملهم فحسب، بل هم «قدامى» و«عجائز» بحكم ما «خسروه»، طرائقهم في العمل والحياة، تلك السلوكيات التي كانت تجعل ظروف العمال المختصين مقبولة، وكانت في أساس نشوء وعيهم الطبقي. وهم عجائز أيضاً، بسبب الاستحالة التي يعانون منها، أياً كان العمر، ألا وهي استحالة التأقلم ذهنياً مع التجهيزات الجديدة للعمل التي زُوّد بها المشروع. لقد أمضى العمال المختصون 15 عاماً على سلسلة الإنتاج، فهم حتى لو كانت أعمارهم في الـ

32-35، يعتبرون إلى حد ما عجائز كثيراً «في داخل رؤوسهم»، عجائز بالأساليب التي تغلغلت فيهم والتي يعانون للتخلص منها في هذه الأيام، كي لا يشعروا بأنهم منبوذون من «الحداثة». فكأنهم مضطرون للنضال ضد أنفسهم، ضد «ردّات الفعل» التي اكتسبوها تدريجياً. جميع الذين أخذوا مواقعهم الاجتماعية ضمن «ثقافة المعارضة» التي كانت ثقافة الورشات الكبرى العامرة بالعمال المختصين، الـ OS، في السبعينات[4] وجدوا أنفسهم كذلك وقد «شاخوا» سياسياً بسبب تدهور قيمة الآمال والمثل العليا، وبسبب زوال بريق المعتقدات التي كانت تدعمهم في مقاومتهم لنظام المصنع، وبسبب هذا التاريخ المشترك الذي يتفكك ويتحلل، وباختصار، بسبب تفكيك ترابط الجماعة العمالية. أما ما تداعى بنيانه فهو الطريقة التي كان هؤلاء العمال قد بنوا على أساسها، داخل حياة الورشة، سمعتهم وشهرتهم أي، بالتالي، الجانب الإيجابي من صورتهم الخاصة.

لقد عانى الشباب المؤقّتون الأمرّين لإيجاد عمل من بعد خروجهم من المدرسة؛ فقد خضعوا لدورات تدريبية، وأمّنوا «عقوداً صغيرة» في الأعمال المؤقتة، مع فواصل من فترات بطالة. هم دائماً بانتظار وظيفة ثابتة وسكن خاص بهم. ونظراً لأن دخولهم إلى سوق العمل (وإلى حياة البلوغ) كان دائماً موضع تأجيل إلى وقت لاحق، فقد رأوا في «المصنع الكبير» الموجود في سوشو فرصة تكاد تكون وحيدة لانتزاع عمل ثابت. لهذه الغاية، كان الكثيرون بينهم قد جاؤوا من مناطق بعيدة (من مناطق تهيمن البطالة الطويلة الأمد فيها على العديد من الشباب، كالشمال والبروتاني على سبيل المثال). وهم لايرون في العمال المختصين الذين يشتغلون إلى جانبهم جماعة متحدة ومتضامنة- جماعة «قوية»، وإنما يرون فيهم جماعة متفككة، وأناساً متعَبين، مستهلَكين، محطمي المعنويات، عجائز قبل الأوان، «نقّاقين»، «يسيئون التصرف» في الشغل (وهو موقف قد يصل حتى التخريب)، في حين أنهم، من جانبهم، متعطشون لتقديم براهينهم، لبيان ما هم أهل له

---

[4] ارجع إلى «حوليات بيجو»، بحوث في العلوم الاجتماعية، س.كورروج و م.بيالو، 1984-1985

ويسعون لزيادة «النقاط الجيدة» لتأمين التثبيت من بعد عقدهم المؤقت. فيحاولون «القيام» على خير وجه بالعمل في مواقعهم ويحتفظون بعلاقات جيدة مع رؤسائهم الذين «يحمونهم» من وكلاء العمل (وكالات المؤقت). ولا يشعرون بالتالي أن عليهم الالتزام باحترام التقاليد السائدة منذ فترة بعيدة في الورشات، ويمكنهم الانعتاق من العرف والعادة (مثل عادة الكحول). ولا يوليهم «القدامى» أي اهتمام خاص، باستثناء قلة من المناضلين يأتون، فيما يقولون، ليحاولوا بيعهم هويّة (أمّا هم فيشعرون بالاعتداء عليهم عن طريق هذه «المبازرة» التي تبدو لهم شبه فاضحة). هؤلاء الشباب المؤقّتون (الغريبون على المنطقة وعلى «ذهنية بيجو») لم يشتغلوا سوى فترة قصيرة جداً عند بيجو فلا يمكنهم فهم طبيعة العلاقات المعقدة القائمة في الورشات؛ كما يجهلون كل شيء حول التاريخ الذي صاغ اختلافات المواقف، والانقسامات، والعداوات والكراهيات، والجروح، والندوب، وحتى الاختلافات بين النقابات واستراتيجياتها. فما كان في صميم حياة المناضلين، ما كان يشكل مبدأ هوية لا يتزعزع، يبدو في أنظارهم وكأن لا وجود له. حتى أن جميع عمال القطاع يُعتبرون «بالجملة» تابعين للجيل نفسه، جيل الناس الذين واتاهم الحظ «فعاشوا حياتهم كلها في المصنع».

وهكذا، فالتعايش في مواقع العمل نفسها بين «عجائز» العمال المختصين و «الشباب» المؤقّتين كان بمنزلة الدليل الذي أظهر مواقف سوء التفاهم البنيوي المتبادلة. فمن جانب، كان «العجائز» يرون في المؤقّتين مجرد «شباب» يُسقطون عليهم رؤية شبابهم الخاص («اللامبالاة» و«التمرّد») علماً أن هؤلاء «الشباب» يعيشون قبل كل شيء الخوف من ألاّ يمكنهم أبداً الارتباط بسوق العمل، كما يسيطر عليهم هاجس وشبح «الاستبعاد». حينذاك «شعر» العجائز الذين تربّوا على ثقافة النضال أنهم لا يستطيعون تقديم أي شيء لهم من معرفتهم ومن خبرتهم «السياسية» كما اكتشفوا أن الخيط الواصل بين الأجيال العمالية في المصنع كان مقطوعاً. خلال تلك السنوات من الأزمة وعدم التوظيف العمالي، انتشر في

المنطقة اعتقاد ما، «إشاعة»؛ مفاده أو مفادها أن المصنع لن يوظف على الأرجح بعد ذلك التاريخ في وظائف ثابتة إلا من كان لديه على الأقل: بكالوريا + سنتي دراسة بعدها. وقد أصبحت حيازة الشهادات العليا اليوم من الأمور اللازمة وأصبح وعي هذه الحقيقة قوياً بشكل خاص (فتكاد الدراسة تقاس بعدد السنوات بعد البكالوريا) فكانت النتيجة الموضوعية، باتجاه معكوس إلى حد ما، النظر إلى العمال القدامى الذين دخلوا المصنع دون شهادة، «بلا شيء»، على أنهم أناس «أصابهم حظ». ويمكن القول إن تصعيب المنافسة الدراسية وعدم جدوى الإعداد المهني القصير الأمد (BEP, CAP)، كان من نتائجه أن الشباب القليلي أو المعدومي الخبرة (وخصوصاً منهم من اصطدم بالقرارات الباترة لسوق العمل المحلي أو القومي) مالوا إلى بناء تصورهم لجيل القدامى في المصنع، بالمقلوب، (وهذا الجيل هو بالنسبة لكثيرين جيل أهاليهم) فهم جيل لا همّ لديه وربما هو جيل «سعيد»، وذلك لمجرد أنه نجح في الماضي بالحصول بسهولة على عمل. هذا التصوّر «اللاحق» لجيل الآباء يعزل عملياً لحظة واحدة من مسيرتهم المهنية، ألا وهي لحظة دخولهم إلى سوق العمل، ويتجاهل مجموع الضغوط التاريخية التي خضع لها أيضاً أناس ذلك الجيل (كأبناء الفلاحين مثلاً الذين هربوا من عمل الأرض للوصول إلى خيرات ومسرّات «المجتمع الاستهلاكي»).

أما المؤقّتون، وعلى وجه الخصوص أبناء منطقة سوشو، الذين ما كانوا يتمنون التثبيت في بيجو، فقد تولد حيالهم انطباع لدى قدامى العمال، بمواقفهم (كثيرون منهم يعملون وسماعات الراديو على آذانهم، بالكنزة القصيرة، دون السترة الزرقاء، وهم «يتكلمون كثيراً ويعبّرون أحياناً عن رفض ظاهر للتواصل مع زملاء العمل) أو بطريقة ازدرائهم للعمل وللحياة في المصنع، أنهم لا يحترمون العلاقات الاجتماعية الراسخة على امتداد فترة طويلة في الورشات (أضف أنهم لم يتعلموها ضمن الظروف نفسها) وأنهم يتصرفون «كعمال عابرين». علاقة هؤلاء الشباب بالعمل، وهم يعلمون

أنهم عابرو طريق، قوامها الانعزال وما يشبه الاستخفاف («لجهنم»)، فهم في ذلك على تناقض كامل مع صورة العامل، تلك الصورة التي صاغتها الحركة العمالية الفرنسية، تلك التي كان المناضلون يجسّدونها إلى حد ما، صورة المنتج، خالق «القيمة»، المتحلّي بشرف ونبل العمل الصناعي، بقيم التضامن والتفاني في سبيل الطبقة، كل ما كان يدفع للنضال من أجل وباسم هذا «المفهوم المجرّد»: «الطبقة العاملة». وما كان المناضلون النقابيون أو «العمال العجائز» يرونه في هؤلاء «العمال العابرين» -ذلك النوع من «الخفة » في سلوك بعضهم- كان يبدو شبه معادٍ لما يتطلبه الانتماء إلى الطبقة العاملة مثل «المظهر»، و«الكرامة» العمالية التي بنيت على ما هي عليه بدأب ولفترة طويلة بالنضال النقابي والسياسي، في وجه الأشكال المسيطرة للتصور و«المحتقِرة» للطبقات العمالية. إن ظهورهم المباغت في الورشات جعل العمال القدامى يدركون أن فاصلاً ثقافياً لا يمكن إلغاؤه قد امتد بين الأجيال العمالية. وزاد من ألم التشكيك بالهوية العمالية أنه تشكيك قادم من «الداخل» ، من الوضع العمالي نفسه، بل هو في بعض الحالات، من أبنائهم بالذات. وهكذا، فـ «الشاب الهش» ، في نظر الكثيرين من عجائز العمال المختصين، هو ذاك الذي لا يمكن التفكير به على أنه «عامل» حقاً بالمعنى الذي يجعل من تلك الصفة التزاماً أساسياً بفكرة النضال، والتاريخ، والكفاح والأمل السياسي والجماعي، فهو ذاك الذي لن يكون أبداً من المناضلين.

إن الخبرة المهنية لهؤلاء الشباب العابرين ومصيرهم، قد برهنا بشكل من الأشكال للكثير من عمال المصنع، أن من الوهم الكبير، من الآن فصاعداً، الاعتقاد أن بإمكان أبنائهم الدخول إلى المصنع دون «زوّادة» ، كما بيّنوا أن الرهان على تحقيق اندماجٍ مهنيٍّ مستقر بالطريقة التقليدية للتعليم المهني (CAP أو BEP) مغامرة غير مأمونة. كان عليهم القيام بالنقيض: «الاستثمار» بالدراسة الطويلة الأجل: فالحد الأدنى الذي تبدّى لهم هو ضرورة انتزاع شهادة BTS للحماية من البطالة (وهذا ما دفع عدداً من أبناء

العمال في المنطقة إلى تفضيل الدراسة الطويلة الأجل في ثانويةٍ عامة على الدراسة في الـ LEP، التي يقضونها وكأنهم في منفى اجتماعي).

اكتشف معظم المناضلين أنهم ليسوا أفضل تسليحاً بكثير من بقية العمال في مواجهة الضرورات الدراسية. ومن هنا خوفهم، مثل باقي العمال، حيال المستقبل الدراسي والمهني لأبنائهم، وهو خوف يزداد تفاقماً أكثر فأكثر بسبب نوع من كراهية المصنع الذي خيّب آمالهم كلها. فاكتشف قدامى العمال أنهم قد لا يتمكنون من نقل أي شيء إلى أبنائهم مما ناضلوا في سبيله لفترة طويلة، وأن خبرتهم تلك خاصة بهم وغير قابلة للنقل، وهي خبرة تجهلها (المدرسة) بل وتدوسها أحياناً (من المعلوم الاهتمام الذي توليه الكثير من المناضلين لتعليم التاريخ، وللموقع الذي يجب أن يكرّسه للتاريخ السياسي للطبقة العاملة). والطريقة التي يتحدث بها بعض العمال عن أبنائهم لها دلالتها بصدد العلاقة القلقة، المتوترة، المترددة، التي تسود بين كثير من العمال القدامى المختصين وبين المدرسة: فهذه العلاقة خليط من الخوف (الخوف من أن يتوقف فجأة «نجاح» أبنائهم دراسياً وهو نجاح غير مؤكد ويمكن أن ينقلب رأساً على عقب)، والتوتر الشديد (ضرورة عدم التخلي أبداً عن الجهود، وخاصة تلك الهادفة إلى استبعاد العلاقات السيئة لأبنائهم)، والأمل. ويزيد من وطأة هذه العوامل أن الكثيرين منهم لا يقدرون على تقديم كبير «مساعدة دراسية» لأبنائهم، ودع عنك أنهم، بشكل من الأشكال، قد ينقلون إليهم كراهية المصنع. فيبدو المحيط المدرسي كعالم لا تسود فيه روح التضامن الجماعي، عالم لا يكفي فيه إنشاء «علاقة توازن قوى مناسبة» ، كما هو وارد في قاموس المناضلين من التعابير.

والمناضلون الذين واجهتهم في المصنع مواقف ذات طابع مدرسي، أو مواقف تخويف رمزي (المفاوضات مع إدارة العاملين، المناقشات مع ممثلي الدولة، اجتماعات لجنة المشروع، الخ..) قد «جرّبوا» أهمية السيطرة على طريقة الكلام، والسلاح المتمثل في مختلف أشكال الاطلاع الثقافي، كما جرّبوا، على العكس من ذلك، الثمن الغالي الذي دفعوه أحياناً -بالإهانات،

والتخويف، والعجز، أو الغضب المكظوم، خصوصاً في المواقف «الرسمية» بسبب «أميتهم الثقافية» -نسبياً- والجهد الذي توجّب عليهم بذله ليعودوا إلى «ساحة المعمعة»، فمثلاً بخصوص المطالعات المتعلقة بالحياة النقابية (قانون العمل، النصوص القانونية، فهم الآليات الاقتصادية الأساسية والإحصائية، الخ.) فهم اليوم يدركون أن «ضرب البوز» في مواجهة رئيس العمل، واستراتيجيات «التغيير الرمزي» أمور ما عادت «تمشي».

لم يعد بإمكان العمال القدامى أن ينقلوا سياسياً أي شيء إلى أبنائهم إلا ما هو سلبي -العداوة مع بيجو، كراهية رؤساء العمل، «احتقار» الزملاء من «جماعة الفاصولياء» قديمهم وجديدهم، خيبة الأمل تجاه بلدان أوروبا الشرقية والشيوعية الحقيقية، الخ. ونلمس لديهم الإرادة، عبر أبنائهم، في قطع الصلات مع عالم (محيط المصنع والعالم العمالي) خيّب أملهم في الصميم وجرحهم، وفي محاولة إيجاد (كما لو بالوكالة) مصير خاص مختلف أو آفاق جديدة، راغبين في أن يروا في «صغارهم» ما كان يمكن أن يكونوا عليه (رياضي ممتاز، موظف ممتاز)، كل شيء باستثناء ذلك العامل المستهلَك والخائب الرجاء، والذي ينتهي به الأمر، ربما، إلى أن يكره نفسه بالذات لأنه أصبح ما هو عليه.. كما لو أن العنف الذي يحملونه في أنفسهم -العنف المدمّر الذي يدفعهم إلى الانعزال عن الآخرين- يجد تهدئة نسبية ومؤقتة في استحضار أبنائهم ومستقبل أولئك الأبناء.

ميشيل بيالو

العامل القديم والمصنع الجديد

عندما وصلنا، كريستيان ك. وأنا[1]، إلى د.، القرية التابعة لمنطقة ساون العليا على مسافة 50 كيلومتر تقريباً عن سوشو، حوالي الساعة الثالثة، عصر يوم من تموز 1990، كان جيرار -الذي يعمل في «الفترة الصباحية» للمصنع -بانتظارنا في الحديقة المحيطة ببيته الصغير: كان يقلب بمعزقه مربعاً من تراب الحديقة، عاري الجذع، لاما يغطي جسمه سوى سروال قصير. جيرار عامل فني متخصص في مصنع سوشو منذ 1965. وهو يناهز الخمسين من عمره ويعمل في ورشة الإنهاءات منذ ما يقارب 15 عاماً: ورغم استلامه لمسؤوليات عديدة فقد استمر دائماً «في السلسلة»، «على الخط الإنتاجي». ولما انتصب لاستقبالنا لفت انتباهي بنيانه المتماسك وقوته والحيوية الهادئة المتدفقة منه، فغالباً ما أرى عمال المصنع هرمين، مستنفدي القوة -كأنهم أعمر، كما يقال- بخمسة أو عشرة أعوام مما هم عليه حقيقة؛ أما هو فبدا لي أفضل حالاً من كثيرين، وأنه قاوم استنفاد المصنع للقوة البشرية.

تبادلنا الجمل التقليدية حول «حلاوة» العمل في الحديقة، وإرهاق

---

[1] كريستيان كوروغ عامل متخصص في مصنع بيجو سوشو ترافقتُ معه في العمل طيلة الثمانينات، وتعاونتُ معه في إصدار «يوميات بيجو» في دورية «تقارير البحث في العلوم الاجتماعية» من 1984 حتى 1986.

العمل في المصنع. يعمل جيرار في سوشو فيمضي إلى هناك يومياً، في سيارة تابعة للمصنع. تستمر الرحلة قرابة الساعة. ولا يستخدم سيارته (بيجو 405) إلا في حالات نادرة جداً. (المنطقة بأكملها منذ عقود عدّة مؤمنة في جميع الاتجاهات بشبكة سيارات نقل تنطلق، منذ الثالثة أو الرابعة صباحاً، على الطرقات. في الوقت الحالي، تضاءل عدد العمال. ولكن الإدارة حافظت على الخطوط القديمة لسياراتها). وطفنا حول البيت الصغير (خمس حجرات، قبو كبير...) بخطى وئيدة ونحن ندردش، وتناولنا بالمزاح ترتيب الحديقة: فهناك زهور كثيرة، مع نباتات زينة نائية على الأطراف، ثم مساحات صغيرة مزروعة بالخضار. وشرح لنا جيرار كيف ولماذا عمل على بناء هذا البيت في 1973، بُعيد زواجه بقليل: كان العمل في شركة بيجو يعطي شعوراً بالطمأنينة، وكانت فوائد الاقتراض غير مرتفعة، عدا عن أن الأرض لم تكن غالية الثمن -«تقريباً بالمجّان» - بفضل «دهاء» عمدة القرية، الـ «شيوعي» ، الـ «خبيث العتيق» الذي لم تخنه الحيلة يوماً والذي عرف كيف يحصل على حجوزات عقارية لقريته في الوقت الملائم. وأضاف -كان يتكلم ببطء، بصوت مكتوم إلى حد ما، دون أدنى حماس، حيث يظهر أحياناً بعض التهكم، كما لو كان يريد إيجاد مسافة ما تفصل بينه وبين أسئلتنا.. - أنه لم يكن لديه في يوم من الأيام كبير ميل للعمل الزراعي، وأنه ينصرف إليه عرضياً في الصيف (مساعدة، «يميناً أو يساراً»، يقدمها إلى هذا الجار أو ذاك القريب). يسكن والده على مقربة، لكنه لم يعد يعمل في أراضيه التي سلمها تأجيراً إلى أحد الجيران. (يدل بحركة من يده على البيت القديم للعائلة. وعلى امتداد الحديث يشير بإصبعه إلى البيوت العديدة العائدة لأصهاره، أبناء الخال والعم، أهل الزوجة..) توقفت قليلاً بإلحاح عند هذه المسألة: ألم يكن هذا العمل «الجانبي» ممكناً باعتباره مثل ساعات إضافية تضاعف ساعات العمل في المصنع؟ كلا، حقاً، «لم يشعر أبداً بإغراء من هذا القبيل». على أي حال «هذا شغل ما عاد ممكناً». فالعمال الذين كانوا يحاولون «الصمود» في المصنع مع العمل في مزارعهم اضطروا للتراجع الواحد بعد الآخر. («كان لي زميل يقوم بالعمل الجانبي،

لكنه وصل أخيراً إلى مرحلة كان لا بد له أن يختار إما هذا العمل أو ذاك، إما المصنع أو المزرعة»). فاليوم، الناس «مرهقون فوق الحد». أما من جانبه، فالانشغال الوحيد هنا، في القرية، والذي ينصرف إليه بصورة منتظمة هو قطع الحطب، في الأحراش الملاصقة، وهو احتطاب منظم حسب العرف المتوارث، حيث يكون العمل جماعياً، «ما بين الأصحاب»، وهذا العمل يوفر له تدفئة بيته طيلة الشتاء («الشتاءات قارصة البرد، ولولا الاحتطاب، لأسباب مالية، ما كان بالإمكان توفير الدفء»). ثم أضاف «أحتطب لنفسي، أقوم شخصياً بإصلاح الأعطال المنزلية، أشتغل حديقتي، لكن هذا العمل أقوم به من أجل نفسي دون سواي، فلا أعمل إلا ما يروق لي..» أما هوايته، فالصيد. وعندما قدّر لنا أن نودّع بعضنا، بعد مضي ثلاث ساعات، حوالى السابعة مساءً، استرسل جيرار في وصف غني بالألوان لما يقوم به من صيد: جولات الصيد مع جيرانه وأصهاره، مطاردات الخنازير البرية حيث يُستنفر جميع رجال القرية.. في لحظته الراهنة يفضل أن يشرح (لكن بمواربة، ودون إلحاح زائد) التعب الذي بدأ يسيطر وصعوبة ترميم القوة الجسدية بعد أيام العمل: «منذ سنتين كنت أعود إلى البيت، فأقوم بالإصلاحات المنزلية، أصطاد السمك، أذهب إلى الأحراش للاحتطاب. ما كان من مشكلة. أما الآن، عندما أعود، لا تراودني أية رغبة على الإطلاق في أن أقوم بأدنى عمل...»

جيرار صاحب قديم لكريستيان.. تعارفا منذ عشرين عاماً وتربط بينهما ذكريات كثيرة مشتركة. حين وصول كريستيان إلى المصنع، عمل في فرقة جيرار نفسها، في قسم الهياكل. وأخصّ ما في علاقتهما أنه تدرب على النضال إلى جانبه في 1969 عندما كان المصنع يعجّ بالعمال الشباب والمقاتلين. «هذا الأمر أوجد روابط متينة.» وقد التقيا فيما بعد مراراً وتكراراً: في الورشات أثناء «الاستراحات»، في المقاهي القريبة من المصنع أو في الاجتماعات النقابية. لكن كريستيان لم يزر جيرار أبداً في قريته: «هذا زميل في المصنع» وليس زميل «حي» أو «قرية». والاختلاف بين هذه الحالات له أهميته. كثيراً ما حدثني كريستيان عن جيرار خلال عامي 83-

84، حالما بدأنا نعمل سوياً... في نظره، يمثل جيرار «العامل الفلاح» النموذجي، الغارق كلياً في شبكات الحياة المحلية، الذي يتمتع بأوقات فراغه كفلاح، فيصطاد الطرائد، ويصطاد السمك... هو يجسّد نموذج حياة تسحره، حياة تقف على نقيض كامل مع ما هو قائم في الكتل الإسمنتية المتراصة للأحياء العمالية (HLM: السكن ذي الإيجار المعتدل) حيث يُحكم على العمال القادمين من مناطق أخرى أو من بلدان أخرى، مهاجري الداخل والخارج أن يعيشوا. وفي الوقت نفسه، فإنّ ما يميز جيرار في نظره، هو كونه من «الحمر»؛ هو ابن وحفيد فلاح، لكنّ خانته السياسة تنسبه إلى منطقة «حمراء» منطقة منجم رونشان والقرى العمالية المحيطة به، منطقة صغار الفلاحين الذين هم منذ القديم من ذوي الميول الجمهورية المعادين للكهنوت على مدى حقبة طويلة، وهي منطقة تأثرت بشدة أيضاً بذكريات المقاومة للاحتلال النازي، حيث تكثر وتنشط البلديات ذات الانتماء الاشتراكي والشيوعي.

وبالفعل، فإنّ جيرار يوصف بأنه «أحمر» في داخل المصنع وخارجه على حد سواء. لقد ناضل طويلاً في صفوف الحزب الشيوعي ومارس فيه مسؤوليات رفيعة نسبياً وما زال يعتبر نفسه شيوعياً «حقيقياً»، رغم أنه كف عن الحصول على بطاقته الحزبية في نهاية السبعينات. وكان وما يزال منظماً في النقابة العمالية CGT، فهو من النواة التي تضم المناضلين والمندوبين القدامى الذين تتحلّق من حولهم وتتبلور مقاومة نظام العمل في المصنع. هو منخرط بالكامل في الشبكة النضالية، وهناك يجد أصحابه الحقيقيين. مع ذلك، لم يحظ أبداً بالانتخاب ممثلاً عنهم. يحضر اسمه غالباً بين مرشحي نقابة CGT للانتخابات الداخلية DP وفي لجنة الصحة والأمن الصناعي (CHSCT)، لكن دائماً في وضع عدم إمكانية انتخابه.

بعد انتهاء جولتنا حول بيت جيرار، تناول قميصاً ولبسه، ثم جلسنا في المطبخ: عصري، حسن التجهيز، مفروش بخزانة للصحون والفناجين وبكراسٍ «بسيطة» (المفروشات القديمة التي سوف نتحدث عنها ظلّت في

بيت الأهل. قدم إلينا جيرار قهوة وقطعاً صغيرة من الحلوى. وقد نهض أكثر من مرة كي يجلب ثبوتيات: بيان راتبه، الرسالة التي وصلته لحظة حضوره إلى دورة مورفيلار (دورة مدتها ثلاثة أسابيع، مخصصة للعمال القادمين للعمل في المصنع الجديد لبخّ الهياكل)، منشورات نقابية احتفظ بها... زوجته (الموظفة في إحدى دوائر البلدية) جاءت في نهاية فترة العصر، لكننا لم نتبادل معها سوى كلمات قليلة؛ لم تشترك فعلاً في الحديث لأننا كنا نتحدث عن المصنع: يشعر الإنسان بهذا الصدد أيضاً بمدى عمق القطيعة بين عالم القرية وعالم المصنع.

يعلم جيرار أنني أعرف كريستيان منذ سنوات، كما أنه سبق لنا أن تلاقينا منذ عامين أو ثلاثة أعوام خارج المصنع في يوم إضراب عن العمل، حينما غادر المضربون الورشات وتلاقوا في المقاهي القريبة من المصنع.

كريستيان هو الذي اقترح وحضّر هذا اللقاء. دون أن تكون لدى جيرار فكرة محددة عن المواضيع التي نتحاور معه بصددها، قدّر أننا قبل كل شيء نريد الحصول على «شهادته» حول ورشة الإنهاءات، حول التغييرات الحاصلة هناك، مشقة مراكز العمل، الزخم الكثيف للإنتاج، «تنفيذ العمل في آخر لحظة»، الخ. ويعلم أيضاً أننا نتمنى التحدث عن «الدورة» التي بدأها في مورفيلار والتي صُرف منها بعد مضي أربعة أيام. لكنه بالتأكيد لم يفكر بأن الحديث سوف يتّخذ طابع «الاعتراف» و«المكاشفة»، وأننا، على سبيل المثال، سوف نتحدث دفعة واحدة ودونما تمهيد عن علاقته بـ «السياسة»، وهو موضوع يُفضل، على الأقل في البداية، أن يظل بصدده «متحفظاً». على أنه يعرف في الوقت نفسه حق المعرفة كريستيا نـ... (ـه)، ويشعر بغموض أنه لن يستطيع التملص من النقاش حول المواضيع «السياسية»، التي لا يريد بكل تأكيد الخوض فيها أكثر مما يجب.

وبالفعل، فإننا لن نتجرأ أن نطرح بعض الأسئلة الشديدة «الخصوصية»؛ وأسئلة أخرى لن نتمكن من تناولها بالنقاش إلا عندما سوف

نتحاور -بعد توقيف المسجلة- حواراً كاملاً، في المطبخ ونحن وقوف، أو عندما سوف نستمر، بعد اجتياز العتبة، في تبادل الحديث لأكثر من ربع ساعة في ممر الحديقة.. لم يكن مقرراً في التفاهم الضمني الأولي أن يتحدث جيرار عن خصوصياته، أن يتكلم عن نفسه. لكنه سرعان ما تعرّض بالحديث لوالده، المناضل الشيوعي النشيط، المشارك قديماً في المقاومة، المستشار لفترة طويلة في بلدية القرية («أنا تربّيت في وسط المقاومة، والدي، وجدي شاركا في المقاومة.. جدتي كانت تخبز الخبز من أجل المقاومين»). كان لوالده مزرعة وكان يمكن اعتبارها منذ ثلاثين عاماً مضت استثماراً «متوسطاً» لكنه لا هو ولا أخوه (الذي أصبح فنياً في المصنع) لم يفكرا يوماً بمعاودة العمل فيها («عندما رأى أن أحداً لا يريد الاستمرار في الزراعة، لم يستثمر. لم يوسّع المساحة.. وأُجّرت الأراضي». كان والدا جيرار قد «دفعاه» «للقيام بالدراسة»، على أمل أن يصل إلى الحلقة الثانوية. لكنه هجر الدراسة في الصف التاسع («ما كانت حالتي ماشية كما يجب، وكنت أرى الأصحاب الذين بدأوا يشتغلون، فأنا..»).

بعد الخروج من المدرسة، وجد عملاً في مصنع نسيج يقع على بعد كيلومترين من بيت والده لكن الرواتب فيه كانت متدنية جداً. («كان لدي إمكانية في أن أصبح رئيس ورشة»). قرر حينذاك مغادرة المصنع ليتحول إلى سوشو. في تلك الفترة، كان راتب العامل غير المختصّ في بيجو أعلى بكثير (من 30 إلى 40٪) من راتب العامل المحترف أو حتى حامل الشهادة في معظم مصانع المنطقة. العمل في مصنع بيجو آنذاك كان مما يُحسد عليه. كما كان التوفيق يبدو ممكناً تماماً بين أسلوب النضال السياسي «الصلب» وبين تأمين صيغة ما للارتقاء وظيفياً.

وتطرّقنا أكثر من مرّة في حديثنا معه إلى مسألة ولديه ومستقبلهما المدرسي والمهني. فتلك قضية ملتهبة وموجعة تثور ولا مجال تقريباً لتجنبها كلما دار الحديث عن مشاكل مَستقبله الشخصي، ومستقبل المصنع. هو خائف على ولديه (الأول في الثاني الثانوي بعمر 17 عاماً والثاني في الأول الثانوي

بعمر 16 عاماً) من أن يفشلا في الثانوية، فيستقر بهما الحال مثله، في المصنع، في العمل اليدوي، وكان ذلك الخوف يطفو باستمرار على سطح أحاديثنا. علاقته بالمستقبل مبنية أيضاً عبر مستقبل ولديه. «لا بأس بدراستهما»، قال مبتسماً، لكنه لم يجرؤ على التقدم بعيداً في موضوع لا يسيطر عليه، وفي نفسه خشية من أن يخبئ له المستقبل في هذا الميدان مفاجآت غير سارة. ولعل أكثر ما يثير الدهشة الكيفية التي فسّر من خلالها لماذا بذل كل ما في وسعه كي يجنبهما الدخول إلى التعليم المهني الذي يبدو له تعليماً لا قيمة له ولانهاية له إلا العمل في المصنع -كما لو كان يُسقط على مجمل العالم الصناعي المقت الذي يحمله، هو شخصياً، حيال مصنع بيجو.

في الوقت نفسه -وهنا أيضاً يتوضح التباس علاقته بالمصنع، الذي هو موضوع كراهية، لكنه أيضاً، بمعنى من المعاني، موضع حب ترتبط به بعض أغلى الذكريات وأقوى العواطف في حياته-كرّر أكثر من مرة أن أقوى أمنية لديه هي أن يأتي ولداه ليعملا في المصنع، بصفة «طلاب مدرسة» أثناء العطلة الصيفية. ويعني هذا في نظره نوعاً من التعليم السلبي، ليلمسا لمس اليد حقيقة المصنع، ويتبيّنا لماذا يجب الهرب منه-، لكنه يورد في الوقت نفسه يمرر ضمن كلماته رغبته في أن يُفهم ولديه ما كان يعني عمل العامل الفني، لماذا استهلك والدهما، لكن، أيضاً، كيف طوّر فيه مواقف المواجهة والقتال التي هي، في نظره، منسجمة وعظيمة -وهي أمور يستشعر أنه لن يفهمها بعد اليوم إلا النفر القليل؛ قال «أود من كل قلبي أن يدخلا إلى المصنع، حتى لمدة شهر واحد، ولكنهما من جانبهما يرفضان؛ على أنهما لو استمرا في الاستيقاظ لمدة شهر كامل منذ الثالثة صباحاً، إذن لتغيّرت الموسيقى التي يرغبان في سماعها...».

فور تحلّقنا حول طاولة المطبخ، وكما لو كان يرغب في تبديد الحرج السائد، تمركز جيرار كلياً حول الحنين إلى الماضي والتصادم ما بين عصرين، وتوجه بالحديث إليّ، ناظراً نحو كريستيان: «ذاك، أنا من دربّه». فأجابه كريستيان مثل رجع الصدى -وفي تلك اللحظة شغّلتُ المسجلة-:

«هذا صحيح فنحن أمضينا لحظات حلوة معاً، وجميع الذين اشتغلوا معنا في ذلك الوقت يتذكرون لحظاته باعتبارها أفضل لحظات حياتهم...»

حال تبادل الجمل الأولى، بدا لي مثيراً للاهتمام أن الأفكار الكبرى الثلاث أطلقت مذ ذاك على الفور- فكرة تفاقم مشقة العمل في خطوط الإنتاج، وفكرة تدهور «الجو الأليف» في الورشات، وفكرة تزايد صعوبة القيام بالعمل النقابي- وهي الأفكار التي سوف تعود باستمرار في حديثنا حتى ختامه.

لدى سماع جيرار وكريستيان يضاعفان من الإشارة تلميحاً إلى شلة «الأصحاب»، ويستذكران بحركة متشابهة «الجو الأليف» حول مراكز العمل، وأشكال وحيثيات« العمل» النقابي (التي كانت متداخلة بعمق مع ممارسات العمل) والعلاقة التي كانت تربطها مع موقف سياسي معين خيِّل إليّ أنني أفهم دفعة واحدة كيف ولماذا أمكن تحقيق انتقال ثقافة سياسية معينة متغلغلة بعمق في شبكة متداخلة من علاقات العمل (التي كانت أيضاً علاقات اجتماعية بين أناس «مجبولين» من تاريخ مشترك) وكيف ولماذا تلاشت تدريجياً شروط هذا التسيّس- أو أنها في طريقها إلى التلاشي.

أما ما يصدم في هذا الحديث بادئ الأمر فهو تلك اللهجة، التي هي مزيج من العنف الملجوم للتحدث عن الحاضر، والمرح الساخر بشيء من الحدة حين التحدث عن الماضي. ويصدم أيضاً العزف المستمر على فكرة تدهور علاقات العمل والعلاقة الوثيقة التي تربط بين هذه الفكرة وبين تبدد علاقات الثقة داخل زمرة العمل، وضياع هذه الثقة يحز في النفس كأنه جرح لا يندمل. كان لا مفر في البداية من توجيه الانتباه إلى أشكال رفض المصنع: وهو رفض عنيف- باتر، لا رجوع عنه، ولا محل للتنازل عنه بحال من الأحوال. وهذا الرفض، هو الآخر، هو مثل علامة لجرح باقٍ.

وما لم يكن جيرار يكف عن الحديث عنه، وما كان يورده حيناً بصيغة معاينة موضوعية، وحيناً آخر بصيغة إدانة وتنديد، هو تفكيك النظام القديم للعلاقات الاجتماعية، ذلك النظام الذي احتل مراكز الصدارة لفترة مديدة

في الورشات (حتى في سنتي 86/85)، وكان يوفر قوة ما لـ «الزمرة» العمالية، حيث كان يحتل ممثلو العمال والمناضلون مركزاً بارزاً. وقد وضع دفعة واحدة في صميم شرحه مسألة التجمعات العمالية، وأشكال وجود تلك التجمعات، وصيغ التعاضد الاجتماعي التي كانت سائدة فيها، والطريقة التي كان يُنشر فيها وعبرها بعض العمل السياسي (وكان بالكاد يُفكر فيه على أنه سياسي)، والطريقة التي كان يتيسر من خلالها تبلور، وترابط، وتكامل المقاومة الفردية والمقاومة الجماعية، المقاومة «المعنوية» والمقاومة «السياسية»..

شعرنا لدى جيرار بما يشبه الجرح، خيبة عميقة جداً مرتبطة بالحاضر، لكنها ناجمة أيضاً عن تاريخ طويل. وهي خيبة تَسِمُ النظرة التي يوجهها إلى ماضيه، ومثلها النظرة التي يوجهها نحو مستقبله الشخصي أو مستقبل ولديه. خيبة تمد جذورها أيضاً في ذاك التوجّس بأن الأجيال العمالية الجديدة -المؤقتين- لن يكونوا دعماً، إلا بمعجزة، للأجيال القديمة، وأن أغلب أشكال النضال العمالي القديمة لن يمكن الرجوع إليها لأنها لن تطوّر بما يلائم الأوضاع الجديدة. وكلما التفت إلى الماضي، عاد إلى طريقة تغير وتفاقم شروط العمل في الورشات، منذ عشرة أعوام، وكيف تعاظم الضغط على العمال، حيث استقرت الريبة والوشاية، كيف تم تحطيم انسجام زمر العمل القديمة بنظام المكافآت خصوصاً، كيف انتهى الأمر برؤساء العمل على مختلف درجاتهم، من خلال إعادة تنظيم مجموعات العمل، ومن خلال حتى محاولة خلق تجمعات جديدة كيفما اتفق، إلى إقصاء ديناميكية الحياة الاجتماعية في أفضل الاتجاهات تلاؤماً مع مصالح أولئك الرؤساء. يبدو أن في ذلك ما يشبه حلقة مفرغة. لا يمكن القضاء على الذاكرة. وما يوضح ويقولب منظوره الخاص للعلاقات الاجتماعية في الورشات اليوم وما يعطي لوناً قاتماً لرؤيته للمستقبل معاينته لما آلت إليه آمال الماضي، خصوصاً السياسية منها، والكيفية التي تزعزعت فيها روابط الثقة القديمة. كما أن معاينة ذلك الفشل تتعكس أيضاً بشكل من الأشكال

على الماضي، فيتشجع موجهاً دفته نحو ما يشبه السخرية أو المرح الأسود الذي كثيراً ما يتوجه إليه هو ذاتياً.

وإذا كان العنف موجهاً ظاهرياً بادئ الأمر إلى «الآخرين» -زمرة قدامى الأصحاب، أبناء جيله-، فلا يمكن الامتناع عن التفكير بأنه أيضاً في جانب منه يحمل طابع التدمير الذاتي، وأنه يمكن دائماً بصورة من الصور أن ينقلب متوجهاً إليه هو شخصياً. ففي نهاية المطاف، إنّ زمرته القديمة، زمرته ذاتها (تلك التي كان عضواً فيها، هي)، تلك التي لم تكن على مستوى الآمال التي عقدها عليها.

ويسرد علينا واقعة «صدام» حصل بين بعض العمال في ورشته - هي حادثة من الحوادث التافهة التي يتألف منها نسيج الحياة في المصنع: بضع عمال على سبيل اللهو، تراشقوا على الوجوه بحفنة عزقات، فجُرح أحدهم جرحاً خفيفاً- ونستشف من سرده عنف معاناته حيال الشروط الجديدة للعمل. هو نفسه يرى على وجه الخصوص في هذه الواقعة مناسبة للتنديد القاسي بنذالة القدامى الذين، بغية تلافي «المشاكل» وتضامناً مع جيلهم، تبنّوا وجهة نظر رئيس الورشة فتواطؤا مع ظلم، قليل الشأن، بالتأكيد، ولكنه من جانبه، بنشوئه ضمن التقاليد النضالية، لا يسلّم بترك هذا الظلم يمرّ بسلام... وتبدو هذه الحكاية في حقيقتها بعيدة الدلالة باعتبارها تكشف الحركة التي تقود جيرار إلى الانفصال عن جيله من العمال، أصحابه، عن القدامى الذين، حسب رأيه، يتصرفون كحلفاء موضوعيين للإدارة- يقول «قررت ألا أكلمهم بعد اليوم» -وذلك بغرض التضامن (لكن بالكلام، للحظة عابرة وفي سياق سوء التفاهم...) مع الشباب، أو بالأحرى مع «الـ».. شاب، الذي يبدو له في لحظة من اللحظات الوحيد الذي يقف بسلوكه فعلياً في وجه نظام الإدارة التي تحاول فرضه على المصنع وهو النظام الذي لا يستطيع، على الأقل وفاءً لنفسه، ألا يستمر في رفضه بكل الحزم الممكن.

على أن الوصف الذي قدمه، بعد دقائق، عن موقفه من عمل العمال

المؤقتين، وهم كثيرون في ورشته، يدل على أنه تخلى تقريباً عن كل وهم بخصوص إمكانية أن تدعم معركة الشباب يوماً ما معركة القدامى من أمثاله. فهؤلاء المؤقتون بعيدون عنه كل البعد فيما يشعر، لانخراطهم في محاكمات منطقية شديدة الاختلاف عن منطق عمال المصنع.

ما يتبقى آنذاك، ما يأتي تقريباً «بعفوية» ليحتل مركز الصدارة، هو التعبير عن كراهية عنيفة للمصنع، لرجاله، لرؤسائه، وهي كراهية تغذيها بطبيعة الحال جميع صنوف الإذلال المعانى منها اليوم، والشعور الإجمالي بالخيبة في الحياة المهنية، والخوف من العوز الذي يهدده هو وأهل بيته، مثلما تنميها أمور أخرى أيضاً، بتلك الخيبة الأعمق والأقدم عهداً: بفقدان الأمل المختلف النموذج، الأمل الجماعي الذي لم يقبل أبداً أن يتخلى عنه كلياً والذي لا يمل من رثائه.

مع عامل متخصص شيوعي

أجرى الحديث ميشيل بيالو

«ما عاد بالإمكان الثقة بأحد»

جيرار: (...) ما عاد من وقت ضائع، الوقت بأكمله مشغول منذ الدخول إلى المصنع حتى الخروج منه، ما عاد عندك فترات استجماع القوة، ما عاد بإمكانك أن تحقق ربحاً ما في الوقت [التلميح هو للطريقة التي كانوا «يربحون بها ثواني قليلة بفضل «فهلويات العمل»]، ما عاد بإمكانك تبادل النقاش (...) [صمت]. يمكن أن أقول بأن هذا بدأ في عامي 77-78، عندما شهدنا حلول الأسلوب الأمريكي وفق النظام الحديث العالمي.. الأمريكان هم من بدأوا بتنظيف كل شيء، هم من بدأوا توجيه العمل وفق معايير لا حيدان عنها، ومن ثم وصلت تجهيزات قياس الزمن لضبط وتيرة العمل.

كريستيان: فيما مضى، كان المشرف على إعدادك يحدد وتيرة عملك داخل مكتب بالمقارنة مع أزمنة قياسية، ثم من بعد ذلك يحضر فريق قياس الزمن لحساب سرعة تنفيذ المرشح للعمل، فهنا أيضاً، كانت مشاجرات لا تنتهي، لأنهم كانوا في كل مرة يحاولون محاصرتك، وضع بديل عنك، مع مراقب يحسب سرعته بدلاً منك لأنهم يعلمون أنك سوف تسرع إلى المنافسة الزمنية... كما أن المرشحين للعمل كانوا يخضعون لحساب سرعة العمل، لكن الصحيح أن هذا الأمر كان يطرح مشاكل لا تنتهي لأن أحداً لا يحب المشرفين على حساب الزمن، هذه ردة فعل جسدية! وقد ألغوا قياس الزمن،

حالياً، في مكاتب التهيج، فهم يكلفون فنياً بهذه العملية، ويقومون بها مباشرة في مكتب التهيج، لكن العملية لم تعد ضمن الشروط نفسها: أنبوب الهواء لمشدات البراغي، مشكلة الجو المحيط بمركز العمل، فكل هذا أصبح في مركز الصدارة (...).

❖ وبالنسبة لحركات الفهلوة، لأبواب الشطارة التي كانت تسمح بتوفير وقت قليل..؟

جيرار: هذا، علينا نحن تدبير رؤوسنا في هذا المغطس! (...) نعم ثم إن لدينا الآن ما لا أعلم كم من أصناف السيارات.. 23 نوعاً من البيجو 405! وتقريباً 30 من البيجو 605.

❖ وأفترض أن جماعة مكتب التنهيج يسمّون هذا الأمر زيادة الوطأة ذهنياً...

جيرار: نعم، ثم إنهم في هذا الوقت يصنعون جميع السيارات للتصدير، وهذا يعني زيادة القطع التي يجب تركيبها، فهي أفضل صنفاً من السيارات المعدّة لنا، ويجب مبدئياً مراعاة الإيقاع المناسب لأداء مثل هذه الأعمال. ولكن هذا الإيقاع المناسب لا وجود له. مبدئياً، من كل أربع سيارات تكون واحدة منها مخصصة للسوق الأمريكية، لكن في حال عدم توفر هياكل، يضعون سيارتين أو ثلاث من مخصصات السوق الأمريكية على التوالي الواحدة بعد الأخرى. ونظراً لوجود عمل أكبر بكثير في هذه الحالة، ينهار الشباب تلقائياً... يصلون إلى الحد الأدنى في الأداء، فيأتي من يساعدهم لاستعادة الزخم {العامل الذي لا يعمل بالسرعة الكافية يجد نفسه ضمن دائرة عمل العامل الذي يليه على خط الإنتاج؛ يمكن لرئيس الورشة أن ينجده بالمشرف ليساعده على استعادة موقعه في السلسلة الإنتاجية}، عند توافر الطواقم، يكون الوضع هو هو لأنها الحرب المستمرة بين العناصر العاملة. العناصر الآن هي على الصفر: لـ 25 مركز عمل، 25 عامل، نقطة من أول السطر! العمال المتنقلون، العمال المساعدون، هذا أمر انتهى عهده، لكلٍ تصنيفه، لكن لكل موقعه شأنهم شأن المشرفين (...)

❖ أشعر بتشويق في فهم الكيفية التي تزداد بها الإنتاجية..

جيرار: في ورشة الهياكل في المصنع الجديد (HC1)، صحيح هذا جميل في نظر الزائر، كما أنه نظيف... لكن بخصوص شروط العمل والجوّ السائد فأسوأ حتى مما كنا عليه سابقاً. وفي نهاية الأمر، هل هناك حقاً.. الموجود هو الزجاج الأمامي والألواح الجانبية التي أصبح تثبيتها بالرجل الآلي (...).

كريستيان: الآن عندك «زلم» على سلاسل إنتاجية صغيرة... يقومون بجمع التحضيرات اللازمة للواجهة الأمامية، ولديك رجل آلي يقبض عليها ويركبها على السيارة. فأنت، أنت... ترى الجزء الكامل هذا وقد صار أمامك لكن عليك أن تعرف حق المعرفة أن عدداً غير محدد من العمال المساندين يكونون آنذاك منهمكين بالتنظيف والكشف في بداية الخط، وفي الـ «نازا» {قطاع من خط الإنهاءات القديم يطلق عليه تجاوزاً اسم النازا} وفي غيرها يكون أولئك العمال الذين يستنفذون قواهم مع العزقات الكبيرة (عيار7) التي يصعب القبض عليها بسهولة وهم يثبتونها على امتداد نهار عملهم.

❖ يوجد تقسيم جديد للعمل...

جيرار: يربحون كثيراً من جهة الإنتاجية لأن ما كان ينهك ويضني هو تأمين جميع المراكز، والانتقال المستمر من مركز لآخر، الخ.، هنا، في هذا المجال، يوفرون زمناً طويلاً بهذا النظام، فالشاب لديه كل شيء بين يديه.

❖ إذن فهذا لا يغير أي شيء جوهري تغييراً فعلياً، هذا يوفر زمناً لكن مجمل عملية التركيب ما تزال تتم يدوياً...

جيرار: لا يوجد شيء من... في ورشة الهياكل التي أعمل ضمنها، الأمور عندنا من الجودة بحيث لا تنتهي الأعطال!! يوم الأربعاء كنا في المقرّ {النقابي}، وقد حضر حميد... لقد غيّروا موعد الوجبة الخفيفة المقررة، إذ أعلموهم عن حدوث عطل إضافي... في الأسبوع السابق، طالت الأعطال 150 سيارة، ويوم الأربعاء أصاب العطل 100 عربة خسروها، والأوضاع في تدهور موجع، لأنها أعطال مباشرة.

❖ هذه مشكلتهم الكبرى الأعطال في تلك الورشات؟

جيرار: نعم، لم يتمكنوا من حل مشكلة الأعطال، مشكلة الـ.. إنها مسألة تفاقم شروط العمل، أنا لا أعمل هناك، وإنما أنقل ما سمعتهم يتحدثون عنه. (...)

لا حديث لهم معنا إلا عن اليابان

❖ حدثني كريستيان أنك كدت تذهب إلى ورشة الهياكل الجديدة وأن هذا لم يتيسّر. كيف حصل هذا؟

جيرار: لنقل إنني دُعيت، مثل كثيرين غيري، للذهاب إلى الدورة الشهيرة، دورة مورفيلار ولمدة ثلاثة أسابيع. فمنذ اليوم الأول راحوا يتحدثون حصراً عن اليابانيين، عن السيارة عندهم.. لا حديث لهم معنا إلا عن اليابان.. (...) عن ضرورة العمل في زمر جماعية... لأن الرؤساء لم يعد القرار في أيديهم، الرئيس ما عاد له من عمل في الورشة، وإنما العمل للزمرة الجماعية. فمن أجل تحديد يوم القِدم أو العطلة أو الإجازة، الزمرة هي التي تقرر إن كان للعامل أن يأخذ يومه أو لا يأخذه، هكذا قدموا الأمر وعرضوه، الزمرة هي التي تقرر. أما الرئيس ففي المكتب، وما عاد له ما يهتم به: هناك مراقب هو همزة وصل بين الزمرة والرئيس.

❖ واستمروا يضربون ثلاثة أيام على وتر هذه الفكرة الجديدة للعمل داخل الزمرة؟

جيرار: نعم ، وبطبيعة الحال عن الجاهزية وكل شيء! أنا علقت أسطوانتي عند الجاهزية، فقلت إن من غير الممكن أن أحضر في أيام السبت {بعنف} لم أفعل هذا سابقاً، ولن أفعله أبداً. وكان ذلك في الفترة التي كنا خلالها بصدد تدارك الساعة والنصف العظيمة، من بعد الفيضانات، فقلت لـ ج. {المسؤول في التشكيل} «في هذه اللحظة لن أنفّذ الساعة والنصف كل مساء، ففي الساعة 21.30 سوف أنفّذ إضراباً عن العمل!» حينها ردّ عليَّ، «إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أحتاجك في

ورشتي، الله معك من حيث أتيت». لقد تم هذا بسرعة، وكنا في اليوم الرابع (..).

❖ في الواقع، إذا لم تصرح على المكشوف في الاجتماع أنك غير موافق على هذه الطريقة، يتركونك بسلام.

جيرار: نعم، نعم! اليوم الرابع كان يوم جاهزيتهم العظيمة.. يسألونك، «أيام السبت، أنت جاهز؟»-، فإذا قلت «نعم، من وقت لآخر»، فهذا يكفي؛ أما أنا فقلت «كلا»، فكان ذلك ... لأنني شخصياً كنت أعرف مآل الأمور، وفي ذلك اليوم، منذ الساعة 13- أنا استلمت الحديث عن الجاهزية. فقال لي ج. «يكفي، يكفي، سوف نتطرق إلى هذا!» وهنا، كان الموضوع واضحاً، فقال لي «مع السلامة، برّة!».

كلٌ يأخذ ورقة حسابه الشهري

ويتفحصها في زاويته الصغيرة.

❖ (...) وفي زاويتك عندك أيضاً بُدلاء؟ العلاقات معهم، كيف هي؟ لأنهم في الوقت نفسه يمكنهم الحصول على رواتب أعلى 2000 فرنك من راتبك؟

جيرار: الاثنان اللذان بجانبي ذهبا لقبض راتبهما هذا الأسبوع، أحدهما يتقاضى 9.300 فرنك والآخر أكثر من 10،000فرنك. ولكني في النهاية لم أر كشف الدفع... هما قبضا هكذا، لكن لا أعلم كم أعطتهما بيجو حقيقةً! لكن يوجد ثالث يعمل قربنا، فقد أرادوا تثبيته لكنه لم يقبل ذلك؛ هو يعمل هنا بانتظار استدعائه للخدمة العسكرية، ولن يبقى هنا، ولم يقبل التثبيت لأنه يربح أكثر كبديل. لكن لا أعلم كم يقبض كل شهر.

❖ ليس من السهل بعد 20 أو 25 عاماً من القِدم أن ترى زيداً من الناس ينطلق إلى جانبك في العمل نفسه... يكاد العالم أن يكون مقلوباً بالمقارنة مع كل ما كان معروفاً منذ 25 عاماً حيث كان يسود نوع من احترام الأقدمية..

جيرار: إلى الآن ما تزال الأقدمية موضع شيء من الاعتبار.. لكن ما يسبب التفاوت الآن، دون أن نتحدث عن البدلاء المؤقتين، ما يسبب التفاوت الحقيقي بين الرواتب هو المكافآت الاختيارية، فأنا على يقين من وجود من يقبض من هذه المكافآت، 1000 فرنك في الشهر الواحد. لقد مضى على وجود المكافآت الاختيارية قرابة خمسة عشر عاماً، ومن العمال من يحصل عليها مرتين أو ثلاث مرات في العام.

❖ هذا لم يتطور أكثر في هذه السنوات الأخيرة؟

جيرار: الآن مشكلة المشاكل... أن الناس لديهم مكافأة اختيارية، فما عادوا يتكلمون عنها، ومن الصعب أن تعلم. حتى كشوف الدفع ما عادوا يظهرونها، فكل واحد يتناول كشف راتبه ويتفحصه في زاوية منعزلة... فيما مضى لم تكن مشكلة المكافآت الاختيارية موجودة ، فكنا نقارن ما نقبضه للتأكد من عدم وجود غلط... لقد دفعوا لنا اليوم حساب الشهر الثالث عشر. أنا، مزّقت المغلف، قرأت الكشف ووضعته على الطاولة، «هذا ما قبضت»، أما الآخرون، فوضعوه في الحقيبة، ومنهم من لم يفتحه في المصنع «كم كان ما قبضت؟»، «لا أعلم»، هم لا يعلمون، ولا يفضّون المغلّف إلا في البيت.

❖ من قبل، من كان يوزع الرواتب؟ رئيس فريق العمل؟

جيرار: نعم، والحال هو هو الآن أيضاً، سوى أن الرواتب تختفي في مغلفات مختومة. وما أثّر كثيراً في خلق الجو السيء السائد حالياً، هو مشكلة الزيادات الفردية ، فمن أجل 25 فرنك في زمننا، كان الناس مستعدين للقيام بأي شيء، كالوشاية..

❖ لكن هذا الأمر يحصل في جو الانخفاض النسبي للراتب الذي كنا نتحدث عنه منذ قليل على امتداد الثمانينات ...

جيرار: ناهيك عن أن الكشف الذي قدموه إلينا منذ فترة وجيزة عن المفاوضات بشأن الرواتب فيه «زيادة وسطية للمكافآت الاختيارية بنسبة 1،90٪ » وسطية! وسطية، وهي أعلى من الزيادة العامة للرواتب. ترى فكم

عـدد المسـتفيدين مـن وسـطي الـ 1،90٪؟ إذن فـهذه الزيـادة 1،90٪ ليسـت للجميع. وهـذه حـال الزمـرة، فـي حـال وجـود متقـاعس فيـها... لأن مكـافآت سلسلة الإنتاج لم تعد موجودة، الآن المكافأة أسبوعية: 75 فرنك في الأسبوع، شـرط تحقيـق الإنتاجيـة، النوعيـة.. لكن قـد يكون فـي الزمـرة مـن يتقـاعس بلادة وسهواً، فتطير مكافأة الزمرة بأكملها. هـذا رهيب! لقـد رأيـت صاحبـاً يسكن هنـا، وهو يعمل في الخـط الآخـر... هـو مثلـي، ليس عليه أي ممسـك، لكنـه فـي أحـد الأيـام، كـان يحمـل قفـازاً فـي يـد، وفـي اليـد الأخـرى لا شـيء، فطـارت مكافأتـه [روى لنـا حكايـات عديـدة عـن مكافـآت أخـرى «طـارت»]. وعلمت في الأسبوع الماضي بشأن قصة المكافآت، أنـك إذا حصلت علـى يوم عطلة، وفاة، زواج أو ولادة، تطير مكافأتك: لا حساب إلا لأيام العمل الداخلة فـي القـدم المهني.. لكن إذا حصلت خـلال الأسـبوع علـى يـوم عطلـة بسـبب وفاة، فلا أعود مستحقاً للمكافأة، للمكافأة الفردية!

❖ لكن أخطـر الأشـكال هـو مـا يتصـل بـالزمرة العاملـة ككـل؛ عندمـا تضطر الزمرة للضغط في سبيل... فهذا من منطق الأمور... (...)

جيرار: خلال الأيام الأولى في مورفيلار، عرضوا علينا توقيت الـدوام مع تغيبات أحدهم، كان لديه غيابات كثيرة، فهذا مـا يعرضونـه فـي البدايـة: التغيب (..) {مناقشـة بصـدد التغيّـب فـي الورشـات المختلفـة} لقـد اسـتمر التغيب في بعـض الورشـات فمـن الواجـب رؤيـة المواقـع الشـاقة فـي قسـم الهياكل!

❖ نعـم، غـير أن شـيخوخة النـاس الآن بالإضافـة إلـى الإرهـاق، مـن الأمور التي تؤدي إلـى تغيّـب مختلـف عـن ذي قبـل، مرتبـط فعـلاً بـأمراض لا يمكن كبحها...

جيرار: الأمر دائماً متشابه، فالناس لم يمتلكوا الجرأة بعد، ومنهم من يعمل حتى الرمق الأخير لأنهم دائماً حيال مشكلة المكافآت الاختياريـة، لأنـك في حال تجاوز 7٪ من التغيّبات في السنة لا تحصل على مكافآت. أنا عندي تجربتي، لقد بقيت... وقد تناقشنا بهذا الصدد مع أخينا ميشيل [مندوب

العاملين في ورشته] وميشيل هذا نسخة مكررة لا تتغير، لأنه، هو أيضاً، لا يتخلف أبداً... وأنا بقيت عامين اثنين دون أن أتخلف حتى ليومٍ واحد، دون أن أمرض حتى ليومٍ... لم أطلب يوماً الخروج باكراً، ولم أتأخر يوماً، إطلاقاً.. لم يساعدني ذلك في الحصول على مكافأة! فهذا يعني وجود أمر آخر له تأثيره لمنح المكافآت الاختيارية. ليس عندي أبداً أي إنذار حول العمل، لا شيء... لأنني شخصياً أحترم مسألة الشغل... لا أريد أن يحاصروني بهذا الصدد. [بعنف] مسألة الشغل والغياب، لن يكون لهم عليّ هنا أي ممسك! على أن ممسكهم عليّ أفكاري، وغير قليل من «الأمور»... ربما أشتم رئيسي يوماً ما، لكن غير ذلك، لن يستطيعوا أن يحاصروني أبداً. على أية حال، ذات يوم [مخاطباً كريستيان] كان ذاك أثناء وجود ل. هل تتذكر؟ لم أعد أعلم ما حصل تماماً، أظن أنني طلبت يوماً فرفض.. وهو نفسه، كان يسجل مرضاً كي يذهب إلى الريف لترميم منزل هناك.. غالباً ما كان في حالة المرض خلال السنة وكان يحصل على مكافآت اختيارية كما كان ينال كل ما يريد! وقد قال لي حينذاك، «نعم ولكن جنابك لا تأتي إلى العمل يوم السبت!»

❖ هذا هو المعيار الذي كان لفترة طويلة...

جيرار: لكنهم لا يريدون سماع أي شئ عن ذلك، ففي المرة الأخيرة التي كان لي فيها حديث مع رئيسي، حديث الغاية منه أن نحصل على «علامات»، قال لي، «العمل يوم السبت، لا تأثير له إطلاقاً... لا تأثير إلا للإضرابات!»

❖ هذه هي الإشارة الموضوعية بالتأكيد، الارتباط مع بيت بيجو يتحدّد عبر هذا...

جيرار: لو لم يكن سوى، على سبيل المثال، التعطيل البسيط لمدة ساعتين في السنة وينتهي كل شيء! حسناً، دعنا من الحديث عن إضرابات عام89! فليكن معلوماً أن الذين عملوا الإضراب مضى عليهم حتى تاريخه عامين دون مكافآت اختيارية.

❖ هذه تعريفة الإضراب؟ هذا ما قاله رئيس الفرقة؟

جيرار: ضمنياً. ومن بعد الإضرابات حصل أمر آخر، وذلك أن غير المضربين نالوا مكافآت: منهم من حصل على 150 فرنك، ومنهم من كان نصيبه أقلّ وهم جميعاً لم يشاركوا في الإضراب! حينذاك جاء البعض يسأل مندوبي نقابة CGT، لا بد أن الضيق أتخمهم، «لماذا أخذ هو أكثر مني؟». فالاختلاف الذي كان من وراء التفاوت بين مكافآت هذا وذاك... فهذا بقي على سلسلة الإنتاج عندما مرت تظاهرتنا في الورشات بينما فرّ الآخر مسرعاً واختبأ في «المخراية»! فلذلك، من ذهب واختبأ حصل على مكافأة أقل من الذي بقي في خطوط الإنتاج! هذا صحيح! [يضحك الجميع]. فالذين لم يشاركوا في الإضراب عملوا لهم تصنيفاً في خانتين: صنف الطرزان الواقف بتحدٍ على خط الإنتاج، وصنف المخصي إلى حد ما، الذي ما كانت تواتيه الجرأة فذهب يختبئ في دورة المياه...

هذا هو الجو السائد

جيرار: أول أمس كان عندنا مشكلة.. فقد شتم رئيس الزمرة أحد الشباب. الرئيس المعني هو ميشيل (المندوب العمالي) وقد دافع عن الموضوع لأن الشاب وشوا به.. فعندنا شاب اسمه بيرو أصابته عزقة في عينه، فذهب إلى قسم التمريض مدعياً أن شيئاً ما لا يعرف ما هو أصابه في عينه، وهذا كل الموضوع. في اليوم التالي، وقعت للرئيس مشكلة مع شاب آخر، فكان هذا الشاب على الحمّالة الصغيرة المتنقلة، وكانت مقدمتها مرتفعة وقد وصل اللولب إلى الحد الأقصى، فانكسرت مقدمة الحمّالة وأصابته في ساقه، فقال للرئيس: «هل بك جنون، فلم يكن من الضروري رفع اللولب إلى النهاية! على أي حال، ليس لك أن تقول عني مغفل!» «لا أتهمك أنك مغفل، بل أنت هكذا، وإذا لم يعجبك الحال، نتقابل غداً». وفي اليوم التالي، جاء من يقول للرئيس «جناب بيرو إنما أصيبت عينه بعزقة، وكريستوف {الشاب} هو بنفسه من قذفه بها». حينذاك كتب رئيس العمل تقريراً حول الموضوع. كما أنني من جانبي قمت شخصياً بتحقيق صغير في

القسم لضآلة عدد العمال فيه، فهم هناك لا يتجاوزون العشرة، والحقيقة، كانوا جميعاً قد رموا حفنة عزقات في وجه بيرو من أجل الشغب والتسلية.. والواشي الذي نقل الواقعة إلى رئيس العمل رمى هو نفسه أيضاً حفنة من العزقات.. فقلت لحضرة أخينا ميشيل «هذا ما حصل، فهذا، وهذا، وذاك،... جميعهم رموا حفنة عزقات، فعليك الآن إجراء فحص خبرة على تلك العزقات والتعرف على العزقة التي أصابت عيني بيرو من بعد رفع البصمات عنها. وعليك أن تصعد عالياً وتخبر الأخرين بذلك». ثم إن الشاب ذهب وأخبر مدير القسم بما جرى، وقال له المدير «طيب، سوف نرى!» وهذا كل ما كان من موقف الإدارة. لكن أقل ما كان يجب أن يكون هو التسريح، فهذا خطير جداً جداً! لا بل «بهدلوا» أخينا بيرو لأنه لم يقل لرئيس الورشة حقيقة ما جرى معه، كيف جرى ذلك...

❖ وبيرو، هو عامل..؟

جيرار: نعم هو عامل مثله مثلنا. كانوا ثلاثة أو أربعة، وكلهم رموه بالعزقات على سبيل الشغب والتسلية... أما هو فكان وراء عربة نقل، كان يحضّر ألواح بلور فعندما رموه بالعزقات، طارت عزقة بخط مستقيم وخبطت عينه وهو يستدير نحوهم. على أن صاحبنا الذي بدأ برمي العزقات، هو الذي قام بالوشاية! هذا هو الجو السائد!

❖ كنت تتحدث عن الجو السيء... لكن ذلك الشاب، من يكون؟ عامل مؤقت؟

جيرار: هو شاب، كان في السابق مؤقتاً لكن ثبّتوه، عمره 25، 27 عاماً؛ أما الآخرون... بينهم جناب نقولا الذي عمره 52 عاماً، وحضرة شارل الذي عمره 47 عاماً، فليسوا من الأولاد (...) [بعنف] اعتباراً من هذا اليوم، حلفت ألا أتكلم أبداً مع هؤلاء الناس...

كريستيان: على أنك متفاهم، من جانبك، مع الأصحاب الأربعة الذين تعمل برفقتهم...

جيرار: نعم، أما الآخرون [بعنف] خلص، انتهى! لن يروني بعد اليوم

على طاولتهم. فليأتوا بزجاجة شراب في الأسبوع المقبل احتفالاً بالعطلة... ويمكن لرئيس الورشة أن يأتي بكأسه.. لأنه في السنة الماضية فعل ذلك... أنا، في لحظة التصافي سوف أعكر الماء ثم إنني.. في السنة الماضية قدم لي كأساً، وقد سكبته في سلة المهملات، أما هذه السنة، إذا قدم لي كأساً، فسوف أسكبه في الزبالة أمام عينيه! كلا، الموضوع أن الحال غير ماشي! أرجو أن تنتبه إلى هذا الأمر، فنحن تسعة نعمل حتى التلف سوياً ولا نكف عن تبادل الحقارات لا على التعيين، مع تعريض شاب من بيننا ليُعطى ركلة ويرمي خارج العمل علماً أن عمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين، المفروض عدم حدوث مثل هذه الحقارات! فما هو الأمر الذي يدركونه؟ عدا عن أن الأمر غير واضح لديهم، فهل رمي شاب بعزقة أمر مستحسن؟ على أن الذي حصل أن الشاب استخف بالرئيس، بينما الآخرون أسرعوا لنجدة الرئيس.. أنا، أنا أعلم أني لم أعد أستطيع الانخراط معهم، لم تعد لي معهم أدنى علاقة. أنا أذهب إلى المصنع لأن..

❖ عندي انطباع أن عدداً كبيراً... يعانون من أمور مشابهة..

جيرار: ... وهذا ليس... هناك العمل، لكن العمل شيء، وأهم أمر هو الجو السائد... عند أول فرصة، لدى حدوث انخفاض في الإنتاج، إلغاء وظيفة، يستفيدون من الوضع للتخلص من أحدهم من أجل...

❖ من الأمور القاسية فعلاً في رأيي ألا يعود للعامل صاحب... فريد قال لنا هذا أيضاً...

جيرار: في الماضي، كنا خمسة عشر عاملاً، وكان منهم ثلاثة عشر، أربعة عشر تربطهم الصحبة؛ وكان دائماً عامل مثل النعجة الجرباء لكن...

❖ كان المنعزلون عن الصحبة أقلية!

جيرار: .. وكنا نستطيع أن نشعر بالثقة فيما بيننا بينما الآن...

كريستيان: هل تذكر الألزاسي العجوز، الكنّاس الذي كان يبيع السجائر؟ كان «يخرّبنا» بإلحاحه كي يبيع سجائره لكن هذا لم يكن يمنع أنه عندما كان يضطر لترك بسطته كي يذهب ليتبّول، أو لأي أمر آخر، نحن

الذين كنا نتولى بيع سجائره نيابة عنه. هكذا كانت الأمور دائماً، بينما الآن لم يعد لها من وجود! إنها الروح الفردية المسترسلة إلى مداها الأقصى، وكل واحد ربي أسألك نفسي. كان يمكننا تحمل الجهد على خط الإنتاج تحديداً لوجود روح الصحبة والزمالة. الآن «الزلم» الذين ظلوا في سلسلة الإنتاج، الذين تزداد عزلتهم أكثر فأكثر، فعندما لا يعود بإمكانك تبادل الكلام مع خمسة، ماذا تفعل؟ تتحمل بمفردك، طيب أنت صلب لكن هذا لا يدوم سوى لفترة قصيرة، وأنت الخاسر في النهاية في هذه القصص، وليس الأربعة الحقيرون..

يركبون الباص بصدارية المراقب

❖ الأصحاب تطايروا تدريجياً؟

جيرار: كلا، هم كسّروا الزمر العمالية. إذا أمكن إلغاء وظيفة بسبب تقلبات الإنتاج، وتيرة العمل... إذا كان صاحبان تتوافر فيهما الشخصية المميزة، إذا كان لهما تأثير على الآخرين، فعند أول فرصة سانحة يصرفون أحدهما فيجد الآخر نفسه وقد أصبح وحيداً. ورجوعاً إلى قضيتنا «العظيمة» قضية المكافآت الاختيارية، فلم يعد أحد يثق بأحد. أحياناً تثق بشاب ما، ثم تكتشف بعدها أنه روى تلفيقات للرئيس. أنا، أنا حصل معي هذا منذ فترة غير بعيدة... بالنسبة لي لا يغبّر هذا على حذائي، فلم أعد أرجو أي شيء في هذا المغطس ولكن... لم يعد بإمكانك أن تثق بأحد، إذ من أجل هذه المكافآت «العظيمة» أو من أجل الارتفاع من 180 إلى 190 نقطة (الحد الأدنى للتصنيف بالنقط لتحديد مستوى الراتب) من الشباب من هم على استعداد للقيام بأي شيء! الوشاية، أو أية حقارة! ورؤساء العمل لا يريدون إلا هذا.

❖ هناك مشكلة الرواتب، المال، لكن كل ما حدثتنا عنه، هو فعلاً رهيب. واختيار المراقبين، كل هذا... فهم ينتقون شاباً، فيعطونه 300 فرنك زيادة عن الآخرين...

جيرار: منهم كثيرون، تكفيهم صدارية المراقب... فليست القضية في زيادة الـ 300 فرنك بل لهم دور آخر... فالزوجة تعلّق الصدارية أمام البيت كي يراها الجميع: منهم من يذهبون إلى البيت.. يركبون الباص بصدّارية المراقب...

كريستيان: وهذا أوضح ما يكون مع «الحراذين الخضر» في المصنع الجديد، فيعود كل منهم إلى بيته بجلد «الحرذون».. فور حصولهم على ثيابهم تلك... إنهم يعملون بتوقيت مماثل لتوقيتي كما تعلم، تجدهم يخرجون من المصنع في سياراتهم بجلود «الحراذين» ...

جيرار: هذا، هذا مردّه صورة المصنع في الخارج... صورة «البرواظ» في الخارج... فإذا وسّخت صداريتك أو بنطالك، يجب ألا تخاف من تغييرهما، حتى لو اضطررت لذلك مرتين في اليوم، بسبب وجود الزوّار! فيجب خروج الزوار من الورشات وهم يحملون انطباعاً جيداً (...) هذا هو المصنع الجديد. وهم ينقشون هذا في عقول العمال! أنا، قال لي في يوم من الأيام رئيس زمرة، «أحلم بيجو، أفكر بيجو. في الليل مناماتي بيجو». هو عامل فني، وقد رأيته هذا الصباح، كان يحمل صورة سبع بيجو خلف ياقته مباشرة، مثلما كان سبع أصفر على سترته.

❖ ثيابه ماركة بيجو دون أي لبس...

جيرار: وأوجدوا أيضاً سترات مطرية بطاقيات، هل تذكرها؟ سترات دمغتها المميزة بيجو، بلونين الأصفر والأزرق، وخصصوها للتزلج، كانوا يرتدون سترات سباع [ضحكات]. هذه هي صورة الدمغة خارج المصنع، في مورفيلار، وهذا فظيع! لقد عرضوا علينا فيلم فيديو: شاب يذهب لشراء سيارة بيجو، تكون زوجته حينذاك في صالون حلاقة مع إحدى عاملات بيجو؛ كلتاهما تحت خوذة التجفيف، فتقول العاملة في بيجو، «أنا شخصياً سيارات البيجو لا تعني لي شيئاً، عزرائيل يأخذها، عندما أغلق باب سيارة بيجو، أوجه ركلة قوية له...»، فعندما عاد الشاب إلى بيته، قالت له الزوجة: «تعلم، سيارات البيجو مصنوعة لـ...سمعت كذا، وسمعت كيت..» فهرش

المغلوب على أمره رأسه ثم... ذهب لمراجعة الوكيل والوكيل أهملهما لبعض الوقت. أهملهما حتى لم يتمالك الشاب أن تحول إلى رينو...

❖ وبعد الكاسيت، ألقوا عليكم موعظة أخلاقية، هذا ما لا يجوز، وهذا ما يجوز؟

جيرار: أي نعم. مثلاً إذا كنا ثلاثة، أو أربعة، في مقهى ما، لا يجوز لأحدنا أن يقول: «فلقوا مؤخراتنا بدعاياتهم! نحن لا نغلق أبواب البيجو إلا بالركل الشديد!» بل يجب على الدوام تعداد محاسن ما نصنع، وإلقاء المواعظ حول الجودة حتى في الخارج. يجب علينا جميعاً، لم يقولوه لنا، لكن... يجب علينا جميعاً الظهور بصورة لائقة عند مغادرة المصنع.

❖ يريدون ألا تصدر عنكم أية مادة مكتوبة، أي أثر. هي من جديد ما يشبه «الوصايا العشر» التي يطالب متبعو دورة مورفيلار بالالتزام بها، وقد نشرت جميع الصحف هذا الأمر وهذا ما أثار إلى حد ما الاستنكار تجاه بيجو.

جيرار: آه أنا، أنا لم أتشرف بمعرفة هذا! فقد رحلت باكراً جداً! تمنيت فعلاً لو أنهيت الدورة، ولو لمجرد قضاء ثلاثة أسابيع مرتاح البال، الطعام وكل شيء... ليس الأمر هذا فقط، لكن... مؤكد أنهم في النقابة، أخونا بول، أو أخونا لويس، جميعهم قالوا لي.. كان عليك أن تبقى، أما أنا، فأردت الصراحة معهم، حتى لا تكون من بعد ذلك أدنى التباسات. فإن أرادوا الاحتفاظ بي، احتفظوا! كان عليهم أن... عندما عدت في اليوم التالي صباحاً، مدّ الرئيس في الورشة بوزه أمامي هكذا! أفترض أنه لم يرسلني إلى الدورة هناك إلا كي يتخلص مني؛ لا بد أنه خطر له؛ « صاحبنا هذا سوف نصفّيه، لن يخرّينا بعد اليوم بملاحظاته!» فعندما وصلت صباح الجمعة، راقبته من زاوية عيني، وقلت لنفسي، «عندما يراك... » لأنه لم يكن قد اطّلع على فصلي من الدورة... هناك، جاءته مثل طلقة بندقية عندما شاهدني أمامه، فشحب لونه.. قلت له، «لقد رجعت». هذا كل شيء. لم يسألني لماذا، لم يسألوني أبداً لماذا رجعت. في الأسبوع التالي، اعترضت

طريقه، وقلت له «لكن حكاية العمل الطوعي أيام السبت... عفواً فما هو معنى العمل الطوعي؟»، وقف لبرهة ببلاهة، «العمل الطوعي... كما تعلم يسألون العمال ومن ثم فالمتطوعون..» «نعم، لكن هناك، في الورشة الجديدة العمل الطوعي يفهمونه على غير ما هو مكتوب في القاموس؟» «أنا لا أعلم. لماذا؟» فقلت له، «لأنني شخصياً أعطوني ركلة فأصبحت خارج دورة مورفيلار لأنني أخبرتهم أني لن أحضر أبداً كمتطوع»... كان المفروض أن أقول لإرضائهم «ربما» أو «أنظر في الأمر» ... لكن بالنسبة لهم، مجرد قول ذلك يعني لهم شيئاً ما إذ يعلمون أن من بيننا الكثيرين... إنهم يقولون لنا «إذا لم تحضر في أحد أيام السبت، يجب أن ترتب مع رديفك كي يأتي بدلاً عنك »، فلا يعود رئيس العمل هو الذي يطلب، بل أنت المسؤول عن الأمر...

❖ من المؤكد أن ما نعلمه عن المصانع اليابانية نموذج مختلف من العلاقات الاجتماعية.. [نقاش حول اليابان، إيطاليا، إنكلترا].

جيرار: نعم، ولكن هذا يخيف الناس رغم ذلك! أما أنا، في الغد إذا تغير مدير مصنعي، وبدلاً من كالفيت، أصبح شخصاً صغير العينين، فهذا لا يغبرّ على حذائي. فليشتر ياباني مصنع بيجو... المهم هو أن نعمل في ظروف جيدة، وأن نحصل على راتب مناسب. بالنسبة لي، «لجهنّم » إذا غداً جاء محل كالفيت شخص ياباني، لأن اليابانيين كانوا على وشك شراء مصنع بيجو...

العمال المؤقتون؟ لا يهمهم من أمر المصنع شيء.

❖ والشباب الجدد، العمال المؤقتون...؟ العمل، هو صعب أيضاً عليهم برغم كل شيء؟

جيرار: نعم، ولكن بالنسبة لهم ليكن الطوفان! وعلى أي حال تعطلنا... أنا لم أتعطل إلا مرة هذه السنة... منذ خمسة عشر يوماً حين حصل إضراب العمال المؤقتين. لم يكونوا كثيري العدد، 15، 20، وعندما رأيت أن

الأمر لا يهمهم... قلت لهم،« يجب التوقف!»: فظل أربعة، خمسة عمال وأعادوا التصويت على الإضراب لليوم التالي، أربعة أو خمسة!

❖ إذن من بين المؤقتين هناك، كانت أقلية قليلة تلك التي شاركت في الإضراب؟

جيرار- من بين الـ 3000 مؤقت عند بيجو، كانوا 25 (...). الأوائل الذين حضروا، كانوا من قسم الميكانيك، وكانوا أربعة أو خمسة... في اليوم التالي. عمّموا شعار الإضراب، فذهبت أشارك، هذا طبيعي، درنا حول قسم الهياكل، الميكانيك، فاستطعنا ضمّ قرابة خمسة عشر عاملاً، وهذا كل العدد. لقد أعادوا التصويت من أجل اليوم التالي... وفي اليوم التالي، في صالة الندوة كانوا ستة تقريباً، فقلت، «أنا عائد إلى العمل! لن نلعب دور المهرجين ونحن 15 فقط»، أربعة عمال مؤقتين، مندوبان، مناضلان أو ثلاثة، لا يمكننا رغم كل شيء أن نمضي... وذلك المساء، أعادوا التصويت من جديد من أجل اليوم التالي. المفروض الجدية رغم كل شيء! وبالمناقشة معهم، كانوا غير مبالين على الإطلاق، «نحن هنا برسم الانتظار، يوم يتخلصون منا بأهون سبيل، لا تعود لنا صلة بأي شيء!» لا علاقة عميقة لهم، ولكنهم لم يشاركوا في الإضراب. ومن بعد ذلك، قذفوا خارجاً عمالاً مؤقتين لم يشاركوا في الإضراب، والعامل من قسم الميكانيك الذي كان يحرّض ما يزال في المصنع...

❖ اتخذت بيجو عقوبات بحق المحرّضين؟

جيرار: كلا...منهم واحد هذا الأسبوع، يوم الاثنين أو الثلاثاء، جاء في الساعة الخامسة فقال له رئيسه: «مع السلامة ». كان الشاب قد جاء في الساعة الخامسة لينصرف لعمله، ما كانوا قد أعلموه من قبل، ولا قالوا له أي شيء. «مع السلامة» فمضى في حال سبيله بعظمة، وما كان له دخل بشيء. فذهب لمقابلة المدير في المكتب وقال له، «على كل حال، ما كان بنيّتي أن أقضي عمري في {كرخانتك} !». معه حق، لكن ما ألومه عليه أنه كان يستطيع أن يحضر عندما تقررت حركة الإضراب.

❖ لم يكن قد شارك؟

كريستيان: كلا، لم يشارك على الإطلاق في أي شيء!

❖ عندما كنتم تدعونه للمشاركة كان يقول إن الأمر لا يعنيه؟

جيرار: كلا، هذا لا يعنيهم، هذا لا دخل لهم به إطلاقاً. إنه مرور طريق بالنسبة لهم.

❖ هم شباب من خارج المنطقة أم...؟

كريستيان: هو، من عندنا، يأتي للعمل على دراجة..

❖ ألا يوجد أي شكل من التسييس لديهم؟

جيرار: منهم نفر قليل...أولئك الذين رأيناهم في قسم الميكانيك.. كلا إطلاقاً، لا شيء لديهم، لا شيء! بالنسبة لهم، كل يوم بيومه...لقد طردوا أحدهم منذ وقت غير بعيد، وهذا الصباح رأيته راجعاً... رجع هذا الصباح بصفة مؤقت عند بيجو كي يزور قسم الهياكل بينما كان يشقى سابقاً تحديداً في مواجهتنا. سألته ماذا يفعل عندنا، فقال لي، «غيرت ربّ عملي».. عندما كان يأتي من الصباح، غالباً ما كان يصل متأخراً... ذات صباح وصل في العاشرة، كان قد كبس عليه النوم.

❖ طردوه من بعد ذلك؟ قطعوا عليه مهمته الأولى؟ وعاد يتعاقد مع رب عمل آخر؟

جيرار: تماماً، بالضبط... لا أعلم في أي قسم كان، في CIE، في RMO، أم في BIS ... المهم، غيّر رب عمله وعاد إلى المصنع ... (...) وما «يقلّب الأمعاء» أيضاً أنهم يتخلصون من جميع المؤقتين عند اكتمال 18 شهر عمل. في الوقت نفسه، تأتي «صبّة» مؤقتين جدد، هذا الصباح كانوا قرابة الثلاثين، بالأمس أيضاً. لأن المصنع، في حال تجاوز 18 شهر عمل والاحتفاظ بالعامل لأكثر من ذلك، يصبح ملزماً بتثبيته...

❖ العلاقات مع المؤقتين طيبة؟..

جيرار: نعم، طيبة، لكن منهم بعض أصحاب الأمزجة العجيبة،

فأولئك يعملون مع سماعات آلة تسجيل على الأذنين طيلة النهار: إنهم أغرار!

❖ هذه السماعات مقبولة أثناء العمل؟

جيرار: نعم. وأمر لا يصدق عدد الأغرار الذين ينهمكون على هذه الصورة طيلة نهار عملهم.

❖ معظمهم معه هذا؟!

جيرار: عندك 60٪ من المؤقتين يضعون على آذانهم. وأشعر أنهم لا يريدون الاندماج أيضاً (...) لقد تعرضوا لمشاكل بسبب هذا لأن الشباب يظلون يومين أو ثلاثة أيام و... هوب! عندما يذهبون في عطلة نهاية الأسبوع، لا يعودون إلى العمل، يجب أن نفهمهم. لكن معظمهم لا يبالون عندما يرون كيف يسير العمل: هم بيننا، وعندما ينهون عقدهم، يذهبون إلى مكان آخر، على أنهم لا يجدون رغم هذا دافعاً لخوض المعارك، اليوم عندهم هو اليوم، وغداً هو يوم آخر.

❖ لكنهم يمكن أن يتناقشوا معك..؟

جيرار: نعم، يناقشونك لكنهم لا يبالون بشيء.

❖ مستقبل الورشة لا يعنيهم؟

جيرار: كلا، ولا حتى مستقبلهم هم أنفسهم. أعمارهم أحياناً دون 20 عاماً، فلا يفكرون بشيء. اليوم الحاضر هو كل شيء عندهم...

❖ بخصوص النقابات الأمر نفسه؟

جيرار: نعم، على أي حال النقابة، السياسة، المشاركة في الانتخاب، كل هذا لا يخصهم.

❖ على أن إضراب عام 89 أثّر عليهم؟

جيرار: نعم، على الذين كانوا هناك خلال الإضرابات... وأظن لو تكرر الأمر الآن، فربما يتغيّرون...

❖ تظن أنهم سينخرطون بأعداد أكبر في الحركة؟

جيرار: نعم لأنهم رأوا ما حصل، أضف إلى ذلك ظروف العمل، كل هذا، لأنهم أعطوهم وعوداً أيضاً. وعود تثبيت، وعود ترقية... «اعملوا كل يوم سبت وسوف نثبتكم..» كما أنهم يدركون أنهم يقتربون من 18 شهراً وأنهم سوف يصبحون في الشارع. منهم عامل يشتغل معي. وقد قدم اختبار المعلومات بعد ثمانية أيام من وصوله، فقال له رئيس الورشة، «سوف نثبّتك...» الآن، لم يعد الأمر وارداً قبل الإجازة الصيفية، قد يكون هذا في شهر أيلول ربما... وأرجو أن تنتبه إلى «ربما»! إنه خباز حلواني، فهو يبحث عن عمل ومن أجل إيجاده...

حزيران 1990

روزين كريستان

شغف المليك

دانييلا، عمرها 32 عاماً، وهي ابنة جولييت وميلو ك. من صغار الفلاحين وهم أقرب جيراني في آفيرون. عرفتها عندما كان عمرها عشرة أعوام وكنت أراها أكثر من مرّة كل عام إلى حين رحيلها باتجاه باريس، ثم تناقصت لقاءاتنا تدريجياً فيما بعد.

دانييلا منبتها من «طريق الحقول»، و«طريق الحقول» هي المقابل للسفح الذي ينهض فوقه وسط قرية «سان هيبوليت»، وقد أطلق هذا الاسم على الحقول المطلّة على مضائق نهر «تروييرِ» وبتحديد أدق، في المنطقة التي تؤدي إلى بحيرة السدّ. كان فلاحو «طريق الحقول» ميسوري الحال نسبياً حتى الحرب العالمية الثانية، فكانوا يعيشون من إنتاج الثمار ومن تجارة الأشجار المثمرة الحساسة، الكرز، الخوخ، ومن جمع الكستناء والجوز: وكان عندهم بعض الكرمة، ويربّون بقرات قليلة، فكانت الجمعية التعاونية تجمع إنتاجهم من الحليب كما كانوا من وقت لآخر يبيعون عجلاً. أما اليوم، فلم يبق سوى بعض الأزواج أو بعض الأرامل في البيوت العتيقة لـ «طريق الحقول» التي كانت «دروب العربات» فيها مقصودة حتى سنوات خلت اختصاراً للمسافة من كوخ إلى آخر، لكن تلك الدروب «أغلقت» كما أهملت حقول الكرمة الصغيرة، وراح العوسج والعلّيق يغزو الأراضي، أما الأبناء فأصبحوا في باريس.

دانييلا، أصغر أبناء «طريق الحقول»، كانت آخر من ظلّ هناك: شقيقها موريس، الذي يزيدها عشرة أعوام، دركي في باريس؛ شقيقتها إيفيت تزوجت شاباً من المنطقة قبل أن تستقر في باريس، هي أيضاً، كمشرفة على مقهى هي وزوجها. لم تكن دانييلا مستعجلة للرحيل؛ فمن بعد دراستها للسكرتاريا في «روديز» ظلت عامين في البيت، مؤمّنة العمل من وقت لآخر في مزرعة، مساعِدة لأهلها، مترددة على جميع الحفلات الراقصة في المنطقة: تعترف أنها «استفادت الكثير» من ذلك وتقول إن هاتين السنتين كانتا من أسعد أوقاتها؛ وقد رحلت وفي نفسها حسرة. دانييلا اجتماعية مرحة، ذات غنج ودلال، تقصّ شعرها على نمط «تسريحة اللبوة» وتحب شراء الملابس لنفسها من الأسواق، يوم الأحد، عندما تكون قادرة على الشراء.

حددتُ موعدي معها هاتفياً، ولم تعبّر عن دهشة كبيرة لأنني طلبتها على الهاتف، فنحن قد تلاقينا مصادفة في «آفيرون» منذ أسابيع واتفقنا على اللقاء ذات يوم في باريس. كانت في إجازة مرضية إثر عملية جراحية وبدا عليها السرور عندما طرحتُ فكرة قضاء ساعات معي؛ بكل تأكيد، كان عليّ المجيء إلى «إيلي» لرؤية شقتها، وهناك قالت إنها سوف تستقبلني، وتقدم لي الطعام، وتطلعني على ألبومات صورها وخاصة ألبوم زواجها الذي لم أشاهده من قبل، وإن بإمكاننا الاتصال بوالديها، باختصار، ما كان لي أن أشعر بالحرج: فهي تدعوني لزيارتها.

وقلت لها أيضاً إنني أحب أن أسألها -من أجل تحقيق أكتبه ضمن نطاق عملي- عن صعوبات الحياة في باريس، على وجه التحديد بالنسبة لشخص قادم من الريف مثلها. فهل تقبل أن تحكي لي عن انتقالها من كوخ «آفيرون» الريفي حيث ولدت، إلى مركز فرز البريد في باريس في الدائرة /15/، «الشجون» التي عانت منها في البدايات وهو ما كانت والدتها تحدثني عنه في كل عطلة؟ فأجابتني على الفور بنعم، فذاك كان صعباً لكن «ليس إلى هذا الحد، لأن الصعوبة بالنسبة لريفي ينزل إلى المدينة أقل من

الحالة المعاكسة، لأن الريفي يجد وسائل الراحة؛ أم ابن المدينة الذي قد يذهب إلى الريف، مثل آفيرون، فقد لا يتمكّن من تحمّل ذلك»

لا توجد وسيلة نقل مريحة للذهاب إلى «إيلي» التي هي تجمع سكني متواضع، قيد التوسع السريع، وتحيط به المناطق السكنية. جاءت دانييلا تنتظرني عند محطة الـ RER(*): فقد حددنا الموعد على رصيف المحطة، وصبرتُ أكثر من نصف ساعة قبل أن أراها قادمة وهي في غاية الحرج، كانت قد انتظرتني على رصيف آخر، حيث تنزل هي شخصياً في الصباح عندما ترجع من عملها. أخذنا من بعد ذلك حافلة، أمام المحطة، فاجتازت بنا مسرعة الضواحي الأنيقة، ثم قطعة من أتوستراد. قبل وصولنا إلى «إيلي»، لمحنا من بعيد الأبراج السكنية المرتسمة بشكل غريب على خلفية من رافعات وورشات بناء (أمكنني أن أرى، لاحقاً، أن بعضها كان قيد إعادة البناء) وحكت لي دانييلا كيف يقول أصدقاؤها مازحين إنها «تسكن في شيكاغو».

طيلة المسافة التي قطعتها السيارة، حدثتني دانييلا عن زوجها، سيرج، الأصغر منها بخمس سنوات، وهذا فيما يبدو يسبب لها الكثير من الانشغال، دون أن تعترف بذلك، هو ابن صاحب مرآب في فرساي، لم يرغب في متابعة دراسته بعد البكالوريا، فقد كان مشغوفاً بالشطرنج ويريد أن يكرس نفسه كلياً لذلك؛ هو لاعب مصنّف يشارك في مباريات؛ وقد فاز مؤخراً بكأس يحتل موقعاً بارزاً في غرفة الجلوس في شقتهما. من الواضح أنها معجبة به، وتقول عنه إنه مثقف: فهو يشرح لها أموراً كثيرة لم تكن تفهمها قبل اللقاء به لكن بالمقابل عليها أن تقرّ أنه ليس قوياً جداً في الناحية العملية من حياتهما المشتركة فهي تحتضن هذه الحياة تقريباً بسلطة شبه أمومية.

وفعلاً فقد خابرها سيرج أثناء تناولنا للغداء كي يسألها عن رأيها في سعر 150 فرنك لغرفة في الفندق في ليون حيث كان عليه أن يذهب هناك في عطلة نهاية الأسبوع القادم لحضور كأس العالم للشطرنج، وكان لزاماً على دانييلا أن تطمئنه المرة تلو المرة، ثم، بعد أن علّقت السماعة، استدارت

(*) RER: قطار ينطلق من باريس ليخدّم المناطق الريفية المحيطة بها. م.

نحوي باعتزاز كبير: «المسكين، إنه لطيف، يأخذ رأيي دائماً، هو يستطيع أن يصرف كما يريد، فهو يكسب أكثر مني» (تكسب دانييلا 6200 شهرياً، وسيرج 6700).

في الإياب كما في الذهاب، لاحظت أنها كانت معروفة لدى جميع سائقي السيارات الذين كانوا يتحدثون معها بزمالة وألفة أولئك الذين، دون أن يكونوا زملاء عمل، يتلاقون بشكل منتظم بحكم حياتهم المهنية، خارج أوقات الدوام العادية، بينما يكون الآخرون في بيوتهم. وكان يبدو عليها التمسك بهذه المودة الخفية.

يجب السير لعشر دقائق تقريباً ومحاذاة بعض الأبراج التي بعضها مهدّم وبعضها الآخر قيد الترميم، وذلك للوصول إلى البناء الصغير ذي الطوابق الأربعة حيث تسكن دانييلا؛ البناء بعيد قليلاً عن باقي الأبنية، في درب تنمو فيه بضع شجيرات. الشقة في الطابق الأول: غرفة جلوس وغرفتا نوم إحداهما للأصدقاء (تمنى سيرج أن يجعلها صالة للتمرينات العضلية لكن دانييلا فضّلت أن تكون غرفة نوم للأصدقاء لتوضع بتصرف الأهل الذين قد يحضرون إلى باريس، وكذلك الأصحاب). في غرفة الجلوس العديد من مواد التزيين الصغيرة ومن الصور، وبالأخصّ صور عائلة دانييلا وصور زواجها، مع طاولة قليلة الارتفاع، كلها من الزجاج جعلت دانييلا ديكورها الداخلي نباتات زينة سميكة الأوراق بين قطع صخرية منتقاة بعناية. أما المطبخ فمجهز أحسن تجهيز بالأدوات الكهربائية، والخلاّط، والفرن بالأمواج القصيرة (هدايا من والدة سيرج التي تهتم كثيراً بالمطبخ).

عندما وصلنا، كانت الطاولة جاهزة مع زجاجة من خمر التفاح، لاقينا صعوبة لا بأس بها لفتحها، وهي مشتراة على شرفي، وكانت مستقرة في مركز الصدارة؛ على امتداد الوجبة، كانت دانييلا مشغولة البال وتريد أن تعرف إن كان الأكل يعجبني، وتكرر المرة تلو المرة ألا أشعر بالحرج، وتختفي باستمرار في المطبخ لتحسين تزيين اللحم المشوي بإضافة قليل من الصلصة الآنية التحضير أو لتجلب لي مقبّلاً قد يروق لي. كانت تقول لي «كلي، كلي،

تناولي الخبز، اسكبي مرة ثانية»، فكانت أحرص على القيام بدورها كربّة منزل مما هي حريصة على الرد على أسئلتي التي كانت تبدو لها في غير محلها. وأفخم ما في ذلك الغداء كان الجاتو الذي صنعته بنفسها وفق طريقة خاصة للحفاظ على الوزن تعلمتها لدى مجيئها إلى باريس بناءً على نصيحة زميلةٍ لها، حين وجدت نفسها أكثر سمنةً مما يجب.

تتكلم دانييلا بصوت مرتفع جداً خاصة عندما تخاطب أناساً لا تألفهم ويثيرون فيها الحرج، كما لو كانت تخاف ألاّ يُفهم ما تقول؛ وهذا ما يجعلها تشرح أكثر من مرّة الشيء نفسه، بل تتحدث بلغةٍ غير سليمة كما لو كانت تخاطب أجنبياً قليل الفهم إلى حد ما. وكانت لهجة الجنوب الغربي واضحة بقوة في كلامها. عندما كانت صغيرة، كانت تتكلم «الفرنسي» في المدرسة واللهجة المحلية (الباتوا) مع أهلها: وعادة الكلام باللهجة المحلية مع العائلة، باستثناء السهرات، ضاعت منها عندما رحلت، هي أصغر إخوتها، إلى «روديز» لإتمام دراستها للسكرتاريا، من بعد الشهادة الإعدادية BEPC. لكنها تنتقي بعناية كلماتها بحيث تبدو متحذلقة أحياناً! استخدام «ما» كأداة نكرة، التوضيح الزائد في بعض الكلمات كقولها «بلغ» بمعنى دخل، أو اختراع كلمات جديدة مثل: «استتبه»، وهذا ما يعطي لحديثها طابعاً غير شخصي. وبالطريقة نفسها، أظهرت اهتماماً بالغاً بدقة وصف الحركات التي يجب عليها تأديتها في عملها أو تسلسل مواقع الموظفين في البريد، باذلة جهدها كي تعطينا في الوقت نفسه المصطلحات المختصرة بالأحرف الأولى وتفصيلها والأعمال المنطبقة عليها في واقع الحال. لكن عرضها للعالم المحيط بها في مركز فرز البريد ظل بيروقراطياً، كما لو كانت دانييلا تستظهر درساً تعلمته في بداياتها، أو كما لو أن رؤساءها كانوا في أبراج يتعذر الوصول إليها، أو بالأحرى كما لو كانوا لا يعنون لها أي شيء.

طوال الحديث اشتكت من الظروف المادية للخدمة الليلية لكنها عرضت برعب تجربتها النهارية. رغم نصائح عائلتها وزوجها تابعت عملها الليلي ويبدو عليها أنها وجدت من زمالة رفاقها في الدوام الليلي دواءً مواسياً لشعورها بالنفي.

مع موظفة في مركز فرز بريدي

أجرت الحوار روزين كريستان

«لا أرى الشمس أبداً»

❖ عملك عادة في الليل؟

دانييلا: نعم، في الليل.

❖ من أي ساعة إلى أي ساعة؟

دانييلا: من التاسعة مساء حتى الخامسة صباحاً، هو إيقاع يجب الالتزام به. أذهب من هنا في حوالي الساعة السابعة، أخابر أهلي...

❖ تتصلين بهم كل يوم؟

دانييلا: تقريباً في جميع الأيام، مكالمات قصيرة لكنها منتظمة، هم اعتادوا على ذلك؛ ينتهي العمل في حدود الساعة الخامسة -في الخامسة والنصف أستقل أول مترو، بالنسبة لامرأة، الوضع محرج... المحبة واجبة، وهي شيء خاص. في البداية، كنت موزعة بريد، وقمت بالعمل منذ عام 82... أيار 82.

{تشرح من ثم لماذا فضلت ترك توزيع البريد للقيام بالعمل الليلي}

دانييلا: يعني لوجود امتيازات لا بأس بها، إجازات لا بأس بها ثم نستفيد من تبادل العمل مع الزملاء: فإذا وجدنا من يحل محلنا، يصير

عندنا، بالإضافة إلى بعض أيام العطل، فترة عطل أكبر، أي يمكننا أن نعمل أسبوعين بدوام «مسرّع» من بعدها نقضي أسبوعين استراحة.

❖ ما معنى العمل بدوام مسرّع؟

دانييلا: أحل محل زميل. نحن نعمل ليلتين من أصل ثلاث، فالليلة الثالثة بدلاً من أن تكون للراحة أشتغل محل زميل آخر، وهذا معناه أن هذا الزميل يأخذ محلي عندما أريد، ويحصل أحياناً أن أستفيد من يومي عطلة إضافيين لأنني أحياناً أشتغل الأحد مساءً فيصبح لي الحق بثلاث ساعات ر.ت.، أي راحة تعويضية؛ ونظراً لأن العمل من التاسعة مساءً حتى منتصف الليل يوم الأحد يوجب المكافأة فنستفيد يوم عطلة عن كل ثلاثة آحاد: عندما نريد الحصول على هذا اليوم، المستحق لنا في ذمة الإدارة، نطلب إلى زميل أن يحل محلنا، بالإضافة إلى عطلتنا العادية... عدا عن الوقت الحر المتوفّر عندنا بكثرة. قبل تعرفي على سيرج، كنت أحنّ قليلاً إلى قريتي، فقلت لنفسي، هذا يفيدني في الذهاب إلى آفيرون مرات أكثر، فالذهاب إلى آفيرون في عطلة نهاية الأسبوع فقط أمر غير ممكن.

❖ في ذلك الوقت تعرّفت على سيرج؟

دانييلا: كلا، تعرفت عليه فيما بعد؛ تعرفت على سيرج عندما خدمت ساعات إضافية في عام 84. يعني، تقولبت على عمل الليل، لم يكن الجو منفّراً، فقلت لماذا لا أظل على هذه الوتيرة؟ لم يكن سيرج راضياً تماماً عن عملي في الليل لكني قلت لنفسي، لقد قبلت حرتقات كثيرة، سوف يقبل هو أيضاً و.. دار الدولاب. الجو العام في الشغل.. باستثناء الوقوف، وصحيح أن الكائن البشري مركّب بحيث ينام في الليل ويعمل في النهار.. يعني هناك «خريطة في التنظيم العضوي لكن.. جو الشغل.. وكل هذا .. يعني، أنا مرتاحة..»

مركز ثابت، وقوف، وقوف

❖ كيف يجري الشغل؟

دانييلا: عندما تدخلين، عندك صناديق من الفولاذ، صناديق، يعني،

مثل الصناديق الصغيرة... وهناك طاولة اسمها «طاولة الفتح»، فهنا تفرّغ سيارات الشحن حمولتها، فيوجد عمال تفريغ أو مشرفون على التفريغ -نعم عمال تفريغ- فهم يفرغون الشاحنات، أكياس بريدية ضخمة، يضعونها على ألواح هي عربات متنقلة، فيجلبونها أمامنا على طاولة الفتح، حينها أحدهم يفتح الكيس والآخرون، من حول الطاولة، يفصلون الرسائل الكبيرة الحجم عن الرسائل الصغيرة، ثم يضعون الرسائل الصغيرة في علب، أما الرسائل الكبيرة الحجم فيضعونها في سلال، سلال معدنية كما تعرفين وهنا يبدأ الفرز في علب صغيرة.

في المرة الأولى التي دخلت فيها هناك، قلت، يا إلهي فما هذا، هذا ضخم، هذا مصنع... لا، هو شيء يبعث الرهبة... هذا فسيح ممتد... ومن بعدها، الرسائل الصغيرة في علب بلاستيكية؛ ثم في رفوف صغيرة: وهنا عندك خدمات متنوعة... لاستلام الرسائل المضمونة... التحويلات (المصرّح عنها، فهذه في كيس مع بطاقة حمراء على الكيس، فهؤلاء نسميهم «الحمر»، أو الطرود وهذه يتم فرزها بوجود مشرف أعلى ع.خ.ع، عنصر خدمة عامة، فهذه تفرز في حجرات جانبية ويتم تسجيلها، جميع هذه الرسائل، على دفتر صغير فعندما يتم توجهها إلى التوزيع يلزم الحصول على توقيع المرسل إليه.

ونظل بوضعية ثابتة وقوفاً، وقوفاً أمام الآلية، خلال أربع ساعات، يعني تفرزين بريد الدائرة 15، هذا هو عملنا الوحيد نحن، ولازم الاطلاع، يعني، كيف هو شارع فو جيرار... فالموزع الواحد لا يستطيع أن يوزع من رقم (9) في هذا الشارع وهو يقع في الدائرة 6، حتى «باب فرساي»: فهذا الشارع متوزع في أكثر من حي، فلنقل بأرقام المساكن 5 و 12... أو 14 و 20 ومن الضروري معرفة هذا. يجب علينا أن نعرف أن هذا الشارع أو ذاك امتداده من إلى هذا الرقم أو ذاك، وهذه موزعة في رفوف.

❖ يكون البريد مفروزاً نوعاً ما عندما يصل إلى طاولة الفتح، فليس عندكم باريس كلها؟

دانييلا: مفروز بما يخص الدائرة 15 لكن توجد أيضاً أخطاء، مثلاً رسائل يجب توزيعها في الدائرة 17 لكنها تصل إلى الـ 15، فهذه «اتجاهات غلط» أو الرسائل التي وضع المرسل عنوانها لا كما يجب، مثلاً، كتب بولفار راسباي، الدائرة 15.

❖ **كم رفاً عليك أن تملئي، أنت، أمامك؟**

دانييلا: 66 رفاً، زائد ثلاثة تحت عنوان «قطاعات» و«البطاقة» والـ«سيديكس»، «الاتجاه الغلط»، لا، هناك أكثر، لنقل 75 رفاً وزملائي العدد نفسه؛ لكن، بالمقابل، هناك قسم آخر، أقصد قسم «الوصول والرحيل» كما يسمونه، نحن في قسم «الوصول»، أما «الرحيل» ففي ملحق، مقره شارع فرانسوا بوفان، هناك العمل آلي: فهنا قسمان PIM وHM (...) من تصنيع توشيبا، هي آلات، أجهزة كومبيوتر، هنا يكون التشفير، ويوضع البرنامج في الـ PIM، ويعني، القائم بالعمل، من جانبه يسجل مثلاً 75014، فتحصل دفعة، ومن بعدها تصل الرسائل إلى الـ HM (...) في ... يعني... وتمر الرسائل إلى الرفوف المقطّعة... لا أعرف كيف أعبر وأشرح لك بوضوح... هذا، هذا قسم الرحيل.

❖ **وأنت واقفة كل الوقت؟**

دانييلا: نعم، الآن أعطوا الأمر أهمية، لأن من الموظفين من هم في عمر ما، فهم منذ × زمن يشتغلون في الليل، ولديهم مشاكل في سيقانهم، فيراجعون أطباء الأوردة، وكل هذا... فأعطوا الأمر أهمية وانتبهوا لضرورة استخدام التابوريه، تابوريه متناسبة مع الرفوف المقطّعة، لكن الأمر ليس ممكناً بهذه السهولة لأن الرفوف لدينا قديمة؛ قد يكون بالإمكان وضع رفوف جديدة لكن الرفوف عديدة، سوف تحدث تقاطعات كثيرة، لكنه مشروع، تطويع المقاعد الخاصة بالرفوف، لأنهم أحياناً يضعون مقعدي تابوريه الواحد فوق الآخر، كما تعلمين، مقعدي بار الواحد فوق الآخر، ويجلس الموظف، إننا نسبياً نعاني من التعب.

❖ **أنتم تستريحون في منتصف الشغل؟**

دانييلا: عندنا استراحة قصيرة من الواحدة إلا ربع إلى الثانية لتناول وجبة خفيفة أو للاستراحة.

❖والزملاء، كم عددكم؟

دانييلا: تقريباً في حدود الثلاثين.

❖ تعرفينهم جميعاً؟

دانييلا: نعم، لنقل إن هناك تنقلات، لكني أعرفهم منذ فترة طويلة... يوجد جو شغل، فنحن في النهاية متقاربون... أنا حتى لي زميل... هو جامع طوابع كبير، يعشق الصور المتحركة، وعنده هوايات لا بأس بها.

يمكنه ان يصير مستقبل رسائل...

ثم رئيس وزارة... ومن جميعه!...

❖ و، يوجد رؤساء عليكم؟

دانييلا: نعم، لأن عندك مراتب ودرجات عديدة، يعني أدنى درجة هو المساعد، بل حتى ليس له درجة، من فوقه موزعة وموزع البريد. يعني... من فوقه قائم بالعمل أو ...AXDA من فوقه عندك الـ CDTX، فهو الرئيس، المشرف على توجيه العمل، المشرف على الموزعين، لكنه رئيس عمل؛ هناك أيضاً الـ CT، المنسق للخدمة العامة، كما هو عمل سيرج، لكن هذا عمله «المكتب»؛ وعندك مشرف القسم CTDIV وهناك ما هو أعلى... فكل هذا تحت إمرة مفتش.

❖ وكلهم هناك معك؟

دانييلا: نعم، نعم، بعضهم.

❖ لكنهم لا يقومون بالعمل نفسه؟

دانييلا – لا، لا، يصدرون الأوامر، يكتبون... لكل منهم واجبه المحدد بدقة، لكن بالمقابل فالـ CTDIV هو أدنى من المفتش وأعلى من الـ CDTX، ومن ثم عندك المفتش، ومن بعدها هذا كل شيء... لأن المفتش المركزي يعمل

نهاراً: فهناك، مستقبل الرسائل.. فهذه درجة... ومن ثم يمكن أن يصير مستقبل رسائل... { لا تجد الكلمة المناسبة} ثم رئيس وزارة، يعني، من جميعه!

❖ كيف يتصرف رؤساء العمل معكم؟

دانييلا: ماشي الحال، هم «دغري» تمام، لنقل إنني أحاول أداء عملي؛ توجد سيئات وحسنات كما في كل مهنة.

استيقظ، يحل الليل

❖ خصوصاً في حياتك الزوجية...

دانييلا: نعم، لأننا نشاهد بعضنا... نشاهد بعضنا... لنقل لو كان سيرج يعمل ليلاً، لكان الأمر أنسب، لكن بعمله في النهار وأنا في الليل، نشاهد بعضنا أقل، لا مجال إلا أن نشاهد بعضنا أقلّ. عرفت سيرج حين صرت في الخدمة الليلية؛ كانت معرفته بي وأنا في الخدمة الليلية.

❖ تقضين ليلة من كل ثلاث ليال في بيتك؟

دانييلا: نعم، لكني أعوم! نحن مع ذلك لا نعيش مثل من... يعني -كما ترين، لم أستطع استعادة الوتيرة العادية {هي في إجازة مرض منذ ثلاثة أسابيع بعد عملية جراحية}. ما زلت لا أنام ليلاً.

❖ وفي العطلة؟

دانييلا: الشيء نفسه: ساعات نومي من السابعة صباحاً إلى الثالثة عصراً. لنقل إنني أحياناً في أوج الشتاء لا أرى الشمس بتاتاً، أستيقظ... ليس في الظلام... ليس كذلك لكنني أستيقظ، فيحل الليل وأذهب لأكدح، وأرجع... الدنيا ظلام ما تزال، هناك مرات مثل هذا.

❖ لابد أنك لا ترين زوجك.

دانييلا: بلى، بلى لأنه من جانبه يعمل غير بعيد، ودوامه جيد، فأتمكن من رؤيته. ثم إنه يشتغل في نوبات، نوبة صباحية، نوبة بعد الظهر. هذا الصباح هو حر، فيعمل بعد الظهر. له ساعات عمل محددة: السادسة

صباحاً-حتى الثانية عشرة ونصف/ ومن الساعة 12 إلى الساعة 18.30؛ فهذا هو الدوام الأصعب، عندما لا يعمل في الصباح بل يعمل بعد الظهر: فأنا أصل، أكون مرهقة، أما هو فيستيقظ، أجد صعوبة في تبادل الحديث، وهو عليه أن يذهب في الساعة 12 ظهراً. فأنهض، وأحضر له ما يأكله، عقلي لا يكون معي، ويذهب فيما بعد عندما أعوم في بحر النوم. ليس إلزاماً {تحضير الطعام له} لكنه لطيف جداً. فالرجل رجل، أقول لنفسي، طيب، يعني... لن يمكنه أن يعرف... بلى، يمكنه أن يعرف ماذا يأكل ولكن... دائماً أرغب أن «يستتبه» لي. {تعرض الصعوبات التي قد تجرها ولادة طفل.} مع وجود نساء متزوجات، عندهن أطفال، لتجنب دفع أجرة مربّية أو دار حضانة، فأحد الزوجين يعمل ليلاً، هذا وارد جداً عندنا؛ لتربية الصغير، حتى لا يدفعوا أجر مربّية أحدهما يعمل مربّية ليلاً، والآخر نهاراً، والذي يتولى التربية ليلاً، يحصل على رزقه في النهار. أنا تأقلمت، فنحن عائلة للعائلة. والديّ كانا كل شيء بالنسبة لي، كنت مشغوفة بوالديّ وأنا أحب الريف، الخضرة، هذا افتقرت إليه كثيراً. في باريس كنت أختنق، أما هنا (في إيلي)، لنقل إنني على مسافة 30 كم في أطراف باريس، ليست مسافة بعيدة جداً... لسنا فعلاً في الريف لكنها منطقة متوسطة.

بقيت في آفيرون حتى سن العشرين، وتابعت دراستي في روديز، هي مدينة صغيرة، كنت أدرس السكرتاريا، نوع من الدراسة ما بعد البكالوريا للتأهيل المهني BEP-CAP كموظفة سكرتيرة في مكتب، لكن، فعلاً، كانت مدينة صغيرة؛ بالمقارنة مع المدينة الكبيرة، ليست روديز أكثر من قرية. أنا، كان يمكن أن تروق لي المزرعة لكن... هناك، عند والديّ، الحياة شاقة جداً، لا يمكن للمرء التمدّن، كان المفروض... يعني، بناء بيت ما... بعض وسائل الراحة... كان المفروض... حتى ليس هذا... إنما استثمار مهما كان ضئيلاً! فهي منطقة شديدة الوعورة، يعني في الماضي كانوا يعيشون من زراعة الخضار والفواكه أما الآن بوجود فواكه إسبانيا، والسوق المشتركة، فإن كل شيء قد.. يعني، ثم أن تكون امرأة... الخلاصة، كان يمكن أن يروق لي ذلك... لكن ما العمل! قال لي والديّ، «ليس لأننا لا نود الاحتفاظ بك لكن

يجب أن يكون لديك بعض الطموح، أن تتقدمي إلى مسابقات» ؛ ثم في تلك الفترة، كانت تأتيهم صحيفة فرأيت: نرغب في العديد من الأشخاص، اتصلوا بالمؤسسة الفلانية، فكتبت، وأعطيتهم معلومات عني، يعني...

❖ ما كنت تعلمين أن الأمر يتعلق بالبريد؟

دانييلا: بلى، كان هذا موضحاً دون التباس. الصحيفة كانت سنتر- بريس أو ميدي- ليبر، لم أعد أذكر. طلبت تسجيل اسمي وكنت في روديز وهناك، قبلوني لم أعد أذكر تحت أي رقم. أعلموني أني قُبلت وأن بإمكاني إجراء الفحص الطبي و«سوف تلتحقين كموزعة بريد في باريس» لكنهم لم يعلموني في أية دائرة؛ كانوا قد سألوني ماذا أفضّل، روان، الشمال، إيل- دو- فرانس أو الشرق؛ حينها اخترت إيل-دو-فرانس: فأصبحت في المنطقة الباريسية وما عرفتُ الدائرة إلا قبل التحاقي بالبريد بثلاثة شهور، «عليك الالتحاق في مهلة 15 يوماً بالدائرة 15» فأتيت هكذا.

الوصول إلى باريس

دانييلا: في البداية، بقيت يومين عند عمتي في سان-دنيس {هي زوجة شقيق والدة دانييلا، مالك لمقهى- مطعم في سان دنيس، ثم انتقل إلى رواسّي واستقر في المنطقة الباريسية منذ أكثر من 30 عاماً، وقد احتفظ ببيت قريب من بيت الأهل كان ينزل فيه لأسابيع صيفاً، وفي عيد القدّيسيين، وهو يرتّبه بحيث يوفر الكثير من الراحة بغية قضاء التقاعد فيه} . السيد ريرول {أحد جيران الأهل} هو الذي أخذني إلى محطة القطار في روديز، كنت حزينة بشدة، ما كان عمري سوى 20 عاماً، كنت أخاطب نفسي، عليك أن تكسبي رزقك، فهذا كان فيه بعض الحزن.. لكن الحزن كان بعد ذلك: إخوتي وأخواتي كان لهم حياتهم، فوجدت نفسي وحيدة دون معين في ستوديو وعليّ أن أواجه مشاكل الحياة، الانخراط في حياة العمل، أكوام من الأمور مما شابه، كنت ضائعة تقريباً، لكن مع هذا ارتبطتُ بعلاقات حسنة مع الزملاء، كنت أخرج، في عطلة نهاية الأسبوع، لم أكن أبقى أبداً

وحيدة، مـرّات قليلـة، بلـى.. لكـن كـان لـي.. ليـس أصدقـاء إنمـا.. معـارف عابرون.. كنا ننظم بعض المشاوير.

❖ كأني أتذكر أنك كنت في مجمّع سكني؟

دانييلا: في البداية، كنت في مجمّع استقبال تابع للبرق والبريد والهاتف، بولفار باستور، هو مجمّع يستقبلك على الأقل ثلاثة شهور، من بعدها دبّري رأسك: ومن هنا العبور إلى باريس. من بعد ذلك، كنت في مجمّع يسمحون لنا بالبقاء فيه لفترة أطول، لم نكن هناك سوى أربعة، ثم بعد ذلك، أكيد، يحضر دائماً وافدون جدد، فيجب ترك المكان للجدد. كل واحد، عندما يكون قد تأقلم جيداً مع باريس وحياتها، يجب أن يدبّر وكراً: أنا فتشت عن مطلق... شقة صغيرة، فوجدت ستوديو... كنت أشعر فيه بالضجر... لأنه كئيب، في شارع فرمان-ديدو، في الدائرة 15 قرب «باب فرساي»، مكان شديد الكآبة... ثم من بعدها أصبحت في شارع بلومي، ثم انتقلت إلى شارع سان-لامبير...

❖ لماذا كنت تبدلين سكنك طيلة الوقت؟

دانييلا: لأنني أولاً كنت أشعر بالضجر، لم تكن فتحات التهوية كافية، فلا هواء كالواجب، وكان في الطابق الثالث، الوصول إليه بالمصعد لكنه يبعث على الحزن، لم أتمكن من التكيّف. من بعدها كنت في غرفة خادمة، يعني لم يكن فيها أية وسيلة للراحة. ثم بعد ذلك خاطبت نفسي، يمكن الذهاب عند إيفيت {شقيقتها، مشرفة على مقهى}، لكن هذا مضجر، دبّري لنفسك زاوية ما، إنما قبل ذلك... كي أستعيد التأمين الذي دفعته لأول ستوديو، اضطررت خلال زمنٍ معين أن أدفع إيجارين: غرفة الخادمة والإيجار الثاني، وعشت في غرفة الخادمة لمدة عام، وبعدها قال لي زميل من معارفي، «داني، وجدت لك ستوديو بسعر مقبول رغم كل شيء، إذا أحببت أن تريه»، فقلت أوكي، هناك، كانت شروط الراحة متوفرة. كان فيه مطبخ، زاوية صغيرة كصالون هي في الوقت نفسه غرفة نوم، ثم زاوية صغيرة للمهملات، وزاوية صغيرة كحمام؛ هناك بقيت × زمن، من بعدها تعرفت على سيرج، فاستأجرنا في شارع دينويت ثم جئنا هنا.

نوع من المسكّن

❖ هل تذكرين انطباعاتك الأولى خلال الأسابيع الأولى لمجيئك من البلد؟

دانييلا: لا أذكر الكثير، لكن كنت أصغر، ولم تكن عندي رؤية، الآن لو رجعت إلى الحياة نفسها فسوف تكون أصعب وأقسى. أما تلك الفترة... غير مبالية قليلاً... كنت أقول لنفسي، سوف أتعرف على الناس، سوف أتزوج، ألتقي بفارس الأحلام، مشدوهة، خفيفة العقل قليلاً على ضفاف السين؛ يعني عند الوصول... لكن سبق لي أن عشت في روديز، إذن كنت قد جرّبت مدينة ما. باريس، كنت أراها... نعم، باريس جميلة جداً لكن في نظر قادم من الأقاليم لزيارتها، في ذلك الوقت، كان مقبولاً لو جئت كسائحة، كنت سأقيم عند أصدقاء شهرين، ثلاثة شهور لزيارة جميع المعالم، جميع المتاحف، جميع التسليات الموجودة في باريس، وأستفيد منها، كنت سأقدّر كل ذلك، أما في وضعي، كنت أرى باريس... سوف أقول لك... لأنك حين تصلين، ليس الآن بعد على الأرجح، إنما في تلك الفترة، يكون لديك دائماً الأمل بالارتقاء، أنت في حالة انتظار، وهو انتظار، فيقولون لك، «أنت في دورة» فإلى حين الانتهاء والحصول على شهادة يحتاج الأمر لعام، فتقولين لنفسك «عظيم، خلال عام سوف أعيش عام تضحية وبعدها إلى مسقط رأسي». وهذا في حد ذاته ليس بالحل الصحيح، لأنك تفترضين أنك مجرد عابرة، ولذلك فلا تقدّرين ما حولك، تنتظرين انقضاء العام للرجوع إلى مسقط الرأس، إلى المنطقة... وجميع ما شابه. هم يدفعونك لتقديرات خاطئة في البداية، بغية استمالتك، نوع من المسكّن. هذا إلى حد ما نوع من الابتزاز، فلا يريد الواحد أن يتكيّف لأنه يقول لنفسه، يجب الاعتياد على الريف، لعلّني لا أنتقل إلى حيث أرغب، في قرية الوالدين أو أن هذا قد يحتاج لزمن. كل هذا يدفع إلى انشغال البال بالأفكار، ويجد الواحد نفسه وهو في دوخة، في دوخة كبيرة، تأخذه في جميع الآفاق، ليس عندي النظرة نفسها الآن كما كنت في عام 76.

◆ أمك كانت تحدثني دائماً عن حقيبتك في تلك الفترة.

دانييلا: نعم، كانت خرجاً بحمالات جلدية. الآن لديهم عربات صغيرة على الدرّاجة عندما تكون الرسائل في الجوار، لديهم مستودعات، والباصات الخاصة بالبريد تنقلك للقيام بالجولات؛ يعني نصف الجولة في حقيبة وهناك شخص ما، مشرف سائق، مشرف يقود سيارة، يُحضر لك الرسائل إلى هذا الرقم أو ذاك، نصف المسافة. مثلاً، أوزّع في شارع «برجير»، سوف أبدأ وأملا خرجي بما يخص هذا الشارع، ثم عند الانتهاء يُصبح خرجي فارغاً، حينذاك، سوف أتناول المزيد من البريد في حقيبة يناولني إياها الشخص نفسه. أنا أكون قد رتبت ووزعت جولتي لكن صحيح أنها كانت... ثم ماذا عن ثلاث مرات في اليوم! كنا نشتغل كل صباح، كان يجب علينا الحضور إلى مراكز العمل في السادسة صباحاً، فإذا وصلتِ متأخرة، طلبوا منك تقديم تفسيرات، وتنالين تقديراً سيئاً، وينجم عن هذا أشياء غير بسيطة. كنا نشتغل كل صباح، وعصر كل يوم من أصل يومين: أفظع الأيام حين كان علينا العمل صباحاً وعصراً، فكنا نقوم بثلاث جولات، جولة مالية، حوالات، رسائل مسجّلة، أموال مصرّح عنها، أشياء من هذا القبيل، أشياء هامة.

◆ هذا يكاد يكون أقسى من الليل.

دانييلا: نعم، سيرج، من جانبه، كان يفضل... لكن حيث هو موجود، لا بأس، يعني، إذا أردت، فموزع البريد يقدم روزنامة للأهالي وهنا تكون مكافأة صغيرة لا بأس بها في نهاية السنة، ليست الراتب الثالث عشر لكن... تأخذين الروزنامة بثلاثة أو أربعة فرنكات وتقدمينها إلى الزبون الخاص، هذا الأخ يقبل أو لا يقبل، ويعطيك على التيسير 50 أو 100 فرنك، فهذا مرتبط بميزانية الأخ، وهذا يكون لك. هي «حصّالة» صغيرة في نهاية السنة بدلاً من الحصول على شهر إضافي كان راتباً إضافياً. هذا له قيمته في الخدمة النهارية.

◆ لكن هل كان هذا يدرّ الكثير؟

دانييلا: أوه لا! يجب على أي حال أن يحبّ المرء ذلك، والقيام بالتسول، هذا أمر خصوصي، يجب على الموزع ألا يخجل من التأرجح يميناً ويساراً، فالأمر ليس بهذه السهولة.

تشرين الثاني 1990



أثناء حديثنا الأول، كانت دانييلا قد رضيت أن تطلب لي إذناً للسماح لي بالحضور، ليلاً، أثناء قيامها بالعمل، في مركز الفرز بشارع آليراي حيث تعمل؛ لكنها مع ذلك أدهشها فضولي فقالت لي إنه «لا شيء أراه زيادة» على ما قامت بوصفه لي، على أن المركز المتعامل مع الشيكات البريدية كان على نظام المعلوماتية وسوف يثير اهتمامي الكبير. على كل، السيد ت.م. المشرف على توزّع العمل، رئيسها المباشر، كان حالياً في العطلة الصيفية ولا بد من انتظار عودته، لأن ذاك الذي كان يؤدي العمل نفسه، بالنيابة عنه، هو «مهووس شغل»: فأفهمتني هكذا بلطف أن مثل هذه الزيارة لم تكن مألوفة إطلاقاً وأن من الضروري التحضير لها.

وبعد مرور ما يقرب من أسبوعين، خابرتني ذات مساء، بالضبط قبل شروعها بالعمل، دون شك من هاتف السيد ت.م. ودفعة واحدة، حتى قبل أن تذكر سبب اتصالها، كلمتني طويلاً ودون سبب ظاهر عن الزيارة القريبة التي سيقوم بها إلى باريس أحد الجيران من آفيرون، علاقتها به، كما علاقتي، ليست عميقة، لكنه «أحد أفضل أصدقاء رئيسـ{ـها}» (كانت دائماً تسميه هكذا في حديثها معي لكن، مثل باقي «الفارزين»، فهي تناديه عادة باسمه). إن عرضها العابر لوضع «الرئيس» ت.م. كان يسمح لها في الوقت نفسه التأكيد على علاقاتها مع رئيس لها يمكنها أن تطلب منه

حظوة، ثم التعبير عن اعتزازها، حتى في موقع المرؤوس، بتبعيتها لمؤسسة لها ترتيبها الهرمي المعقد، من أصغر الموظفين وأبسطهم (والذي له حتى بعض العلاقات مع القرية التي جاءت منها) إلى أقواهم وأبعدهم عن التناول ممن لا يمكن الوصول إليهم («حتى رئيس الوزارة»). فهي بحديثها عن رؤسائها وباسم رؤسائها إنما كانت تحتمي أيضاً وراء سور المؤسسة الكتيم.

وقد سبق لي أن لاحظت، أثناء الحديث الأول، أنها كانت تشعر بالحرج ولا تريد أن تحكي عن حياتها في باريس، فكانت تحرف الحديث دائماً لاسترجاع ذكرياتنا في آفيرون، ولاستعراض آخر الأخبار عن والديها أو عن السكان الآخرين في القرية. كانت بهذا تُدخل «البلد» في عالمها الباريسي، تاركة لقليل من قرية آفيرون الصغيرة إمكانية التسلل إلى داخل مركز بريد شارع آليراي. وهكذا، فإيراد اسم هذا الجار وإعلامي بصداقته مع ت.م. كان من شأنه أن يساهم في جعل مركز الفرز البريدي في الدائرة 15 مكاناً مألوفاً لدي، مثلما كان يخفف من كون اهتمامي بعملها أمراً في غير محله..

اتفقنا أن يكون لقاؤنا أمام البناء رقم 19 في شارع آليراي، وهو البناء الذي يضم مقر مكتب البريد، وذلك في مساء أحد الأيام الساعة التاسعة مساءً: وقلت لها إنني سوف أجيء ومعي صديق. شارع آليراي، الواقع في حي فوجيرار، يكون خاوياً في المساء؛ المتاجر الصغيرة، حتى المقاهي، مغلقة منذ بعض الوقت وبما أن الشارع لا يؤدي إلى أي مكان من أمكنة النشاط الليلي، فالسيارات العابرة فيه نادرة جداً. وما تجاوزتنا سوى شاحنات البريد الضخمة الصفراء المتمايلة بقرقعة على أرضية الشارع المخرّبة بأعمال الطرق. لكن البناية المربعة ذات النوافذ المسوّرة بالقضبان بدت لنا على العكس باهرة الإضاءة في طوابقها الثلاثة. كانت دانييلا تنتظرنا، كانت قد «وقّعت» إذن «فلا مشاكل». شعرتُ رغم ذلك أنها عصبية، وأنها في الوقت نفسه ثرثارة وخجلة. درنا حول البناء باتجاه الخلف وصولاً إلى باحة تفريغ الشاحنات البريدية التي تسلّم طوال الليل البريد المرسل إلى الدائرة 15.

في الطابق الأرضي، كانت «السياسة» هي موضوع الفرز، أي، على مدى أسبوع، الصحف اليومية مضافاً إليها، في بعض الأيام، المجلات وبصورة عامة الصحافة الدورية...

تشتغل دانييلا في الطابق الأول، فهناك يجري فرز الرسائل؛ وللوصول إلى هذا الطابق يجب استخدام درج مبلّط ببلاط أصفر ورمادي مما نجد مثله في كثير من الإدارات العامة؛ وعلى استراحة الدرج، في منتصف الطابق، توجد لوحة نقابية مثبت عليها بدبابيس كبس أوراق مسحوبة على ورق الحرير وإعلانات صغيرة.

في ذلك المساء كانت دانييلا تلبس الجينز الضيق مع بلوفر أبيض مبرقع بالأسود، وحذاء أسود بكعب صغير. شعرها الطويل المتفاوت الانتظام في الخلف مسرّح بتسريحة «اللبوة» من حول الوجه ويحمل دلائل المعالجة بغية تفتيح لون بعض الخصل. موقعها في العمل في بداية الرواق، فعلى يمينها زميلة من فيلفرانش-دو-رويرغ وهي تتحدث معها «عن البلد»، وعلى يسارها مشرفة من الفيين «تعرف سيغوندي» لأنها دعيت إلى حفل الزواج في 1985: علاقات جوار تمّ اكتسابها بأناة وصبر، بمناسبة رحيل أو غياب زملاء أقل ألفة، وبفضل أذونات أُعطيت لها بحسن نية.. كان 21 شخصاً يعملون ذلك اليوم (العدد يمكن أن يرتفع إلى 31 حسب حالات الغياب، العطلة الصيفية والتبديلات). ثلاثة أرباع العاملين من النساء: جميعهم من الشباب من 20 إلى 35 عاماً؛ هناك مع هذا متقدم في السن «40 عاماً»، لكنه لم يكن حاضراً ذلك المساء. منهم من يرتدي بلوزات نايلون زرقاء مقدمة من الإدارة لكن ارتداءها غير إلزامي والكثير من النساء بالجينز مع قميص أو بلوفر. بالنسبة لهن، كما بالنسبة لدانييلا، يقدم العمل فرصة اختبار التسريحة الجديدة، والبلوفر الجديد.

صالة الفرز كبيرة جداً، بطول 40 م وعرض 25 م أما ارتفاع السقف فيبلغ سبعة أو ثمانية أمتار، وهي مقسّمة إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الأعمدة. ضمن هذا المحيط ظهرت دانييلا فجأة وكأنها بعيدة جداً،

ضائعة وسط هذا «المصنع» الخارج عن الزمن، فهي طيف بسيط ضمن حلقة «الفارزين»، الواقفين طوال الليل، لأنهم لم يلحظوا في تلك الصالة أي مقعد أو حاجز للاستناد. كل شيء مدهون بالرمادي الغامق حتى ارتفاع متر و50 سم من الأرض، وبالرمادي الفاتح في المساحة المتبقية، الإضاءة الباهتة المنتشرة من أنابيب نيون محجوزة في علب مستطيلة ذات زجاج شديد السماكة تبدو شديدة الشحوب باستثناء الرواق الأوسط (ذاك الذي يجري فيه شغل الليل) فهو حسن الإضاءة بينما الرواقان الجانبيان يغرقان في العتمة. رواقا اليمين واليسار مخصصان لتوزيع رسائل كل حي في حقائب موزعي البريد، فكل فارز يعزل الرسائل التي سوف توزع في اليوم التالي بواسطة موزعي بريد، أما الرواق الأيسر فيضم أيضاً «الحجرة» التي يتم فيها فرز الأغراض العينية والرسائل المسجّلة. على الحائط بعض الإعلانات، لوحة فيها تشريح العمود الفقري، لوحة أخرى تصوّر، بالرسوم، الطريقة الصحيحة لدفع العربات لكن اللوحتين على ارتفاع كبير بحيث تتعذّر قراءتهما. على يمين المدخل زاوية غائرة فيها مشجب مغطى بالسترات، بقبعة ودون قبعة. في مواجهة الرواق الأوسط «المكتب» الذي لا يفصله شيء عن باقي الصالة، طاولتان، هاتف، وثلاثة مقاعد منجدة بالجلد الصناعي، بمساند معدنية، كل شيء قديمٌ ومستهلك ولا من ديكور تزييني سوى روزنامة البريد بلونين أصفر وأبيض، لوحة دعاية تمثل زورقاً شراعياً من ورائه بحر أزرق؛ وكانت تلك المقاعد الوحيدة في تلك القاعة الكبيرة، هي مخصصة لرئيس الورشة ولم يستخدمها ت.م. أثناء زيارتنا. منذ سنوات حاول أحد المسؤولين أن يبدأ بصياغة مشروع مقاعد تابوريه دوّارة للفارزين. لكن ذلك المشروع لم ينجز قبل رحيله فلم يعد إليه أحد من بعده. قال ت.م. «كان لا مهرب من تحريك أشياء كثيرة، وإقناع الإدارة، لكن أحداً لا يبالي بذلك. وحده الإضراب... » أضاف وهو يخفض صوته.

عند وصولنا، كان «الفارزون» قد أخذوا مواقعهم في العمل في طرفي الرواق. واقفين أمام الـ 66 علبة معدنية المتراتبة شاقولياً والواجب

عليهم معالجتها (بمعدل 1500 رسالة في الساعة) والتي خصصت كل واحدة منها لبريد شارع واحد، أو في الغالب، لقسم صغير من شارع. ومن فوق هذه العلب جميعاً لوحات كرتونية تحمل أرقام شوارع الحي، وهي موضوعة على ارتفاع لا يتيح قراءتها. كل شيء هناك يدل على الإهمال، ويعلوه الغبار قليلاً، فكأن القسم مصنع حُوِّل لصالح البريد.

إلى يمين «المكتب»، مقابل المصاعد، كان الأشخاص الأربعة الذين يتولون العمل على «طاولة الفتح» قد بدأوا بفتح أكياس البريد الأولى: هم أيضاً وقوف. الطاولة التي سوف تفرز عليها 30000 رسالة تقريباً تلك الليلة لا تتجاوز أبعادها مترين للطول و 60 سنتمتر للعرض. والبريد المرسل حصراً إلى الدائرة 15 (لأنه فرز سابقاً في مكاتب بريدية أخرى) جرى ترتيبه بحسب «الحي». في «صناديق» بالنسبة للرسائل الصغيرة أو في عربات معدنية بالنسبة للمغلّفات الضخمة. فكل «فارز» يأتي ويأخذ الصناديق المطابقة لقطاعه. لا يتحدث إلينا ت.م. طويلاً، فمن عادته المساعدة في بدء الفتح ولم يشأ أن يستنكف عن ذلك استثناء بسبب زيارتنا. وبالقرب من هذه الطاولة تحديداً عُلّقت على خزانة برفوف البطاقات البريدية الملوّنة، ذكرى الإجازات الصيفية، وكانت مثبتة إلى جانبها، بدبابيس كبس، «روزنامة المسافرين» من إصدار شركة الخطوط الحديدية ترشد إلى الأيام التي يمكن السفر فيها بسعر مخفّض. في تلك القاعة الهائلة، كانت تلك الخزانة المكان الوحيد الذي استولى عليه الموظفون. وكان مكبّر صوت أجش يذيع موسيقى، على الأرجح لحن روك يستحيل التعرف عليه بسبب العربات المليئة بالأكياس الضخمة المغبرّة التي تتصادم بينما يخرجها عمال النقل من المصاعد بدفعات عنيفة.

جاءت دانييلا أكثر من مرّة لترانا وتعتذر «عن عدم تمكنها من الحديث معنا»؛ على أن كمية الرسائل التي كان عليها ترتيبها لم تكن كبيرة جداً وكان يبدو بوضوح أن ت.م. ما كان ليحتج لو فعلت. فهي محرجة لأنها تركتنا مثلما هي محرجة لعدم التحدث معنا، وقد ذعرت بشكل مفاجئ من

ذلك التدخّل الذي لم تكن متأكدة منه إلا حدساً، فالتزمت بسلوك معتدل مؤكدة لنا باقتناع أنها فعلاً ما كانت تستطيع تبادل الحديث معنا، ثم عادت إلى جانب زميلتها وحمرة الخجل تعلو وجهها.

ميشيل ب. رجل قصير القامة أسمر اللون بشاربين، في الستين تقريباً، وهو مشرف القسم والرئيس المباشر للسيد ت.م.؛ أمضى حياته الوظيفية كلها في البريد، في الخدمة الليلية. تمعّن فينا لبرهة دون أن تواتيه الجرأة ليشرع بالحديث معنا، فكان يروح ويجيء في الرواق، وعينه على كل شيء، بنشاط وصمت. وإذ لم يعد يستطيع تجنبنا، تشجّع «آه! الصحافة». فكان مستعداً لتكريس بعض الوقت، لو كنا نريد، كي يرافقنا في زيارة الأماكن، وتلك ذريعة لإبعادنا عن سلسلة الفرز لاستعراض بعض الذكريات.

ما زال يذكر مجيئه إلى باريس: كان عمره حينها 18 عاماً عندما ترجّل ذات يوم في محطة أوسترلتز، قادماً من سان -جان -دو -لوز. المدينة التي ولد فيها، حاملاً حقيبته بيده، وقد توجّب عليه الاستدلال على وزارة البريد، لكن كان الأصعب بالنسبة له، إيجاد غرفة للسكن. يقولون إن الأمر أسهل اليوم على الشباب القادمين إلى باريس بسبب مراكز الاستقبال لكنه غير متيقّن من هذا فعلاً. فلم تتغير الأمور كثيراً: فالفتيات الشابات في الخدمة الليلية، كما أضاف، هن جميعاً من بنات الأرياف أو قادمات من المستعمرات الفرنسية عبر البحر، فلا يعرفن في الغالب عن باريس إلا محطة القطار (المتصلة بمناطقهن)، ومكتب البريد، والغرفة التي تسكنها كلٌ منهنّ. هن يأتين من بروتاني أو من الجنوب الغربي، وقد ابتعدن لأول مرّة عن الأهل، فيشعرن بالخوف ويعشن على انتظار أيام العطل القليلة المتراكمة كي ينطلقن من جديد كلٌ إلى مسقط رأسها. ويعمل «الفارزون» ليلتين من أصل كل ثلاث ليال من الساعة 21 حتى الخامسة صباحاً (الرؤساء ليلة من كل ثلاث من الساعة 21 حتى التاسعة) إنما لا عمل إطلاقاً يوم السبت، وإن كان بالإمكان، عن طريق حكاية «العمل محل الزميل» جمع عدد كافٍ من

أيام العطل لقضاء أيام في «مسقط الرأس». هذه الامتيازات تفسّر كيف يتطوع الجميع للشغل في الليل لأنه لا ينتج عنه ضرورة ترك العمل بلا رجعة.

لدى وصولهن إلى باريس، فإنّ هؤلاء الريفيات الشابات (معظم العاملين في الفرز من النساء) لا يعلمن أنهن لن يرحلن أبداً وخلال سنوات، مثل دانييلا، يعشن على أمل وظيفة مشرف في قراهن. فيكتشفن شيئاً فشيئاً أنها خدعة موهومة لأن عليهن الانتظار عشرة أعوام في المرتبة نفسها، أي دون تحسن ودون ترفيع، قبل أن يأملن بالاقتراب من مناطقهن (خاصة منهن القادمات من غرب فرنسا أو من المارتنيك: «فالمارتنيكيات لا رحيل لهن أبداً»).

مضى الآن على وجود دانييلا في باريس 12 عاماً، و 7 أعوام على زواجها من سيرج. أم سيرج، «امرأة شديدة التسلّط وتدقق في أتفه الأمور» تأتي أحياناً لقضاء النهار ويوم الأحد عندهم، ويذهبان في أغلب الأحيان عند إيفيت، شقيقة دانييلا، التي تدير مقهى في باريس. مساء السبت الذي يكونان دائماً خلاله بلا عمل، يستغلانه في المشاوير مع أصحاب. دانييلا، من جانبها، تتابع عن كثب نشاطات جمعيات الصداقة الباريسية الخاصة بقرى آفيرون. وهكذا، كانت قد أمضت مؤخراً يوم عطلة نهاية الأسبوع بأكمله «بمفردها، دون وجود زوجها» في «عيد بايلرول» الذي أتاحت لها مأدبتاه والحفلات الراقصة التي أقامها «أن تعود إلى أيام يفاعتها».

بعد فترة من زيارتنا تلك في شارع آليراي، صارحتني دانييلا، على الهاتف، «أن الحال لا يمشي كما يجب» بينها وبين سيرج وأنها منذ فترة «ترى كل شيء باللون الأسود».

روزين كريستان

الامتلاك

كورين عمرها 50 عاماً. وهي موظفة منذ عامين في نقابة مهنية من بعد قضائها أكثر من 15 عاماً كسكرتيرة تجيد لغتين في مشروع صناعي صغير، صُرفت من الخدمة فيه لأسباب اقتصادية من بعد تصفية المشروع. أصبح راتبها الآن أقل ووجدت نفسها مجبرة على التخلي عن موقعها ككادر الذي استمر لسنوات طويلة موضع أخذ ورد مع رب العمل ورمزاً للكرامة التي تتعرض دائماً للإهانة.

قليلاً ما تتحدث عن أهلها، من المهاجرين الإيطاليين؛ كان والدها «مسلّم مواد بناء»، لكن لم تعد تتذكر جيداً عمل والدتها: «معلّمة عند عائلة»، ذكرت على عجل. «ما كانوا يملكون شيئاً» عندما كانت طفلة، وفيما بعد، بعد زواجها، «أرادت أشياء»، كسب المال، «الصعود»، «الكفاح». «هذا مضني، لكن هذا يشدّ عزيمتك، فتتقدمين.»

في سن الـ 20، من بعد البكالوريا وسنة في كلية الحقوق، تزوجت كارين من طيار مقاتل، هو اليوم متوفّى. وقد لحقت به لأكثر من عشرة أعوام في تنقلاته العديدة وربّت ولديهما. لكنه حين تخلّى عن الحياة العسكرية بغية احتلال مركز عمل ثابت في الحياة المدنية، ونظراً لتناقص المزايا المادية، فقد سعت إلى تدبير عمل. كان عمرها 31 عاماً؛ فوجدت وظيفة مكتبية غير بعيد عن سكنها، وتسجّلت في دورة لتعلّم الإنكليزية في

مدرسة برليتز ودورة تأهيل على الآلة الكاتبة. فأتيح لها بشهادة الآلة الكاتبة وبفحص قدمته لدى غرفة التجارة الفرانكو-إنكليزية أن تستلم وظيفة سكرتيرة في إدارة مشروع صغير، في زمن لم يكن إيجاد الوظيفة فيه قد أصبح بعد بتلك الصعوبة الفائقة. بعد مضي عشرة أعوام، بيع المشروع للسيد روجيه ج. وهو محاسب قديم في مطبعة جزائرية، من أشباه «تابي أو ماكسويل إنما على أصغر»، فكان يشتري كل عامين شركات قيد التصفية، «كي يربح عملة طرية».

كانت شركة هولدنغ تضم قرابة أربعين موظفاً وتعمل بالأسلوب التسلطي لأرباب العمل كما هو مألوف في المشاريع الصغيرة. كان روجيه ج. يردّد بسهولة ويسر: «في شركتنا، الجميع عائلة، ويجب أن تعيشوا مع عائلتكم.» بُعيد دخوله كمالك للمشروع، حاول التودّد إليها فصدّته. فكانت بداية «خمسة أعوام في جهنم»: روت بأسلوب المضحك المبكي تهديدات التسريح («نهايتك أن أرميك برّه»)، والإهانات العلنية («سعرها أعلى مما يجب!»)، طردُها من العمل المكتبي، وإحالتها إلى «جماعة الورش»، وكل التنغيصات الصغيرة في كل مناسبة وخصوصاً الضغط اليومي، والخوف من الوقوع في أي خطأ يؤخذ عليها كمستمسك ولو أنها «حولت الأمر إلى نكتة، لم تكن النكتة تمر.. كانت حرباً حقيقة(...) واستمرت لفترة طويلة».

كانت «تعيش في عزلة» (...): «في هذه المشاريع الصغيرة، يأخذ ربّ العمل حجماً كبيراً!»، «كانت الطاعة واجبة». الجميع يعاملون معاملة سيئة دون أن يحتج أحد، دون أن يترك العمل أحد لأن روجيه ج. «كان يدفع جيداً». كان في الوقت نفسه بحجم النجاح وكان مثلاً عليه، مرهوب بسبب قسوته لكنه موضع إعجاب بسبب حسن تصرفه الظاهر أمام الجميع. ما كان لها أن تنتظر من زملائها أي عون أو مواساة: كانوا خائفين. بل تراءى لها أن بعض النساء كن يتلذذن بمعاناتها («فماذا تظن نفسها صاحبتنا»). كان وضعها الوظيفي الملتبس بعض الشيء يحميها من التسريح، هو باهظ الكلفة بالنسبة للمشروع لكنه يجبرها من طرف آخر، كي تبرر وضعها

المتميز وراتبها المرتفع، لبذل الجهد يومياً وللالتزام بموقف وظيفي لا غبار عليه. بالنسبة لكورين، كما بالنسبة لروجيه ج.، اللذين انطلقا كلاهما دون أي تأهيل حقيقي، لكل شيء ثمن، ولا مهرب من «القتال» في سبيل النجاح. فالحديث عن «مضايقة جنسية» مثل باقي «صغار السكرتيرات»، ليس أكثر من تملّص رخيص، ووسيلة للتنكّر للإمكانيات والكرامة. فهي لا تشتكي، ولا تسعى للانتقام؛ هي تطالب بقليل من العدالة حيال رغبتها، هي أيضاً، في أن تلعب لعبة النجاح.

«لا رغبة كبيرة لي خارج نطاق العمل»، هذا ما قالته لتفسير انكبابها على عملها وتبرير الاهتمام البسيط الذي كانت توليه لحياتها الشخصية. ورغم جميع الجراح الصغيرة أو الكبيرة، أو ربما بسببها تحديداً، كانت الحياة في المكتب تهبها جميع الانفعالات أو الأحداث الأبلغ أثراً في النفس، الخوف، المذلّة، إنما أيضاً روح العمل الفعّال والنجاح وهذا الارتباط المتناقض ميلاً ونفوراً بربّ العمل روجيه ج. الذي كان يغرقها كل مساء بمهام متراكمة؛ حيال كل ذلك، كان دورها الخاص في الحياة «خارجاً»، ذاك الدور الروتيني الخالي من المفاجآت، يبدو لها باهتاً لا طعم له، بل «فيه ظل حزن وكآبة».

سرعان ما تعرّفت في روجيه ج. على الميل نفسه الذي يشدّها إلى العمل الفعّال، وهو ميل كان لديه بحجم رجولته المسيطرة، كما تعرّفت فيه على ذلك الإحساس بالاعتزاز الذي هو دائماً في حالة استنفار. كان يشتري المشاريع المفلسة، الواحد بعد الآخر، ولذلك كان يستولي على الرجال والنساء، ثم يفرض عليهم إرادته وقوته كرجل وكربّ عمل. فعلى جميع النساء «المرور عبر أحضانه»، بأبسط ما يمكن، لكن كل واحدة حسب مرتبتها، من الشغّالة «التي تُبطح على الموكيت» إلى السكرتيرة و «الهدية الصغيرة»، حتى كورين التي جرّب عضلاته فيها دون توفيق بادعاء علاقة عاطفية: «هل تحبينني؟». لم تكن كورين مغفلة وكانت تعلم أن الحب، من وراء الغرض الظاهر، لم يكن في قاموس روجيه ج. وأنه كان يسعى إلى إرضاء رغبة امتلاك أكثر حدة لكنها مستحيلة الإرضاء.

ناهيك، أن الرجال أنفسهم ماكانوا في منأى، حيث كانت رغبة الإخضاع تتجلّى في التنغيصات والمواقف المذلّة العلنية بما فيها من إهانة وما يرافقها من مساومة ضمنية بخصوص الوظيفة، والراتب، وإعطاء أجرة الشهر الثالث عشر. لكن روجيه ج. كان يعرف أيضاً كيف يكافئ؛ فهو «ربان سفينة» يتسلّى بتمييز هؤلاء، ونبذ أولئك على مزاج مناورات استراتيجية معقدة وعابرة، وبحجة إيجاد «التنافس»، كان يتفنّن بخلق الشك والغيرة، ممارساً بذلك على حياة كل واحد سيطرة يريدها قطعية. ونظراً لتمتّعه بطاقة نادرة، كان تحت تصرف روجيه ج. جميع الامتيازات لخلق عالم مغلق، منتظم بأكمله انتظاماً تاماً حول شخصه، وتلك محاولة يائسة لإرضاء شهية هيمنة لا يمكن إشباعها.

مع سكرتيرة

حديث أجرته روزين كريستان

«لا احد يمكنه أن يمسّ مثل هذا النوع من البشر»

[...]

كورين: كنت سكرتيرته. كان شخصاً متطلباً جداً يغرقني بعمل هائل وبالغ الصعوبة. كان لديه عشيقة معروفة. بالتالي، لمدة عامين، كنت مرتاحة... (...) يعني، عندها كنت تقريباً كذلك... ومن بعدها ترك هذه المرأة و «حطّ عينه عليّ»، يعني عندها شيء فظيع. لقد أُلحقت بفرع آخر، لعامين تاليين...

❖ مصادفة؟ أو بأمر منه؟

كورين: لا، مصادفة لأنني كنت أعرف الإنكليزي وأنهم كانوا يصدّرون كثيراً، وبالتالي فقد ارتحت. من بعد ذلك، عدت إلى مقر الإدارة... وهنا، كان الأمر صعباً للغاية، كان، إذا شئت... حسناً لقد عانيت من هجمات هذا الرجل، فأنا لم أكن أريد أن أنام معه لأني لم أكن راغبة في ذلك، فتحول هذا إلى... بادئ الأمر كومة من العمل الهائل، أكبر بكثير من أن يمكن إنجازه في يوم عمل، يعني، كما ترين.

❖ أي نوع من العمل؟

كورين: مثلاً، كان عليّ أن أقوم بتحضير جميع الفواتير، وإرسالها وأخذ نماذج، وتسجيل المرتجعات المالية، والرد على الهاتف...

❖ وهو ما كان يجب أن يوظف شخصاً آخر للقيام به...

كورين: كان يمكن أن يكلف به غيري ولكن... على كل عندما رأيت أن الحال لا يمشي هكذا، راجعت رئيسي المباشر حينها وقلت له، قلت له: «إذا كان روجيه ج. يريد تسريحي، فليسرّحني، أنا لا أقدر أن أستمر هكذا». فكان الجواب، «لا، لا مانع من أن ترحلي لكن دون تسريح».

[...]

لا، أصبح هذا عذاب كل يوم، فأنا ، كان يدخل إلى مكتبي، أكون غارقة في الملفّات، فيقول لي، «يا كورين هاتي الملفّ الفلاني»، كان عليّ فوراً الاستجابة وإعطاؤه الملفّ في ثوانٍ. كنت أعيش عذاباً مرعباً. لقد عشت، أستطيع أن أقول، طيلة خمسة أعوام... معذّبة. كان لديّ مفكّرة تلازمني كيفما تحركت. في البيت، كنت أستخدمها. كان زوجي يجيء أحياناً، «ما هذه الروزنامة، هي مليئة بالأسود»، لأنني كنت أحمل الروزنامة معي مساءً، فأستعيد كل ما قمت به، وكل ما يجب عليّ القيام به في اليوم التالي، وهذا من، بعد إذنك، كي لا أنسى. عشت خمسة أعوام!.. فهنا، بالفعل أشتغل - مؤكد هو شغل غير سهل- أعترف بهذا لكنه يبدو لي.. يعني، كما ترين..

❖ قلت إنه «حطّ عينه عليك»، فكان إذن يستمر في مضايقتك جسدياً أم أنه...

كورين: هذا لا. لأنه بين وقت وآخر كان يجد غيري. لأنه... يعني كان ينام مع الجميع، هه. هذه كانت قاعدة عنده. لا صبيّة، لا سكرتيرة صغيرة إلا ودخلت سرير روجيه ج. هذه كانت قاعدة عنده. وأنا، لو لم يكن إلا لهذا السبب، لم أرد الاستجابة له. لكن، من بعد إذنك، من وقت لآخر، كان يجد عشيقة، فيأخذها لفترة، لكنها من بعد ذلك لا تعود مناسبة، عندها كانت تعاوده عدوانيته تجاهي، أرأيت؟... كانت، يمكن القول، عدوانية نفسية مستمرة. مثلاً، أنا بقيت عامين دون أية زيادة شخصية في راتبي. كنت

أمشي -كما كان يُقال من حولي- طريق العذاب إلى دمشق. لكن كان هذا الأمر مرعباً. مرعب، أنه، من بعد إذنك، كان دائماً، كان على الدوام، باستمرار...

❖ وكنت أحياناً معه وحدك في حجرة أو...؟

كورين: نادراً.

❖ نادراً.

كورين: كان يُظهر... عدوانيته تجاهي أمام الجميع. هذا الرجل استدعاني في يوم من الأيام. إلى مكتبه، لم أكن أعلم ماذا فعلت، وكان الجميع عنده -دائماً يكون عنده الجميع، كان يفعل هذا عن قصد، لإغاظتي أكثر- فقال لي، «أحبُّ ما عندي أن أرميكِ إلى الشارع» ...

❖ آه هكذا، كان يخاطبك بصيغة المفرد...

كورين: كان يخاطب الجميع بصيغة المفرد. فقلت له، «افعل ما تشاء، يا سيدي»، فقال لي، «نعم، حتى مع أنني مضطر لتشغيل اثنين محلّك، لأنني لم أعد أطيق تحمّلك».

❖ ولم يكن يوضّح لماذا؟ لم يقدم أبداً تفسيراً؟

كورين: لا

❖ كان دائماً...

كورين: كان دائماً بشكل مضمر، يعني...

❖ طيب، لابد أن شيئاً ما قد حصل قبل نقلك إلى الفرع الأول، هناك؟...

كورين: في البداية...

❖ في اللحظة... يعني، أنت قلتِ منذ قليل «حطّ عينه عليّ»، فماذا حصل في تلك اللحظة بالذات؟

كورين: حصل هذا كالتالي، ففي يوم من الأيام قال لي، «يا كورين، هل تحبينني؟»، فقلت له، «نعم يا سيدي، مثل ميداليتي الصغيرة، هكذا قلت

له -أكثر من البارحة، وأقل من الغد، هكذا قلت له، ودائماً سوف تكون الأمور هكذا».

❖ فماذا أجابك، عندها؟

كورين: لم يقل شيئاً، رحل. لكنه قال لي ذات يوم، «سوف تندمين على ذلك». لكن من بعد إذنك، لم يكن هذا الرجل مغرماً بي، بالنسبة له هذا الأمر ليس له أية أهمية: كان من فرنسيي الجزائر، وكان بحاجة، من بعد إذنك، إلى أن ينام مع كل النساء كي يفرض نفسه. في العمل لم يكن يحب كفاءة النساء، هذا لم يكن...

❖ لم يكن يثير اهتمامه، على ما أتصور، في العمق؟

كورين: لا. إطلاقاً. يعني. شيء مضحك مثل هذه النوعيات، هذا لم يكن يثير اهتمامه. كفاءتي، في العمق... كان يفضل لو أنام معه. إذن لكان تركني مرتاحة، لكان بإمكاني، بعدها، أن أظل في مكتبي، دون أن أفعل شيئاً، لمدة عامين ونصف، إن أن الأمر يستمر عادةً مدة عامين ونصف. لكن كان هذا مخيفاً، لكنني الآن نسيت، نسيت أشياء كثيرة، لأنني من بعدها، فقدت عملي، فقدت زوجي، يعني مرت بي أمور كثيرة، لكن أنا أستطيع أن أقول لك مثل هذا السلوك موجود، غير أنه في رأيي غير موجود كثيراً في المشاريع الكبيرة، هذا موجود في الصغيرة. لأنك في الكبيرة، إذا حصل هذا، يمكنك دائماً التوجه إلى النقابة أو إلى «لجنة المشروع»، عندنا هذا لم يكن موجوداً.

يا مدام، بلا دندنة...

❖ وماذا كان رأي الآخرين؟

كورين: كانوا خائفين. لكن، في العمق، عند بعض النساء، كان منهن من يتلذذن قليلاً، «تستحق هذا تماماً، فماذا تظن نفسها»، يعني أشياء هكذا؛ عند الرجال، لم يكونوا يتكلّمون عن هذا... لقد حصلت على امتيازات عندما ألحقوني بالفرع، حصلت على امتيازات مالية وعلى معاملة لطيفة...

❖ لأنه نكّل بك ولأنك رفضت النوم معه لأن الجميع كانوا يعلمون...

كورين: بالضبط، لكن على وجه الخصوص لأنني... تعرفين، الأخلاق في مجال الصناعة لم تكن يعني... الناس كان الأمر سواء بالنسبة لهم، أن أنام معه أو لا أنام، لكن، من بعد إذنك، ما يهمّ كان الجانب الظالم، الظلم من الناحية المهنية، وليس على مستوى الأذى الجسدي أو الجنسي، بل على المستوى المهني، أظنهم كانوا يقولون لي، «لكن هذا أمر غير ممكن، من الضروري..» أنا في يوم من الأيام كان عندي مدير قال لي -أنا من طبعي المرح وغالباً ما أدندن- فقال لي، «يا مدام، بلا دندنة، لحسن الحظ السيد روجيه ج. بعيد، لأنه إذا سمعك سوف يضربه الجنون». كان الانتباه بصدد تصرفاتي مستمراً..

❖ إذن ظل طيلة خمسة أعوام يتذكر رفضك له، رغم أنه لم يعد بعد ذلك إلى التودد؟

كورين: لا.

❖ لكن في النهاية كان ينتظر ربما أن تنهاري، أن تأتي للارتماء عند قدميه... في يوم انهيار، ليحصل عليك هكذا...

كورين: أظن... أظن...و، من بعد إذنك، عندما قمنا بتصفية الممتلكات، ضُغط عددنا، وكنا بإمرة نقابي، إداري قضائي، إذن حصلت تسريحات كبيرة، وبقينا قلة من أجل تشطيب الملفّات... كنا حفنة. وحتى بهذه المناسبة أنا لم أغير موقفي لكنه من جانبه ظل على عدوانيته.

❖ لكنه أصبح على الحصير، في ذلك الوقت..؟

كورين: كان على الحصير، وكان، يعني، ناقماً عليّ لأنه كان يقول، أعلم أنه قال لبعض المدراء «لقد رأت المصيبة قادمة». هذا صحيح. لكني لم أقابله لأقول له، «سيدي انتبه، أرى كذا، رأيت كيت»، لم أفعل شيئاً. ولم تكن قضية انتقام لأن ذلك كان مثل الانتحار بالنسبة لي. لو أني ذهبت لرؤية روجيه ج.، لو أني قلت له، «هل تعلم يا سيدي أرى بعض الأمور التي تؤدي إلى كيت وكيت»، كان سيطلب حضور الجميع إلى مكتبه وكان سيقول،

«تفضلوا واسمعوا ... ماذا تروي السيدة م.»، إذن، هذا كان كالانتحار بالنسبة لي. بالتالي، لم أكن راغبة في هذا. لكن هذا كان مخيفاً. سوف أحكي لكِ، ففي يوم من الأيام كان لدينا حلقة محاضرات، وكان هناك عمال حضروا من مصنع في «جيان»، من الورشات –وأنا ليس لي أي اعتراض على جماعة الورشات– فكان الجميع جالسين إلى الطاولة الرئيسية، أنا كنت في صدر القاعة مع عمال الورشة، علماً أنه لم يكن لي علاقة مع هؤلاء الناس. فكم من الأمور كانت هكذا! وعندما جلس الجميع لتناول الغداء، حول الطاولة، كأني أرى المشهد من جديد... كل واحد استلم علبة طعامه المحضّر ولم يكن للسيدة م. علبة. آه لا، بالتأكيد، العلبة هي هناك في البعيد. هذا المقلب لعبه معي مرتين، ثلاث مرات...

❖ لماذا لم يكن يصرفك من العمل...؟

كورين: بكل بساطة لأن عليه أن يدفع، كما ترين فأنا كادر، فلم يكن يستطيع تسريحي هكذا. ولكن، بالنسبة له، كان تسريحي من أسوأ الأمور عنده، لو أراد تسريحي، لكن... حتى آخر لحظة، كان وسخاً ودبقاً معي. كنت الوحيدة التي تعرف لغتين في المشروع، فعندما وضعونا بإمرة إداري، وجدت ملفّات مع نيجيريا، وكانت ملفّات معقدة جداً، وكان علينا التعامل مع شركة «لويد» في لندن، يعني، هذا احتاج إلى عمل وجهد. فأنهيت هذه الملفّات على الوجه الحسن وعندما انتهيت، طلبت، يعني مثل كل الآخرين، إعفائي من فترة نهاية الخدمة، كما ترين... لأن الجميع جرى إعفاؤهم من الخدمة الإضافية في مثل هذه الحالات! عظيم، أما أنا، فرفض إعفائي من هذه الخدمة الإضافية...

❖ كم كانت الخدمة الإضافية؟

كورين: مدة الخدمة الإضافية، إذا سرّحوكِ لنقل في أول شباط فيكون بذمتك ثلاثة شهور...

❖ آه هكذا، وأنت في النهاية، عندما كنت تريدين الانصراف...

كورين: بالضبط! أنا كان تاريخ تسريحي 8 آذار على ما أظن، أو في

حدود هذا التاريخ فطلبت إعفائي، لأن الجميع! لا أحد نفّذ الـ... لكن أنا، لم يكن يريد.

❖ لكن هل كان ما يزال عمل للقيام به؟

كورين: لا. فكنت أصل صباحاً إلى مكتبي...

❖ كم من العاملين كانوا ما يزالون هناك؟

كورين: أوه، أظن أننا كنا خمسة أو ستة، ما كان سوى مدراء عامّين وأنا. كنت أصل إلى مكتبي، فأجلس: في المصنف، توجد أحياناً رسالة –فكان عملي لا يتجاوز خمس دقائق؛ فكنت أُحضر جهاز الراديو معي، وأقرأ طيلة النهار، لأنني لم أكن أقدر أن أفعل شيئاً. وهذا، أنت لا تقدرين على شيء حيال هذا. في الشركة الكبيرة لا يمكن وجود هذا. لكن الذين لم يشتغلوا أبداً في المشاريع الصغيرة والمتوسطة لا يمكنهم أن يعلموا مدى خضوع الموظف هناك لرئيسه في العمل. لا أحد يمكنه تصوّر هذا. تكونين خاضعة خضوعاً مطلقاً لمن هو أعلى منك. فإن كان مستقيماً، ماشي الحال، وإلا... هي جهنم لأنه لا تكون هناك لجنة مشروع لدعمك في المشاريع الصغيرة والمتوسطة (...). هذا هو الحال غالباً، وهذا مريع. لا تقدرين... أنا لم أكن أقدر أن أجابه... فما كان أحد ليساعدني! كلا، لا أحد!

اشخاص خُلقوا للأذى

❖ والبنات اللواتي كان رب العمل ينام معهن، في مدى عامين ونصف، عندما يكون قد ملّ منهن...

كورين: آه لا لا، انتبهي! حكاية العامين ونصف، هذه بخصوص العشيقات...

❖ آه يعني نظراً لوجود أكثر من نوعية...

كورين: بالضبط. فأما الصغيرات، يعني الـ... كان ينام معهن...

❖ لم تحصل معه أبداً أية مشكلة؟

كورين -بالمرّة. (...) واسمعي، اشتغلت مع ذلك الرجل طيلة أكثر من عشرة أعوام، فلم أرَ أحداً يترك العمل في يوم من الأيام. أولاً، كان يدفع أحسن دفع للكوادر. وأما صغار العاملين، فلم يكن منهم الكثير حيث كنا في مقر الإدارة، إذن لا، كان الأمر... أنا، بالنسبة لي، كنت على «النيشان»، والسبب -العفو منك سوف أقولها بسوقية- يعني كلها في الأصل حكاية «تعريص»؟

❖ نعم، يعني، لقد اغتاظ لأنك...

كورين: مغتاظ، تماماً. وأنا من حولي، رأيت في.. كان هناك مصانع، حيث كان يوجد 1800 عامل مأجور في المشروع الذي كنت أعمل فيه. فكان هناك فروع مع مصانع. وقد سمعت عن نساء نُكّل بهن أيضاً. بالنسبة لهن، كان الأمر يتم على مستوى رئيس الورشة أو أمور من هذا القبيل ولا يكون عندك أي معين! أنا أيضاً، لم يكن عندي أي معين، على الإطلاق... أحياناً، كنت أقول لنفسي، «ماذا أقدر أن أفعل، لا أستطيع قضاء كل وقتي هكذا»، لكن لم يكن عندي أي معين... لا أقدر أن أشرح لك. لبعض الوقت، كنت في أحد الفروع، فجاء لزيارتنا، كانت المكاتب نظيفة ومن جميعه، فدعا جميع العاملين للغداء، إلا أنا، لأنه كان الربّ بعد الربّ. (...) تعلمين هذا النوع من الحثالة الذي ينشئ هكذا شركات من نوع «تابي»، من نوع «ماكسويل»، على مستوى مختلف، لكن يعني، هؤلاء أناس يحملون سيئات حسناتهم، أي أنهم شعلة من النشاط إنما إلى جانب هذا، فهم أشخاص خُلقوا للأذى. لعلّهم لا يقدرون على إنشاء مشاريع هكذا بالطيبة، واللطف، و... كلا! على أنني من جانبي كنت أشتغل، من بعد إذنك، في ملفّات كانت تقرّبني منه، لكن كان بينه وبيني مديران، كانا بالنسبة لي ستارتَيّ وقاية. لكنهما كانا يقولان لي مثلاً، «عليكِ ألاّ ..»، يعني ونحن كان عندنا ممرات كبيرة، فكانا يقولان لي، «يا مدام، ابقي في مكتبك، لأن روجيه ج. هنا، لا تتحركي من مكتبك»، فكان لا يجوز أن يراني!

[...]

عندما كنا نعلم أن روجيه ج. مسافر! آه! هذا رهيب فالجميع يتنفسون أخيراً! لأنه إذا أحببت أن تعلمي، عندما يبدأ بـ «الجعير» في وجه الناس، عندما يناديك بالأنترفون، يسمع الجميع صراخه، فلا يبقى أحد في الممرات، لا يعود بإمكانك أن تري أحداً، أن تسمعي شيئاً.

◆ طبعاً، يَلزم كل واحد مكتبه...

كورين: لأن الجميع يعلمون أن الشخص المنادى على اسمه سوف يأخذ حسابه. كان هذا فظيعاً. فظيع، أوه كان هذا يوم الـ... أوه، سوف أحكي لك «نهفة» محددة. في يوم من الأيام، حصل أني وصلت إلى مكتبي في الثامنة صباحاً، فمشيت أنا وإياه جنباً إلى جنب، ولم يكن لدينا ما نقوله لبعض، فوصلنا إلى البهو، حيث رأينا علبة كرتون ضخمة -هي من الكرتون المقوّى للنقل البحري، وهذا كما تعلمين قاسٍ جداً- فأخذ «يجعر» بلا مناسبة، ووجه ضربة هائلة بقدمه إلى علبة الكرتون، فأنا كان الأمر أقوى مني، فانفجرت ضاحكة لأن قدمه علقت بعلبة الكرتون، على كلٍّ كان يمكن أن تتكسر قدمه، فجعل من القصة فيلماً طيلة ذلك النهار، «ارفعوا لي جميع أغراضها، لقد سخرت مني، سوف أرميها إلى الشارع»، وطيلة ذلك النهار دار «يخرّي» الجميع بهذه الحكاية! وطلب من المحاسبة أن تصفّي حسابي كي يعلم كم يُستحق لي بذّمته لو سرّحني من العمل، ثم أهمل الفكرة، فهذا يكلفه كلفة باهظة. يعني، هذا لتأخذي فكرة دقيقة عن هذه الشخصية. كل العاملين استنفروا كل النهار من أجل هذا... أنا أعلم أن هناك نساء غيري، هه، لا يجوز التوهّم بأنه لم يكن أحد غيري، لا، ولا، ولا، لكن كان هناك، من طرف آخر، النماذج البائسة... كان هناك ويظل. دائماً هناك من هذا النوع!... طيب، هل يقدر أحد أن يفعل شيئاً؟ لا، لا أحد بيده شيء، لأنه الآن يملك مشروعاً صغيراً، هناك في سيرين، لكن لا أحد يذهب ليراه في مكتبه، إذا (...)، إذا لم يقدم الشهر الإضافي الثالث عشر، إذا كان بعض عامليه قد طُردوا، كما ترين، لا أحد.. لا أحد يقدر أن يمسّ مثل هذا الصنف من البشر.

❖ ماذا كان تأهيله؟

كورين: (...) يعني لم يكن عنده أي تأهيل بصفة مدير، لكن كان عنده ذهن خارق، وطاقة عمل هائلة، في هذا كانت مزاياه ضخمة؛ وأنا، من بعد إذنك، كنت آسف لهذا، لأنه «نمرة» على مستوى... الأفكار، الشطارات، أشياء كثيرة، فهلويات خارقة. كما أقول لك هو تابي، ماكسويل، على أصغر، لكن هذا كان مثيراً للاهتمام، دون أي تلكؤ، فلا يمكن إهمال أي ملف وتأجيله.

[...]

بالنسبة لي المشاجرة، أنا الآن أهرب من المشاجرة؛ يعني لن أستسلم، من بعد إذنك، لكن قد أقع في المرض، أو يحصل لي أي شيء، وهنا فأنا أقاتل، لم أكن أريد، لم أكن أريد أن أقبل، فهذا شيء فظيع. هذا وكان عنده موظفة عملها بالضبط، كما تعلمين، حجز الغرف في الفنادق، يعني، ورأيته أنا عملياً «يخبط» بيده على مواضع من جسمها. هذا رهيب، رهيب.. كما تعلمين..

كانوا يطلقون عليه: «زبّورة» التوتياء

❖ وماذا كان رأي زوجك بكل هذا؟

كورين: ما كان زوجي يعلم أي شيء!

❖ أمكنك إخفاء الأمر؟

كورين: أبداً لم أحدّث زوجي عن مشاكلي.

❖ لكن حين كنتِ تغادرين صباحاً..

كورين: أبداً! لم أتحدث أبداً عن مشاكلي في البيت. أبداً، أبداً. زوجي لم يعلم عن هذا الأمر أي شيء. أنا، زوجي كان يعمل في مؤسسة أميركية (...) سُرّح من عمله بين ليلةٍ وضحاها (...) بعد مرور عام عاد للعمل مع شركة كمبيوتر «ماترا-أنفورماتيك»، ترْك العمل القديم ثم

الالتحاق بالعمل الجديد تمّ دون أن يشغلني به. لم يحدثني عن ذلك. لا، لا، ليس هذا من طبعي.

❖ لعلّك كنت لا تعودين إلى التفكير بذلك حين تعودين إلى البيت؟

كورين: بلى، بلى!

❖ لو الأمر معي ما كنت لأنام...

كورين: لا، أنا، يعني على العكس، كنت أنام -آه نعم- مثل القتيلة من التعب، مثل القتيلة! ومفكّرتي معي لا تفارقني أبداً. يعني حول هذا أحياناً زوجي كان يقول لي، «ضعي مفكرتك في مكان آخر» كنت أسجّل كل شيء. كل ما كنت أفعله من أجل أولئك الناس، كنت أسجّل كل شيء! كنت أعيش في عملي على الدوام!

❖ لكنه كان على حق، في تلك القصة تحديداً... من وجهة نظر ما..

كورين: من وجهة نظر ما، لو أن رئيسي لم يكن يطاردني كما كان حاله.. كان على حق.. كان ينجح في تنفيذ.. يعني مبدأ العمل هو هكذا، وهذا شأنه مع جميع العاملين، انتبهي، لم أكن أنا الوحيدة هكذا. جميع المدراء، حالتهم مثلي (...) نعم! وفي لحظة من اللحظات لامتني ابنتي ذات يوم، لكن بعد عشرة أعوام، فقالت لي، «طيب يعني، جميل أنك خرجت من ذلك العمل، لأنك لم تكوني تنتبهين، يا ماما، لكن لم يكن في ذهنك سوى الشغل». كان هذا (...) ما يجب فعله، هذا نعم! على كلٍ، نعم! ما كان يسمح أن يغادر أحد الشغل إلى بيته مرتاح البال، وذلك يسري على جميع العاملين عنده. لكن، يعني، في النهاية، بالإمكان تفهّم موقفه (...) كنا نعمل كثيراً، لكن العلّة لم تكن الشغل وإنما السلوك. آه، هنا، هنا، كان بعض العاملين يتلقّون أسوأ معاملة، وهذا فظيع، فظيع.. أقول لك إن بعضهم كان يتلقى الإهانة بأقذع الكلام، وهؤلاء المهانون تحت إمرتهم 300 أو 400 عامل. مدراء مصنع. عدا عن أنه كان يعاملهم هكذا أمام مطلق إنسان، ليس على انفراد، وإنما أمام الجميع، علانية! كنا قد تعاقدنا مع شغّالة، فوصل صباح يوم إلى المكتب، ونادى على الشغّالة بالأنترفون. قالت لي الصبيّة المسكينة حينها،

«يا مدام، أنا سوف أضطر للذهاب إليه، فهو يريد أن (يقوّص ضرب) على الموكيت »، فهذا كان نوعه، هذا الرجل... كما حكيت لك، فهو من مجانين العظمة، أولئك الذين ينشئون مشروعاً، فيصبحون هُم المشروع. وهذا صحيح، أنا أقول لنفسي «لو كنتِ محلّ مثل هذه النوعية، كيف كنت تتصرّفين؟» صحيح على مستوى العمل، كنت سأتصرّف بقسوة. وكان قاسياً. لا توجد كلمة أخرى. لو استطاع أن يشغّلنا ليلاً، لكان شغّلنا ليلاً. هذا صحيح، وهذا كان مرعباً... ما كان لأحد إرادة.. ولا حيلة لنا في شيء. لكن هذا جزء من لعبة، أُقر بذلك، لأنني كما قلت لك كنت سأفعل مثله. لكن، خارج إطار العمل، هناك حدود لكل شيء مع ذلك. عنده، لم يكن يوجد أيّ حدّ. وأظنّ أنه.. (...) يعني، كان الجميع، هذا أتذكّره، كانوا يطلقون عليه«زبّورة» التوتياء..

❖ ماذا؟

كورين: زبّورة التوتياء، هذا لتري، أنه.. لم يكن بالإمكان إيجاد صفة أصدق. فلا يجوز لامرأة أن تروق لهذا الرجل، لا يجوز لامرأة ذلك.. (...) لكننا لا نقدر أن نفهم كيف أمكن لهذا الرجل أن يكون بكل تلك القسوة. كان يجيء، فإذا لاحظ أقل فوضى في مكتبك، رمى كل ما لديك على الأرض؛ أنا من جهتي أظن، عندما يصير الإنسان على بعض القوة ويكون كتفاه أضعف من حمل هذه القوة فهو يصير (...) لا أعلم كيف تكون نهايته في يوم من الأيام. لكن باستثناء هذا، كان عنده بعض اللمسات الإنسانية، إنما «لناس وناس».. ليس تجاه الجميع، مفهوم؟ عدا عن أنه كان يمارس سلطة ربّ العمل. كان بحاجة إلى هذا، كان يلزمه... هذا صعب جداً، كما تعلمين، أن تشتغلي هكذا، هذا يترك أثره، هذا يترك أثره عليك مدى الحياة. هذا يجعلك سيئة التعامل من طرف آخر، لأنك لا يمكن أن تعيشي باستنفار هكذا، طوال سنوات، دون أن تصيري سيئة التعامل بعض الشيء، قليلة الثقة. أنا فيما بعد... عندما وصلت هنا، كنت في غاية الاندهاش. كنت كثيرة الحذر وسوء الظن. لكني وجدت الناس هنا في غاية اللطف، ولم أكن

معتادة على هذا. في العمل الصناعي، كما تعلمين، لا يراعي أحد الآخر، حتى بين الزملاء، لا أحد يراعي غيره.. هذا قاس كجوّ عمل، في الصناعة، هذا لا يشبه إطلاقاً كما في... يعني، والسبب وجود التنافس والمزاحمة، فكل واحد يريد أن يعمل أفضل من زميله. أما هنا، لا، فهذا غير موجود...

❖ لا، هذا لا وجود له في الوسط...

كورين: إطلاقاً! لا ضرورة للمشاجرة من أجل الصعود...

❖ كل واحد عنده عمل يقوم به..

كورين: بالضبط، عمل محدد. فيظل الجميع.. يعني هذا محزن قليلاً.

تموز 1992

بيير بورديو

نهاية عالم

«الفرصة الوحيدة لإيجاد عمل هنا هي في نشوء مشروع صغير. أما في الماضي، فلم يكن الدخول إلى المصنع مشكلة. فأهالينا، كيف كان يتحدث أهلنا، عندما كان عمري 14 عاماً، كيف كان أهلي يتكلمون: لن تفيدك المدرسة بتاتاً، سوف تذهب إلى المصنع. هكذا كان الأهل يحكون معنا. لماذا كانوا يذهبون إلى المصنع؟ لأنهم كانوا يعلمون بوجود التوظيف عملياً على مرّ الأعوام، كل عام 300 أو 400 شخص. لم تكن فرصة العمل مشكلة. أما الآن، فالأهل لم يعد بإمكانهم أن يقولوا هذا، سوف تذهب إلى المصنع، فلم يعد هناك مصنع..»[1] هذا ما قاله نقابي من منطقة لونغوي، هو أحد قدامى العمال في قسم التعدين (مثل والده وشقيقه)، عمره 44 عاماً (أ)، يعمل حالياً في البلدية، فأقواله تلخيصٌ مكثّف لمجموع العوامل التي فرضت أزمة الحركة النقابية المزدهرة سابقاً، والتي هي اليوم، كما يقول مسؤول قديم غيره، بالفعل «منكوبة»[2]: إغلاق القسم الأعظم من مصانع الحديد، وما

[1] من بين الأحاديث الخمسة الواردة هنا، ثلاثة أجراها باسكال باس. وحرصاً على كتمان أسماء الأشخاص، مع نقل ما يقولونه حرفياً حسب المواصفات الاجتماعية للمتحدّثين، أوردنا أسماء النقابيين الذين طرحنا عليهم أسئلة بأحد الحروف الهجائية (أ،ب،ج...) ومن بعد إيراد هذا الرمز المشفّر لأول مرة، نعيد كتابته كما هو كلما عدنا إليه.

[2] بصورة إجمالية، خسرت الـ CGT في 20 عاماً أكثر من 2/3 عناصرها، بينما تراجع عدد المنتسبين إلى الـ CFDT بنسبة 30٪. عام 1990 عدد النقابيين في الـ CGT 600.000، وفي الـ

رافقه من إلغاء عقود العمل أو الإحالة المبكرة إلى التقاعد لنسبة كبيرة من العمال، ووقف التوظيف، وبنتيجة هذا، توقّف تجديد الطاقم العمالي بما كان يرفده من الشباب، الذين كانوا يدخلون إلى العمل اعتباراً من مركز التدريب، وغياب التجمّعات العمالية الكبرى، بغياب المصانع التي تضم 4000 إلى 5000 عامل، لصالح المشاريع الصغيرة، بأقل من 50 موظفاً، وهي دائماً مشاريع يصعب الوصول إليها، والبطالة والتهديد الدائم المسلّط بسببها فوق رؤوس من لهم عمل، وهو ما يحكم عليهم بالخضوع وبالتزام الصمت.

ناهيك أيضاً ما يشبه الإحباط المعنوي جماعياً، وهو ما يذكره بوضوح هذا النقابي الآخر، البالغ من العمر 36 عاماً، وهو أيضاً عامل تعدين قديم وابن عامل تعدين (ب): «كان الجميع يحسبون أن التقاعد في سنّ الخمسين سوف يساعد الجمعيات على استقاء دماء جديدة. لا شيء! كان الظن أن يمكن ضم أعداد كبيرة وهانحن نلاقي صعوبة كبيرة في إيجاد الناس، حتى للدفاع عن السكن، عن أجور السكن التي ترتفع ارتفاعاً هائلاً، مع عمليات الترميم وإعادة البناء (..) لكن أكثر ما أدهشني، هو المندوب النشيط الذي قاد نضالات: يتجه تفكيري إلى صاحب كان نشيطاً، وكان مناضلاً ممتازاً: عظيم، فهذا الصاحب من بعد إحالته إلى التقاعد أوقف كل شيء، انقطع كلياً عن كل نشاط.» وهذا ما يشير إليه مسؤول آخر، عامل

CFDT 428000، وهكذا لا تنجح النقابتان الكبريان في فرنسا في جمع أكثر من مليون منتسب، منهم 860.000 من النشطاء، بينما نجحتا في 1970 في تنظيم ما يزيد على مليونين ومائتي ألف نقابي. وقد ترافق هذا التناقص الإجمالي بحدوث تعديل في علاقة القوى ما بين هذين التنظيمين. إذ، بينما كانت الـ CGT في 1970 تمثل ¾ المنظّمين في النقابتين معاً، لم تعد تضمّ في 1980 إلا2/3. ومن بعد مرور عشرة أعوام إضافية، تضاءلت الفروق تضاؤلاً ملحوظاً، لأن الـ CGT أصبحت تضم تقريباً حوالي 58٪ -والـ CFDT ما يقرب من 42٪- من مجموع المسجّلين في النقابتين. وإذا اقتصرت الحسابات على النشطاء، فإن النقابتين من الآن فصاعداً متقاربتان جداً بخصوص عدد المنتسبين. في السبعينات، تراجعت نسبة النقابيين، النشطاء منهم لا غير، بمعدّل 13٪ إلى 10٪. أما الثمانينات فأكّدت على فقدان النفوذ. وهذان التنظيمان الأكبران يمثلان أقل من عامل مأجور من كل 20 (ارجع إلى د. لابي، م.كروازا، أ.بيفور، «التنظيم النقابي في فرنسا، التعداد، والجمهور، والبنى، منذ 1945، التقرير الختامي، غرونوبل، سيرا، 1991).

قديم في التعدين هو أيضاً (ابن عسكري متطوع)، في الرابعة والخمسين من عمره (ج) . فهذه الخيبة مشتركة لدى جميع ضحايا تدهور مشاريع التعدين: «التقاعد في الـ 50 لمن لم يستعدّ له كارثة (...). أنا أعلم أنني في الـ 50 تحضّرت لـ (تقاعدي). فكنت أعلم أنني سوف أتابع نضالي في الاتحاد المحلي، سوف أحاول أن أكون ذا فائدة... لكن الاتصال مع رفاق الورشة، هذا خسرته، فهذه هي عزلتي (...). لقد أخذ المتقاعدون الآخرون بطاقتهم كنقابيين متقاعدين من جماعة الـ CGT لكن العديد بينهم لا يقومون بأي عمل على الإطلاق (...). نعم، اللعب بالكريات الحديدية، التسوق، ومن بعدها المجادلات التي لا تنتهي في المجمعات التجارية الضخمة (..). هم يتناقشون، يستعيدون الذكريات القديمة، ولكنهم لا يقومون بأي عمل. وكان من نتيجة هذا، الآن، في لونغوي، وجود مشكلة كبيرة، مشكلة الطلاق، سوء العشرة، عدم التفاهم في البيوت. لأن العائلة مع التقاعد تعيش حياة مختلفة: فأخونا الذي كان يعمل في إحدى الورديات الثلاث خلال اليوم، أي أن معظم وقته في المصنع، أصبح طيلة الوقت مع زوجته، فهذه حياة مختلفة تكون قد بدأت (...). وعندنا، ليس العشرات، بل المئات من حالات الطلاق في الـ 50 في منطقة لونغوي (...). كما وقعت حوادث انتحار، للأسف، حصلت عشرات الحالات، سمعنا بها، بينما غرق بعضهم في الإدمان على الكحول.»

فكل المجريات تشير كما لو أن الأزمة، وما نجم عنها من صعوبات في جميع المجالات، قد حطّمت حتى الأساس الذي نهضت من فوقه مظاهر التضامن القديمة: هذا ما أورده مسؤول نقابي آخر، أصوله إيطالية، وهو اليوم في الـ 72 من عمره (د.): «هناك عناء كثير، عذاب كثير، معنوياً وجسدياً، نحن نتعذب، نحن نتعذب (...). في التجمّعات السكنية، يسود الاضطراب والقلق، يسود الضيق عند الناس، فينقطعون عن الكلام إلا قليلاً (...). هذا قاسٍ، هذا قاسٍ (...). حتى داخل الأسرة، هم منقسمون، لأن الشباب يشترون المسكن، ويريدون من العجائز أن يرحلوا، لإعادة الترميم،

لتأجيره (...). البطالة تفرّق بيننا، وتُظهر أسوأ ما هو موجود فينا، الفردية، الحسد، الغيرة؛ بينما العمل يوحّدنا، الأخوّة، التضامن..»

وتترافق هذه الخيبة مع اضمحلال الروح النضالية والمشاركة في السياسة وهو ما يصيب حتى أكثر المسؤولين النقابيين إيماناً ويقيناً: «حتى في البلديات التي يقولون إنها عمالية، لم يعد للنشاط السياسي من وجود. فالبلديات الاشتراكية أو الشيوعية فيها نشاط إداري وأما النشاط السياسي فأصبح في خبر كان (...). هم ينشطون إدارياً، ينشطون، كما كان يمكن لليمين أن يفعل، ربما بأسلوب مختلف قليلاً، لكن عملهم الإدارة... (...) ما عاد هناك شيء، ما عادت هناك فعاليات. وبالتالي، فما عاد هناك من مناضلين، فقد صار الناس مثلي، يرون هذا من بعيد ولا يشعرون بالحماس للقيام بأي شيء..» (أ).

ومن المفروغ منه أن «الخيبات» (خاصة بشأن الاشتراكيين والسياسة التي اتّبعوها منذ 1981) وتبدّد الأوهام (بشأن الدول الشرقية والأنظمة «الشيوعية») هي في نظر الكثيرين من وراء عدم الثقة من الآن فصاعداً بالمناضلين النقابيين، وهذا ما يساهم دون شك في تكسير معنوياتهم: «أنا ضائع قليلاً في كل هذه الأمور. لا أعلم كيف هي حال الآخرين... (صمت طويل). لعلّي تغيّرت، أو أن العالم هو الذي تغيّر من حولي، أو أني لم أشعر بتغيّر الأمور، لا أعلم، لكن، على كلٍ، أنا ضائع قليلاً. لعلّ السبب مردّه الزيادة القليلة في العمر بحيث تقلّ رغبة الإنسان في إشغال نفسه بالآخرين. هذا ممكن، هه؟ لأنني شخصياً، كنت من بين المؤمنين بأن الأفكار التي أدافع عنها، الأفكار التي كنت أصرف فيها كل همّتي، هي أفكار راسخة..»(أ).

لكن أخشن الانتقادات وأشدّها لسعاً بحق الـ CGT والحزب الشيوعي، والأنظمة ذات النسق السوفياتي، نسمعها من فم أكبرهم سناً، وهو مناضل معروف، وقد انتشر صيته في المنطقة بأكملها بسبب نشاطه في الإضرابات الكبرى لبداية الخمسينيات: «آه! أقوله لك بضمير مرتاح، لو

حصلنا على السلطة، لكنّا ارتكبنا الأخطاء نفسها (أخطاء الدول الشرقية).» لأن هذا ترجمته كما يلي: «قال لينين»، «قال ستالين»، «قال موريس توريز»، الخ. لكنني قلت له في يوم من الأيام، لأحد الميامين، وكان نائباً وعضو لجنة مركزية: «والعمال ماذا يقولون، هل تستمع إليهم؟» يعني، هذه الحكاية وما فيها. هنا المشكلة. (...). كل واحد عمل من أجل نفسه، كل واحد بنى فيلا في الكوت دازور! يعني، هذه هي الوقائع!» (د) ثم انتقد التصويت برفع الأيدي، وميل القسم الأعظم من المناضلين إلى التغيّب، ومنطق «الارتقاء الاجتماعي» الذي يهيمن على المسؤولين: «لأن لهم مستوى معيشة فيه تميّز، فهم متعلّقون بتأمين التقاعد على الملاك للكوادر العليا، الخ. نحن أيضاً أوجدنا طبقتنا المستفيدة. فهناك بيوت الاستجمام المخصّصة لهم، حيث هم ينزلون فيها فعلاً، ولكنهم لا يدفعون.»

ويوردون جميعاً الخيبة الهائلة التي أحدثتها حكومة اليسار، بعد 81، خصوصاً في منطقة لونغوي، إذ عادت بعد وقفة قصيرة بين 81 و 83، إلى سياسة إغلاق المصانع الأمر الذي نجم عنه تحركات الاحتجاج الضخمة في نهاية الثمانينات: «ومن ثم، 82-83، كان عزل الوزراء الشيوعيين، ومن ثم راحوا يعلنون في مراكز صناعة الحديد أن الحال ليس أفضل، وأنهم سوف يغلقون هذه المنشأة، وهذه المنشأة... ومن هنا بدأ الشعور بالاستياء. يعني، هكذا، نقابياً، نخسر بعض الأوراق. (...) في عام 83، يجب أن نعترف بنزاهة، كانت الخسارة 10، 20، 30٪ في أعداد المنتسبين إلى الـ CGT» (ج.). وكان الحزب الشيوعي في الوضع نفسه: «ما عاد هناك حزب (...). ما عاد هناك كوادر ولا منتسبون (...). لقد انطلقنا (في عام 1988) وكنا 7 أو 8، من بعدها، لسوء الحظ، لسوء الحظ ما عاد هناك كوادر (...). ظلّ المناضلون، عندهم مناضلون بالبطاقة، متعاطفون، لكن ما عاد هناك كوادر قيادية» (ج.). هناك على وجه الخصوص، كما لاحظ مناضل آخر في الـ CGT، يبلغ 36 عاماً وعاطل عن العمل حالياً (هـ.) الافتقار إلى التجديد عن طريق تنظيم الشباب : «أنا شخصياً، أعرف من أبناء الشيوعيين من يقول: والدي

مسطول!» (العفو منكم، لكن هذا يعني ما يعني). لكن هذا، عموماً، فيه دليل الفشل مع الشباب. لن نتكلم عن الحزب الاشتراكي. (...) فالشبيبة في صف النظام. وهذا يفسر ارتماءها في أحضان رجل مثل لوبن (...) فللمرة الأولى، كان هناك أصوات مع لوبن.»

وأمام الأشكال الجديدة للاستغلال، بتشجيع خاص من تفكّك أنظمة العمل وانتشار العمل المؤقت، باتوا يشعرون بعدم كفاية الأشكال التقليدية للنشاط النقابي: «يجب الذهاب إلى المشاريع الصغيرة التي فيها أقل من عشرة موظفين. يجب أيضاً الذهاب إليها، يجب التمكّن من التمركز فيها، والذهاب لإلقاء نظرة (...). ولهذا السبب فالخطاب يجب حتماً أن يتغيّر داخل رؤوسنا، فلم يعد بالإمكان الذهاب إلى المشاريع، مثلما كنت أفعل شخصياً في الورشة المركزية. كنت أصعد على العربة الصغيرة، فأصفّق بيديّ، وأصفّر، و... بُم، يتجمّع حولي 100 شخص فأستلم الكلام. لقد انتهى، كل هذا. ثمّ، يجب تقديم النقابة بطريقة مختلفة. في المشاريع الصغيرة، يعلم الله كم عندهم من المشاكل: ساعات إضافية دون أجر. يطلبون منهم تنفيذ ساعات، ولا يحصلون بالمقابل إلا على القليل، بكل صعوبة. وهناك ظروف العمل. عندهم مشاكل هائلة» (هـ.). وهذا ما يقوله غيره: «الآن، نحن في وضع تسود فيه البطالة، وعدد لا بأس به من المشاكل، والناس ساكتون. أنا شخصياً أجد أن من غير المقبول إطلاقاً غضّ النظر ونحن نرى من يعمل ثماني ساعات كالمجنون، نعم هذا جنون، مقابل 5300 فرنك شهرياً. هذا من الصعب القبول به! لكن، صحيح أنه ما بيدهم حلّ آخر: هم مجبرون على السكوت. وهذا، هذا أيضاً لا يمكن التسامح حياله. يمكن أن تحصل تحركات، وقد عاينّا هذا، هناك أحياناً ردود فعل، بما في ذلك في المشاريع الكبيرة. يعني، رأينا أيضاً في الغالب أن النقابات الرسمية والتقليدية ناءت بما تحمله من أشكال التنسيق وأمور من مثل هذا. ويمكننا التساؤل حول السبب: هل الخطاب النقابي ما يزال مطابقاً للواقع؟ لماذا تحصل الأمور هكذا؟ لأن الواجهة النقابية جاءتها ضربة.. فعندما يقول

أحدهم، «أنا في النقابة»، يأتيه الجواب، «لكن النقابات تشتغل بالسياسة، فلا تفاهم بينها.» ربما، ربما.. توجد أسئلة كثيرة مطروحة اليوم وأنا لا أستطيع أن أقدم إجابات عليها، حتى في ما يتعلق بي شخصياً. ما عاد عندنا شيء نستطيع أن نتعلّق عليه. ربما كنّا قد أضفنا الكثير من الأوهام لقد صدّقنا أكثر من اللازم. وعندما ينهار كل شيء، لا يعود لك من سند وراءك» (أ.).

كانون أول 1990- شباط 1991

ميشيل بيالو

اضطراب المندوب

كان المفروض أن أجتمع مع حميد منذ فترة طويلة. فغالباً ما حكوا لي عنه؛ عندما كنت أستعرض «مشاكل» المهاجرين في المصنع، كانوا يقولون لي: «لم تقابل حميد حتى الآن؟ يجب أن تذهب لمقابلته.» وفي واقع الأمر، فقد تلاقينا عرضاً، ولمحته مرات عدّة، خاصة أثناء إضراب تشرين أول 1989؛ أعرف هيئته القصيرة، المربوعة، وقد رأيته على رأس المتظاهرين. تحضر صورته في العديد من الوثائق المصوّرة. فيظهر في فيلم عن المصنع تم تصويره عام 1990: ظهر في الفيلم للحظات قليلة في موقع عمله، وكان يشرح بنفسه حركاته، العمليات التي يقوم بها، وتكلّم عن مشقّة هذا العمل. كما رأيته في التلفزيون، في الأخبار على القناة الثالثة. فعندما يريدون من يشهد على شروط العمل في HC1 (تجهيزات الهياكل، وهو المصنع الجديد للهياكل)، كانوا يطلبونه في الغالب. لأنه مندوب، ولأنه «لا يخاف» من التعبير. هم يقيمون لرأيه وزناً في النقابة. فهو من عداد ذلك العدد الصغير من «المندوبين» القادرين على تقديم أنفسهم كناطقين باسم العمال، والذين ازداد بينهم، منذ خمسة أو ستة أعوام، تمثيل النساء والمهاجرين بقوة متعاظمة.

يشتغل في منطقة مونبيليار منذ زهاء عشرين عاماً، وفي مصنع سوشو منذ 15 عاماً. لكنه لم يتجاوز الأربعين من عمره. وقد اشتغل في

مواقع مختلفة، لكنه دائماً على سلسلة الإنتاج، واشتغل لفترة طويلة جداً في الإنهاءات. انتسب إلى النقابة بعد عامين أو ثلاثة أعوام من وصوله إلى المصنع، لكنه لم يقبل أن يصير مندوباً إلا بعد إضراب 1981 واستمر بصفته تلك منذ تلك اللحظة. منذ شهور قليلة، ومن بعد الدورة الشهيرة لمدة ثلاثة أسابيع في مورفيلار، يشتغل في مصنع الـ HC1، الورشة الجديدة التي افتتحت مع نهاية عام 1989. مندوبو الـ CGT والـCFDT فيه قلّة قليلة («حفنة»). فمعظم المناضلين والمندوبين كانوا ما يزالون آنذاك على خط الإنهاءات «القديم». إنما، أثناء انتخابات الـ DP (مندوبي العاملين). في آذار 90 حققت الـ CGT في الورشة الجديدة نسبة غير متوقعة بتاتاً، إذ تجاوزت 70٪ في بعض الأقسام.

حدّدتُ موعداً مع حميد، قبل ثلاثة أيام، وكان موعدنا في يوم أحد، عصراً، أثناء أعياد الـ CGT في سوشو. ففي كل سنة تجري الأعياد في ملاعب الرياضة في بيتونكور، وهي قرية قريبة من المصنع بلديتها شيوعية. كان هناك مئات من المشاركين. وهم يأتون مع عائلاتهم. ينتظم العيد حول مباريات في كرة القدم تتنافس فيها فرق مرتجلة: جماعة التصويج مقابل جماعة خط الإنهاءات، الشباب مقابل العجائز، جماعة الهيكل مقابل جماعة السبك، النساء مقابل الرجال. ليست مباريات حقيقية. بعض اللاعبين المشاركين يكونون متنكّرين، والضحك كثير. رجال كثيرون يتنكّرون في ثياب النساء أو العكس. وتحظى النساء بالتصفيق طويلاً. أما الوجوه الشعبية المعروفة في الورشات فتجد لزاماً عليها أن تكون حاضرة، وأن تنزل إلى أرض الملعب للمشاركة ولو لم يكن إلا لخمس أو عشر دقائق. فترات اللعب محددة تقريباً بما يقرب من 20 دقيقة (منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، كانت المدة تتجاوز بكثير نصف الساعة، لكن تقدّم العمر بالمشاركين، وأصبحت الأنفاس تتقطّع بسرعة). فيسود جو من الفرفشة الخالية من القيود في أرض الملعب وخارجه. الدخول إلى الملعب والخروج منه لا يتوقف حسب المزاج (أذكر أني عندما رأيت هذه المباريات ذهبت أفكاري إلى الفرق الموسيقية لنقابة

التعدين، الـ IG للتعدين، والتي رأيت صوراً عنها في فيلم عن مصانع الفولكسفاكن في ولفبرغ). ويخيّل لي أن العمال الحاضرين هنا جميعهم من المختصين فهم كما هو ظاهر بعمر واحد؛ وقد يكون بينهم بعض الحرفيين، إنما بأعداد صغيرة جداً، عاملين فنيين أو ثلاثة، وهم الذين يشتركون دائماً، لكن لا يوجد أي مدير أو مهندس. ويخيّل لي أني الوحيد، في هذا العيد بأكمله، الذي، لا تبدو عليه هيئة العامل.

على هذه الصورة قابلت حميد. كان قد انتهى من اللعب، من الركض طويلاً، وكان يلهث قليلاً، مستلقياً نصفَ متمدّد، على طرف المرج الأخضر. كان مع زوجته وابنته الصغيرة، وسط جمع من «الأصحاب». وكنت أنا أيضاً مع جمع من المناضلين ممن أعرفهم منذ زمن بعيد. قدّموني إليه: «صاحب لنا ربما تكون قد سمعت عنه، كتب مقالات عن المصنع، وهو يزور سوشو منذ سنوات عديدة.» لا أدري تماماً الكلمات التي وصفوني بها «باحث اجتماعي» أم «صحفي». فتصرّف حميد كما لو أنه لا يجهلني كلياً. وبالفعل فلا بدّ أن يكون قد رآني سابقاً مع هذا أو مع ذاك. فتابعوا التقديم: «يجب أن يتناقش معك بشأن الشغل في الـ HC1، الحديث عن الجو العمالي في الورشة، عن عمل المندوب.» وقلت كلمات مما أعرفه عن الـ HC1، عن الزيارات التي قمت بها إلى هناك، عن بعض العمال الذين قابلتهم. فتمّ الاتفاق مباشرة، دون مشكلة، دون أي تحفّظ.

عندما وصلت في الساعة 10.30 إلى الشقة التي يعيش فيها، في الـــ ZUP (السكن الشعبي) في مونبيليار، كان هناك «حاجز» كبير تزدحم فيه عائلات العمال المهاجرين -لا يستعملون هنا إلا كلمة واحدة لتسميتهم فيقولون عنهم: «الكتل»-، وكان حميد بصدّارية من فوق كنزة قصيرة وسروال جينز، منهمكاً بتحضير وجبة العائلة، تلك التي سوف يلتهمها بعد قليل على السريع قبل أن يمضي لعمل العصر (يشتغل بدوام «دوّار»، وهذا الأسبوع، عمله «في العصر»، أي أنه يعمل من الساعة 13.15 إلى الساعة 21). كانت النافذة مفتوحة بالكامل. السماء في الخارج صافية الزرقة، والجو شديد الحرارة. كان

واضحاً بأن حميد مستمتع غاية الاستمتاع بتحضير الطعام: كان قد انتهى من تقشير بعض الخضار وتنظيف بعض أفراخ من السمك سوف يرميها مع الخضار لتنضج بسرعة -ومن بعد قليل أعطاني طريقة التحضير: طريقة من عندياته، من الجنوب، مطبّقة حسب الإمكانيات المحلية.

استقبلني بلطف كبير، كما لو كنت لا أزعجه ولا أثقل عليه، وقال لي إنه لم ينس موعدنا، وإنه كان بانتظاري. لم أشعر أن من واجبي أن أفسّر مجيئي إلى بيته. تراءى لي أن كل شيء يجري كما لو كنا متعارفين منذ فترة طويلة وأننا نتابع حديثاً سبق أن بدأناه وتوقفنا في منتصفه. فقلت لنفسي، هذا حديث «دون مشكلة».

من ثم -وكنا ما نزال وقوفاً في المدخل، فلم أطلب منه بالتأكيد السماح بتشغيل المسجّلة- هاهو وقد انطلق في حكاية مشوشة قليلاً عما حصل قبل يوم في ورشته، وبحماس منعني من أن أقاطعه! كانت الحكاية في أولها ضبابية قليلاً، لكن، مع عنف الكلمات المستخدمة- «هذا فوق طاقتي»، «لم أرَ أبداً مثل هذا»، «هذا ما لا أستطيع فهمه»-، فهمت أن حدثاً قد حصل وهو خارج المألوف، خارج «روتين الحياة النقابية». حدث يمسّه، هو شخصياً، وهذا الحدث، في نظره، منشؤه نسق آخر مما كنا قد خطّطنا للتحدث عنه.

فماذا حصل؟ باختصار، قبل يوم، في قطاع من المعمل، قريب من قطاعه، عقب حرب الخليج، مجموعات العمل يعاد تنظيمها باستمرار، وفيها يدخل دون توقف «عجائز» قادمون من قطاعات أخرى في المصنع (عمال من عمره، هم من قدامى خط الإنهاءات، وهم (أناس يعرفهم حق المعرفة، «أصحاب ممتازون»، «عمال ممتازون» شاركوا في إضراب 1981 و1989 على حد سواء، لا مشاكل عندهم، ويصوّتون للـ CGT حتى وإن كانوا غير نقابيين) وهم بالتالي مشاركون مبدئياً بتبنّي قيم التضامن القديمة، وقد وقّعوا عريضة بتشجيع أو دون تشجيع من «الرؤساء» للمطالبة بـ «طرد» عامل، ليس من القطاع فحسب، وإنما من مصنع سوشو- وهذه العريضة كانت بحق عامل، كان هو نفسه نقابياً، وقد اشتغل 10 أو 15 عاماً في المصنع، لكنه،

لعدم اشتغاله في يوم من الأيام على السلسلة الإنتاجية، ما كان يستطيع أن يماشي وتيرة العمل. جرّب حميد ثنيهم عن قرارهم. لكنه فشل فشلاً كاملاً.

فهذا ما تركه في حالة ذهول، تلاشي. وهو، الذي كان عادة هادئاً، معتدلاً، راح يتكلّم بانفعال ولهوجة، فكأنه يعيش من جديد الانفعال الذي سيطر عليه قبل يوم. فأخبرني بدهشته، باضطرابه، باستنكاره، بالطريقة التي راح فيها -في أثناء ساعات عمله كمندوب- يجعر مع أصحابه، يسأل الرؤساء، يضعهم أمام مسؤولياتهم، تجاه حادث يبدو له «فاضحاً» ولا يمكنه القبول به. مثّل أمامي إيماءً دهشة الرؤساء الذين سألوه: «فلماذا انفعالك هذا؟»، «لماذا يؤثر فيك هذا كل هذا التأثير، علماً، يعني، أننا عادة لا نتساهل معكم، أنتم بالذات، المندوبين؟». وشرح لي من جديد كيف ثار، وعاد خمس أو ست مرات، لمقابلة الرؤساء، وطالب بعقد مقابلات واجتماعات. فما حصل هو أمر جرحه في الصميم، يكاد يشعر أنه موجّه إليه على مستوى شخصي، أمر يمسّ شرفه كمناضل وعامل.

رأيت في احتجاجه جانباً أخلاقياً أكثر مما هو بالفعل سياسي. فلم ينخرط في خطاب لإدانة ممارسات الإدارة، من نوع تلك الخطابات التي قد يستفيض بها معي مناضل مقاتل، متمرس في النضال النقابي. فاستنكاره -علماً أنه استنكار مسيطر عليه، لا يتم التعبير عنه بتعابير ضخمة، ولا برفع الصوت، وإنما بتلوين النبرة- موجّه إلى أمرين اثنين.

فهو ناقم على «الأصحاب»، «العجائز» الذين تجاوزوا حدود ما يمكن غفرانه -الذين خرقوا القواعد «الأولية» في التضامن العمالي. بُعيد ذلك، حدثني عن موقف العمال الفرنسيين وعلى الخصوص المتعاطفين منهم مع الـ CGT أثناء حرب الخليج، والطريقة التي عبّر فيها العديد من قدامى النقابيين عن عدائهم للعرب أكثر من بعض عمال بيجو الآخرين. وعادت إليه لهجته نفسها، لهجة استنكار تحت السيطرة: إذ رغم أنه لا يعذرهم، فإنه لا يستطيع أن يصل به الأمر إلى حدّ الإدانة

الكاملة، لأنه يعلم حق العلم مقدار وطأة البؤس الذي يرزح أصحابه تحت ثقله.

مثلما هو ناقم أيضاً على الإدارة، على الكوادر ذوي المقام الرفيع، «الرؤساء الكبار» الذي يريدون تجاهل جماعة العمال «الحقيقية» لتشجيع انبثاق جماعة وهمية من حول مراقبي ورؤساء الزمر، بإثارة النعرة الفردية، والتنافس، والحسد، يمارسون سياسة عمياء، تكاد تكون خارجة على كل حسّ سليم، وهي ذات يوم، في رأيه، سوف تنقلب وبالاً عليهم.

وقد صُدمت بالصلة التي يقيمها بين عنف ممارسات الفردية المغالى فيها، وتحطّم ما يرى أنه علاقات اجتماعية في الحدّ الأدنى، تلك العلاقات التي، حتى في أكثر الورشات تطبيقاً للمنهج التايلوري، كانت تؤمّن شكلاً من أشكال الحياة الاجتماعية المنظمة نسبياً. لأنّ، وهذا ما قاله وكرّره مراراً، العلاقات الاجتماعية الأساسية هي التي تتأثر بالممارسات التي تستهدف أناساً يمسك الخوف بأعناقهم ويحرّك المستقبل فيهم مكامن القلق الشديد. ومن هنا الخطر، وقد أكّد على ذلك، الذي يتعرّض له الرؤساء، خطر الوقوع هم أنفسهم ذات يوم في هذا التهديد بشكل غير مباشر.

على أنه بعد مضي فترة، اقترح أن نجلس. فاستقرّينا في المطبخ حول الطاولة التي كان، منذ قليل، يحضّر الخضار والسمك فوقها. استأذنت منه أن أشغّل مسجّلتي، فوافق دون أدنى مناقشة. بعض جمل عادية لا أهمية لها. وعدنا من جديد نتخاطب بصيغة الجمع للاحترام. «لا أعلم ماذا تتوقّعون.» فقلت له إن علينا أن نتكلم عن «عن كل هذا»، عن كل تلك «القصص» التي لا نعيرها في العادة حقّها من الاهتمام، والتي يجب الرجوع إليها، وأنّني شخصياً، أنا أيضاً، يبدو لي «كل هذا» هاماً، وأنه لا يتم إطلاقاً الإصغاء «حقاً» إلى المناضلين في النسق الأمامي.

ظللنا طويلاً على هذه الصورة، جالسين حول الطاولة. شربنا بيرة وقهوة. وكنا ننهض من وقتٍ لآخر على التناوب كي يراقب أحدنا الطنجرة. وبعد مضي فترة، شرعت أنا نفسي بتقشير بعض الخضار، على سبيل الاستسلام للعفوية أولاً، ولأن مثل هذه اللفتة «يتطلبها» إلى حد ما الجو المحيط بي.

لم ينقطع حديثنا إلا بوصول زوجته التي دردشتُ معها قليلاً (حول البلد). ولم يكن بالإمكان تأخير حميد عن موعد ذهابه إلى المصنع.

مع عامل متخصص OS مندوب لنقابة CGT

حديث أجراه ميشيل بيالو

«تضافر فريق العمل كان حرياً على الرؤساء ، الآن، ينضمّ عمال لمواجهة عمال آخرين»

❖ الأفضل أن تحكي كما يحلو لك ومن بعدها أطرح عليك أسئلة..

حميد: نعم، على خط الإنهاءات في أحد الأنساق... يعني السلسلة الإنتاجية! الخط رقم 35، ويسمّون هذا «خطأً» لأنها تبدو أفضل! سلسلة إنتاج، الـ 405 والـ 205. عندما كنت أشتغل هناك، ما كانوا بدأوا بتصنيع الـ 605، الآن لا أعلم...

❖ وكنت هناك منذ فترة طويلة؟

حميد: منذ عام 72، دائماً على نفس الخط. هناك جرى إطلاق الـ 604، الـ 205، والـ 405، وكانت سلسلتنا الرائدة لأن الناس الذين اختيروا لهذا الخط، هم من الناس الذين يتقنون عملهم...بالقياس إلى... يعني، ليس عندهم عيوب كثيرة. علينا أن نذكر أن رؤساء العمل، أنهم يعترفون رغم كل شيء بأن مسؤولي الـ CGT(*)، التنظيمات النقابية وعلى الأخص الـ CGT، يمكن أن يكونوا مزعجين لهم إلى حد القرف على مستوى المعركة النقابية

(*) CGT: الاتحاد العام للعمال، منظمة نقابية قريبة من الحزب الشيوعي. م.

ومثل هذه الأمور، لكنهم على مستوى الشغل، فهم يؤدون شغلهم كما يجب، على كلٍّ فلا شكوى في هذا الشأن، وهم يردّدون دائماً هذا على مستوى مصنع الـ HC1، فهم يقولون، «نعم، لم تكن عندنا أبداً مشكلة مع مندوبي الـ CGT ».

❖ بخصوص قضايا الشغل؟

حميد: قضايا الشغل، لأننا، نحن، عندما نذهب ونقول لهم، «هه، هناك من لا يتمكّن من أداء العمل المكلّف به في موقعه..» يقولون لنا، «نعم، لكن معكم، أنتم المندوبين، لم تكن لنا أبداً مشكلة معكم»، لكننا نحن، على الفور نلتفّ حول هذا القول لأننا لا نريد، أن نقع في الفخ، أن نستسلم للتملّق، من جانبنا، وإلاّ... فيمكن في الحدود القصوى أن نشعر، في هذه اللحظة أو تلك، كيف لا يؤدي باقي العمال مهمّاتهم كما يجب، ولماذا، وكل هذه الأمور، حينها، نقول، نحن، «نتمكّن من ذلك، نعم، إنما بمساعدة الآخرين.» ولكن من الضروري الاعتراف أن المندوب عندما لا يتمكن من القيام بشغله، فهو يعلم آنذاك أن ذلك الموقع ينوء بالشغل الزائد، فيأخذ قلمه ويسجّل هذا الأمر، ويعلم أيضاً بوجود مختص لمعالجة هذه القضايا ويقبض أجراً على ذلك. أما بالنسبة للعامل، فهذا، حتى وإن كان مسنّاً، غير واضح تماماً بشكل دائم. هو لا يتجرأ: ورأيت شخصياً أناساً يبتعدون عشرة أمتار عن مركز عملهم لاستدراك شيء تافه.

❖ فيتأخّرون، ومن بعد ذلك لا يقدرون على تدارك الأمر...

حميد: ... والمراقب عندما يلاحظ أن شخصاً ما قد نسي شيئاً ما، فبدلاً من أن يقوم بهذا العمل التافه وأن يقول للعامل هذا، كلا، بل هو يأتي إلى العامل ويجعله يبتعد عن موقعه حتى لمسافة عشرة أمتار... والرجل يعيد العمل المستدرك على بعد عشرة أمتار ومن بعدها يعود إلى مكانه إذا لم يحل المراقب محلّه أو إذا لم يكلّف زميلاً له ليحلّ محلّه. وهكذا يقع الشباب في هذا الفخ. لكن منذ أن بدأنا نتحدّث معهم، وكل ما تريد، نقول لهم، «إذا جعلك تبتعد، يجب أن تطلب إليه أن يأخذ محلّك. إن كان هناك روتشة يجب

القيام بها، اذهب للقيام بذلك، لكن أثناء هذا الوقت، عليه أن يأخذ محلّك!».

رئيسهم هيجّهم

❖ هذا مع العلم أنهم أناس مضى عليهم، معظمهم، 10 أو 15 عاماً في المعمل، فهم يعرفون هذا، والمفروض ألا يخافوا إلى هذا الحد من مخاطبة رئيسهم أو معلم الورشة، هذا هو المفروض!

حميد: في مصنع الـ HC1 لا يسود جو التآلف السائد في خط الانهاءات: على سبيل المثال... فقد جاؤونا بأناس من قطاعات أخرى، فهناك الفنّي P1، والفنّي P2، ومن هذه الأمور، فوضعوهم على سلسلة الإنتاج، وهؤلاء الناس غير معتادين لأننا نحن، من جانبنا مضى علينا، حتى تاريخه،17 أو 18 عاماً على سلسلة الإنتاج، لدينا رغم كل شيء.. يعني، وتيرة الشغل بالنسبة لنا أيضاً، ازدادت تدريجياً. ففي بحر سنوات قليلة... في كل عام يضيفون لنا شيئاً، في كل عام، توجد نسبة متزايدة للإنتاج، فنحن تقولبنا، يعني، على فكرة أن السنة المقبلة، سوف يزيدون فيها من تسارع العمل، فهذا الأمر نفسي، نحن جاهزون سلفاً لهذا. أما بالنسبة للناس الذين يهبطون علينا في قطاعنا، وكانوا أساساً حرفيين في قسم التصليح، وكانوا يقومون بتوفير النوعية الجيدة فإنهم يجدون أنفسهم بين عشية وضحاها على خط الإنتاج ولا يقدرون على مماشاة وتيرة العمل...

❖ وعندكم منهم كثيرون؟

حميد: نعم الآن... على سبيل المثال، هم يأخذون سائقي العربات الصغيرة ويضعونهم على خط الإنتاج، فلا يتمكنون من القيام بعملهم، وهناك حرفيون جاؤوا من قطاعات أخرى... منهم عدد جاؤوا من «التم»، من مخازن التموين... وبالأمس تحديداً جاءنا اثنان من التصويج وما سبق لهما أبداً العمل على خط الإنتاج... هما فنيان اختصاصهما التصليح على المكبس، ربما، فهبطا علينا ولم يتمكّنا من مماشاة وتيرة العمل... وهناك

حصلت المشكلة التي تحدثت عنها {صمت} وألمن ما في الأمر أن عمالاً من زمرته هم الذين وقّعوا عريضة... بكل تأكيد، نتيجة لتحريض الرئيس... فقال لهم، «أنتم في (التعتير) على طول النهار وحضرته سلّمناه مركزاً بسيطاً لا قيمة له على الإطلاق ومع ذلك لا يحسن القيام بشغله!» عندها انتشر الخبر بسرعة، بعد توزيع بيانات، وعلمنا ما حصل فذهبت لأرى هؤلاء الأصحاب، على أي حال أنا أعرف جميع هؤلاء الأصحاب لأنهم اشتغلوا على الخط 35 معي... فتناقشت معهم، واحداً بعد واحد، وقلت، «كيف حصل هذا...؟» «نحن، من جانبنا، نقوم بشغلنا، أما هو، فلا يحسن ذلك! ».

❖ عملوا عريضة كي يُطرد من عمله؟

حميد: ليس لصرفه من ذلك القطاع، وإنما لصرفه نهائياً من شركة بيجو! وكانوا من العمال! وكانوا، في النهاية، من العمال الممتازين لأن منهم عدداً لا بأس به شاركوا في الإضراب، أثناء إضرابات {عام 89}. فلم أتمكن أن أفهم، فبذلت جهدي معهم واحداً بعد واحد، وبدأت أعرف السبب. فقد تبيّن لي أن رئيسهم حرّضهم، ونظراً لأن الشخص المعنيّ لم يكن موفّقاً في شغله، وأنه كان يسهو عن بعض العمليات اللازمة... وهكذا فلم يكن باستطاعة المراقب والرئيس الاعتماد عليه ليحلّ محلّ الذين يتغيّبون في إجازة... فهذا يمسّهم مباشرة، عدا عن وجود مكافأة 50 فرنك عن الجودة، وهم لن يحصلوا عليها بسببه، بين قوسين، فقد استقرّ عندهم أن هذا بسببه. حينها انطلقت موبّخاً وقلت لهم، «غير مقبول منكم، أنتم العمال، كتابة عريضة لتسريح عامل!» وفي النهاية، تناقشت مع الجميع، بمن فيهم رئيسهم، وتكلّمنا مع مندوبين آخرين وذهبنا لمقابلة نائب رئيس العاملين ومن ثم، قلت لهم، «انتبهوا، إذا حصلت أشياء من هذا النوع فنحن، من جانبنا، لن نقف مكتوفي الأيدي! سوف نكتب أسماء الشباب وسوف نجعلهم حديث المصنع وسوف يعلم جميع العمال أنهم.. من الدسّاسين، وأنهم أناس عندهم..». وتناقشت مع أحدهم وقلت، «هل أخذت بعين الاعتبار: إن كان عنده أسرة، إن كان عنده أولاد، إن كان عليه ديون.. هل تتخيّل المشاكل التي

سوف يقع فيها لو أنه سُرّح!»، فقال لي، «لجهنّم، فهذا لا يعنيني أنا، ما عليه إلا أن يفعل مثلنا!».

❖ ذاك الذي أرادوا الإطاحة به، هو مع ذلك ليس صغير السن، وموجود في المصنع منذ 10 أو 15 عاماً أيضاً؟

حميد: عمره37 عاماً، لكن مضى عليه بالحد الأدنى 15 عاماً في المصنع، بالحد الأدنى... مشكلته أنه في السابق كان يقوم بمراقبة الجودة، ولم يشتغل أبداً على خط الإنتاج، والإنتاج شيء مختلف. فسرعان ما شعر بعدم التأقلم... لأنه، من جانبه، كان يعتقد من البداية أنهم غيرّوا له عمله لأنه من تصنيف P1 فوضعوه APF3، لنقل إنه التصنيف ذاته، ولكنه هو، من جانبه، شعر من البداية بالإهانة. وألعن من كل شيء، أن أصحابه في الشغل لفظوه كلّياً، هم جميعاً... لقد نجح الرئيس في إفهامهم بأنه خامل، تنبل، وأنه لا يجوز وجود مثل هذه «النمرة».

كراهية العمال لذلك البني آدم، ما رأت عيني مثله أبداً

❖ لكن يعني، الناس الذين أعطيتهم ما يشبه الدرس الأخلاقي، كانوا هم أيضاً من العمال الذين أمضوا 15 عاماً في المصنع وأسلموا قيادة أفكارهم لوجهة نظر الرئيس...

حميد: لرب العمل، نعم... هذا ما علمونا إياه في دورات التأهيل في مورفيلار، أنا شخصياً، كان ظني أنه كلام نظريات، وأننا بمجرّد خروجنا من هنا فالناس... لكن هاهم يطبقونه، لأنهم عندما يتكلمون، فكلامهم عن «الزمرة»، «هو يزعج الزمرة، يمنع الزمرة أن تشتغل»، هم لا يتكلمون إلا عن الزمرة.. فقلت، «نعم الزمرة، لكن... نحن، هانحن منذ سنوات نعمل ضمن زمر... سنوات قِدمكم مثل هذا الأخ، فإذا في يوم من الأيام وضعوكم، أنتم أنفسكم، في الموقع الذي شغله، لن تحسنوا عمل أي شيء... لأنه، هو، لديه تأهيل يسمح له أن يقوم بعمل ما، إنما... ». وعندها، قابلت رئيسه، وقلت له، «اسمع، أنا أضرب مثلاً بنفسي شخصياً: ففي إحدى المرات وضعوني

فـي موقـع امـرأة، ولـم أسـتطع أبـداً أن أنفّـذ العمـل؛ علمـاً أن رئيـس الـورش، عندمـا وضعنـي فـي ذلـك الموقـع، كل ظنـه كـان أنـه يقـدم لـي مسـاعدة. مـن بعدهـا، سلّمنـي موقعـاً أقسـى وأصعـب، كـان ذلـك بخصـوص أنـابيب الكبـح وأحسـنت تدبـير أموري»، لهذا يجـب الانطـلاق مـن الحالـة المناسـبة... «فـإذا كان هذا الشخص لا يحسـن شغل هذا الموقع، هنـا، لماذا تستقتلون لتركه هنـا؟ المصنـع هـائل، أرسلوه إلى موقع آخر، فتشوا له عن موقع آخر في مصنع آخر أو عن قطـاع آخر، حيث يمكن استكمال الإعداد، لفترة يتعوّد خلالها على نمط الإنتـاج ومـن بعدهـا أرجعـوه إلـى خطنـا». لأنني أنا قلت لـه، «التـأزيم، سـلاح ذو حدّين: فـإذا أردتم تـأليب زمـرة علـى عـامل فيـها، نحـن مـن الآن، بصفتنا مسؤولين نقابيين، لن نستسلم لمثل هذا، وسوف نقوم بكل شـيء كـي يحصل هذا الشخص على عمل آخر... لكن فـي الوقت نفسه، أنتم عليكم القيام بواجباتكم، وإذا فعلتم في يوم مثل هذا الأمر، فسوف تتدهور الأحوال تقريبـاً فـي كل موقـع، ثـم تتفـاقم الأمـور، وتنعكس عليكم فـي يوم مـن الأيـام أسـوأ انعكـاس.» عندهـا، بدأ رغم كل شيء بتوجيه الانتقادات. [صمت] إنمـا كراهية العمال لذلك البني آدم، مـا رأت عينـي مثله أبـداً؛ فمنـذ بـدأت عملـي فـي المصنـع، رأيت أناسـاً يبعبعون، و... أمـا فـي هـذه الحالـة، فـهو الرفـض الكـامل، لا يريـدون سـماع أي شـيء عـن ذلـك البنـي آدم، فـي نظرهـم، «إنـه خـامل، تنبـل... لا يريـد أن يشـتغل».. فقلت لهم، «لكن أنـا أعمـل فـي زمـرة مثلكم، وعندما لا يريد زملائـي أن يشـتغلوا، هـذه قضيتـهم؛ أنـا أقـوم بعملـي، والذي لا يتمكن من تنفيذ عمله، لـن أنجـرف فـي حكايـات الإدارة، لأقـول لـه: ياأخ، أنت مهمل لا تقوم بعملك! أنت تتغيّب! أنت تسجل ادعاءً أنك مريض!» نحـن فـي زمـرة، نتبـادل التحيـة، نشـتغل، وعلـى أي حـال فليـس عندنـا وقـت لنتكلم لأن السلسلة سريعة الإيقاع أكثر مما يجب. وقلت لـه، «فهل يزعجك جسدياً، هل يمنعك من أداء عملك؟» فقال لي، «كلا». عندها قلت لـه، «لماذا إذن كل هـذه الشراسـة ضـده؟» أنـا متـألّم لأن مـن بـين الذيـن وقّعـوا، هنـاك عنـاصر ممتـازة، وأنـا شـخصياً، منـذ شـهر، ذهبت لأعطيهم دفـتر مطـالب.. فقبل الرجال.. وكلمـا وقعـت مشـكلة، يسـجّلونها، والدفـاتر ماشـية تمـام علـى

خطوط الإنتاج... وهؤلاء الناس كانوا يساهمون في تجميع الأسئلة، وفجأة انخدعوا واستسلموا لـ «الطعم» فعلقوا بصنّارة الرئيس -لا أعلم بماذا وعدهم. على أن هناك اثنين أو ثلاثة، قادمين من قطاعات أخرى، لم يوقّعوا، وقالوا، «نحن، من جانبنا، لا علاقة لنا بهذا... هذا لا يزعجنا، يشتغل كما يريد؛ نحن، من جانبنا، نقوم بعملنا، وحل هذه المشكلة على الرئيس، وليس علينا أن نوقّع» لكن غالبية العاملين في القطاع وقّعوا.

❖ الغالبية وقّعوا.. يوجد إذاً ما يشبه القبول بمثل هذا السلوك، يوجد قسم من العمال يدخلون ضمن المنظومة...

حميد: بكل تأكيد ضمن المنظومة فبالنسبة لهم... تخلّى الرئيس عن عدد لا بأس به من المهام، فهو لم يعد ينظّم أيام العطل ومن جميعه. «عليكم أنتم أنفسكم تدبير أموركم داخل الزمرة.» فإذا وصل أحدهم في السابعة بدلاً من الخامسة، يسأل رئيس العمل الزمرة إن كان عليه أن يدفع له أو لا يدفع، ويقول له، «سوف أدفع لك لأن الزمرة قررت هذا.» لم تعد بيجو هي التي تدفع للعامل، أصبح رئيس العمل هو الذي يدفع، فبالنتيجة، تعود الأمور إلى، «يا معلّم، ألا يمكن أن تدفع لي الساعتين؟ فقد وصلت متأخراً؟» وهكذا، فالرئيس يطلب منهم أحياناً البقاء حتى الساعة 23.30 أو منتصف الليل، أو أنهم يذهبون في الساعة 22 ويدفع لهم حتى الساعة 23.30..

أصبح بيننا مذهب رب العمل

❖ يقدمون إليهم الوسائل لممارسة جميع هذه المساومات الصغيرة، جميع هذه «الأبواب» من النعومة...

حميد: نظام العمل على سبيل المثال: فالدوام يبدأ في الساعة13 أو في الساعة الخامسة صباحاً، فعندما يبدأ الشغل، يقول الرئيس، «لا توجد قفازات اليوم»، أو، في اليوم السابق، يأتي ليقول لنا، «لا ترموا قفازاتكم، لأنني لم أعد أستطيع تسليم قفازات، لأنه عندي ميزانية وقد تجاوزتها»، حينها يشتغل الناس بالقفازات نفسها طيلة أسبوع وبوجود مثل تلك الحرارة،

فعلاً هذا قاسٍ وشاق. من المؤلم أن نكون وصلنا إلى هذا المستوى في المصنع الجديد؛ لحسن الحظ، أن هذا الأمر لم يتعمّم، لكن إذا لم يتم الانتباه، فهذا قد يصير خطيراً.. هذا خطير للطرفين على أي حال، لأن التأزّم النفسي مع الحرارة يتفاقم كثيراً ومن الناس من يتمرّد على بيجو، وإذا كان هناك من يقع في الفخ.. فهذا نهايته وبال على بيجو وعلى العمال على حد سواء.. هذا شيء لن يكون بالإمكان السيطرة عليه.. وعلى كلٍّ، فالبارحة، انعقد اجتماع لم يكن لنا من حديث فيه إلا عن هذا لأنه لم يكن بالإمكان السكوت وترك الأمور تمرّ بسلام..

❖ كان اجتماع مندوبين؟

حميد: نعم، من بعد أن رأينا هذا، دعونا جميع الزملاء من القطاعات الأخرى، وعقدنا الاجتماع في HC1، وتكلمنا من بين مواضيع أخرى عن هذه المشكلة. إن من الواجب الكلام عنها لأنه لا يجوز أن نترك الأمور تتجاوزنا، لأن بيجو إذا فعلت مثل هذه الأمور، فمن الممكن لها أن تفرّق بيننا ومن بعدها تفعل ما تريد... وفي الشهر القادم، سوف تضيف الشركة 50 سيارة على كاهلنا... في شهر أيلول، سوف تحصل بطالة... الآن، نشتغل ساعات إضافية ومن بعدها نصبح في بطالة... في الأسبوع، سوف نكون عاطلين عن العمل مثلاً ليومين، الجمعة والاثنين، فلا نعمل إلا ثلاثة أيام، ولا بدّ مع ذلك من تحقيق إنتاج الأسبوع كاملاً لأن بيجو سوف تزيد وتيرة الشغل، عدد السيارات. عدا عن أن الناس سوف يقولون، «في جميع الأحوال لن نخسر تلك الخسارة ما دمنا لا نشتغل سوى ثلاثة أيام، وعندنا يوما بطالة... ». وقد تأكدنا من هذا طيلة فترة البطالة، فكلّما كان هناك بطالة، حصلت زيادة تلقائية في عدد السيارات الواجب إنجازها. لكن الناس يقولون رغم هذا، «سوف نتحمل هذا الموقف لأن عندنا يومي بطالة، فهذا يوفّر لنا ثلاثة أيام راحة مع حساب السبت والأحد.» لكن هذا ليس بالحل... منذ سنوات وبيجو معنا على هذه الصورة والآن بدأ الناس يقولون، «يجب الانتباه، فإن كان لا بد من البطالة، مع زيادة وتيرة الإنتاج، فهذا نهايته

سيئة!» (...) إذا تركناهم يتصرّفون هكذا، بالفعل، لا أحد يعلم إلى أين النهاية (...).

أعتقد ان نظام المكافآت هو أسوأ ما عرفنا

❖ يوجد أيضاً نظام المكافآت الذي هو وسيلة ضغط...

حميد: اعتقد أن نظام المكافآت هو أسوأ ما عرفنا، لأنه حتى مع التصنيفات وكل ما شابه، بيجو لا تتلاعب بحدود الشرعية. فهي بخيلة جداً في موضوع التصنيفات، بالمقابل، فهي توزع مكافآت، «تظل حتى منتصف الليل فنعطيك مكافأة، تأتي يوم سبت فنعطيك مكافأة، وإذا لم تفعل شيئاً، لن نعطيك أي شيء على الإطلاق..» عدا عن الأمر الصحي، فهي تعقد أحاديث مع العمال، «أنت أخذت هذا اليوم وذاك، أنت عندك نسبة لأيام المرض، وأنت قد تجاوزتها.. تلزمك نسبة جودة، وأنت تقريباً حققتها... نطلب إليك الحضور في جميع الأيام تماماً قبل الشروع بالشغل، بخمس أو عشر دقائق قبل الدوام لحضور الاجتماعات التوجيهية، فإذا لم تأت... فعلاً زوّدتها ولا يمكن إعطاؤك المكافأة!».

❖ وخصوصاً مكافأة الزمرة، فإذا سبّب أحدهم خسارة المكافأة لزمرته، فلهذا دون شك كتب عمّال قطاعه عريضة بحقه؟

حميد: نعم التأزّم من هنا منبعه، عدا عن أن الرئيس صرّح بذلك، فقال، «بسببه أنتم تخسرون مكافآتكم»، طيب، والناس بسطاء التفكير إلى حد كبير، فيعتقدون أن خسارة50 فرنك سوف تكلفهم غالياً... بالنسبة لهم، خسارة 50 فرنك بسبب ذلك البني آدم، أمر لا يمكن القبول به. «أنا أقوم بشغلي» وألعن ما في الأمر أن بيجو ترتب تنظيم العمل بحيث تعطى أصعب المواقع لهؤلاء الناس، وأما من يجادل فيدبرون له عملاً سهلاً نسبياً، وسهل بين قوسين، لأنه لا يوجد عمل سهل فعلاً... في جميع الأحوال، المؤكد أن موقعه أفضل من مواقع زملائه. لهذا يقول الآخرون، «هاهو في موقع (سهل) ولا يوفق في ضبط أموره، ونحن في مواقع صعبة ونقوم بالشغل،

(وزيادة البلّة)، فهو يرتكب أخطاء ونحن لا نرتكبها.» نظراً لأنه لم يعد يوجد... يعني الآن كل شيء، كل شيء جماعي، الزمرة هي الأساس... إذا أنا، مثلاً، أطرح اقتراحاً ما، هذا لا يعود عليّ بنفع كبير، هذا يعود بالنفع على الزمرة، فريق العمل، وإذا عملت «رذالة» ، فالفريق هو الذي يدفع الثمن، إذا رغبت في التغيّب ولا أخابر هاتفياً... فريق عملي هو الذي يقول لي، «لماذا لم تخابر؟» وعندك عمال من المعمل يتصلون هاتفياً بالعمال المتغيبين... أنا شخصياً أعرف واحدة خابرت زميلتها لأن الرقم كان عندها وقالت لها، «ما هذه الحالة معك! أنت لم تأتي، لم تُعلمي سلفاً، أنا كنت قد أخبرتهم أني أريد يوم عطلة وأنت... »، كان الرئيس هو الذي قال لها، «كان بودي أن أعطيك يومك المستحق لكن زميلتك غائبة»، تصوّر، لم يخابر الرئيس، البنت هي التي خابرت صديقتها وبعبعت في وجهها. فالزميلة اضطرت لاختصار إجازتها المرضية. لم تأخذ سوى ثلاثة أيام لأنها قالت لنفسها، «سوف (تقلب خلقتها) معي لسنوات»، ولهذا لم تأخذ سوى ثلاثة أيام... أنهت أسبوع الاستراحة في المصنع مع العلم أنها كانت مريضة. أنا شرحت لها أنه كان عليها أن «تخرى» على رفيقتها. وأنا تمكنت أن أفهمها أنها ارتكبت حماقة وقالت لي، «في المرة القادمة، لن أفعل هذا»، لكن ما حصل حصل وهي قد رجعت، عادت إلى شغلها مع أنه لم يكن من حقها هذا... طبيبها كان قد وصف لها استراحة لأسبوع... وعندنا واحدة أخرى عندما لا يعطونها قفّازات، تأخذ القديمة الوسخة وتغسلها في بيتها، ومن بعدها تشرّف لتتباهى أمام العمال قائلة، «اعملوا مثلي». بل عندنا واحدة ثالثة قالت لي، «إذا طلبت مني بيجو نصف راتبي، فهو مقدّم لها»... قلت لها، «لن يفيد راتبك بيجو شيئاً، لا نصف الراتب ولا الراتب بأكمله.» أنا أفحمتها وألقمتها حجراً. لكن بالنسبة لها، فالأمور هكذا. أصبح بيننا مذهب ربّ العمل، ثم هم لا يسمحون للعمال، مثلاً، القيام بالتوزيع... فأنا أوزّع بياناتي، فلا يقول لي الرئيس شيئاً أو ربما، «سوف أسجّل عندي أنك توزع بيانات أثناء وقت العمل»، فأقول، «ولا أبالي، افعل ما تريد». لكن من العمال من يقول لي، من الشباب، «ليس هذا وقت توزيع البيانات: البيانات

توزيعها في الخارج، وليس هنا!»، وهؤلاء يكونون من ذوي النوايا الحسنة... لأنهم علّموهم، «عندما ترون أحداً يفعل رذالة، لا تفعلوا مثله». على أنني أقول لهم، «لكن بأي حق؟ ألا يكفيك البراز في عملك حتى تتجادل معي، وتشغل نفسك بما أفعل!» عندك بشر من هذه النوعية...

الناس يتعوّدون هكذا...

من كثرة الإصغاء، يقعون في الفخ

❖ بخصوص خطّ الإنهاءات القديم... كانت قد بدأت مظاهر هذه «البيجوية» في الأفق... لكن الأمور هنا مختلفة؟

حميد: هناك ما هو جديد ومختلف باعتبار أن... لن أذكر سوى مثال واحد: البارحة في صالة، قال لي رئيس ورشتنا، «اتركوا المكان نظيفاً مثلما استلمتموه!»، قلت، «حاضر». دخلت، كان هناك فتاة، زميلة كانت تريد التدخين وزملاء لها قالوا، «لا، لا يجوز التدخين!» لأنهم، عندما التحقوا بدورة، قالوا لهم ألاّ يدخّنوا، وبالتالي فهم لا يدخّنون وفي هذه القصة، انطلقوا بالمعارضة آلياً. لكن وجد زملاء آخرون قالوا، «لا، دعوها، لماذا لا تدخّن؟ إذا لم تُرمَ الأعقاب على الأرض، فلا موجب لعدم التدخين!» ومن بعد تناول الطعام، انبرى من يقول، «يجب ترك المكان نظيفاً كما دخلنا إليه»، فجمع كل واحد حاجياته وقالت زميلة، «نعم، لا يجب ترك المكان كما في المصنع الآخر، لأنهم هناك، عندهم شغالة تأتي للتنظيف، أما هنا، فلا شغالة ولا يحزنون». فالناس يتعوّدون هكذا، رغماً عنهم، على بعض الأمور، فمن كثرة ما يقولون لهم، ومن كثرة ما يصغون، يقعون في الفخ... أحياناً ينتفضون مباشرة ليضعوا حاجزاً بينهم وبين هذه الرذالات لكنهم في أحيان أخرى يردّدونها بأنفسهم، آلياً، وحتى عندما لا يؤمنون بها، يقولونها لأن من حولنا من يقولها، والأمر كذلك.. حتى بالنسبة لي، الأمر كذلك.

❖ الحركة الأولى، هي الدخول في هذا المنطق...

حميد: الذهاب لطلب قنينة ماء من أجل حملها إلى موقع العمل...

هذا أمر غير سهل. الآن في مصنع HCl ، قالوا لهم مراراً وتكراراً أنهم لا يجب أن يكون بحوزتهم أي غرض شخصي في موقع العمل... قال لي زميل، «أنت تجلب قنينة؟»، قلت، «نعم، لماذا؟ لقد تشاجرنا من أجل هذا فأعطتنا الإدارة الإذن بجلب قنينة»، «طيب، أنا أيضاً سوف أذهب وأجلب قنينة أثناء فترة التصليح كي أشرب بلعة» وجلب قنينة.

❖ والقنينة، هي قنينة ماء؟

حميد: نعم... أو تكون أحياناً ماء بالنعناع...

❖ ما كان يحصل في المعمل القديم: جلب الخمر، البيرة، هذا لم يعدله وجود...؟

حميد: هذا موجود دائماً... [ابتسامات] حتى في المصنع الجديد، هذا موجود، بالتأكيد.

❖ مسموح به، الخمر؟

حميد: الخمر... كل شيء مسموح في المصنع الجديد، يعني، هذا لأن العمال أصرّوا عليه... لأنهم في المصنع القديم، الرؤساء كانوا في مكتبهم والعمال في قاعة الطعام. هنا، الجميع يتكلمون مع الرؤساء: فيأكلون سويّاً، لا أحد يمكنه أن يأكل في مكان آخر... في فسحات الاستراحة، تجد عمالاً، ورؤساء، ومعلمي ورشات جالسين جنباً إلى جنب. فالعمال منذ 30 عاماً يعملون في المصنع وهم معتادون على إحضار زجاجة نبيذ كلٌّ بدوره، فلم يكن بإمكانهم أبداً القيام بعكس هذا... إذن هذا مستمر. لكن، تحديداً، فالذين يشربون كثيراً، للرؤساء وسائلهم في الضغط عليهم... من بين الذين وقّعوا العريضة البارحة، يوجد عامل قديم يشرب دون توقف، وهو في النهاية مدمن قليلاً، عندها قالوا له، «أنت، إذا لم توقّع، سوف نشي بك، سوف نعمل عنك تقريراً، فيقذفونك خارجاً، ماذا تظن»، عندها وقّع. يعني هكذا... هذا تخويف، هذا ضغط يمارس عليهم...

❖ توجد فعلاً هذه المشكلة، مشكلة التخويف التي يتابع العديد من الرؤساء تبنّيها...

حميد: هذا صدى لما كان عليه الحال في المصنع القديم: في المصنع القديم سبق أن وُجد هذا ... كل هذه «الحركات» الموجودة في مصنع الـ HC1، سبق اختبارها في المصنع القديم... لقد وُضعت على المستوى العملي باحتمال نجاح نسبته 20 أو 30٪ في خط الإنهاءات القديم لكن النسبة تحسّنت في الجديد... فالناس، هم يقعون في هذا الفخّ، بالفعل، لكن مع هذا، هناك أقلية لا تماشي التيار... وأذكر لك على سبيل المثال، فعندنا مراقب لم يعد يستطيع أن... يعني طفح به الكيل لأنهم كانوا قد وعدوه أن ينتقل تصنيفه من 225 نقطة إلى 265... «إذا أخذت محل الرئيس...» عندها صار يجيء يوم السبت، ومن جميعه... والآن، طفح به الكيل، فقال للرئيس، «اقذفني إلى أي عمل!»، علماً أنه كان يقوم بمبادرات... كي يبرهن أنه يعمل من أجل بيجو أكثر مما يعمل من أجل الطبقة العاملة... ودفعة واحدة، أصبح يعيش بوسواس بيجو، في الليل لا بدّ أنه كان يفكر ببيجو، في بيته، وأنه كان لديه كمٌّ من صور كالفيت، ومن جميعه، لأن (المعلّم) هو الذي يدفع لنا...» {ضحكات} لكن مع هذا فهو الآن قرف من كل هذا، بعد أن تبيّن له وجود شباب صغار يتوافدون من خلفه، وخبرتهم أقل من خبرته... فطلب تسليمه عملاً ما... لأنهم أحياناً يُفجعون، أيضاً، بـ(بيجو)...

❖ نعم، المفجعون بالنزعة البيجوية، هذا شيء موجود...

حميد: لأنهم يحسبون أن عملهم دائماً في صالح بيجو. لكن بيجو...لها حقيقتها الواقعية... ولا تستطيع جعل الجميع سعداء... يأتي وقت يتم فيه الوصول إلى الحد الأقصى، حيث الناس لا يتقدمون بعد ذلك في سلم الوظيفة، ولا في مستوى الحياة، ومن جميعه. فهناك في هذا الوقت، ما يشبه التمرّد... ليس دائماً، لكن لنقل إن هذا يحصل.. بيجو لا تنجح دائماً بما تفعله على مستوى التأهيل، كل هذا أو الإعلام، أمور كثيرة انعكست عليها بالضرر. جميع الذين وصلوا إلى مصنع ميلهوس يقولون، «هذا غير ممكن، لأنهم قالوا لنا إنهم سوف يرفعوننا إلى 180 نقطة تلقائياً،

وقالوا لنا إننا سوف ننال علاوة 200 فرنكاً بمجرد دخولنا العمل ولم نحصل على هذا؛ وعدونا بمكافأة إنجاز قدرها 300 فرنكاً، ولم نحصل عليها أبداً، لأننا حتى عندما ننجز الشغل، يكفي أن يحصل عطل في السلسلة في الطابق العلوي فينقص عدد السيارات التي ننفّذها...» عندك مقاييس لا عدّ لها تدخل في حساب مكافأة الإنجاز تلك. بالمقابل، في المصنع القديم كان عندنا مكافأة وكان الجميع يحصلون عليها آلياً.

❖ لكن نظام المكافآت كان يشغل حيّزاً أصغر، في المصنع القديم، منه في الجديد. كانت المكافأة أضعف ولكن كانت فرصة الحصول عليها أكبر؟

حميد: في النهاية كان للجميع حظ في الحصول عليها: جميع المرضى... الآن، هناك من يُستثنون.. وعندما نحن، من جانبنا، نتناقش مع مسؤولين، يقولون لنا، «نحن لا نفهم، هناك 90٪ يحصلون على مكافأة الإنجاز، بينما أنتم تدّعون بأن..» -«أنا أقول لكم أن هناك 70٪ لا يحصلون على مكافأتهم.» عندها هم يقولون، « 80٪ يحصلون عليها»، فنقول نحن، «70٪ لا يحصلون عليها».. على أن الحق معنا أكثر مما هو معهم..

من الأصحاب الجيدين أو من الأصحاب غير الجيدين،
الناس لا يحبّون إظهار بيان الراتب!

❖ في جميع الأحوال الناس يتكلمون عن مكافآتهم؟ يقولون ذلك أم لا يقولون؟

حميد: يقولون ذلك لكن لنقل إن... منذ أن عرفت خط الإنتاج، من الأصحاب الجيدين أو من الأصحاب غير الجيدين، الناس لا يحبّون إظهار بيان الراتب، وثم أنا لا أعلم إن كان هذا غيرة أو ما لا أعلم، لكن يوجد انزعاج، «كم أخذت؟» - «أخذت 6000 فرنك» فعندما ترى بالفعل كشف ما قبض، لا يكون فيها 6000 فرنك، إنما قبض 6500 فرنك مثلاً. «كم أخذت؟» - «أخذت 4500 فرنك». ولا يكون قبض 4500، بل قبض 4000 لا غير. وحتى الرؤساء لا يقولون الحقيقة أبداً... زميل لي قال يسألني، «كم

أخذت؟» - «أخذت 5600»، عندها قال «5600 هذا جيد، أكثر مني بقليل». لكني ألقيت نظرة عفوية، من خلفه، ورأيت أنه قبض 6200، فقلت بعدها، «رأيت أنك قبضت 6200» - «نعم، 6200، هذا مع حساب أيام السبت، أما أنت فلم تشتغل أيام السبت». عندها قلت له أنا، «لكني لم أطلب منك حسم أيام السبت...» ثم هم يأتون للتلصّص على بيان راتبك لكنهم أبداً لا يسمحون لك برؤية بياناتهم... بالمقابل، منهم من هم مثلي: فأنا أنزع الظرف، أرميه إلى سلّة المهملات، وأترك كشف راتبي في الورشة لأني لا أخاف من... أنا بتصنيف 170 نقطة، أنا في الورشة منذ 18 عاماً، فأحياناً أقبض 5600 فرنك، 5700 فرنك، 5900 فرنك... أحياناً 6000، حسب، أنا لا أخاف من... على العكس لأنني أبدأ العمل في الساعة الرابعة صباحاً لمدة أسبوع وأعود إلى البيت في الساعة 21.30 في الأسبوع الذي يليه..

❖ لكنّ قليلون من يُظهرون كشف رواتبهم؟

حميد: بعضهم بسبب، يعني، مثلاً، بما أنني مندوب، طيب الناس يخافون أقل، فيقدّمون إليّ كشف رواتبهم، «انظر، عندي مشكلة.. هذا السبت لم يدفعوه لي.. وهنا، اقتطعوا مني.. أنا لا أفهم»، فإذا استطعت أن أشرح، أشرح على الفور، وإذا لم أستطع أراجع التدقيق كي أحصل على الجواب.. الناس يعرضون عليّ بيان رواتبهم دون تردد كي أقدمه إلى النقابة أو.. لأنهم يعلمون أن هذا في صالحهم.. إنما فيما بينهم، لا يوجد..

❖ وإذا قابلنا بين هذا وبين ما كان موجوداً في السبعينيات، يوجد دون شك اختلاف، لأنهم حينذاك كانوا يعيشون التضامن داخل الزمرة، بقوة...

حميد: تضامن الزمرة كان ضد الرؤساء، ضد هيئة المراقبة، الآن يتضامن العمال بعضهم ضد البعض الآخر... فالعمال الذين يناهضون، الذين لا يقبلون بعض المظالم، الذين يرون أن أعباء الشغل فوق ما يطاق، هؤلاء ينظرون إليهم بنظرة الاستياء لأن رئيس العمل عمّم الاعتقاد بأن الناس الذين يبعبعون سوف يحطمون البيت على من فيه، وإذا انساق الجميع

مع البعبعة، فلن يكون بالإمكان إنجاز أية سيارة، ولن يكون لأحد أي راتب، ولن يعود أمامهم سوى إغلاق المصنع والمغادرة، وهكذا تمشي الأمور. في السنوات 70-78، عندما كانوا يدفعون لنا أجورنا، كنا نجمعها على طاولة، وننظر إليها جميعاً جنباً إلى جنب ونجري المقارنة على أساس الأقدمية، و، «كيف يمكن أنك لا تقبض أكثر مني؟»، فالعامل الذي كان راتبه أكثر هو الذي يقول لي، «هيا اذهب وراجع رئيسك، أنت أقدم مني وتقبض أقلّ مني...» العامل نفسه هو الذي كان يحرّضني، في وقت لم أكن قد صرت فيه بعد مندوباً نقابياً... كان هذا في حدود 74 - 75... كان يقول لي أن أذهب لأطالب بحقي. الآن، صاحبنا الذي تطلب منه إلقاء نظرة على كشفه يردّ عليك، «لا، لا، لا!»، وحتى إذا أراد هذا الأخ، إن كان شجاعاً حقاً وشاء السماح بإلقاء نظرة على كشفه، يطوي أعلى الكشف ولا يُريك إلا أسفل الورقة، حيث قيمة المبلغ مسجّلة، هو لا يريك الحيثيات والتفصيلات المدوّنة في الأعلى. لنقل إنها... «مسألة شخصية»...

❖ هذه مفاهيم متوجهة نحو تكريس الفردية ومن المهم تحليلها لأنها لا ترد غالباً، ومن الصحيح أن بيجو في هذا المجال حققت نصراً..

حميد: نعم، بالنسبة لبيجو، هذا نصر... ولكن أقول دائماً إن انتصارات بيجو سلاح ذو حدين لأنها تبالغ في الرذالات بحيث يمكن أن تنعكس عليها... لأن العمال لا يقبلون... طيب، هناك من النوعين: عندك من لا يريد إظهار كشف أجره لأنهم يخافون، هم لا يقبضون ما يكفي بالقياس إلى الآخرين فيقولون لأنفسهم، «لسنا أغبى من الآخرين، ومع ذلك نقبض أقل»، وعندك بالمقابل من يعملون ساعات أكثر... فتكفي أقل شرارة لإشعال المستائين من أجورهم، عدا عن أن الراضين دفعوا الثمن غالياً... لأن الذين سجّلوا ساعات إضافية، الذين داوموا حتى منتصف الليل، قد يكون المسجّل في كشف أجورهم أكبر، إنما مقابل أية تضحيات؟ يجب النظر إلى التضحية التي قدموها: فهم عادوا إلى بيوتهم... يعني الأخ المعنيّ إذا كان يعود عادةً إلى بيته بعد خروجه في الساعة 21.30 فإنه لا يصل إليه قبل الساعة

22.45، فإذا كان خروجه من المصنع في الساعة 23،30، أصبح وصوله إلى البيت في الساعة الواحدة صباحاً. عدا عن أن الناس هم يرتّبون أنفسهم بأنفسهم، عندما يكون النقل مؤمّناً، فبالنسبة لجماعة الضواحي، يجلبون معهم زملاء آخرين... إذن بالنسبة لأولئك الذين يسكنون بعيداً، فذاك الذي يكون «جاهزاً» قد يدفعون له البنزين، ولعل بيجو تدفع بالعملة النقدية... إذا لم يكلّف الرئيس بدفع المستحق ضمن بند الساعات الإضافية... فخلال فترة يُعيد «الجاهز» زملاءه إلى بيوتهم، أربعة أو خمسة زملاء إلى بيوتهم، فهذا يُلزمه بدورات لا بأس بها، ليصل إلى بيته منهكاً... وفي اليوم التالي، يبدأ عمله من جديد.. هو يشتغل ويعيش من أجل بيجو.

العمال هم الذين هاجموني:

«سدّ بوزك، لا شغل لك كل الوقت إلا أن تبعبع»

❖ معنى هذا أن عند الرؤساء هامش مناورة للمفاوضة بشأن هذه الحكايات «أوّلاً بأوّل»... فهذا إلى حد ما منطق مقلوب لزمرة الأصحاب...

حميد: نعم، هذا منطق زمرة الأصحاب: فإذا وصلت متأخّراً... أنا، من جانبي، في هذا المصنع، المرّة الأولى التي وصلت فيها متأخّراً... من بعد إذنك، حتى إذا استيقظت في الساعة 5،15، لا أصل في الساعة 5.30 أو الساعة 6، إنما أصل مع أولئك أصحاب التوقيت الاعتيادي في الساعة 7... أصل مع أصحاب التوقيت العادي، لأنهم في جميع الأحوال، يحسمون مني ساعات، فلا فائدة من إرهاق النفس... وفي ذلك اليوم قال لي الرئيس، «قرّرنا أن ندفع لك ساعاتك»، قلت له، «فهذا جديد، في حياتي منذ أن اشتغلت عند بيجو ما دفعوا لي حتى ولا ¼ ساعة. فهذا، كيف حصل هذا؟»، أجابني، «هنا الزمرة هي التي تقرر وحيث أنك تتغيّب للمرّة الأولى قرّرت الزمرة أن تدفع لك ساعاتك»، قلت له، «فهذا عال العال، تابعوا على هذا الأسلوب، وأنا سوف أرتب نفسي لأتأخّر أكثر مما فعلت حتى الآن!» عندها، قال لي، «لا بالمرّة، فهذه زهرة يتيمة قدمها إليك العمال، زملاؤك،

ولذلك فلا يجوز..»، معنى هذا أنهم يدفعون لك ساعاتك لمرة واحدة، ومن بعدها، حذارِ! في المرات القادمة لن يتحمّلوك، إذن هم يُلبسون الناس التهم.. كان العديد يجيئون متأخرين وفور أن سمعوا بذلك، لم يتأخروا أبداً... هم بهذا يشترونهم!

❖ صحيح، يشترونهم إلى حد ما، لكن في الوقت نفسه، يستثيرون مفهوم الأخلاق الجماعية.

حميد: في مرّة ثانية كانت الـCGT قد طلبت مني الذهاب إلى اجتماع توجيهي خارج المبنى، رئيس الورشة هو الذي رتّب هذا الموضوع... فاستلمت الحديث وقلت، «جميل جداً إعطاؤنا الكلام لكن اتركوا لنا على الأقل عشر دقائق لنعبرّ عن معاناتنا، فالعمال من حولي يقولون عن مستوى وتيرة العمل، عن مستوى الجودة، هذا غير ماشي... يقولون إن السيارات لا تخرج نظيفة تماماً... وهذا طبيعي لأننا مجبرون على تركيب قطع، ثم إخراجها، ثم فك وإعادة تركيب في الجهة المقابلة لوجود أمور لا تمشي كما يجب... فبدلاً من ترك السيارة تمرّ على مهل، يجبروننا على تنفيذ عمليات كثيرة، ومن بعد ذلك تركّبون، فهذا معناه تركيب، إعادة تركيب، فك، إعادة تركيب، ومن أجل السيارة هذا الأمر غير مستحبّ... عدد السيارات أصبح كبيراً وفي كل شهر تضيفون سيارات علينا، فهذا له تأثير.» عندها كان رئيس العاملين يريد الردّ عليّ، لكن لم يردّ الرئيس، العمال، الشباب بينهم هم الذين هاجموني، «أنت، سدّ بوزك، كل الوقت لا شغل لك إلا أن تبعبع! هذه أول مرة نراك فيها!» عندها قلت، «بالتأكيد، هذه أول مرّة، فمنذ ستة شهور أو عام وأنا هنا وهذا ثاني اجتماع يحصل، لكن أنا جئت، وما جئت للنقاش معك، أيها الشاب، أنا جئت أتناقش مع رئيس العاملين؛ فأنت بالكاد تشتغل هنا منذ عامين أو ثلاثة أعوام، أنا في الشغل منذ 20 عاماً، إذن سدّ بوزك أنت...». إنما، العادة، أن مثل هذه الساعات مأجورة، فيدفعون لنا وقت الاجتماع، وقد دفعوا للآخرين، أما أولئك الذين بعبعوا... {إشارة معناها: «لم يدفعوا لهم»}. عظيم، رئيس العاملين كال لي المديح، لكنه من

بعد ذلك قال لرئيس الورشة، «هو، هو تشطب له ساعاته». عندها قلت له هكذا، «معلوم، حتى لا أُعصّب...» لحسن الحظ أن من العمال من دافع عني، من قال للشاب، «سكّر بوزك»، ومن جميعه... بل تدخل الرئيس، ودافع عني، فقال، «على أي حال، حميد هذه طريقته في الكلام، هو يشرح لنا وجهات نظره، أفكاره» (...) صحيح أننا، في المصنع القديم، كنا معتادين على نمط حياة مختلف... ففي الماضي، كان الشباب في عجلة كي ينطلقوا إلى بيوتهم بعد الشغل... الآن يظلّون «باتجاه» مواقع عملهم... فيبدأون بالدوران... كي يرى الرئيس أنهم مازالوا هناك...

❖ «جاهزون؟»

حميد: نعم.. مع وجود الحرارة، ومن جميعه.. لكنهم «جاهزون».. لأن بيجو.. ماذا تظن.. هي في موضع الرئاسة عليهم... فلا يجوز.. وشغل النقابة الآن بين العمال المختصين، يزداد صعوبة.. أكثر فأكثر.

❖ لماذا؟ لأن الرؤساء يتجهون الآن إلى تحمّل جزء من أعباء العمل الذي كانت النقابات تقوم به سابقاً..

حميد: نعم.. ثم الآن كثير من العمال يلعبون بالفعل هذه اللعبة.. أولئك الذين كانوا أول الموّقعين على طرد عامل، كانوا من جماعة الـ CGT..

مراقبون صغار لا قيمة لهم على الإطلاق

ويريدون احتلال موقع مرموق

❖ هيئة المراقبة لم تعد تواجهكم مثلما في السبعينيات؟

حميد: لا، أقل بكثير... لأنهم أصبحوا قليلاً {يفتش عن الكلمة المناسبة..} «أخبث». فواحدهم يقول لي على سبيل المثال، «كما ألاحظ أنت تنشط في توزيع بيان... » فأقول لهم، «يعني؟ الآخرون، ألا يفعلون ذلك أيضاً؟» – «نعم، إنما هي مجرّد ملاحظة، وأنا أسجّل هذا ... » ويقولون لي، «أما نحن، فلا نريد التفريق في تعاملنا مع مختلف النقابات». بينما أعلم شخصياً أنهم يفرّقون تفريقاً كبيراً بين النقابات، على سبيل المثال بين

الـ CFTC[*] والـ CGT ... وقال لي أحدهم {يقلّد اللهجة المطعّمة بلطف كبير}، «أنا فقط أقول لك هذا..» هذا معناه أنه لم يعد هناك وجود، كما في المصنع القديم، لفكرة النعاج الجرباء التي يُشار إليها بالأصابع.. إنما اليوم تفاقمت مسألة تأمين موقع مرموق. أنا رأيت شباناً منعوني من توزيع بيانات، أوقفوني.. قائلين، «أمثالك لا يجوز أن يكونوا هنا..» كان هذا منذ عامين، والأخ {الذي قال لي هذا}، ما كان له في المصنع سوى.. عامين، بل أقلّ، هو مؤقت قديم، ومن ثمّ شرحت له، بأننا نحن، من جانبنا، نقاتل منذ سنوات.. فقال لي، «نعم، وبسبب الناس من أمثالك سوف نصبح عاطلين عن العمل» {صمت طويل} خطاب الإدارة أصبح تمريره يتم بسهولة، بسهولة متزايدة باستمرار.. بفضل مراقبين صغار لا قيمة لهم على الإطلاق، ويريدون احتلال موقع مرموق.. كل هذا، هذا يلعب دوراً.. وصحيح أن شغل النقابات بات.. أكثر فأكثر مشقة..

❖ نعم، المندوبون إلى حدٍّ ما أصبحوا كالضائعين.. فالمراقبون إلى حدٍّ ما في طريقهم لأخذ محل المندوب. فهل في ورشتكم «مستشارو ورشة»؟ كما في قسم الصهر والصبّ مثلاً. فالناس الذين قد تواجههم مشاكل شخصية يتشجعون لمراجعتهم..

حميد: عندنا، «مستشارو الورشة»، هم موجودون، لكن هناك على وجه الخصوص جماعة المراقبين. على سبيل المثال عندما يتحدث معلم الحرفة أو الرئيس في مقابلة.. فإذا، من بعدها، لا حظوا أن الأخ متغيّب، يستدعونه، «يعني، لا نعلم، لكن نحن مستعدون للنقاش بعمق في كل شيء، إذا كان عندك مشاكل عائلية، مالية، قرض للبنك، من جميعه، نحن مستعدون لمساعدتك.. لكن لا يجوز {يخفضون الصوت} أن تتركنا هكذا. إذا كنت مريضاً، تعال وقل لنا إنك مريض». بدأوا يؤثّرون على الحياة العائلية.. من بعدها يأتي شخص آخر.. فيقولون له، «انظر السيد {يقدمون اسم السابق} لقد جاء لمراجعتنا، قال لنا إن زوجته تريد الطلاق..» ويقولون،

---

[*] CFTC: نقابة عمالية مسيحية.

«نعم السيد.. حكى، وتمكنّا من حلّ مشاكله.. فذهبنا لرؤية السيد أو المدام..» هذه هي ألاعيبهم: يعطون أمثلة.. حتى لو كان الأمر يتعلق بأمور خاصة، سرية.. بين الناس.. يقولون، «أرأيت، نحن أنهينا مشاكل السيد..».

❖ هذه طريقة إضافية لإغراق الناس، لتوريطهم؟

حميد: نعم، نعم {صمت}.. لأن هذا بالفعل غير صحيح، فوق وبعد كل شيء! عندما يكون لديك قضية مع الابن، ومن جميعه.. أناس غير مرتاحين.. حينذاك يقولون، «نعم، لقد حكوا لنا عن مشاكلك.. نعلم أنك في حالة مرض.. أن عندك مشكلة. إذن نحن على استعداد لمساعدتك.» عندها يفكرّ الأخ، «على الأقل هم يبذلون بعض الجهد..» وحتى إن كان مريضاً، فهو يأتي! عرفت من هؤلاء واحداً، كان في حالة طلاق، يعني. فاستدعوه، ومن بعدها صار يتغيّب... قليلاً، بينما في الماضي كان كثير الغياب. فرجع، وذهبت لرؤيته، فقال لي، «الـ CGT لم تدعم موقفي هكذا..» كان ناقماً على الـ CGT! قلت له، «لكنك لم تأت لمراجعتنا... ثم نحن، يعني هذه مشاكلك الشخصية، نحن لا نريد التدخل في هذا... » قال، «نعم، لكن يلزم فعل هذا الأمر! يجب التدخل في القضايا الشخصية... » إذن، كما ترى، مداخلات الهرم الإداري، لها مفعولها.

❖ لكن أليس هذا ما تخشاه النقابات؟

حميد: آه، بلى! هذا أمر له خطره على النقابة... [صمت] لكنه خطر أيضاً على العمال... نحن من جانبنا نقول، «بيجو لها أجهزة التقاط في كل مكان.. هي تعرف كل شيء.. كل شيء بيدها وطوع أمرها.. في داخل المصنع وفي خارج المصنع على حدٍ سواء..». لكنْ صحيح، كما يقال أيضاً إن المشاكل التي تنتظر العمال سوف تكون كبيرة إذا استمرت الأمور هكذا..

❖ وفي الوقت نفسه، يصوّتون مع الـ CGT بنسبة 60٪ في الانتخابات.

حميد: نعم، في قطّاعي أنا، كانت النسبة 77٪ أو 78٪. فهم يعلمون أن بيجو هي التي تضعهم في «الخرى» .... ويعلمون أيضاً أنه يمكنهم

الاعتماد على الـ CGT. إنما، في الوقت نفسه توجد ضرورة مراعاة بيجو، فهي ربّ العمل، يجب «تمشية» الأمور... [صمت]. لقد نجحت بيجو على طول الخط في إيهام العمّال بأن الـCGT غير قادرة على إدارة الـ CE.. فالعمال، هم أنفسهم يقولون، «في كل ما يتعلق بشروط العمل، أنتم، جماعة الـ CGT، أنتم أبطال، لكن بشأن كل ما يتعلق بمواردنا، الـ CGT هي الوجه الآخر للحزب الشيوعي، يعني... [حركة لفقدان الثقة]. لقد نجحت بيجو في إفهامهم أن الـ CGT، إذا ما سلّموها مسؤولية إدارة الـ CE، ومن جميعه، فأموال العمال سوف تُحوّل إلى الحزب الشيوعي، أو إلى منشآت أخرى... وهذا، له سوقه! فعندنا، من رجالنا، كثيرون يقولون، «نحن، نحن لا قدرة لنا على الإدارة... ».

العمال الذين يتشاجرون في ما بينهم،
هذا ما لا اقدر ان اتقبّله...

حميد: الحكاية التي أكثر ما تصدمني، لعلّها ذلك التصوّر لعمّال يتواجهون بعضهم على بعض. هذا أشدّ ما أخشاه بشأن المستقبل... أما أنا، فشعوري الشخصي، هو أن علينا عملاً يجب القيام به على مستوى الفصائل النقابية... أتكلّم عن جماعتنا، عن الـ CGT ... في هذا الاتجاه تحديداً يجب أن نسير... أن نجرّب جميع الوسائل... هذا النظام البيجوي... يجب أن نشير إليه بإصبع الاتهام...

❖ يجب تحليله...

حميد: قلت لرئيس زمرة كان يقول لي، «لكن لماذا تتحمّس إلى هذه الدرجة من الشراسة؟ لقد جئت خمس أو ست مرّات في النهار نفسه... ». قلت له، «شراستي لها سبب وحيد: فعندما يكون لعمال توترات مع رؤساء، مع معلّمي حرفة، أنا هذا لا يطرح عليّ مشاكل خاصة، فأحاول أن أرى، أن أرى أين هو مصدر الشقاق... لكن بمجرّد أن أجد نفسي في مواجهة موقف يتشاجر فيه عامل مع آخر، أو يحاول فيه عامل طرد عمال آخرين، أقول، أنا

إذا لم أفعل كل شيء، كل شيء من أجل تبديد هذا الـ.... [يفتش عن الكلمة المناسبة] هذا «الاعتلال» ... أنا، لا أعتبر أني قمت بشغلي». قلت، «العمال الذين يتعاركون في ما بينهم، هذا لا أتقبّله، أنا لا أقدر أن أتقبّل هذا». قلت، «هم شباب ممتازون، أولئك الذين وقّعوا، عمال اشتغلت إلى جانبهم، وشاركوا في إضراب عام 89 معي... لذلك عندما أراهم «ينبذون» أحد زملائهم شارك هو أيضاً لمدة أربعة أسابيع في الإضراب!.. هنا، أنا أقول «هذا فوق طاقتي، هذا ما لا يمكن أن أفهمه!» ثم، عندها، قال لي، «نعم...» فقلت له، «نعم، وحتى أنت، كن على حذر... لأنها سكين بحدّين... لأن العمال «المحرِّضين» هكذا، فغداً هدفهم سيكون الرئيس أو معلّم الحرفة». تحدثت عن النزاع الذي حصل معنا في إضرابات عام 89. قلت على سبيل المثال عن الإضراب الذي قمنا به: لقد أظهر قدرة العمال {على الانضباط}. لم نهاجم عناصر مراقبة النظام، الرئيس، معلّمي الحرف.. رغم أنهم أزعجونا، وأنهم أحاطوا بنا.. باستثناء بعض الشتائم.. لكن هذا لم يتدهور كما في أمكنة أخرى.» قلت له، «لكن إذا استمرّ يتم بالسماح بـ(هذا) ففي اليوم الذي يحصل فيه إضراب.. أنتم.. أنتم.. سوف تذبحون في حال التفاقم، بالعزقات الكبيرة، بقضبان الحديد، بأي شيء لا على التعيين، لأنكم أنتم مهدتم لهذا الأمر وما شابه.. بكل ما أنتم بصدد القيام به حالياً. هذه الممارسات، قلت له، أعتبر شخصياً أنها لا يجوز أن توجد. كنت سابقاً قد أخذت موعداً مع زميلين مندوبين لدى رئيس عناصر العاملين لمحاولة... التغيير قليلاً في هذه الأمور». والأمر الثاني الذي أراه هاماً أيضاً، هو أن معلّمي الحرف والرؤساء، يلعبون بورقة المعاشرة الاجتماعية، وورقة الاهتمام بالناس، لكن في نظري، هذا من باب النفاق...

❖ هم يؤمنون بهذا أيضاً؟ جزئياً..

حميد: يؤمنون بها جزئياً، هذا صحيح. ولكنهم، لنقل ، لا يمارسونها! يريدون حلّ كل شيء، يريدون حلّ مشاكل العامل. لكن عندما يواجهون عاملاً عنده بالفعل مشاكل، ينزلون الحمل عن أكتافهم، «ما من اختصاصنا،

هذا». ما دام الناس يعملون، ما دام بالإمكان التأثير عليهم كي يعملوا أكثر... البقاء إلى ما بعد الدوام... المجيء قبل الدوام، في هذا عال العال! لكن عندما تصل النار إلى ذقونهم، عندها، هم ينفضون أيديهم، رغم كل شعاراتهم المرفوعة، «نعم، لكن لسنا هنا لحل مشاكلك الشخصية.» وبهذا الشأن، عندنا أمثلة ملموسة... لأن من الواجب تحقيق النظر، لنفهم أنهم ما عادوا يقبلون بالمرضى! وبهذا الشأن، الأمر واضح وبسيط، هم يعلنونه دون مواربة! فالمرضى عندهم، هم من المعوّقين. ويكادون يقولون هذا، «المريض لا يجوز أن يكون له عمل. العمل يجب تركه للآخرين، لأصحاب البنية السليمة. فالمرضى، العمل لا يليق بهم.» وهذا، أمر في غاية الأهمية: فنحن بهذا نعود سنوات وسنوات إلى الوراء.. علماً بأن الأخ المعنيّ لا يجوز عدم مجيئه أو أنه مجرّد من حقوقه.. بسبب أنه معوّق..

❖ هو نوع من منطق النبذ قيد التحضير؟

حميد: هم ينبذونك دون أي لبس.. {مقلّداً أحد رؤساء العمل}: «هو مريض، هو دائماً مريض، إنه لا يأتي، هو مريض..» هم يبرزون هذا الأمر، يوردونه في جميع المناقشات. والعمال، من كثرة سماعهم لهذه الأحاديث.. صحيح، يبذلون كل جهدهم كي لا يمرضوا.. ولكن، في ظني، على العمال أن ينتبهوا.. هذا ما أشرحه للناس.. ففي غدٍ لا يمكن لأحد أن يتأكد من أن صحته ستظل جيدة، حتى مع ممارسة الرياضة، وكل ما يخطر على البال.. ففي هذا اليوم أو ذاك، يقع واحدنا مريضاً، يتعرّض لحادث (...).

آذار 1991

❖ ❖ ❖

النظام القديم (في الستينات والسبعينات)، المرتبط بحالة من حالات توازن القوى بين المناضلين، والعمال، وعناصر مراقبة الانضباط، كان

يفترض مجموعة كاملة من الشروط المسبقة. وبادئ ذي بدء، كان يفترض «توفيقاً» بين استعدادات تمّ تحضيرها على مرّ الزمن. لكن هذا النظام تخلخل في العمق، بسبب العديد من التغيرات في جميع مجالات الوجود. فالإدارة، في رأي حميد، بصدد تكريس نمط فاسد في الإدارة، بمراقبيها، ومكافآتها، والاستهاض المستمرّ للمصلحة الفردية الذي يعدّل جذرياً شروط العمل والحياة الجماعية كما يهدد العلاقة «الطبيعية» (في نظره) بين، العمال والمندوبين.

وهو غير مخطئ عندما يفكر بأن الإدارة تلعب بشكل منهجي منظم تلك الورقة. وهو، بالطبع، يوجه انتقاده بادئ الأمر إلى الطريقة التي أوصلت بعض أعضاء الإدارة إلى تشجيع عمال الزمرة. ويضع يده دون شك على نقطة شديدة الأهمية: فالنشاط الذي يقوم به عناصر المراقبة (الجدد) يدخل في إطار استراتيجية تسير على عكس استراتيجية كانت موجودةً في الورشات القديمة وعمادها تأليف زمر عمل جديدة... لكن الأمور أكثر تعقيداً مما يظن عندما يوجه الإدانة إلى عمل الإدارة لا غير. وإذا تشدّدنا قليلاً، قد نجد أنفسنا مدفوعين لنقول إن مجموعة كاملة من التغيرات قد حصلت ضمن الظروف التي كانت تسمح للنظام الرمزي والسياسي القديم (الذي كان يُسند مثلاً مهاماً محدّدة، أدواراً دقيقة لكلٍ من المندوب ورئيس الزمرة) أن يستمر ثابتاً وأن يعيد إنتاج نفسه (مثلاً، المراقبون الجدد هم، في غالبيتهم العظمى، مختلفون كل الاختلاف، اجتماعياً ودراسياً، عن الرؤساء القديمين للزمر: فمنهم عمال مؤقتون قدامى ترقّوا في السلم الوظيفي).

فيما مضى كان كل شيء يجري كما لو ،ضمنياً، أن العلاقة بين المندوبين وعناصر مراقبة الانضباط، كانت منظمة بما يشبه الاتفاق الضمني، العقد الأخلاقي. والخلافات التي كان يمكن أن تضعهم وجهاً لوجه، هي من الخلافات التي كان يمكنها أن تكون عنيفة، ولكن كان لكل واحد سجلّه الخاص عن مجال التدخّل، وهو ما لا يتعرض له الآخر. كان

لكل واحد تقنياته (وكانت العريضة إحداها)التي لا يستخدمها الآخر. وكان كل واحد يعلم إلى هذا الحدّ أو ذاك القواعد الرائجة و «إلى أين لم يكن يجوز الذهاب أبعد». فهذه الحدود هي التي تمّ تجاوزها، قواعد التقاسم تلك أصبحت مخروقة.

وفي الوقت نفسه، ما يكتشفه حميد، دون أن يعترف لنفسه صراحة به، هو أن أصحابه، «المضرِبين» كما قال عنهم، هم الذين دخلوا من تلقاء أنفسهم في منطق الهرم الإداري، ربّ العمل، وهو منطق يتأسّس في وجه جميع مبادئ التضامن العمالي من النمط القديم _حتى أن كاتبي العريضة وصلوا إلى حد المطالبة بطرد «مُضرِب قديم». وما يشعر به حقاً هو أنه في هذا الأمر أمام اكتمال عملية بدأ العمل بها منذ فترة طويلة وهي لا تكتفي بنقص التأثير المخرّب للإدارة، وإنما تندرج ضمن عملية بطيئة لتفكيك الهيكلية التنظيمية.

وهكذا فنحن نرى الاضطراب الأخلاقي لمندوب من النوع التقليدي تربّى، رغم أنه أجنبي ورغم أنه شابّ نسبياً، وفق منطق النموذج القديم للمناضل، وهو النموذج الذي استمر طويلاً، لمجموعة من الأسباب المعقدة، في سوشو، وقاوم هناك أفضل بكثير مما هو في باقي المصانع. ويكتشف في الوقت نفسه أنه لم يستطع القيام بمهامه («عمله» كمندوب) كما في السابق، أن هناك شيئاً غير طبيعي في الموقف الذي عليه أن يتصدّى له، وأنه، من طرف آخر، يجب عليه أن يكون حاضراً أكثر من أي وقت مضى في المعمل لتأمين الدفاع عن «الأصحاب»، فهو لا يقدر أن يتخلّى عن هذه المهمة، وأنه لا يستطيع «التخلّي عن كل شيء»، في وقت أصبحت فيه شروط العمل أسوأ منها في أي وقتٍ مضى.

يشعر حميد من الآن فصاعداً أن الفنيين الذين يتزايد عددهم باستمرار في المعمل، جماعة الـ BTS (الفنيين المختصين) كما يسمّونهم، وعناصر المراقبة الجدد (الذين يتقارب تأهيلهم مع تأهيل الفنيّين)، وغالبية المراقبين هم جميعاً في شِباك منطق آخر. وقد أصبحت أقدامهم فوق أرض

مختلفة كلياً عن الأرض التي كان يقف عليها رؤساء «الزمرة ذات النمط القديم». فيما مضى، في الورشة القديمة، كان كل واحد يعرف معنى الحصول على بلوزة رئيس زمرة، بالنسبة لعامل مشهور بأنه من المتملقين للإدارة وكان يمكن التنبؤ بما سيكون عليه منطق سلوكه. أما اليوم، فمن الصعب فهم ما ستكون عليه استراتيجيات الفنيين الجدد.

المفاهيم الواضحة تتصدّع اليوم. والعلاقات من النمط القديم آلت ببطء إلى الفساد، كأنما لحقها التدمير من الداخل. وهاهي تأثيرات هذه الخلخلة تقفز دفعة واحدة أمام ناظري المندوب. فهو منها في حالة اضطراب.

ساندرين غارسيا

الإبداع المسروق

قابلت كلودي للمرّة الأولى في «بيت المرأة» في باريس، وهو مقرّ يقع في الدائرة الحادية عشرة، وتجتمع فيه سحاقيّات ومناضلات من أقل فروع الحركة النسائية شأناً في الميدان «الثقافي». كانت مسجلة في «دورة إعادة تأهيل» من بعد فترة طويلة من البطالة، وموضوع الدورة الأساسي ما يتعلق بأمور الاستقبال والإدارة، وهي تفتح الطريق للحصول على وظائف مؤقتة و«تحت التصنيف» إذا ما أخذنا بعين الاعتبار دراستها الصحفية وخبرتها المهنية (كانت سابقاً قد حصلت على عمل ثابت في إدارة الشؤون الاجتماعية الـ INSEE. ثم أدارت ملجأ لضحايا العنف الزوجي).

لقد صدمني فيها، منذ أول لقاء بيننا، ذلك المظهر «المأساوي»، وما يشبه الرصانة التي تبترها انفجارات مفاجئة من الضحك الحادّ، كما لو كانت تحمل في داخلها مأساة شديدة الوطأة؛ وهي من الشدّة بحيث أنها، كُلّما عزمت أمرها على أن تكشفها لنا، لم تكن تستطيع السيطرة على نفسها من الاسترسال في حديث لا ينتهي، راجعة إلى كل فصل من حكايتها بانفعال لا يفتر، حتى لتعجز في أغلب الأحيان عن ضبط دموعها، حتى عندما تحاول جهدها لإبراز «الجانب الإيجابي» في تلك المغامرة، مغامرة إيجاد ملجأ، هو «إبداعها»، وهو، بالتأكيد قد «سُرق» منها، لكنه «احتفل مؤخراً بمرور عشرة أعوام على إنشائه».

أمضت طفولتها في الريف ضمن وسط عائلي يهيمن عليه أب عنيف من عادته ضرب زوجته ضرباً وحشياً، وتعرّفت على استغلال النساء في البيئة الزراعية، فكان من نتيجة جميع هذه التجارب أن دفعتها لتحمل منذ الطفولة الباكرة «نظرة نقدية إلى المجتمع، إلى صنوف الظلم، وخصوصاً الظلم الواقع على النساء» وقد وجدت طريقها للتعبير عن هذا الاستعداد للتمرّد النسائي أثناء لقائها بالـ MLF (حركة تحرر المرأة)، في السبعينات. فعاشت آنذاك حقبة من الفوران، من زخم الحماسة الجماعية، فانتقلت من فرقة إلى فرقة، من نقاشات إلى نقاشات، من أعمال نضالية إلى أعمال نضالية. فأخذت مكانها بين «المناضلات الثوريات»، وانضمت إلى «السحاقيات الحمر»، وهي فرقة سحاقيات شيوعيات، ثم أصبحت في فرقة «التوعية»، حيث خالطت علماء اجتماع وأطباء نفس و «تطور تفكيرها». وتبدو لها تلك الخبرة ذات غنى كبير لأنها قطعت دراستها العليا بسرعة كبيرة فصار شعورها أنها بحاجة عميقة للتعلّم. فمن بعد فترة أولى من النشاط -العمل في التحقيقات وهو ما أخذها من مدينة إلى أخرى-، ورغم الارتياح الذي كانت تجده في مخالطة النساء وخصوصاً ذوات الميول الجنسية المثلية اللواتي تلتقي بهن في ذلك الوسط المهني، أتعبتها تلك الحياة الجوّالة، فعادت إلى (إ).، المدينة التي ولدت فيها، كي تستقرّ هناك وتفتش عن وظيفة. حينذاك اشتغلت لسنوات في الـ INSEE. وفور استقرارها في (إ).، تلك المدينة من شرق فرنسا، حاولت عبثاً إيجاد المناخ النضالي الباريسي. فلم تجد في تلك «المدينة الميتة» إلا مناضلات الـ MLF، المشغولات حصراً وتحديداً بـ «النضال الطبقي» ضمن المنظور الخالص لتحركات أيار من عام 68.

فتكاثرت نقاط الاختلاف: الأولوية يجب أن تكون لقضية «العمال» أم لقضية «الفلسطينيين»، للنساء في مواجهة السيطرة الذكرية، أم الأفضلية المعطاة للتفكير النظري أو لـ «النضال الإيديولوجي» أو المساعدات العملية لصالح النساء المضطهدات، فتخلت بسرعة عن تلك الفرقة التابعة لـMLF

-ذلك التنظيم الذي ما ينفك يحاول «تحريكها»، بحقد ومشاعر متعاظمة باستمرار، منتقداً في ذلك الطابع «البورجوازي النموذجي» لخطوتها- لتنخرط في أعمال محسوسة لصالح النساء.

يعود الفضل إلى «صاحبات باريس» اللواتي أوحين لها أن تؤسّس في (إ).، على نمط الـ SOS النسائية في باريس آنذاك، فرقة ملحقة بـ «رابطة» حقوق النساء في باريس (وكانت سيمون دوبوفوار رئيسة الشرف لها)، غايتها النضال في وجه جميع أشكال العنف في الحياة الزوجية. منذ تلك اللحظة، رمت كل حياتها وكل طاقتها في ذلك المشروع: فعلاوة على عملها في الـ INSEE، نشطت، على مدى سنوات، في تلقّي مكالمات النساء اللواتي يعاملن معاملة سيئة، فتساعدهن على إيجاد الحلول، خاصة القانونية، ليتخلّصن مما هنّ فيه، وحاولت تحريك حساسية الرأي العام وإجبار المؤسّسات على الاهتمام بهنّ. وشيئاً فشيئاً تبرعم في ذهنها ما سوف يصير مشروع الفرقة: إيجاد ملجأ للنساء اللواتي يُضربن، بما يسمح لهن بالنجاة من تسلّط الشريك الزوجي، وبإعادة تنظيم حياتهن.

وانخرطت روحاً وجسداً في معركة صعبة من أجل أن تقوم المؤسّسات المعنيّة -الـ DASS، الأطبّاء، مندوبية «الوضع النسائي»، هيئات السلطة المحلية- بالاعتراف بضرورة فتح ذلك الملجأ وتأمين المساعدات المالية اللازمة لتأمين سير العمل فيه. وقد نجحت، أحياناً على حساب صحّتها، في التغلّب على جميع العقبات وجميع المقاومات التي رفعتها المؤسّسات في وجهها قبل الموافقة على الاعتراف بـ «عملها». على أن النضال لصالح النساء، الذي أصبح علّة وجودها، لم يتوقف: فكانت تطمح بإيجاد ملجأ ثانٍ وأن تشرع بنشاطات جديدة.

تلك المعركة التي أثارتها في (إ).، والتي كانت فيها أكثر المشاركين نشاطاً، وضعتها وجهاً لوجه، لوحدها في أغلب الأحيان، مع أزواج النساء المحتميات بها، وجعلت منها المحاوِرة الرئيسية مع المؤسّسات التي يجب إقناعها، وما كان لتلك المعركة أن تنجح، كما تقول، كما قادتها بكل حزم، لولا

صديقاتها مناضلات باريس، الأكثر خبرةً والأقوى سلاحاً منها، فهنّ اللواتي قدّمن النصائح، والمساعدات، والدعم المعنوي وأحياناً المساعدة المباشرة (فبفضلهنّ، على سبيل المثال، أمكنها أن تفرض الاهتمام بإضبارة مشروعها على الـ DASS، التي ترتبط بها المعونات المالية الضرورية لتشغيل مشروع الملجأ، أو على مندوبة «الوضع النسائي»)؛ وقد وفّرن لها أيضاً اليقين بصحة المعركة المعزولة التي كانت تخوضها في تلك المدينة الريفية المنغلقة أكثر مما هي الحال في باريس، وحيث كانت الفرقة النسوية الوحيدة فيها معادية لها عداءً لا رجوع عنه: فكانت بحاجة، كما تقول، للشعور بـ «الأمان» من خلال الاقتناع الراسخ بأن نشاطها، المرتبط بنشاط صديقاتها في باريس، هو نوع من الامتداد الطبيعي لذلك النشاط.

وفي اللحظة التي تحقق فيها الانتصار ظهر التباعد، الذي كان موجوداً دون شك منذ البداية، بين نشاطها النضالي وبين نشاط باقي أفراد فرقتها: فقبيل افتتاح الملجأ، خرج من الفرقة عدد كبير من صديقاتها، بعضهن لمتابعة الدراسة، وبعضهن الآخر لأنهن عندهن «أشياء أخرى يعشن من أجلها»، كما تقول كلودي، التي ليس لها، حسب كل الظواهر، أية حياة عاطفية خارج الفرقة، ولا أي طموح خارج حدود مشروعها النسائي. فظلت وحيدة حيال ما أصبح عملياً «إبداعها»، ولم يكن لها في وحدتها حتى أن تستمتع بانتصارها الذي بدأ ومعه طعم الهزيمة، إذ لم يعد بإمكانها الاعتماد إلا على قواها الخاصة، وأنها أصبحت تفتقر مذ ذاك إلى الاندفاع بأمل التحريك الجماعي للمرأة.

على أنها لم تتوقف هناك: فاستقالت من وظيفتها لتحتل موقع مديرة الملجأ، موليةً عناية نشطة لأعمال الترميم، ومن ثم استقرت هناك، وعاشت مذ ذاك غارقةً، ليل نهار، بجميع المهام الجديدة التي تستجدّ لتشغيل الملجأ. في ذلك التاريخ من بداية الملجأ، عندما لم يعد بالإمكان إدارته بالاعتماد على العمل الطوعي لا غير، أطلت جميع الصعوبات برؤوسها. فوظّفت سكرتيرة، وطبّاخة، وحارسة ليلية: «لم يكن في هذا مشكلة»، كما تقول،

ولكن كان عليها أيضاً أن تؤمّن «مربية وطبيبة نفسية» فاكتشفت على الفور بشاعة التعاون المستحيل، بشاعة التعارض المطلق بين منظورين مختلفين للعالم: منظور المناضلة التي تستجيب قبل كل شيء لنوازع القلب، للتمرّد، للتعاطف، والتي تتصرّف في أغلب الأحيان على أساس الإسعاف المستعجل والارتجال السخيّ والخلاّق، ومنظور «المهنية»، الذي تستجيب تصرّفاته المحايدة والمنظّمة سلفاً لمنطق بيروقراطي خالص. فـ «المربيّة، هذه مهنة... ولا بد من إبراز جواز المرور» حيال متطلباتها، كما تعلّق كلودي، التي تستعمل، بنيّة محدّدة ودقيقة، كلمة «مهنة»، بالطريقة نفسها التي استعملت فيها في تكملة حوارها، عن قصد، كلمة «موظفين» (بشأن الملجأ) الذين «لم تعد تربطهم صلة -كما شرحت- بالعقلية النضالية»، فهذه «تفكر بنقابتها» ثم هي، «تقول لي: هذا ليس عملي». وقد دفعها عرضها المشحون بالانفعال للمواجهة بينها وبين تلك الموظفة «المصنّفة» إلى تحليل تفصيلي دقيق للأمور الإجرائية المعروفة في مجال البيروقراطية، بكل ما هناك من تسميات وتصنيفات إدارية تجريدية ومحايدة، وتأثير الفاصل الاجتماعي الذي توجده هذه الأدوات المعدّة للتفكير والفعل بين العمال الاجتماعيين الذين يحملونها في رؤوسهم ويستخدمونها وبين «زبائنهم»، ما فيها من توزيع وتخصّص في منتهى ضيق الأفق للمهام بحيث تنتفي جميع المبادهات، استخدام المصادر المؤسّساتية والجماعية الذي من نتائجه غضّ النظر عن تحريك مصادر الشخص ذاته وتحريض مسؤوليته الشخصية. فمن ملاحظاتها، على سبيل المثال، أن مربيّة الملجأ «ما عاد عندها حتى مجرّد الأمل بتلك النسوة، إذ هن جمهور لا غير عليها التعامل معه! ذاك كان عملها». كما قدّمت وصفاً لاضطراب نساء الملجأ اللواتي يتشكّين «من خندق يفصل بين العاملين وبينهن». وشرحت لي، «معي أنا، لم يكن هناك خندق يفصل بيننا»، فما يجري للنساء اللواتي يُضربن، «كان يمكن أن يجري معي أيضاً»، «فلا أشعر أنني فوق، عند السقف، والأخريات على الأرض»، وأضافت، «القضية وما فيها أن بعض النوعيات من البشر يقول احدهم: يعني، أنا عندي مهنة، أنا مربية، أو طبيبة نفسية». وبشأن جميع أصناف الوظائف التي تطرّقت إليها،

أبدت الفكرة ذاتها دون أي وهم، إنما دون أية نيّة سيئة: فالأطباء، والمشرفات الاجتماعيات لا يتحمّلون أية مجازفة، دون شك لأنهم يحترمون جميع أشكال السلطة، ويحتمون وراء «دليل النفي» المريح الذي توفّره لهم مبادئ السلوك الوظيفي. وقد دفعتها أريحيّتها إلى التخفيف نسبياً من حدّة انتقاداتها فأوردت الاختلاف بين الأفراد في مجال «الانفتاح العقلي والعاطفي» في مختلف ميادين العمل («من بين البشر من هم فعلاً أطباء»)، وهاهي تستنتج ببراءة بشأن نشاطها الخاص: «... كانت بالنسبة لي مسألة مزاج، فأنا كنت أحب هذا. صحيح، كان هناك مجازفة، وكان هناك مواجهات لا غنى عنها، وأنا، في نهاية المطاف، كنت أفعل ما لم يفعله أناس يتلقّون أجورهم من المجتمع.»

«المربّية، (نمرة) نقابية» تحتمي داخل «النظام الداخلي» وذكر «حقوقها»، «تتزايد طلباتها أكثر فأكثر» ولا تهتم بنساء الملجأ، ولهذا سرعان ما أصبحت لا تطاق وحاولت التخلّص منها قبل انتهاء فترتها الاختبارية: وإذ أحسّت بالتهديد فوق رأسها، لم تتردّد هذه الأخيرة من استنفار مدام دو (×). شقيقة أديبة شهيرة قامت بدور هام في الحركة النسائية، وكانت كلودي، بعد أن أصبحت مديرة للملجأ، ولأنها لا تستطيع الجمع بين وظيفتين، قد طلبت منها أن تستلم بدلاً عنها الوظيفة، الفخرية كلّياً، وظيفة رئيسة الجمعية، على أمل أن تستفيد من الرأسمال الرمزي المرتبط باسمها لاستخدامه في علاقاتها مع الهيئات السياسية والاجتماعية؛ فهذه الرئيسة، التي كانت، حتى تاريخه، تعيش بعيداً حياتها كفنانة- رسّامة دون أدنى انشغال بحياة الملجأ، ثارت ثائرتها عند إعلان التسريح وقرّرت بغتة أن واجبها يُملي عليها التدخّل لإنقاذ الأرثوذكسية النضالية المهدّدة: فعندما دُعيت كلودي إلى جلسة عامة، لمعاينة ما قامت به من نشاط، وجدت نفسها بكل بساطة في مواجهة عدوّاتها الدائمات، جماعة الحركة النسائية القائلة بـ «صراع الطبقات»، وهؤلاء كانت الرئيسة قد نجحت في إدخالهن إلى التجمّع من وراء ظهر كلودي فأصبحن في صف الرئيسة وتحالفن جميعاً معها للسيطرة شيئاً فشيئاً على مقاليد الأمور في الجمعية؛ لقد أمكنهن،

متكاتفات، وضع استراتيجيات مختلفة بغية إقناع كلودي بخطئها الوظيفي، ثم حاصرنها في وضع لم يعد له من مخرج ممكن سوى الاستقالة.

انهزمت كلودي، و «جَرَحها في الصميم» تكالب المناضلات اللواتي لم يغفرن لها نجاحها في تحقيق شيء ما حيث لم يستطعن هن أنفسهن تحقيق أي شيء ما عدا جمل وشعارات فارغة وعديمة الفعالية، وقد استغرقت وقتاً طويلاً في التغلّب على الشعور بأنها أضحت لا شيء وبأنها لم تعد تملك شيئاً، وهي التي «وضعت كل كيانها في الملجأ»، الذي «أعطاها كل شيء» حتى أصبح هو «كيانها الكامل». لكنها ما زالت تؤكد، مترفّعة عن الحقد: «الملجأ يمشي كما يجب، وهذا، هذا هام»؛ كانت تجربتها الشخصية قد علّمتها أبلغ الدروس، تلك المغامرة التي هي مثل ملخّص مكثّف عن تاريخ الحركة النسائية بأكملها، وهي تعترف «أنها صارت حذرة متشكّكة حيال الآخرين»، حيال فرق مناضلات الحركة النسائية، واجتماعاتهن، ومناقشاتهن؛ لقد فهمت أن السيطرة الاجتماعية والثقافية تخترق أيضاً الحركة النضالية النسائية، فهنا أيضاً، للسلطة وجودها وهي بيد «تلك التي تتكلم أفضل» والتي عندها «معلومات أفضل». قالت، «هناك أناس، يدعونهم يناضلون، يدعونهم يعملون، لكن لا يجوز على وجه الخصوص أن ينجحوا. هم، خصوصاً، غير مكرّسين لهذا. ليس هذا من حقهم. فأنا لست مدام دو (×). أنا كلودي».

مع مناضلة في الحركة النسائية

حديث أجرته ساندرين غارسيا

«هنّ ينتقدن المجتمع،
لكن الأسهل بكثير التوجّه إلى الداخل،
عن طريق التهديم»

كلودي: أنا سوف أبدأ من الفرقة التي أسّستها. وعلى أي حال، سوف أعود إلى نقطة الانطلاق. نقطة الانطلاق تلك هي الطفولة، وفي طفولتي، رأيت على الفور اضطهاد المرأة. فكما قلت لكِ في المرة الأولى، أمّي كان أبي يضربها في كثير من الأحيان... وكان أبي رئيس محطة قطار، بعد أن بدأ عمله كعامل، بكل بساطة.

❖ **وأمّك؟**

كلودي: أمي اشتغلت في المحاسبة، يعني موظفة إدارية، إلى حين زواجها، حيث لم يكن من المقبول أن يكون لدى امرأة أطفال وتستمرّ في شغلها. كان هناك مشاهد كثيرة، فأبي كان في غاية العنف. بمعنى أنه كان يرميها أرضاً، ويروح يرفسها، وأن الطاولات تُقلب بما عليها، إلخ،إلخ. لم يكن يشرب، لكنه كان في غاية العنف. طيب، يعني، لن أدخل في التفاصيل. كان قاسياً لأنه ببساطة كان يود الاحتفاظ بماله، الخروج مع نساء أخريات، وما كان يرغب أبداً أن يتحمّل مسؤولياته. كانت رغبته أن يعود، فيجد

طعامه جاهزاً، ثيابه مغسولة، وهي، لم تكن تقدر إلاّ أن تقول له، «لكن عندك أطفال، لكن عندك مسؤوليات» باختصار، وتتطلق المشكلة.

❖ كان عندها يأخذه الغضب...

كلودي: كان يأخذه الغضب. وكان للقضية جانب آخر، جانب القرية، أي أنه كان صورة مصغّرة لعالمٍ بأكمله. وهكذا أمكنني أن أرى، فيما يخصّ جدتي، وعرّابتي، كيف كانت معاملة الرجال للنساء.

❖ بمعنى؟

كلودي: كنت أرى خاصة عمل النساء المرهق وكان ذلك في الفترة التي بدأ فيها عمل أول مجموعة من الجرّارات. فمنذ تلك الطفولة، صرت أنتبه، فكانوا يقولون لي: الرجل هو الرئيس، هو الأقوى، وكنت أرى تلك النوعيات فوق الجرّارات والنساء يعزقن من خلفهم!

❖ وكنت تشاركين في تلك الأعمال، أنتِ؟

كلودي: كنت أتفرّج، أراقب، كنت أقضي العطلة الصيفية، فوجود هذه القسوة التي كنت أراها باستمرار فتح عينيّ بسرعة كبيرة، كبيرة. وتكونت عندي نظرة انتقادية للمجتمع وأنا صغيرة جداً، جداً. خصوصاً ما يتعلّق بالظلم الواقع على النساء. وكنت أسمع أشياء خرقاء: عندما يضرب الرجل، يكون دائماً على حق، فهو يعلم لماذا يضرب، وبالتالي كان هذا قاسياً جداً، جداً، لأنني، أنا، من جانبي، كنت أعلم ما كنا نعيشه. إذن، هي حالة وعي، لكنها حالة منعزلة. لأنني حتى لو رحت أتحدث عن ذلك مع صاحباتي في المدرسة، فما كان عندهن التجربة نفسها ولا النظرة نفسها.

❖ كان يمكن أن يعشن الأمر ذاته إنما لا يحملن النظرة النقدية؟

كلودي: يجوز. لكني كنت على يقينٍ عميق أنني في يوم من الأيام سوف ألتقي بنساء يفكّرن مثلي، ويحملن الحساسية نفسها، لماذا، لا أعلم، حيث أنني كنت وحيدة، ولكن كنت على يقين أنني سوف ألتقي بنساء يفكّرن مثلي. إذن في سن التاسعة عشرة جئت إلى باريس. وكنا في عام 70 وبسرعة كبيرة، بعد مضيّ شهور قليلة، وجدتُ «الحركة». يعني، كان هناك

تجمّعات كبيرة، مناقشات كبيرة، فوجدت نفسي بين فتيات قادمات من الأقاليم، ولديهن التجربة نفسها. فعشت فرح الالتقاء بهنّ.

❖ ما كانت تلك الفرق؟ لأن الـ MLF (حركة تحرير النساء) كان فيها أكثر من اتجاه؟

كلودي: في البداية، كان الأمر اعتباطياً إلى حدٍّ بعيد. فكنت مع ميول المناضلات الثوريات، وكان هناك فرقة أخرى هي فرقة «السحاقيات الحمر»، فكانت يعني مجموعة فرق تنشط في عطلة نهاية الأسبوع، لأنني، أنا شخصياً، كنت أشتغل في الأقاليم، كنت محقّقة، ولم أكن أرجع إلا مساء السبت. بالمقابل، الفرقة التي ساعدتني مساعدة كبيرة هي فرقة «التوعية». فتطور تفكيري تطوراً كبيراً لأنهم في هذه الفرقة... أنا كنت قد درست في مدرسة للصحافة، ثم توقّفت، بالكاد دخلت إلى كلية الصحافة، وفي تلك الفرقة كان هناك بنات باحثات اجتماعيات، ومنهن مختصّات بعلم النفس، وكنّ أعمر منّي بقليل، وبالتالي، تعلّمت أموراً كثيرة جداً. وفي الوقت نفسه، التضامن الكبير، الرفقة الجميلة، يعني. من بعدها، وهنا نحن في عام 75، سافرت لفترة قصيرة إلى إسبانيا ثم رجعت إلى (إ).

❖ بسبب عملك؟

كلودي: رجعت إلى (إ). لأنني كنت قد سافرت كثيراً في سبيل عملي، من أجل التحقيقات، كنت أتنقّل دائماً من أجل تحقيقاتي. أسبوع في غرونوبل، آخر في ليل. كنت دائماً في سفر.

❖ ما الجهة التي كنتِ تعملين من أجلها؟

كلودي: كنت أجري تحقيقات من أجل ل. {مشروع غذائي ضخم} وهناك أيضاً، كنت مع نساء، ولكنهن لا يشاركن في الحركة النسائية، لكن كان التضامن بيننا كبيراً لأننا كنا وحيدات، مع بعضنا، من الأقاليم، صغيرات في السن، كان لدينا رغبة في العمل، لكن كان لدينا أيضاً رغبة في أن نتسلّى، كان دخلنا جيداً لأن التحقيقات لم تكن منتشرة بعد بشكل كبير، وكان علينا القيام بكل الشروح اللازمة في الوقت نفسه. فتلك أيضاً خبرة

موازية إلى حدّ ما للنضال في الحركة النسائية، مع نساء يعشن حريتهن المطلقة، مستعدات للسفر، وبالتالي، كان لا بدّ من وجود عدد كبير من السحاقيات، لكن يعني، بعد مضيّ وقت ما، فنادق، مطاعم، يأتي الشعور بالانزعاج، فكان عندي رغبة أن أستقرّ قليلاً. فعدت إلى (إ). وفيها وجدت عملاً في الـ INSEE، كان هذا أول شيء فعلته وكانت مدينة ميتة، بالمقارنة مع باريس، وبالمقارنة مع كل تلك السنوات. رغم كل شيء، كان هناك فرقة ناشطة، واسمها الـ MLF. ذهبت إليها إذن، لأرى فيها فتيات، تقريباً خمس عشرة، منهمكات بالنقاش حول موضوع عامل جرى تسريحه من عمله... (...) عندها قلت لنفسي، هذا لا يمشي. وكان في الفرقة فتاة لديها مثل ردّة فعلي، كان اسمها «آنيك»، وكانت قادمة من الولايات المتحدة. وقد سبق لها أن نشطت لمدة عام مع الحركة النسائية الأميركية. كنا إذن اثنتين، نحمل خبرة حقيقية في النضال النسائي، ضمن منظور نسائي، بنظرة انتقادية نسائية، وكان لنا حظ اللقاء ضمن هذه الفرقة التي يمكن أن نَصِفَها إلى حد ما بأنها: «عمّالويّة». لذلك كنت أتركهن يسترسلن في الكلام قليلاً، والكلام هو هو على مرّ الأسابيع، فقلت لهن، «اسمعن، يخيّل إليّ أنكنّ لا ترين الـ MLF، وأنه لا علاقة لكنّ بتاتاً بالـ MLF ولا مع قضية النساء، أنتنّ لا حديث عندكنّ إلا عن العمال. عن العمال من الرجال! ما علاقة هذا بحركة الـ MLF؟» كان هذا تعليقاً على جميع المناقشات التي أجريتها معهن... وبالتالي فقد جاوبنني، «عندما صراع الطبقات يشق طريقه، تنحلّ قضايا النساء طبيعياً..».

فرقة لا تكون فرقة تنظير

إنما فرقة عمل

❖ كان موضوعهن صراع الطبقات!

كلودي: نعم، هذا كان عن صراع الطبقات! علماً أنني أنا شخصياً كنت قد درست قليلاً من التاريخ، لأن هذا يهمّني، وبالتالي، كنت أعلم تماماً

أن كلامهن غير صحيح وقلت لهن إن من المستحيل الاستمرار هكذا، لأنني كنت قد رأيت نساء عندهن مشاكل بالفعل، مشاكل نسائية، وأنهنّ، حرفياً، يُطردون من المركز، والتوضيح «هذا لا يهمّنا، هذه القصص لا علاقة لنا بها». إذن، كنّ يخدعن النساء. فقلت لهنّ على المكشوف، «لا يمكنكنّ الاستمرار هكذا. يجب أن تحملن اسماً مختلفاً. أما القول بأنّكنّ ممثلات الـ MLF، وخداع النساء، ومن جميعه، هذا لا يمكن أن يمشي على أي حال، إذا لم تغيرّن الشعار في مدى ثلاثة أسابيع، أنا سوف أخبر جميع صاحباتي في باريس، وسوف يصبح الأمر معروفاً». كان هذا واضحاً، صريحاً ودقيقاً. فدبّ فيهنّ الخوف، وغيرّن اسم المركز. {تعرض بعدها «العيد النسائي الكبير» الذي نظمته تلك الفرقة نفسها، وكان الموضوع المحوري فيه فلسطين، وعنف الانتقادات التي وجّهت إليها على مداخلاتها، وخيبة النساء القادمات من ألمانيا لحضور تظاهرة لصالح المرأة تُستبعد فيها المرأة عن كل المحاور ليتبيّن مدى «الإساءات» التي يمكن لمناضلات الـ MLF إلحاقها}.

ثم بعد مرور شهور لا غير، قرأتُ في صحيفة محلية خبراً عن ثلاث نساء لاقين الموت تحت عنف الضرب من أزواجهن وذلك على مدى ثلاثة شهور وفي كل مرة كان الخبر يصدمني. وجاءت عرّابتي تزورني في يوم من الأيام، وتقول لي، «هذا شيء غير معقول فعلاً، في (إ). توجد امرأة رُميت من النافذة وماتت تحت الضرب، والعرص زوجها ولا أبالي». لأنني حصلتُ بعد ذلك على مقالة الصحيفة، وكان مسجّلاً على الخبر أنه أزمة قلبية. جعلتني هذه الأمور مجتمعة أتصل بصاحباتي اللواتي كنت على علاقة معهن لأخبرهن بما كان يحصل. فقالت لي إحداهن بعد ثمانية أيام، «اسمعي، هنا بدأنا بتأسيس SOS (مركز إغاثة) للنساء، قد يكون من المهم أن تفعلي مثلنا» قلت، «نعم، آنيك وأنا، نحن وحيدتان، وليس لدينا شيء، فعلاً لا شيء، ماذا تظنين، فكيف يمكن الإقلاع بالمشروع؟» فجاوبتني، «بلى، بلى، يمكنك رغم كل شيء المباشرة يا كلودي» -هنّ قد دفعنني دفعاً بشكل ما، شجّعنني. وكان أن بدأنا بالاستعانة بهاتفي الشخصي، فكنت أشتغل نهاراً في الـ INSEE،

يعني بدوام المكاتب، وهكذا على هاتفي الشخصي في البيت، الذي بقي في بيتي ثلاثة سنوات، تلقّيت 10.000 مكالمة من نساء يعانين من الضرب. فرحتُ أعمل فعلياً ليل نهار.

❖ كان هناك صيغة استقبال؟ كيف كانت تجري الأمور؟

كلودي: لا، كان هناك هاتف، لم يكن لديّ جهاز ردّ على الهاتف لأنه لم تكن بيدي إمكانية تركيب جهاز ردّ. بدأنا بكل بساطة وما حيلتنا إلا هذا الهاتف الشخصي. {تعدّد نشاطاتها: النصائح للنساء المضروبات، تحضير إحصائيات عن النساء اللواتي يعانين في أزمةٍ وبؤس انطلاقاً من عدد المكالمات الهاتفية، المساعي عند محاميات للاستنجاد بدعمهن، البحث عن أماكن للسكن، الاتصال بـ «فرق للتوعية»، تنظيم مناضلات من أجل مشروع الملجأ المقبل، مناضلات يُطلب منهن الحضور للقيام بـ «الأفعال» لا من أجل «الأقوال على مدى ساعات»}.

وبالفعل، سرعان ما جاءت فتيات. فبعضهن جئن مرّة أو مرّتين، وبعض تعلّقن بالعمل أكثر، ومنهن من كنّ يأتين فتقول واحدتهن، «عندي فراغ في اليوم الفلاني الساعة الفلانية، إذا كان ما نفعله، قوليه». كان هذا في غاية التنظيم. وبسرعة كبيرة، عدن يحشرن «الصراع الطبقي» وهذا كان يجعلنا نخسر الوقت والطاقة بشكل ملحوظ. طفيليّات حقيقيات لا يفارقننا. يعني، عندها على الفور كان من الواجب الذهاب إلى «المندوبية» المختصة بالوضع النسائي لتنظيم أضابير، إلخ. المندوبة الأولى في «الوضع النسائي» كانت طبيبة استقبلتنا أحسن استقبال، ولكنها قالت لنا، «تعلمن، أنا طبيبة، ولكني لم أسمع أبداً في عيادتي امرأة تتكلم عن مثل هذه الأمور. قصصهن عن إدمان الخمر، وقصص عن... أنتنّ تبالغن في تضخيم القضيّة»، وزاد في الأمر سوءاً أنها دوّنت هذا كتابة. عظيم، فأنا، على الفور أرسلتُ ذلك إلى صديقات باريس، فكانت بالنتيجة حركة ملحوظة إلى حد مقبول، حيث أنهن، من جانبهن، كنّ صديقات لفرانسواز جيرو، التي كانت حينذاك في أمانة سرّ «الوضع النسائي». لكن من بعد ذلك، هذه المرأة، أنا

مصرّة أن أؤكّد على الأهمية الكبيرة، سياسياً وإنسانياً لدورها، لأنها، في مدى شهور قليلة، فهمتْ، قرأتْ مقالات في الصحافة، سمعتْ، يعني، مناقشات أيضاً في باريس، فتراجعتْ عن خطئها، وأعطت تصريحات علنية، أمام الصحافة، في كل مكان، ومقابل هذا، نرفع لها القبعة احتراماً! لأن أي رجل سياسي ما كان ليفعل هذا. وقد وقعت في مشاكل سياسية فيما بعد. كانت امرأة من اليمين وقيل لها: «الله معك، شغل الصوف أنسب لكِ، إلخ.» وقد استقالت أيضاً من منصبها كمندوبة في «الوضع النسائي». فهذا يدلّ إلى حدٍّ ما على العقلية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ما دام باستطاعة رجال سياسيين آنذاك التحدث أمام الصحافة، علانية، بمثل تلك الآراء وكانت تلك الآراء تمرّ بسهولة كبيرة. ونحن، نحن كنا نفتّش عن مكان في تلك المدينة الطيّبة، مدينة (إ). لنضمّ فيه النساء المضروبات، في ظلّ تلك العقليات الرجعية. عندها، حصلتُ رغم كل شيء على موعد مع القائم بالأعمال الاجتماعية، وهذا قال لي استخفافاً وازدراءً، «ليس في المدينة شيء». على أني كنت أعلم أن المدينة تمتلك أراضٍ شاسعة وفيها أماكن حدّثي ولا حرج فهي رغم كل شيء مدينة هامة. طيب. كان هذا في نهاية الـ 75، مطلع الـ 76. في مطلع الـ 76، بدأت بإجراء تحقيقات حول موت النساء، حول النساء اللواتي متن تحت ضرب أزواجهن، فأمكنني الحصول على عناوين، كنت معتادة على التحقيقات، فأنا كنت على أي حال تلميذة قديمة من تلميذات مدرسة الصحافة. وقد أجريت هذه التحقيقات مع الجيران. في أول الأمر، مع أسرة الميتة، بالتأكيد، طبعاً. مع والديّ الضحية على سبيل المثال. عندها لاحظتُ بالفعل أن عائلة المرأة أفرادها مرعوبون مما يحصل، وعندما يجدون من يمكنهم الكلام معه، يوافقون دون أية ممانعة وفي أغلب الأحيان، يقدّمون الشكر. ثم مع الجيران. فمنهم واحد، خاصة، قال لي، «اسمعي، نحن نسكن في أجنحة متجاورة، وانظري قرب المسافة الفاصلة، كانت الحالة مع الجار في أقرب جناح مجاور. فعندما كان يعود إلى بيته في المساء، حتى الكلب لا يعود يجرؤ أن يتحرك، ولا أن ينبح». وقد قال ذلك الرجل الرهيب لجاره، «أنا ألعب رياضة، إذا أردت ألاقيك في الشارع،

وأكسر لك بوزك فوراً». وبالتالي، عند هذا الحد، لم يقم الجار بأية حركة، لم يعد إلى التدخّل. وظلّت المرأة تتلقّى الضرب، وماتت بالنتيجة، أمام أعين أولادها الذين كانوا موجودين، بعد احتضار طويل في المطبخ دام طوال الليل. فهذه المعلومات ما كنتُ لأحصل عليها إلا بهذه الطرق. وعندما حوكم هذا النذل، كان يرتّب أموره لتخليص نفسه، فهو من أركان المجتمع، بل وكان عنده مشروع، وغير قليل من المال وكان يعتقد بأن الأشهر الثلاثة من التوقيف الاحترازي كافية، ومن بعدها، سوف تتحلّ. أما المظاهرة التي قررتُ تنظيمها فكانت من أجل مجمل النساء، من أجل العدد الكبير للنساء اللواتي متن تحت الضرب، أمام الأطفال، ومن أجل سلبية المجتمع حيال هذا، وقبول مجموع الأهالي بالأمر. وقد ساعدتنا نسوة لطيفات لطيفات، قمن بنشاطات كثيرة، وأعني بهنّ نساء «تنظيم الأسرة».عندهن نضالهن الخاص، لكن عندما كنا نحتاج لمساعدة، كنّ دائماً حاضرات، وكان هناك احترام وتقدير. يعني، عندها بالفعل، شرعت تلك النسوة المناضلات يقلن، «آه، يا عيني، مظاهرة! إذن سوف نرفع أصواتنا بالصراخ». لأن رفع الصوت بالصراخ والتنديد، على ما يبدو، أمر خارق، وأننا عندما نصرخ في المظاهرات لمدة ساعتين، مرّة كل عام، فكل شيء يترتّب! أما نحن، من جانبنا، فكنا نريد مظاهرة صامتة كلياً. لأن الناس عندما يرون مظاهرة يقولون بهدوء، طيب توجد مظاهرة، لكنكِ عندما تقومين بمظاهرة صامتة فعلاً، فالناس سوف يُستثار فضولهم ويتساءلون على الفور ماذا في الأمر؟ هذا ما يجذب الانتباه. حسناً، هذا هو الخيال اللازم توفّره عند من يريد النضال. خصوصاً عندما لا يكون لديه المال... {تستعرض تلك المظاهرة الرمزية، وسط الباقات التي بعثت بها الاتحادات النسائية من جميع أنحاء البلاد، ثم الدعم الذي قدمته الصحافة.}

كنت أفعل ما لم يكن يفعله الناس
الذين يتلقّون أجوراً من المجتمع

❖ كانت تأتيك مكالمات من نساء من جميع البيئات؟

كلودي: نعم، و أعطيك مثالاً على هذا. من المتّصلة بنا؟ كانت زوجة مدرّس حقوق، فالحقوق، كان حضرته يعرفه جيداً. مثلما كان يعرف أيضاً أين يضرب. وزوجة طبيب أيضاً. زوجات متعهّدين. وكان عدد كبير من النساء ربّات بيوت، بينما بعضهن من الموظفات. يبدو لي أنه لم يكن هناك مهن حرة، ربما تجارية، لكن ليس مهن حرة. على أن عدد النساء دون وظيفة كان أكبر، وخاصة أولئك اللواتي لديهن أطفال. ثم، اصطدمنا بموقف الأطباء. فقد طلبنا من هؤلاء النساء الحصول على شهادة طبية لتقديم شكوى. فما قولك بأن نقابة الأطباء أصدرت تعميماً أنه، منذ ذلك التاريخ وصاعداً، للحصول على شهادة طبية عن الضرب والجروح فلا تُدفع التعرفة العادية فحسب، وإنما تدفع التعرفات المضاعفة K 5، K 6، لم أعد أذكر الرقم، لكن كان المبلغ المطلوب 350 فرنك، فذهبت أستعلم عن السبب على الفور، فقالوا لي، «هذا لأننا سوف نغرق تحت طوفان من الطلبات!». إذاً، كانوا يعترفون بأن المشكلة موجودة. وغايتهم هي الحدّ من الطلبات، وعلى حساب من؟ لكن علينا ألا ننسى، من طرف آخر، وجود أطباء يحملون الحسّ الإنساني، وهؤلاء، من جانبهم، كانوا يفعلون العكس، يخابرون هاتفياً لتقديم المساعدة، ليقولون نحن هنا... ومنهم من قام بإيواء نساء لم يكنّ يعلمن إلى أين يهربن. في أعماقهم، كان أولئك من الأشخاص الحسّاسين وكانوا ينظرون إلى المشكلة إنسانياً. أحياناً، كان المستشفى هو الذي يتصل بنا، لإعلامنا عن نساء قُذف بهن من النافذة، فهناك كسور في الجمجمة. كما كانت تتصل بنا النساء أنفسهن، المستشفى، الجيران، أرباب العمل، مثلاً من أجل الشغّالات عندهم، المعلّمات. وهذا يبرهن على أن علاقات الصداقة لها وزنها. وكان يتصل بنا الأطفال، وتلك أصعب المكالمات... عندما نقرأ في الصحف، عن الأبناء الذين يغتالون آباءهم، نلاحظ، في معظم الحالات، أن ذلك إنما كان دفاعاً عن أمهم فاضطروا للتدخل. ومع ازدياد الاطلاع على هذا، ازدادت المقالات في الصحافة، وازداد تشجّع الناس فجأة للتعبير عما في نفوسهم وأصبحوا يدركون مسؤولياتهم. وكانت المقالات تذكّر بمبدأ عدم مساعدة من هو تحت الخطر. على أي حال، لقد أخذ الناس علماً بالوقائع.

ومن بعد هذا، وغيره، جاء دور الوزارات. لأنهن، في باريس، بالفعل، كنّ قد قمن بعمل ضخم لدى الوزارات. أما في (إ). فكان لدينا الـ DASS {استعرضت مقاومة وعطالة الـ DASS التي رمت الأضابير في الأدراج ومساعيها في باريس لدى الوزارة التي من اختصاصها هذه القضية.}

كنت أجيء إلى باريس أيضاً من وقت لآخر، لأنه كانت تلزمني بعض المعطيات الجديدة، تطورات القضية، وهذا كنت أجده في باريس علاوة على الاستعداد الذهني الشديد النضالية في سبيل المرأة، فكنت أتمثّله، وأنقله معي إلى (إ). ذلك التضامن النسائي على انسجام وتساند، ذلك التعميق للبحث، إلخ. أما فرقتنا في (إ). فكان فيها طالبات، ونساء مثلي، ومن بعدها، صار بيننا نساء متقدمات بطلبات طلاق وهنّ ضحايا لمختلف أنواع العنف فشعرن بالحاجة كي يلتحقن بفرقتنا لأنهن كنّ بحاجة للأذن المصغية، وألا يعشن بعد في عزلة، بحاجة للتضامن، للتفهّم، ولأن يكون مسعاهنّ جزءاً من كل. وكان هناك امرأة لا تعلم كيف تعبّر عمّا بها فكانت تحمل إلينا قصائد شعرية. لكن معظمهن كنّ من المناضلات الشابات اللواتي لم يعشن المشكلة. وكان هناك الصاحب المناصر لصاحبته والمتفهّم لمعنى الحركة النسائية، وأنها حركة نضالية، فكان هو أيضاً يقدم أحياناً مساعداته. كان باستطاعة الرجال، في كل هذا، القيام بدور مفيد جداً، هو التكلّم مع الرجال العنيفين والتناقش معهم في هذا... ما كان يمكنهم الانضمام إلى الفرقة، لكنهم يستطيعون القيام بذلك العمل. لأننا نحن، من جانبنا، كان اهتمامنا بالحالات الإسعافية. يعني، كان هناك شغل لمن يريد، والذي حصل أنّ بينهم من قام بالشغل وكان لطفاً منهم، وكان هاماً. الآن أحدثكِ عن بروكسل. كان عندنا اجتماع، لكن حضرته نساء، مناضلات نسائيات من أقطار العالم، لمناقشة ما يقع على النساء من اعتداءات عنيفة. كان هذا في عام 76، كان الاجتماع نسائياً نضالياً، وكان عالمياً وعيداً من الأعياد الكبيرة. وهناك، سمح لنا اللقاء بالتعريف بأنفسنا، باللقاء مع الناس، بإدراك وحدة وتشابه مشاكل النساء في كل مكان. وأن القضية كانت بالفعل قضية حضارة مبنية على السيادة الذكرية. إذن، دار البحث عن المعتدين، وعن الاعتداءات

العنيفة. ونظّمنا من بعد ذلك 24 ساعة في مقرّ «المعونة المشتركة» للتنديد بالاغتصاب. ورأينا فعلياً نشوء اتجاهات كبرى. من بينها اتجاهنا لإنشاء ملاجئ SOS، وهو اتجاه عملي جداً، وفعّال جداً، لكن كان هناك نساء يسعين بالدرجة الأولى إلى إيجاد هوية. فهنّ يقفن في وجه مظاهر العنف الذكري، غير أنهن، على سبيل المثال، يرين أن علينا ثني النساء عن رفع قضايا في المحاكم، وأن من الواجب عدم الخوض في هذا الميدان. يعني، أنا منذ قليل كنت أتكلم عن فرقتنا، وعن تدخلاتنا المباشرة لكنني لم أقل إلا القليل جداً. فيجب أن أقول إنّ من النساء من كنّ يخابرن أيضاً، ليقلن لنا إن الشرطة ترفض الحضور، وهكذا. فقد حصل معي أني ذهبت بنفسي، شخصياً. في تلك المرّات، رأيت ردود فعل تلك «النمر» من الأزواج. فمن بينهم واحد أوقفني أمام جرس الباب قائلاً، «انظري ما المكتوب هنا!» فما المكتوب هناك؟ اسم حضرته. وقال لي، «أنا هذا بيتي» بمعنى أن الآخرين، زوجته والأطفال، هم قطيعه، يعني، كل شيء ملك يمينه. وقد دخلت بعدها إلى البيت. بطبيعة الحال، كان الهاتف مسحوباً، فقد استطاعت المرأة مغافلته وخابرتنا، لكنه مباشرة سحب منها الهاتف. وأضيفُ أنه كانت توجد آثار دم على الحائط. وطبعاً، كان هناك طفلان صغيران جداً، يقفان أبكمين من الرعب، وقد انكمشا بانتظار رؤية ما سوف يحصل. وراح هذا الزوج -«النمِرة» يشرح لي أنه يعمل في المصنع، وأنني لا أعرف ماذا يعني ذلك. وكنت قد اعتدت على حمل محفظة صغيرة معي كي أدوّن عليها الملاحظات. إذن كان يُنظر إليّ بصفتي من المثقفين. وأضاف إذن، بما أنه يعمل في المصنع وأنه يتعب في عمله، فهذا يفسّر لماذا يضرب زوجته. ردّاً على هذا قلت له، «لكن من النساء من تشتغل في مصنع. وعلى حدّ علمي، فالعاملات في المصانع لا يضربن أزواجهن». عظيم، في تدخّلي ذاك، كان واضحاً بأن الطبيب رفض أن يأتي فأجبرته على ذلك. لأن تلك المرأة كانت بحاجة إلى شهادة طبيب. يعني، وكان هناك أمور أخرى، مثل قصة الحبل الذي يربط به الكلب أيضاً. {تروي كيف هدّدها أحد الأزواج بكلبه، وكيف استطاعت أن تخلّص جزائرية شابة من عائلتها التي كانت تريد منعها من متابعة الدراسة.}

إذن، كانت التدخّلات متنوّعة ومختلفة. الآن، بعد مرور الزمن، يجب أن أقول إن تصرّفي كان بنتيجة مزاج شخصي لأنني كنت أحب هذا. وصحيح أنني كنت أجازف -ولكن- في النهاية كان لا بدّ من إحداث اختراقات، فكنت أفعل ما لم يكن يفعله الناس الذين يتلقّون أجوراً من المجتمع.

هناك دائماً أفراد لا يقبلون التسلسل الإداري...
والمسألة تحتاج إلى انفتاح القلب

❖ وحكاية الملجأ؟

كلودي: نامت الأضابير ما فيه الكفاية، فيطلبونك، آسفين ليس عندنا مقرّات، لأن الـ DASS (الشؤون الاجتماعية) تعطيك معونات مالية، لكنها لا تعطيك مقرّات، فكان لا بدّ من البحث عن المكان المطلوب، يعني. على أنني اشتغلت مع صاحبات باريس سوياً، ليس على مستوى العمل المباشر، إنما هذا كان يعطيني شعوراً كبيراً بالأمان لارتباطي بنساء مناضلات، إلخ.، فأقول: فرقتنا هامة، فهي مرتبطة بفرقة باريس، وبناءً عليه... تلك كانت مسألة توجّه استراتيجي. عليّ أن أعترف مع ذلك بوجود حملٍ ثقيل من العمل المخيف. كنا في الفرقة نتقاسم العمل، لكن بعض الصديقات لم يكن بإمكانهنّ تقديم الشيء الكثير، لأنهن يتابعن الدراسة، إلخ. يعني، إلى حدٍّ ما، لم يكن هناك توزيع حقيقي للعمل. علاوة على ذلك، كان هناك طالبات مدارس يأتين، وهذا، بالنسبة لي، كان هاماً جداً جداً. فمثل هذه الأمور يمكن للإنسان رفضها، قائلاً، «ما عندي وقت»، أو ما شابه، أما في نظري، فبدا لي هذا هاماً جداً جداً من أجل الحركة النسائية، نعم من المهم مجيء طالبات المدارس، خصوصاً أولئك اللواتي يدرسن في أقسام علم الاجتماع أو الاقتصاد المنزلي، إلخ. خصوصاً انتشار هذا الأمر على مستوى الفتيات، والأساتذة، وعلى المستوى الاجتماعي ككل، أي حيث الناس...

❖ .. سوف يقومون بهذا العمل.

كلودي: وهذا هو عملهم. إذن، كان عليّ تكريس هذا الوقت للطالبات. إذن، كان هناك أيضاً بحثٌ عن الموارد، من جهة ثانية، وكانت الفكرة المحورية فكرة الملجأ، ولكن كان من اللازم أن يتم تعريف المنطقة بأكملها، لأننا بدأنا نجمع حولنا جمهوراً من المنطقة، بالحركة النسائية بصورة أفضل. وكان في الفرقة شابّة أو شابّتان مهتمّتان بالفن. فقرّرنا عرض أسبوع للفيلم النسائي. كان هذا في عام 77.. {تروي كيف حصلوا على مقرات لجمعيتهم بفضل تنظيم تظاهرات فنية وبإحداث تنافس بين بلديّتين متعارضتين سياسياً. ولكن لم يتمّ الأمر إلا بصعوبة: إذ قدّموا إليهن في البداية «برّاكات نائية قرب موقع للحصى»، ثم، حيال احتجاجاتهن، عرضوا عليهن مقرّاً يحتاج استصلاحه إلى 300.000 فرنك.}

عندها، أصبحتُ أرزح تحت ما لا أستطيع تحمّله. وقد حصلتُ، بعد أن رأوا الأعمال المنفّذة في المقرّ، على معونة مالية لتعيين مناوبة دائمة، لأن العمل كان يستمرّ طيلة النهار، ولم يعد الأمر ممكناً بالنسبة لي، فلم يعد عندي أي وقت للراحة، لم يعد عندي أي شيء. كانت المعونة من أجل هذا، على أي حال، من أجل مناوبة، أثناء فترة العمل، فبيل شهر من افتتاح المقرّ. لهذا، كان من الواضح، لقيامي بكل الأعمال، واطّلاعي على الأضابير، إلخ.، أن أستقيل من الـ INSEE كي أستلم المناوبة. يعني، تابعت جميع الأعمال. أما الشؤون الاجتماعية... لأنني تكلّمت عن كل شيء، سوى عن الشؤون الدينية، والشؤون الاجتماعية. إذن، الشؤون الاجتماعية، الـ DASS، هي أمر قائم بحدّ ذاته. فمن مهامّ الـ DASS معرفة إن كانت هذه الجمعية أو تلك صالحة أو غير صالحة ومن بعد هذا فمهمّتها مجرّد تسهيل الإمكانيات إن توفّرت. أوف! فبخصوص المشرفات الاجتماعيات، والمشرفين الاجتماعيين لا غير، عدنا من جديد إلى المشكلة نفسها التي عانينا منها مع الأطباء. بالفعل، ليست القضية قضية فرد ما، إنها قضية انفتاح العقل، والقلب. وهي مسألة انفتاح المجتمع، فهاهي، على سبيل المثال، مشرفة اجتماعية تخابرني في يوم من الأيام، من بعد افتتاح الملجأ، لتقول لي، «عفواً، الموضوع بخصوص مدام فلان الفلاني، فقد هربت». وكان جوابي، «كيف هذا، كيف هربت؟ فهل هي قاصر أم راشدة؟». بالطبع لا!

لكنها جاوبتني، «الموضوع يخصّ السيد فلان الفلاني، زوجها، فهو يبحث عنها، ورجاءً أن تُرجعيها إليّ». كأنّما هي كلب يجب إرجاعه، ما قولكِ، دام فضلك؟ يعني، وقصص أخرى من هذا النوع مع المشرفات الاجتماعيات. فهناك امرأة، ولم يكن الملجأ قد افُتتح بعد، جاءت تراجعنا، وكانت فعلاً لا تعلم إلى أين تذهب. ولا نحن كنا نعلم أين نضعها. كنت قد بدأت بإيواء امرأة أو اثنتين عندي في البيت، مع بداية عمل الفرقة، لكن لم يعد هذا ممكناً، لم يكن بالإمكان الاستمرار هكذا. عدا عن وجود طفل صغير. إذن، جاءت تلك المرأة، وكانت واقعة، فعلاً، فعلاً، في المشاكل، لأنكِ بحكم العادة، تعرفين اللهجة، تعرفين الموقف، وتعلمين إن كانت المرأة التي تراجعكِ معرّضة للخطر، أو أنها يمكنها الصمود أيضاً لمدة 15 يوم. فتلك المرأة كانت فعلاً في خطرٍ كبير. فنصحناها أن تفعل كل ما في وسعها، إذا أمكن أن تذهب إلى فندق، إنما... استدعتها المشرفة الاجتماعية بعد هذا، وأصدرت إليها أمراً بالرجوع إلى بيتها! فيما بعد، في الصحافة، قرأنا أن تلك المرأة طُعنت بما لا أدري كم ضربة سكين وماتت. وليست تلك مسؤولية المشرفة الاجتماعية بالطبع. وامرأة أخرى جاءتني (...) لتقول لي إنها في تلك اللحظة تهتمّ بزوجها، لكنّ عنده عادة تجنّن وهي أنه يربط ابنه على السرير وينهال عليه بالضرب. وقالت لي إنها لا يمكن أن تفشي السرّ لأحد غيري، لأنها، هي شخصياً، لا تستطيع أن تفعل هذا، لأنها إذا فعلت هذا، فثقة ذلك الرجل بها، سيشعر بأنها خانت ثقته بها. لكنها لا تستطيع مسايرته، لكنها لا تستطيع إفشاء السرّ، فهي تقول الأمر لي، فأنا أستطيع أن أُخبر عنه! عندكِ من الناس من يتصرّفون هكذا، فيقولون، «لكن أنا، أنا لا أستطيع الاتصال بالشرطة، فما رأيكِ بهذا التفكير! يقولون: لكن هذه وشاية!» {ضحكة}. تصوّري كيف لا يميّزون! لقد درسوا ثلاثة أعوام دون أن يفهموا الفرق بين الوشاية، التي هي التبليغ عن شخص بريء إلى سلطة كريهة، وبين إنقاذ ضحيّة على وشك أن تموت. هذا ما لم أفهمه أبداً. إنما هو نوع من أنواع الخوف من السلطة، الخوف من السيّد ومن الأقوى، أي الخوف من ذاك الذي يضرب. على أن الأمر كان معكوساً تماماً بخصوص بعض المشرفات الاجتماعيات..

{تحكم على أعضاء الفرق الدينية بأنهم أكثر انفتاحاً وأكثر استعداداً لمساعدة النساء اللواتي يكنّ في خطر}.

وأنا، من جانبي، أميّز بين الأفراد والمؤسسات. فهناك أفراد لا يقبلون، ولن يقبلوا يوماً التسلسل الإداري... فمن بعد ستة شهور عمل، أصبح الملجأ مفتوحاً. كنا ما نزال فرقة، لكن من بعد فترة، طلبوا منّا أن نصبح جمعية. هي قضيّة شكل إداري، قضيّة مسؤولية، إلخ. في تلك اللحظة، كنت رئيسة، وكانت آنيك نائبةً لي، وكانت صاحباتي قد اشتغلن أحسن شغل... فطُرحت دون تأخير قضية السلطة لمن، منذ الانطلاق، وعلى امتداد العمل، لكن مسألة هذه السلطة حُسمت بسرعة كبيرة. فالفكرة التي كانت منتشرة، أينما كان، لم تكن فكرة السلطة، فلم نكن نريد سلطة، إنما نحن نشتغل كفرقة متضامنة. لكن سوف تلاحظين، بهذا الشأن، إذا ذهبتِ إلى فرقة ما، أن تلك السلطة موجودة رغم كل شيء. وهي لتلك التي تتكلّم أفضل، المطّلعة أكثر، التي تتكلّم بصوتٍ أعلى من الأخريات، وما لا أعلم، لتلك التي تناور أفضل، على أي حال، فالسلطة موجودة، إنما هي بكل بساطة، خفيّة وسلبية. فقلنا، «طيب، توجد دائماً سلطة، فلا يمكن أن نمنعها، لكن ليكن معيار السلطة هو العمل، والفعاليّة». أنا شخصياً، كنت متمسّكةً أن تُتّخذ جميع القرارات دائماً بصورة جماعية. طيب. الملجأ. يعني كان يجب شراء مفروشات، إلخ.، إلخ.

❖ كان ملجأ كبيراً؟

تعبٌ رهيب

{تستعرض نهاية فترة نضالية بإنشاء ذلك الملجأ المعدّ لاستقبال 20 امرأة: تعب صديقاتها، شعورهن بإنجاز واجبهن، رحيلهن، إرهاقها الخاص، والحزن حين عادت وحيدة، رغم عزمها الأكيد على متابعة وتوسيع نشاطها}.

كلودي: لم تكن تلك النهاية! وهذا، دون أية انتقادات، هه، لأن كل ما قمن به كان لطيفاً، هه. لم يكن بإمكان أية واحدة منهن العمل في الملجأ.

فهذه في منصب هام جداً، في هيئة تحكيم، وإنما كانت من وقتٍ لآخر تتكرّم علينا بالتوجيهات والنصائح، وهي صديقة من خيرة الصديقات... حتى أنها اتصلت معي، بالأمس، وهذا يبرهن كم... {تبكي} هي قوية الروابط التي استمرت تربطنا. ومن المؤكد أنه ما كان يُتوقّع من أية واحدة أن تتخلّف في دراستها، أو أن تتخلّى عن منصبها كي تهتمّ بالملجأ. إذن، أصبحت المشكلة مطروحة، والشؤون الاجتماعية، الـ DASS، أصبحت تطالب بالعديد من المناصب، ولم يكن هناك مجال للنقاش حول هذا. إنه حد فاصل شديد، شديد الوضوح. بخصوص السكرتيرة والطبّاخة، لم تكن هناك أية مشكلة. لكن المربّية، هذه مهنة، ولا يمكن تشغيل مناضلات. يجب تحديد الأمور في هذا المجال. وبناءً عليه... {تصبح اللهجة صعبة ومتعثرة}، بناءً عليه، حينها، وظّفنا بعض الناس. بعدها، كان من اللازم طلب أشخاص، نساء، للقيام بهذا العمل. إذن، عندها، كان هناك سكرتيرة بنصف دوام، كانت جيدة جداً، وكانت تعرف عملها جيداً، وكانت تعمل في ملجأ آخر سابقاً، ملجأ لمتعاطي المخدّرات، إذن كانت تعرف نظام العمل. كما كان هناك حارسة ليلية أيضاً، ومن هذا القبيل. عظيم. وكان هناك فتاة ثانية سبق أن التحقت بالفرقة قبل ستة شهور، هي مربّية وأخصائية نفسية في الوقت نفسه. فقلت لنفسي، «طيب يعني، ما المانع، فنحن بحاجة إلى أخصائية نفسية، بنصف دوام، من أجل الأطفال»، يعني، لأن الأطفال يصابون بهزّة نفسية، وكان إقلاعنا جيداً، فقد جاءت إلينا النساء ورأيتُ أمراً عجيباً. فالتضامن بين أولئك النسوة، تمّ على الفور. لأن النساء عندما يغادرن هاربات، على عجل، لا يكون معهن حتى حذاء، لا يكون معهن شيء، حتى لأطفالهن. إذن، كان يجب الذهاب معهن لجلب الثياب، وفي هذا ما فيه من الخطر الشديد، فقد طلبتُ مرّة إلى إحدى المربّيات الذهاب، لكن هيهات، وهنا اصطدمت بالمشكلة الحقيقية. فلم تعد أمامي مناضلة، بل أصبحتُ حيال موظفة تفكر بنقابتها، فقالت لي إن هذا ليس شأنها. بالتأكيد، كانت خائفة، يعني! لكن في هذه الحالة، ما كان لها أن تتوظّف في ملجأ، أم ماذا! فأنا كان عندي أكوام من المهام الأخرى أقوم بها، لأنني كنت في منصب مديرة المركز. يعني، كان

عندي عملي مع الأضابير، إلخ.. لأن هذا الملجأ كان مقدمة لملجأ لـــ 50 امرأة قيد التحضير. كان الأمر سهلاً جداً إذن، لأنكِ بعد افتتاح ملجأ أول وبعد أن تبرهني.. يجب التماسك لمدة عام. أن تبرهني أن إدارتك جيدة. ألاّ تتجاوزي.. حسب تخيّلاتهم، لأن الـ DASS قالت لي فيما بعد أنهم كانوا يظنون بأن كلمة (عمل نسائي) معناها: الجهل بأمور الإدارة. معناها: التصرّف لا على التعيين. كما ترين. هذا ما قالوه لي فيما بعد. إذن، من وجهة نظر النساء، كان لا بدّ من التضامن، من التعاون المتبادل. وأيضاً الاعتراف بالجميل لبعض... فالسنة الماضية بالذات، جاءتني مخابرة من امرأة، علماً أن قصتّها مضى عليها عشرة أعوام، وقالت لي «شكراً، إلخ.، ونويل(*) سعيد!».

{تستعرض طريقة عمل الفرقة، التوزيع المتضامن للأعباء الكثيرة والمنوّعة.}

إذن، من البداية، من المستحيل الاعتماد على تلك المربّية لجلب أبسط قطعة ثياب. بالنسبة لي شخصياً، عندما كنت أذهب في موعد إلى الطبيب، كانت النساء، الصديقات، فيما بينهن يرتّبن الأمور في غيابي. لكن. شيئاً فشيئاً، بدأن يتساءلن، ويسألنني. كنّ يقلن لي، «عندنا شعور بوجود ما يفصل بين الموظفين وبيننا. لماذا يوجد هذا الفاصل؟». لأنهن معي، ما كنّ يشعرن بما يفصلهنّ عني. وعندما كنّ يقلن لي، «هذا لا يحصل إلا معنا، هذا لا يحصل مع غيرنا»، كنت أقول لهنّ، «أنا آسفة، لكن بقليل من سوء الحظّ كان يمكن أن يحصل معي أيضاً ما يحصل معكن». أنا لا أشعر أنني فوق وأن الآخرين تحت. ولكن، عندكِ «نمِر» من الناس، ليس الجميع، يقولون لأنفسهم، «عال، أنا عندي مهنة، أنا مربّية، أخصائية نفسية، وهذا كل عملي». فتكفي مثل هؤلاء النساء نظرة واحدة ليشعرن أنهن أصبحن في الحضيض. إنهن متهافتات في أساسهن. وليس هذا الهدف من الملجأ. هذا عكس المطلوب.

(*) Noël: عيد ميلاد السيد المسيح.

❖ هكذا كانت الأمور مع الموظفات؟

كانت بلوتي مع «نمِرة» نقابية

كلودي: لا، ليس جميع العاملات. واحدة فقط. وهي لسوء الحظ كان دورها أن تكون مربّية. لكن ليتها، توقّفت عند القيام بعملها ولا غير، فهي كانت في فترة.. يعني كانت تمضي الشهور التجريبية الثلاثة في بداية العمل. لكن؛ تلك الفتاة قد بدأت تقول لي «النظام الداخلي». على امتداد النهار، ما كنت أرى سوى هذا. كانت تحتمي بالنظام الداخلي هرباً وخوفاً. فعندما كان من اللازم القيام بعمل ما، تقول، «أنا عندي حق في يوم راحة». ومن حقي الاتصال بمحامية، وسوف أقول لها، «هنا، لي حق في فرنك علاوة، وهنا، ينبغي أن يكون راتبي مضاعفاً لي حق بيوم عطلة». يعني، نظراً لوجود مشاكل دائمة بشأن تسيير العمل يومي السبت والأحد، في الملجأ، وبالتالي حكاية التعويض. كانت بلوتي مع «نمرة» نقابية تزداد طلباتها أكثر فأكثر، دون أن تهتم بما تفعله النساء والأطفال، فهذا لم يكن يشغلها. عظيم، فاستدعيتها وقلت لها، يعني، على بركة الله، فأشهر التجريب الثلاثة لم تكن أبداً مطابقة لتصوراتي، وفي جميع الأحوال، من الأفضل أن نفترق، ومن الواجب التفاهم، وأنني مستعدة ما دامت تريد أن تعمل لحسابها، لمساعدتها، وكان هذا لطفاً وكياسةً مني، من بعد كل شيء. فأنا كنت أعرف العديد من الناس في (إ). وأن هذا من شأنه تسهيل عملها لحسابها الخاص. تناقشنا في الأمر، وقالت لي إنها موافقة. عظيم، فقلت لها، «سوف أحضّر رسالة، ونوقّعها غداً معاً». فقالت لي، «لكن أنا لن أوقّع أبداً أي شيء». بالمختصر، ذهبتُ من بعدها، فأنا كنت رئيسة الجمعية، لكن بمجرد أن تصبحي مديرة، لا يعود بإمكانك أن تكوني رئيسة الجمعية، لا يحقّ لك، فأنتِ بهذا تجمعين بين منصبين. وأنا ارتكبت حماقة عندما طلبت من سيدة معروفة جداً، فنانة، يعني، وكان عندها... كان اسمها مهماً، مهما قلنا، فسألتها إن كانت تقبل برئاسة الجمعية، وكنا قررنا هذا بموافقة عدة أصوات، إذ قلنا لأنفسنا، هذه سيكون لها ثقلها في مواجهة السلطات. لكن، كنا قمنا بجميع العمل لوحدنا، كدنا

نموت من الإرهاق، يعني، فقالت لي، قالت، «نعم، بطيب خاطر، أنا أيضاً مناضلة نسائية، لكن، إلخ. لكن في جميع الأحوال لا علاقة لي أبداً بقراراتكن، أنتن لكنّ عليّ استلام هذا المنصب، وغير هذا، لا شيء، موافقة على هذه الشروط». فهذه الفتاة لا غيرها، هي وحدها فقط لا غير، ذهبت وقابلت تلك المرأة. وهذه المرأة هي شقيقة س. دو (×) {مناضلة نسائية شهيرة}. وكان اسمها مدام دو (×).. كانت تعيش في الألزاس، وكانت فنانة-رسّامة. وكانت، يعني في النهاية لها عذرها، تغار من شقيقتها، يعني، فذهبت الفتاة إليها، ومدام دو (×).، تحمّست، «ما هذا، آه لا، هذا لا علاقة له أبداً بالنضال النسائي، ماذا، القيام بمثل هذا الأمر، تُردن تسريح شخص من عمله! أكيد أصابكن الجنون!». يمكنهم القيام بكل شيء لا على التعيين، يمكنهم أن يفسدوا عليكِ كل شيء، لكن لا يجوز تسريح مناضلة نسائية! قلت لها، «ليس الموضوع موضوع تسريح، إنّما نحن نضع حدّاً لفترة تجريبية». لكن تلك الحمقاء البليدة لم تكن تعرف الفرق بين هذا وذاك، كانت فنانة. أنا لا أعترض في شيء على الفنانين، أنا أيضاً هاوية تصوير فوتوغرافي، إلخ.. لكن قصدي، لا يجوز لأحد دسّ أنفه في أمر لا يعرفه. طيب، عظيم، تطوّرت الأمور بحيث عقدنا مجلس الإدارة، فهي، هي كانت الرئيسة، وهي بالتالي من بين أعضاء مجلس الإدارة. كان هناك أيضاً آنيك، التي اشتغلت كثيراً، وكنت أنا، وكان هناك امرأة أو اثنتين كن قد اشتغلن كثيراً، فاجتمعنا في جلسةٍ لمجلس الإدارة، فشرحتُ الموقف، وشرحتُ بأن الفتاة حاولتْ تخريب كل شيء، وأنها ليست مناضلة نسائية والأمور معها سيئة، ويجب إنهاء فترة عملها تحت الاختبار. وهاهي تنتفض لتقول، «مكانكِ، أنا الرئيسة، ماذا أنت بصدده، آه؟ هذا لن يمشي بتاتاً! أنا سوف أدعو الهيئة العامة للانعقاد! لأنني معارضة لقراركن!». وراحت تصرخ. في وجوهنا نحن اللواتي أنشأنا كل شيء، عملنا كل شيء! أثناء ذلك، في الملجأ، لم تعد النساء يفهمن شيئاً على الإطلاق، لأنني فعلياً كنت هناك، كنت أشقى، وأشقى وكان ينقصنا عمل واحد شاغر. بمعنى أن الشؤون الاجتماعية كانت قد أعلمتنا، «يجب على الدوام وجود موظف ما في الملجأ». فإذا وقع عندكِ أتفه حادث، ولم يكن هناك أحد،

عندها، أنتِ المسؤولة. إيه، فنحن كان عندنا هذا الشاغر. ثم كلّمونا في النهاية عن سلطتي، فقلت، «لو قسّمت ساعات عملي الفعلي على راتبي، فأنا أطلع بأجر أقل من أجر الطبّاخة!» ولم يكن هذا طبعي في النقاش، لكن ما العمل وقد قيل لي، «أنتِ لك مركز، وكيت، وكيت»، إيه، قلت لهنّ، إيه، نعم... أنا أفعل كل هذا لأنني أعلم بأنه يجب عليّ تقديم بيان نظيف في نهاية العام. فالملجأ يمشي على ما يرام. وعندنا فيه مسؤولية الـ 50 امرأة، في الملجأ الجديد الذي نحضّر له من بعد هذا الملجأ. أما الصاحبات، اللواتي لم يكنّ يعملن معنا لكنهن قمن بكل النضال، كنّ قد فهمن استراتيجيتنا، ليس هذا فقط، بل وفهمن ما كان يجري في الملجأ بسبب تلك المرأة. أما نساء الملجأ، فلم يكنّ مطّلعات على أي شيء! وكن يطرحن عليّ كل يوم أسئلة جديدة! يعني، كنّ يشعرن أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. لماذا أمورهن تمشي معي، ومع أختنا تلك لا تمشي! كنّ يطرحن الأسئلة على أنفسهن! أما هي فلم يعد لديها أي رجاء حيال تلك النساء، فهنّ بالنسبة لها جمهرة.. وعليها التعامل معهن هكذا! يعني، هذا عملها. (...).. لقد تعلّمت هذا التصرف، وتعوّدت على هذا. كانت طريقة مختلفة في التصرّف، ولا علاقة لها إطلاقاً بالنشاط النسائي، مهما قيل. لكن مدام دو (×). لم تكن تقبل أن تسمع كل هذا بتاتاً. عندها نحن قرّرنا هذا إنما في مجلس الإدارة. وهي طلبتنا إلى الهيئة العامة. فمن كان معه الأوراق؟ أنا، بكل تأكيد، لأنني كنت قد اهتممت بكل شيء. وبالتالي، كانت عندي قائمة بالناس، بالنساء المنتسبات إلى الجمعية، بالذين دفعوا اشتراكاتهم. فقالت لي فجأة، «مطلوب منك رجاءً تقديم هذه القائمة». أنا لا أحبّ إطلاقاً تسليم قوائم لكن لا يمنع، وافقت بطيب خاطر.

{في الهيئة العامة، رأت «أكداساً من النساء اللواتي لا علاقة لهنّ بالجمعية أبداً» يدخلن إلى قاعة الاجتماع.}

عملية القتل

كلودي: ورأيتُ أمامي، خصوصاً، صويحبات البداية الصغيرات! جميعهن! (...) جماعة الصراع الطبقي! جميعهن! لم تتخلف واحدة منهن!

وعلى رأسهن مدام دو (×). طبعاً هي قالت، «أنا رئيسة الجمعية! لأنني أنا مدام دو (×). طبعاً!». فقلت، «لكن كيف حصل هذا وهؤلاء الأشخاص لم يكنّ أبداً في الجمعية؟ وهؤلاء الأشخاص لم يدفعن أبداً أي اشتراك؟» فقدمت إليّ قائمة، وقدّمت إليّ أوراقاً، 37 ورقة. 37 ورقة عضوية موقّعة. «هنّ عضوات في الجمعية، وهذا التوقيع.» عندما أسّسنا جمعيتنا، وضعنا في اللوائح الإدارية إمكانية الانتساب بأكثر من باب، وأنا في حينها، لم أعِرْ الأمر أهميته. وفي الوقت الذي كنت أهتم خلاله بالنساء المضروبات، بالنساء الملتجئات عندنا، أثناء انشغالي بالأضابير، أنام في الملجأ لأحلّ محلّ الحارسة الليلية. وإذن فالأوراق وُقّعت، لوجود وسيلة أخرى للدخول إلى الجمعية، وبينما أنا كنت أقوم بكل نشاطاتي، ذهبن ورتّبن أمورهن قانونياً، وتكاتفن يداً واحدة. لكني سألتها، «لكن من وقّع هذه الأوراق؟». فأجابتني، «يمكنك أن تنظري لتعرفي أن أختي هي التي وقّعت هذا» وبيني وبينك، كان يمكن لأختها أن توقّع على أية ورقة دون أي تدقيق. أنا لا أنتقد أعمالها الأدبية، لكنها ببساطة إنما أرادت تقديم مساعدة لأختها...

❖ لم تكن دون شك تعرف التحتيّات والألاعيب...

كلودي: لم تكن تعرف دون شك تلك الأبواب، وهذا يعود إلى عمرها، هذا مردّه لتلك الأمور. ما علينا، من بعدها، جاءتني صدمة كبيرة. أظنّ أن بالإمكان فهم كل هذا. على أي حال، جميع نساء الملجأ، أقول جميعهن دون استثناء، شرعن بكتابة رسالة من صفحتين، يقلن فيها إنهن لا يفهمن هذا الموقف، وإنهن يشاهدنني أعمل طوال الوقت، إنني مديرة ممتازة، إنهن لا يفهمن لماذا أُوضع في موضع الاتهام والتشكيك، إلخ. وهكذا، انعقد مجلس الإدارة مرة ثانية، ولم يعد هناك امرأة واحدة من الملجأ، ولا من أولئك النساء من باريس اللواتي قدّمن المساعدة، لا أحد إطلاقاً، ولم تعد القضية قضية نضال نسائي، كان هذا واضحاً. إذن، مجلس إدارة من جديد والمطلوب مني فوراً ومباشرة تعيين امرأة، هي التي يجب أن يكتمل بها الملاك. لأنكِ مرتبطة مع الشؤون الاجتماعية بعقد. فإذا تخلّفتِ عن شروط

هذا العقد، تتوقف المساعدة المالية، ويطير الملجأ في خبر كان. في ميزانيتكِ، هذا واضح، عندك وظائف محددة في الميزانية. ولا يجوز لكِ تجاوز هذا خصوصاً في السنة الأولى. فطُلب مني تعيين امرأة. دون أن أعلم من أين أدفع لها رواتبها، أو من أين أدفع التزاماتي تجاهها إلى الشؤون الاجتماعية. وكنت بين نارين، إمّا تعيين امرأة جديدة للعمل معنا، وفي هذه الحالة أُثبتُ أنني إدارية فاشلة، لأنني مستنكفة عن التزاماتي بموجب العقد حيال الشؤون الاجتماعية، وإمّا عدم تعيين أية امرأة، وفي هذه الحالة أرتكب مخالفة، لأنني أخرج على أوامر مجلس الإدارة. يعني. على أن الشؤون الاجتماعية كانوا قد سمعوا بكل هذا، وقالوا لي، «اسمعي، كل هذا، هذا لا يمشي على الإطلاق. أنتِ، أنتِ فعلاً تعملين جيداً جداً جداً. نحن متمسّكون بأن تستمرّي في منصبك. لأننا واثقون بك. لأن إدارتكِ جيدة». عظيم، لكن، هنا، اخترعوا لي أشياء جديدة، أقصد أنني طُلبتُ للحضور، أنا لم أكن أعرف مثل تلك الحركات، فأنتِ تُستدعين ويجب عليكِ تلبية الاستدعاء، والاستدعاء هذا يدسّونه خلسة بين ورقتين من دفترك، أنا لم أرَ هذا الاستدعاء إلا في آخر لحظة. وهنا أيضاً، هذه زلّة: أنتِ لم تحضري إلى مجلس الإدارة. وشيئاً فشيئاً بدأت هذه الأمور. حكايات جديدة في كل يوم. فذهبت لمقابلة صاحبة لي من باريس، محامية، فشرحت لها الموقف، وقلت لها، «كانت عندنا انتخابات غير نظامية، تعداد الأصوات جرى دون تدقيق، هكذا أخبرني بعض الذين ظلّوا في القاعة». فقالت لي، «يا كلودي، أنتِ في حلبة صراع. إذن، إمّا أن تغادري الحلبة، وإمّا أن لا تغادريها، على أنهم يريدون قتلك حتى الموت. وهم يقذفونكِ الآن بالسهام». نعم كنتُ في حلبة. يعني، وهنّ كنّ يملكن السلطة، ولكن القضية خصوصاً هي أن هناك أناساً، يتركونهم يناضلون، يتركونهم يعملون، لكن لا يجوز خصوصاً أن ينجحوا. هم خصوصاً غير مكرّسين لهذا. فليس هذا قدرهم. أنا لست مدام دو (×). أنا كلودي؛ كلودي التي بإمكانك إرسالها هنا، بإمكانك إرسالها هناك حيث الرشّاشات، السكاكين المشرَعة، وهي تؤدي لك العمل تمام التمام. لكن

أن تكون كلودي مديرة لملجأ هي نفسها التي أنشأته؟ لكن فوق كل هذا كنتُ قد تعبتُ إلى أقصى حد، وفي النهاية قلت لنفسي، يعني كيف أعبّر لكِ، في الشؤون الاجتماعية قالوا لي إن عليّ الانتباه، إنّهم تأتيهم أخبار عن هذه القصص، بالمختصر، من الممكن إغلاق الملجأ. يعني، أنا إدارية جيدة، لكن إن كنتُ لا أنجح في إعادة النظام والانضباط، فمن الممكن إغلاق الملجأ. ومن جهة ثانية، فمدام (أ). قالت لي، «الملجأ المقرر لـ 50 امرأة، لم يعد أحد يتحدث عنه، فملجؤكم فيه مشاكل، ولم يعد أحد يتحدث عن الملجأ الكبير. انتهى». عندها، فكّرت بحكاية الثور في الحلبة، قبل الشروع بقتله حتى الموت، وقد شعرت حقاً بهذا، وقلت لنفسي، لن أقدر أن أدفع لتلك الفتاة المطلوب تعيينها، لن أعيّنها. وقد وجدتُ نفسي مضطرة للاستقالة. بسبب «حيونة» مدام دو (×). عفواً، لكن لا بدّ من تسمية الأمور بأسمائها. لقد تخلّيت عن منصبي، ويوم تركتُ العمل، وُلد كلود، أقصد أن هناك امرأة جاءت إلى الملجأ، وكانت حُبلى، وأنا نصحتها بالتعامل مع جماعة تنظيم الأسرة، فضّلتها على باقي الجمعيات، كان لدينا بعض المال، وكانت نساء تنظيم الأسرة يحضرن بشكل نظامي لإجراء نقاشات مع النساء في الملجأ. عظيم، فتلك المرأة كانت حُبلى، فطلبت توضيحات، دون أن تكون ثابتة على الموقف الذي تريده. فبدءوا في الإدارة يحضّونها «اعملي إجهاض، ماذا تنتظرين، عليكِ بالإجهاض؟» عندها قالت لي، «قرفتُ منهن». حيال هذا، أنا لم أكن موافقة على تصرّفهن، لأنني مع حرية النساء في اتخاذ قراراتهن، أمّا أن أقول للواحدة: عليكِ بالإجهاض، أو ليس عليكِ ذلك، فهذا نوع من الاستغلال والغش! عندها، نهرتهنّ، «الآن، هذا يكفي! لا أحد يقول لها بعد اليوم أي شيء عن هذا». والذي حصل أنها قررت الاحتفاظ بالجنين، وأنني، عرّابة هذا الطفل. لقد وُلد يوم غادرتُ الملجأ وأطلقتُ عليه اسم كلود (...)، إذن، هناك أيضاً أشياء حلوة، جداً جداً، ولا يجوز الاكتفاء بالنظر إلى الجانب السلبي. لكنّ الأشياء الإيجابية جاءت إمّا من المناضلات، من الفرقة بأكملها، ومن النساء اللواتي لاقين المأوى عندنا، منهن كثيرات، كثيرات. لكنّ

لا شيء من جهة الموظفات. وأنا عن قصد دقيق أستعمل كلمة «موظفات»، أي نعم، لأن هؤلاء لا علاقة لهنّ أبداً بالعمل النسائي. رغم أن بعضهن كنّ لطيفات وحبّوبات جداً جداً.

{وصلتها أخبار أن المربّية انتهى أمرُها إلى الطرد من الملجأ.}

[...]

❖ واستمرّ هذا الملجأ؟

كلودي: هو مستمرّ لأنني أنشأته، هو مستمرّ. سوف أطلعكِ على مقالات عنه، هو يمشي تماماً. وهذا، هذا مهم. لقد احتفل بالذكرى العاشرة لتأسيسه في كانون الأول. بالنسبة لي، شعرتُ بالضيق لسنوات بعد تركي العمل. شعرت أنني فقدتُ استقراري كلياً. لأن كل كياني كنتُ قد وضعتهُ هناك...

❖ كل طاقتكِ...

كلودي: كل شيء، وهبتُه كل شيء. وهاهو يستمرّ في عمله. هو موجود. وهذا، رغم كل شيء جانب إيجابي. لعلّي لو أقمتُ دعوى، كنتُ ربحتُ الدعوى. طيب، تركتُ العمل، لكن الملجأ موجود. إذن، ما أقدر أن أقوله لكِ، يعني، ربما، بعد ضربة مثل تلك، عموماً... على فكرة، هناك شيء نسيت أن أقوله لكِ. كانت علاقاتنا جيدة مع جماعة البيئة. لأننا إلى حدٍّ ما من العقلية نفسها، وقد طلبوا منا مقالات، من وقتٍ لآخر، اتصالات هاتفية، لكن ما أستطيع قوله لكِ هو أنني بقيت مناضلة نسائية، بقي عندي منظور العمل النسائي، فما حصل لم يغيّر إطلاقاً ما هو مستقرّ في أعماقي، كما ترين، لأن ما في أعماقي هو قضية المرأة، كما ترين. على أني، من طرف آخر، أصبحتُ سيئة الظن. سيئة الظن بالآخرين، فأنا على حذر شديد. لكن إذا كان ما يجب القيام به، نعم، فأنا موجودة. منذ عامين، رافقت مسيرة باريس-جنيف من أجل الأطفال المخطوفين. إذن، عندما يكون ما يمكن القيام به، فأنا أفعله. وعندما يتعلّق الأمر باجتماعات، بتشلّلات، هذا لا يثير

أي اهتمام عندي بتاتاً. فقد قرفتُ من هذا. وعندكِ نساء يدّعين النضال النسائي ولسن على الإطلاق كذلك، لأنهنّ هنّ اللواتي وجّهن إليّ تلك الضربة، وجّهوها إليّ، ووجّهوها إلى غيري أيضاً. لقد حكوا لي أنهنّ فعلن الشيء نفسه مع أحدهم وكان قد أنشأ جمعية في الحيّ، فتدفّقن إلى هناك للبهرجة والدعاية، إلخ. مع أصحابهن الصغار النفوس. فحكوا لي أنه قد انتحر. لأن مشروعهن التدمير الكامل. تدمير شخصية الإنسان. بالكامل. وفعلن هذا لماذا، في النهاية، لا لشيء إلاّ لأنهنّ يردن انتقاد المجتمع، لكن لا أسهل من التدمير بالاتجاه نحو الداخل، وهو ما تفعله بعض المناضلات النسائيات، وأما الصعب فهو القيام بالفعل الحقيقي، بالاتجاه نحو الخارج.

1991

روزين كريستان

شاهد صامت

وصلت إلى لونغوي، مساء يوم أحد من شهر شباط، قرابة الساعة 20. كان الثلج يتساقط. نزل الركاب القلائل من القطار الذي تخفّف شيئاً فشيئاً من مسافريه؛ كانت بضع سيارات تنتظر، مضيئة رصيف المحطة بأضوائها، ثم، في دقائق، عادت المحطة تغرق مع ما يجاورها في الظلام، كان رئيس المحطة قد أغلق الأبواب وعاد ليتدفأ؛ سوف يعود القطار نفسه ليرحل بالاتجاه المعاكس في صباح اليوم التالي. في الساحة الكبيرة الموحشة، كانت واجهة القصر البلدي المضاءة تبدو كأنها ديكور، شاهد وأثر باق من الثروة الغابرة للمدينة. من وراء الساحة، في شوارع القسم الأدنى من لونغوي، كان الليل يخفي جزئياً الوحشة، والمتاجر المغلقة منذ فترة بعيدة، وإعلانات العرض للبيع.

كنت على موعدٍ مع ماريز، وهي امرأة في الـ 45 من عمرها، تعمل محاسبة صندوق في سوبر ماركت. فبينما كنت أبحث عن مقابلات أجريها مع نساء عمال عاشوا أزمة صناعة الحديد والتعدين في منطقة اللورين، حدثني ابن أخيها عنها (طالب في العشرين من عمره)؛ عن ترمّلها مؤخراً، وقليلاً عن حياتها. لاقيتُ صعوبة في تحديد الموعد معها، فهي تعمل نهاراً، وكانت، على وجه الخصوص، تعيش في بيت والديها في قرية نائية قليلاً؛

ولعلّها، هي أيضاً، ما كانت تتمنى حضوري على مقربة من والديها العجوزين والمريضين. لكن أحد إخوة زوجها، وهو وكيل تجاري، اقترح أن يستقبلنا نحن الاثنتين ذات مساء في بيته، على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً من المدينة. البيت، يقع في مشروع سكني حسن الإعداد والإضاءة، وكان يبدو دافئاً وحميماً من بعد الليل والثلج، بمفروشاته المصنوعة من خشب الصنوبر الفاتح اللون وبترتيبه الكامل؛ بعد انتهاء الوجبة، جلس مُضيفانا مع ماريز حول الطاولة التي رُفعت عنها الصحون، وكان يبدو عليهما ما يوحي بالصلابة، والنجاح، والتلاؤم مع الحياة. أما ماريز فبدت لي صغيرة السنّ، أو لعلّها عزلاء من كل قوة، ببنطال الجينز، وقوام طالبة، وبنظرة لا أعلم إن كانت تعبّر عن الريبة أو العزاء كونُها تتحدث مع امرأة لا تعرفها. ثم استقرّ مجلسنا، نحن الاثنتين، حول طاولة المطبخ، بينما عائلة (ب). كانت تتفرج على التلفزيون في الحجرة المجاورة: فحديثنا تبدّى لنا في ذلك اللقاء الأول كتبادل عادي للمكاشفة بين امرأتين من بعد وجبة في جوٍّ عائلي.

ولدت ماريز في عام 1947، في قرية تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن لونغوي؛ من أب «كان يشتغل في السكك الحديدية» ومن أمٍ ربة منزل. كانت الثانية بين أربعة أبناء، جميعهم الآن متزوجون، ولم يكن فيهم أحد «تقدّم في دراسته إلى مراحل عليا »؛ هم يعانون حالياً من «مشاكل بطالة». ماريز ذهبت في دراستها إلى الصف الحادي عشر، لكنها توقفت هناك. كانت طالبة جيدة، ولذلك نصحها أساتذة مدرسة القرية بمتابعة دراستها في ثانوية لونغوي، بعد نهاية المرحلة الإعدادية. هناك كانت جنباً إلى جنب مع فتيات المدينة، بنات كوادر وفنّيين صناعيين، و «شعرت بالفرق»، خاصة عندما بدأت تخرج، و«تلبس كما تشتهي الفتاة في عمرها أن تلبس (...)»؛ لم يكن في جيبها «خرجية»، حتى لتناول فنجان القهوة: «في الحياة اليومية، فلمثل هذا الأمر أهمّيته بالنسبة للفتاة.» وكان نجاحها لا بأس به عموماً، رغم بعض الصعوبات في الرياضيات، لكن «بدأت تشعر بالقرف»؛ فعزمت أمرها على توقيف دراستها كي تعمل وتكسب بعض المال. حصلت على عمل

في البريد صيفاً، «وهذا أعجبها تماماً»، فاتخذت قرارها النهائي ألا تعود إلى الثانوية في مطلع العام الدراسي في تشرين الأول؛ بُعيد هذا بقليل، «أصبحت بائعة في بريسونيك»(*).

من بعد زواجها الأول وولادة ابنها، طلّقت وهي في العشرين من عمرها، لتتزوج في 1968، ذاك الذي لن تلفظ أبداً اسمه خلال جميع أحاديثنا المسجّلة ودردشاتنا الخاصة (وأنا ما أزال لا أعرف اسمه)، كما لو أنّ تعميم اسمه يمكن أن يبعده عنها. فـ «زوجها»، كما تذكر دائماً، تعبيراً منها عن وفائها ومحبّتها، كان لحّام كهرباء في ورشات لونغوي (SAF)، والـ (SAF) هو مشروع صغير كان مزدهراً بالطلبيات التي يتلقاها من المصانع الكبيرة في المنطقة. لقد بدأ زوجها متدرباً، ثم «لموهبته في هذا المجال»، ارتقى شيئاً فشيئاً إلى «أعلى تصنيف، لحّام كهرباء درجة P3 »؛ كان يكسب من عمله أجراً ممتازاً، مع الساعات الإضافية التي تضاف إلى الراتب لتوفّر في نهاية الشهر كل المصاريف. عدا عن التنّقلات، في جميع أنحاء فرنسا تقريباً، مما كان يوفر لهما الشعور بأنهما يعيشان حياة ممتدة الآفاق. وتحتفظ ماريز بذكرى استثنائية جداً عن فترة ثلاثة شهوراً أمضياها في منطقة سافوا-العليا، وكانت قد لحقت بزوجها هناك مع ولديها.

عندما تتكلّم ماريز عن لونغوي ذلك العهد، يأخذها الحماس: «كانت مدينة عمّال، وكانت فعلاً بالعقلية العمّالية. صحيحٌ أننا كنا نلتقي بمعلّمي الحرف الذين يظنون أنفسهم دائماً فوق الآخرين قليلاً، لكن كنا نلتقي بالأصحاب في كل مكان، فنذهب إلى المقهى. كان الناس في معظمهم ميسوري الحال، ولا يحرمون أنفسهم كثيراً» اليوم، كما تقول، «إنه التزحلق، (...)»، هم «نوع من الرعاع جاءوا لا أعلم من أين، وتعجبين كيف يعيشون، ثم، عندكِ جميع أولئك الذين حصلوا على تقاعدهم مبكراً، فهم راضون، قانعون بحياتهم الصغيرة، بيتهم الصغير، سيارتهم الصغيرة».

البيت الكبير الذي اشتروه في الـ 75، تقريباً دون أية دفعة أولية،

(*) Prisunic: شركة كبرى تملك العديد من المخازن الضخمة في كافة أنحاء فرنسا.

بقرض مصرفي لم يكن لهم فيه رجاء، ما زال بقيّةً باقيةً من تلك الدنيا المسحورة: «برّاكة خشبية كبيرة »، (...) ثماني حجرات، خلوات، لكنه آنذاك، بالفعل... كان بحاجة إلى ترميم كل ما فيه.. «كان مخرّباً، لكن أنا، كان هذا ما يروق لي، القيام بمشاريع مع زوجي، فخطّطنا لهذا، وخطّطنا لذاك (...). ما كان يمكن أن نصل إلى النهاية براتبه، إنما لا بأس، لا بدّ أن تتيسّر». «ما كان معنا فرش واحد، لكن سعداء... فكان زوجي يعود من عمله، تكون الساعة عندها الثانية والنصف وبالتالي، هوب! كنا نمضي إلى الحديقة، ونتناقش مع أبناء البلد.» بدأت مشاكلهما بعملية الشراء اللامعقولة تلك، ضمن مناخ اقتصادي كان في تدهور مستمر. كان القسط الشهري في حدود 700 فرنك، أي ما يعادل أعلى أجرة سكن و«بدأ الدفع يزداد صعوبة شهراً بعد شهر».

كان الوقت قد فات، رغم جميع محاولات الإنقاذ التي أعقبت المظاهرات العمالية في بومبي عام 78، في سبيل إنجاز الآمال بحياة عمل راسخة بقوة في تلك المنطقة. فمنذ عام 75، أغلقت المصانع أبوابها الواحد بعد الآخر بإيقاع متسارع وكانت سنة 79 سنة سوداء. فمن بعدها بقليل، مصنع شيي، الـ SAF، أغلق أبوابه هو أيضاً، وأغلقت من بعده مصانع فولاذ سينيل دريون. وتطايرت الروح العمالية المتضامنة هباءً مع عروض التقاعد المبكّر ومكافآت التسريح. تعود الذكريات إلى ماريز: «كان زوجي في نقابة الـ CGT، لقد شرحوا كل هذا، وهو، كان يفكر هكذا أيضاً، وعندما كان يتكلم عن الأمر مع الآخرين، حتى مع أسرتي نفسها (...) فكانوا ينظرون إلينا من طرف العين على أننا من الثوريين أو من الناس الذين لا يرضون بما قُسم لهم».

وانصياعاً لنصائح زميل قديم، قَبِل أن يتوظّف كعامل مؤقت لصالح مشروع تابع للأشغال العامة، الـ SPIE. فكان عليهم الانطلاق إلى ورشة معمل كهرباء غرافلين، في بيت-نقّال تمّ شراؤه بسعرٍ مخفّض بمساعدة الأسرة وما تيسّر معهما من بيع بعض قطع الموبيليا عندهما. ويبدو، من شدة

قسوة قدرهما وظلمه في نظرهما-حول هذه النقطة، حكايات ماريز المتنوعة فيها تناقضات-أنهما حملا دائماً لفترة طويلة الأمل بالرجوع إلى لونغوي: حتى عندما راحت الـ SPIE، باستلامها أمور شركة العمل المؤقت، توظّف العمال، احتفظا ببيتهما الكبير غير مسكون، و، أثناء خمسة أعوام، لم يحاولا تحسين سكنهما إلى ما هو أكثر راحة. في غرافلين، جعلا مركز بيتهما-النقّال في المخيّم البلدي مثل جميع العاملين في المحطة، القادمين من جميع أنحاء فرنسا، فهم جمهور رحّال حسب حاجة ورشات الـ SPIE، أو غيرها من المشاريع.

كانا قد رضخا شيئاً فشيئاً للأمر الواقع، بل كانا تقريباً راضيين لأنهما «أمّنا شيئاً ما»، خائفين من البطالة، ومتجاهلين، كلاهما، منغّصات العسر وضيق المكان فهذان أمران تعوّدا عليهما منذ الطفولة. فـ «البرّاكة الكبيرة» حلم كان لا غنى عن وضع حد له وبيتهما-النقّال «جميل» بأمتاره الستة طولاً فهو «يضمّ كل ما يجب» و«كان المطبخ مرتباً». لكن مع مرور الزمن-قُدّر لهما أن يعيشا فيه خمسة أعوام، عام ونصف في غرافلين وأكثر من ثلاثة أعوام في سان فاليري-أن-كو-، بدأت معاناتهما تتفاقم بسبب ضيق المسكن وعدم توفر الحميمية فيه، فكانت حجراته مثل خزائن بأبواب جرّارة، «الصغار، كانوا في حجرة كم مساحتها؟ بطول السرير (...)، وكانت الأسرّة فوق بعضها، كان لكل منهم سرير، وحجرته سريره. يعني، أطفال في ذلك العمر، ما كان بإمكانهم سماع موسيقى، ما كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً. (...) كان هناك حجرة أخرى يمكن اعتبارها مثل صالون صغير: إذن، هناك كان يوجد مقعد صغير متطاول الشكل، وطاولة صالون صغيرة، ثم قطعة موبيليا وضع فوقها التلفزيون. حياتنا في البيت النقّال كانت هي التلفزيون».

في مخيّم غرافلين، كانت المعاشرة نادرة، فالجميع غارقون في العمل ورازحون تحت وطأة حياة شاقة التدبير لعائلات تعاني الأمرّين من البطالة ومن الغربة. هناك جيران جاءوا ذات مساء لتناول كأس عندهم، وهم ردّوا

على هذه الزيارة بزيارة مماثلة، لكن هؤلاء الناس الذين كان يمكن مصادقتهم رحلوا بُعيد ذلك إلى ورشة أخرى. وبعد مرور عامين، أصبح الدور على ماريز وزوجها كي يغيّرا موضع بيتهما-النقّال: فالـ SPIE أرسلتهما إلى سان-فاليري- أن-كو؛ فحطّا الرحال في حقل استأجراه من أحد الفلاحين، في قلب الريف. فكان الذهاب إلى المدينة يستلزم استخدام سيارة. لذا لم تكن ماريز تخرج إلا لشراء حاجيات البيت ولتوصيل ولديها: الكبير، في الساعة 7 صباحاً لأوتوكار دييب، للذهاب إلى الثانوية، والصغيرة في الساعة الثامنة والنصف للذهاب إلى إعدادية سان - فاليري، ومن ثمّ كانت ترجع إلى البيت -النقّال. كان النهار يطول كثيراً عليها بانتظار عودة زوجها والصغيرين؛ كانت الأعمال المنزلية تنتهي بسرعة فتمضي باقي النهار في قراءة الكتب المستعارة من المكتبة، دون تمييز، كما تقول، من روايات وقصص بوليسية.

في ذلك الحيّز المخنوق كان على كلٍ منهم الانتباه إلى تصرفه في كل لحظة: فالحركة الزائدة الانفعال قليلاً، أو صرخة الاحتجاج، أو مجرّد التأفّف كان من نتائجها توتر موجع. والابن البكر الذي حرم من الأصحاب، والذي فُرضت عليه العزلة بسبب بعد بيتهم - النقّال، لم يعد يشتغل في الصف واحتمى خلف حاجز من الصمت المعادي، كما لو أراد أن يعكس على ذاته جميع آلام الأسرة. وداخل البيت النقّال كانت العلاقات متأزّمة أغلب الأحيان بين ابنها وزوجها: «(...) كانت جهنم... جهنم لأني كنت في خوف دائم أن تطيش من أحدهما كلمة... فتكون القاضية، يعني؛ (...) كان منغلقاً بالفعل على نفسه ولم نكن نستطيع أن نأخذ منه أية كلمة، كان عمره 16 عاماً، كنت أكلّمه، فيخفض رأسه، ولا يجيبنا». ظلت ماريز لفترة طويلة تنسب صعوبات ابنها إلى ظروف ولادته (وُلد من الزواج الأول لأمه لكن والده لم يجرّب أبداً أن يراه)؛ هي اليوم، توافق على أن مردّ اضطراب ابنها في حداثة عمره تزعزع الوضع العائلي وعدم استقراره، بالإضافة إلى اكتشافهم، في عام 1981، إصابة ربّ

الأسرة بالأورام الكيسية الكلوية، وهو مرض وراثي كان والده قد مات بسببه قبل سنوات قليلة.

عندما علمت ماريز بمرض زوجها، علمت أيضاً النهاية المنتظرة. ثم سرعان ما علمت، لأنها تحدثت بهذا الشأن مع الطبيب، أن زوجها لن يكون بإمكانه الاستمرار في عمله لفترة طويلة. فيجب التخلّي عن ذلك العمل، مورد رزقهم الوحيد، ذلك العمل الذي من أجله غادرا بلدتهما، عائلتهما، بيتهما. وهكذا راح التوازن الهش يتداعى. كان لزاماً عليهم الانطلاق مرّةً جديدة نحو المجهول، دون أي أمل بالرجوع إلى لونغوي التي كانت قد تفاقمت فيها مأساة الوضع الاقتصادي المتردّي وانتشار البطالة. لقد تكررت الظروف المأساوية بالنسبة لهما، واستمرا يرزحان تحت وطأة التشرّد و«الغربة». «فوق كل هذا كنا نشعر بأننا غرباء حيثما ذهبنا، وخصوصاً، في المخيّمات، لأننا في تلك المناطق نعتبر دائماً من.. الأجانب». في عام 83، جمعا كل ما تبقّى لديهما، الرأسمال الصغير الذي جاءهما من بيع بيت لونغوي، وخبرة ماريز في البيع لشراء متجر للصحف والقرطاسية في آنيير عثرا عليه بفضل إعلان صغير من بين إعلانات البيع العقارية في الصحف؛ حصلا حينها على أكثر من قرض لدفع 380.000 فرنك ثمن المتجر.

كانت قد بدأت تدرك منذ تلك اللحظة أنها في وضع معلّق مؤجَّل الانهيار، وبدأت تتنابها نوبات عنيفة من اليأس كتلك التي سيطرت عليها أثناء استقرارها في شقتها في آنيير: خلفية حانوت دون نافذة تقرّر أن تكون غرفة جلوس ومن فوقها ثلاث حجرات، متناهية الصغر، يكون الوصول إليها بسلّم لولبي. كان كل شيء يدل على الاهتراء، ومن بعض الجوانب، كانت الشقة أقل راحة من البيت-النقّال. كانت قد نقلت إليها قطع الموبيليا القليلة المتبقية من مفروشات لونغوي لكن الشقة كانت أصغر من استيعابها: «لم نستطع وضع الخزانة المرتبطة مع السرير، ولذلك وضعنا الخزانة في حجرة، والسرير في حجرة، باختصار حالة مزرية! مرعب، مرعب، مرعب. عندها في إحدى المرات، سوف أقول لك ماذا فعلت، في مرّة من المرات. كان

عندنا كنبة جميلة من المخمل... كانت طويلة إلى حد ما، ولذلك رفعها الحمّالون إلى الطابق الثاني وأدخلوها من النافذة لأنه لم يكن بالإمكان المرور بها من الأسفل. أما أنا، فكنت أريد بأي ثمن إنزالها إلى غرفة الجلوس، تحت، ففي إحدى المرّات جرفني الهياج لأنني لا أستطيع إنزالها وأنني لم أعد أريد إبقاءها فوق، فتناولت مطرقة وحطّمتها قطعاً صغيرة.»

لم تكن السنة الأولى زائدة الصعوبة، لأن الأعباء المالية الواجب دفعها لم تكن قد استُحقّت بعد، لكن بعد ذلك، ورغم الأرباح، كان اقتطاع أقساط الـ 10.000 فرنك شهرياً شديد الوطأة. وقد تملّكهما الحنين لمسقط الرأس: «لا أستطيع أن أقول لك من منّا كان الأول في الحديث عن هذا، لكن، على أي حال، بخصوص هذا الموضوع كانت عندنا الجرأة لنعبّر سوياً عن الرغبة في رجوعنا نحن الاثنين إلى هنا.»

في السنة التي سبقت موت زوجها، كانت ماريز تخطط معه لمشروع العودة. فتوجّها إلى س...، في قريتها التي وُلدت فيها، حيث والداها ما يزالان يعيشان، وذلك لاختيار بيت، الأخير في البلد، فيه عين ماء في نهاية الحديقة، وكانوا سيشترونه من بعد بيع الحانوت. كان الابن البكر قد تزوّج وكان قد حصل على عمل ثابت في دائرة المساحة في آنيير، أما البنت التي كانت طالبة فهي الوحيدة التي أظهرت بعض التحفّظ. وكان يمكن لماريز أن تجد وظيفة لها كبائعة، و، بوجودها قرب عائلتها، كانت الحياة ستصبح أخفّ قسوة، بل حتى المرض أيضاً. على أنه مات قبل تلك العودة فـ «باعت برخص التراب» المخزن كي ترجع إلى لونغوي في كانون الثاني 91.

في اليوم التالي من بعد حديثنا الأول، توجهت لأراها في موقع عملها، في (فويّوري)، وهو محل بمساحة متوسطة يقع على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة. لا غنى عن استخدام السيارة للوصول إلى هناك، على الطريق السريع ميتز-بروكسل أولاً، ثم الانعطاف على جسر فوق الطريق وفوق أراض بائرة مخصصة للصناعيين قبل الوصول إلى منطقة تجارية، هي في أساسها منطقة صناعات خفيفة تحولت إلى التجارة:

مكعّبات ضخمة من الأسمنت المسلّح متوضعة هنا وهناك، سوبر ماركت للأسعار الرخيصة، مكتبان للسيّارات، مستودع للمنتوجات المثلّجة. أما «الفويّوري، السوق الضخم للجميع» فيتقاسم أحد تلك المستطيلات الأسمنتية مع محل لبيع أدوات المطبخ: و بهو «للأحذية». يعرض المخزن على مساحة 1200 متر أخلاطاً من الأغراض المكدّسة دون تصنيف، من صحون، ومنافض سجائر، وأواني زهور، طواحين خضار، صور قديسين، أفلام مصرية من مجموعة «شمس مصر»، سناجب من القطيفة التركيبية. هنا لا وجود للدعاية الكاذبة، لا وجود للزخرفات، هنا العري الكامل. كانت ماريز وراء صندوق المحاسبة، وهي تلبس كنزتين بياقة طويلة لأن المكان شديد البرودة؛ إلى جانبها، مقعد دون مسند (تابوريه)، «لكنه غير عملي لإرجاع الفكّة للزبائن». ما يقرب من عشر بائعات يعملن، معظمهن يمضين الوقت بإلصاق الأسعار وبترتيب السلال الكبيرة المنبوشة دون توقف أو بمساعدة الزبائن في شراء قطعة ثياب. في بحر الأسبوع، في منتصف النهار، لا يكون عدد الزبائن كثيراً جداً، منهم من المتقاعدين القادمين لتمضية الوقت ومن الأطفال الذين يتفرّجون على أسعار الألعاب. وكان مكبرّ صوت لا يكفّ عن بث ألحان روك الخمسينات بالتناوب مع أحدث الأغاني الرائجة.

في ذلك العالم من البضائع الرخيصة، تحت أضواء النيون الباردة، كان يبدو على ماريز رضوخ من فقدت حتى كرامتها الشخصية، كما أنها اشتكت، دون جرأة زائدة، من حرمانها من حرّيتها بتضامن عائلتها الذي يخنقها قليلاً: «عند الظهر، عليّ أن أذهب عند الجميع لتناول الغداء؛ لأن من اللازم أن أتغدّى مرة مع حماتي، مرّة مع أخت زوجي، مرّة عند أخي... (...) هذا مرهق. أنا لا أحبّ الذهاب لتناول الطعام، لكن.... يجب أن آكل، أحياناً لا أكون جائعة، عال، لكن يحضّرون الطعام خصّيصاً من أجلي، فيجب أن آكل، فآكل؛ عدا عن أنني أحياناً قد أرغب في ألاّ أرى أحداً، أرغب رغبة قوية في أن أكون وحيدة تماماً، ثمّ أن آكل دون.. أي أن أسترخي!»

اليوم، وقد مضى عام على وفاة زوجها، وتشعر أنها جُرِّدت من كل شيء، امرأة بلا رجل، بلا هوية اجتماعية، غريبة في مسقط رأسها، بلا سكن خاص بها لتحتمي داخله، لتطبخ ما تريد، لتستقبل ابنتها الطالبة في نانسي. لم تعد تملك شيئاً ولم تعد تعلم من تكون، وهو شعور تتفاقم مرارته بسبب التعاطف الحاني لعائلتيها اللتين تسلبانها الهامش البسيط من الحرية والاستقلالية التي يمكنها تحقيقهما، وإن كانت لا تطالب بهما حقيقةً. «عندنا أختي التي كثيراً ما تأتي لتناول الطعام يوم الأحد، فيظلّون عندنا طيلة فترة العصر، نكون جميعاً موجودين، جالسين من حول الطاولة، بانتظار انقضاء يوم الأحد. ثم عندك أم زوجي، عندما تستطيع تأمين من يجلبها فتأتي لزيارة المقبرة، ثم تمرّ على والديّ، ومن ثمّ، نمضي كل فترة العصر سوياً. عندها، أنا شخصياً، من بعد ذهابهم أشعر بصداع (...) لقد سئمت من هذا».

عادت تقول من بعد أيام أمضتها عند ابنها، «هذه الحياة ليست حياتي». كانا مسرورين ومن جميعه... أنا أحبهما فعلاً. (...) لكن، أراهما يعيشان ومن جميعه فأقول لنفسي، انتهى الأمر بالنسبة لي...»؛ ابنتها، التي أصيبت هي أيضاً بالتكيّسات الكلوية والتي ظلت حتى تاريخه قريبة جداً من والدتها، التقت بشاب، «كانت دوماً متعلّقة بي، لكن هاهي، يعني سِنّة الحياة...».

في الأيام الحلوة، تأخذها أفكارها إلى البيت الصغير، بيت س. الذي كانت قد اختارته هي وزوجها والتي انتهى بها المطاف إلى شرائه بعد بيع الحانوت. هي «لا تسكن فيه لأنه لم يعد يضمّ سوى الحيطان»، هو بحاجة إلى «بعض الإصلاحات». لن يمكنها أن ترتب سوى القبو، فهذا سوف يكفيها ويفيض؛ لكنها بحاجة لمساعدة أخيها لمتابعة أعمال الترميم التي بدأت بالكاد، إنما «يوم الأحد، يشعران بالرضى، فيأتيان للتنزّه» دون أن يفكرّ أحد بأي انشغال. لعلّهم يشعرون هم جميعاً أيضاً بالحاجة إلى «اللمّة» حول الوالدين العجوزين فهم غير مستعجلين لرؤية ماريز تستقر في بيتها،

رغم أنه قريب جداً، على مسافة 700 متر من بيت الأهل... هي نفسها لم تعلم بعد ماذا ستفعل؛ هي في النهاية، لم يعد لديها أسرة «هي الوحيدة الآن التي تعيش وحيدة تماماً؛ بينما للآخرين هذا زوجة وهذه زوج».

◆ ◆ ◆

اضطررنا للقاءات عديدة قبل أن نتجاوز السرد البارد قليلاً في حديثنا الأول[1]، وهو حديث مستهلك كثيراً من كثرة ما قالته بعد رجوعها، حتى لم يكن ممكناً معرفة إن كانت تؤمن فعلاً بما تقول أم لا. شيئاً فشيئاً، بمساعدة الألفة، على امتداد تلك الدردشات، مع توجيهي أسئلة عنها شخصياً، والطلب إليها أن تصف لي بأدق ما يمكن كيف تمضي أيامها، الأماكن التي سكنت فيها، أو أن تقول رأيها ببعض الحوادث، أمكنها أخيراً أن تستعيد تلك السنوات العشر بشكل حميم.

وكنت أحياناً، لدى استماعي لماريز، أشعر بالصدمة للتشابه بين حياتها الفريدة الخاصة وبين القدر الجماعي لمنطقة بأكملها. كان يبدو لها دوماً أن حياتها قد انتهت فهي تذكّرني، في وضعها كأرملة خائبة الرجاء محاطة بالعطف الزائد، بأولئك المتقاعدين النشطين والمفعمين بالحنين الذين نراهم اليوم يتيهون على غير هدى في المناطق الصناعية في لونغوي أو في ما جاورها، مسترسلين مع أحلامهم التي تعود بهم إلى الأيام التي كانوا فيها النخبة العمالية.

فعندما كانت تكلمني عن نفسها، كانت تعرض أمامي، بعد انكسارها في موشور المشاغل النسائية، حياة العامل التي عاشها زوجها، وبشكل أعمّ، واقع عالم كان قيد التفكّك. وظهر لي أنّ من الواجب الإصغاء بطريقة

---

[1] هذا الحديث لم أورده هاهنا. فمعظم المعلومات التي أعطتني إياها ماريز كانت في مناقشات غير مرتبّة، أحياناً على الهاتف، غالباً غير محفوظة على آلة التسجيل. وهكذا فقد اضطررت لتركيب ذلك السرد المتسلسل زمانياً مع إيراد أهم الجمل التي تحمل دلالة خاصة.

مختلفة إلى أولئك الذين، مثلهم مثل ماريز، ليس عندهم، إذا ما أرادوا عرض حياة مخترقة بالتاريخ الجماعي، إلا الكلمات الخاصة، و«القصص الصغيرة»، قصص امرأة، وهي دائماً وأبداً قصص ينبذها {التاريخ}، حتى عندما تكتب النساء ذلك التاريخ. لقد استعرضتُ أمامي ذكرى حياتها، مراهقة ابنها الصعبة، البيت-النقّال، الخوف المقيم من البطالة، المرض، تلك الذكريات الكثيرة المشوّشة بالحكايات المتلاحقة، وهي بذلك قد أتاحت لي، أفضل من أي متحدث قد يكون أكثر «أهلية» وأكثر سلطة، كما قد يكون أكثر استعداداً لإلقاء حديث رسمي عن البؤس، أن أدرك مدى البؤس اليومي لأسر العمال في صناعة التعدين، ولمأساة النساء، الممثلات البسيطات للوسط الاجتماعي، اللواتي تتجمّع عندهن لا محال، في نهاية المطاف، عواقب جميع الأزمات.

أيلول 1992

بيير بورديو، غابرييلا بلزاك

توازن هشّ للغاية

كان أنطونيو وليندا دمورا قد غادرا البرتغال منذ ما يزيد على 20 عاماً، وجاءا إلى فرنسا بحثاً عن عمل. هو لاعب كرة قدم جيد، وقد حصل بدايةً على عقد لمدة ثلاثة أعوام في البناء وكان قد رحل، تاركاً زوجته وأولاده الثلاثة الذين كانوا ما يزالون صغار السن، بانتظار أن يصير في مقدوره أن يستقبلهم، في بحر عام من تاريخه، في شقة متناهية الصغر. «دون لحاف أو شراشف، أو موبيليا للنوم»، فقد اضطروا لشراء كل شيء، تدريجياً. وتعاون الاثنان على العمل، هو كمعلّم ميكانيك صيانة، وهي كمستخدمة في المدارس وفي بيوت وجهاء المدينة، فأمكنهما بالجهد المضني والحرمان المرير جمع مبلغ يكفي لبناء بيت صغير في حي هادئ، إلى جوار المساكن الصغيرة المعتدلة الإيجار (HLM)، في سان مارسلان. وكان شعورهما أنهما وُفّقا أخيراً في «العيش مثل باقي خلق الله».

بل كانا يعتقدان أنّهما حقّقا مركزاً لا يُنكر، بفضل تفانيهما واندفاعهما، عند وجهاء تلك المدينة الصغيرة، هو، من جهته، بعمله كمدرّب في نادي لكرة القدم، ممّا كان يتيح له التعرّف على الشخصيات المحلية في أكثر من مناسبة ويساعده على تأدية خدمات شتىّ لمجموع الأهالي (على وجه الخصوص بتكريس وقته وماله للنادي وباستضافة

الـزوّار)؛ وهـي بنخوتـها وتجاوبـها لأداء الخدمـات فـي جميـع الأوقـات: «حتى في أعياد نويل، كان الوجهاء يستدعونني. وكنت أذهب، ماذا، لـم أكن أتجـرّأ أن أقـول لا.» وبفضـل تبـادل المجـاملات اللطيفـة، والتمـازج العاطفي الذي يسهّله عمل الخدمة في البيوت، كانت تشعر إلى حدٍ ما كما لو أنها من أفراد العائلة.

من بعد هذا العمل الطويل المضني («14 ساعة عمل في النهار») ومن بعد التفاني دون حساب، مـن بعـد بنـاء بيتـهما الصغير ونجاحـهما في مساعدة أولادهما للتقدم في الدراسة، صار بإمكانـهما تـذوّق ثمـرة طريقهما الطويل من البرتغال إلى فرنسا. هي خصوصاً كانت مسرورة، لأنها عرفت اليتم في سن العاشرة، فاضطرت لترك المدرسـة بـاكراً كـي تهتم بشؤون أخواتـها الثلاث، قبل أن تصير عاملـة فـي ورشـة صياغـة للذهب. كانا يؤمنان «بأن من حقّهما الخلاص من حياة البؤس».

لكن العالم المسحور تهاوى بغتةً: فقد أصيبت بالشلل النصفي في عـام 1985، وهـي فـي السادسـة والأربعـين من عمرهـا؛ أمـا هـو فبُـترت أصـابع قدمـه بسبب جزّازة عشب في عـام 1990. منـذ ذلـك التـاريخ، تزعزع كل شـيء: لقـد صـارا دون عمـل، وتخلـى عنـهما الجميـع، ففقـدا ذلـك الشـعور الواهـم بأنـهما كانـا قـد «اندمجـا» بـالمجتمع الفرنسـي (الراقي). أما التوازن الاقتصادي الذي كانا قد حصلا عليه بجهودهما معاً، فانكشف أمامهما عن توازنٍ فـي منتهى الضعـف وسـرعة العطـب. لقد سُرّح من عمله، فاضطر للنزول إلـى «عمـل يـدوي، بتعويـض 24.06 فرنك للساعة». وهي من جانبـها اكتشـفت بأنـها لا تستطيع الاستفادة من مساعدة البطالة، وأن الضمان الاجتماعي لم يكن مسؤولاً عنها. فلم يعد بإمكانهما تسديد القـروض التـي حصـلا عليـها عنـد شـراء بيتـهما، وأصبحا في وضعٍ ماليٍ صعب، دون أية تغطية. أما ابنتهما البكـر التـي تحضّـر الـ DEUG فـي كليـة الحقـوق فـي بـاريس» فـاضطرت لقطـع دراستها.

من بعد مساعٍ عديدة للحصول على الاعتراف بحقوقهما، شعرا بأنهما «ملفوظان من الجميع». وباتا يشعران أنهما راحا ضحية الخداع: فأرباب العمل الذين عملا عندهم، في القطاعين العام والخاص، كان من واجبهم إعلامهما بحقيقة وضعهما القانوني («أما كان يمكنهم أن يقولوا له، أما كان يمكنهم أن يُعلموه، في المحافظة؟») أو، على أقل تقدير، تقديم النصيحة لهما. ويعبّران عن ذهولهما إذ اكتشفا فجأة أن الأشخاص الذين كانا ينظران إليهم على أنهم أصدقاء لا يفعلون شيئاً لمساعدتهما على الخروج من المصاعب التي وقعا فيها؛ ناهيك عن خيبة أملهما وهما يريان كيف أن «المجتمع الفرنسي» الذي رغبا دائماً في الانتماء إليه، لا يعرفهما، ولا يعترف بهما. («ما كنت أتوقّع هذا، لا. كنت أتوقّع بالفعل أنّ المجتمع الفرنسي، وخاصة المؤسّسات التي تدفع، تعترف بالضرورة بالإنسان الذي اشتغل طيلة حياته.» علماً بأنهما كانا يخططان لطلب التجنيس وأنهما كانا المثل الناصع على «الاندماج» الناجح، ولكنهما الآن يشعران بأنهما من «المعادين للفرنسيين».

لقد انبهرا بنجاحهما، رغم نسبيته، واستمتعا بشعورهما أنهما مقبولان كلياً، رغم قدومهما من البعيد، فغفلا بنتيجة ذلك عن هشاشة التوازن الذي كانا يتمسّكان به، بثمنٍ باهظ من اليقظة الدائمة، مثلهما في هذا مثل جميع الذين يستفيدون من فرصة الحصول على عمل ثابت، فينسون الخطر المهدّد باستمرار، خطر التهاوي والسقوط. وما أكثر تنوّع الحوادث التي يمكن أن تسبّب ذلك السقوط، من ضياع العمل، موت أحد الأقارب، الطلاق، المرض، وكلها حوادث تبدو، في ظاهرها، وكأنها طارئة؛ لكن، قبل أن نحكم بإفلاس تفسير هذا الأمر بالأسباب الاجتماعية، يجب أن نتبيّن كيف أن هذه الحوادث، بالإضافة إلى كونها أكثر ترجيحاً في بعض ظروف الحياة، ليست إلا الأسباب العرضية التي تكون بمنزلة دفعة الانزلاق التي تحرّك جميع المؤثرات الموجودة هي

أيضاً، في حالة الكمون، ضمن بعض الشروط الاقتصادية والاجتماعية. ولا تؤثّر «نقفة» السبّابة بكل تلك القوة إلاّ لأنها تصيب أناساً مثل السيد والسيدة دمورا، هذين المهاجرين النموذجيين، اللذين بالغا على الأغلب قليلاً حين اقتنعا بنجاح اندماجهما في الاقتصاد والمجتمع الفرنسيين، بالضمانات التي كانا يعتمدان عليها؛ ويزيد من مرارة شعورهما بالبؤس والاضطراب أنهما في لحظة التهاوي لا غير اكتشفا مدى افتقارهما إلى الضمانات القانونية وإلى العلاقات العائلية أو علاقات الصداقة التي توفّر لـ «الفرنسيين الأقحاح» (على الأقل، هذا اعتقادهما) آخر شبكات الوقاية.

مع أسرة برتغالية

حديث أجرته غابرييلا بلزاك وجان باران

«فعلت كل شيء كي أندمج في حياة الفرنسيين»

السيد دمورا: تعلمان، صعب جداً شرح تلك «التركيبات»، لوجود الكثير من أبواب الظلم ... وأن ...

❖ تماماً، تماماً... كيف كان وَقع هذا الظلم...

السيد دمورا: أنا، فكرتُ كثيراً بفرنسا، هذا أول شيء، وقبل خمس سنوات، ما كنت أريد أن أسمع أي سوءٍ بحق فرنسا، لأنها بلد التضامن، بلد يتعاطف فيه الجميع مع بؤس الآخرين؛ لكن منذ خمس سنوات، أصبح الأمر عندي، فعلاً، فعلاً، على العكس، وعندي أشياء كثيرة، كثيرة جداً أقولها.

❖ فماذا منذ خمس سنوات؟ ماذا حصل؟

السيد دمورا: الحكاية من أبسط ما يمكن قوله. فعندما يكسب الإنسان جيداً، ويصير جزءاً من مستوى ما، مستوى اجتماعي... حتى المتوسط، مقبول. لكن بمجرّد أن يصبح هذا الإنسان جزءاً من... فعلاً جماعة المؤخّرة، يُنظر إليه على أنه لا شيء.

❖ من ينظر إليه؟

السيد دمورا: الجميع. جميع الناس، تقريباً... عندما أقول جميع الناس، بالطبع فأنا أعني من هم مثلي...

السيدة دمورا: تنظر إليه هكذا المراكز الرسمية، خصوصاً جماعة المحافظة، فرأيتُ أننا لم نعد نستطيع الاتصال بأحد، وأن أحداً لا يعير انتباهاً لرجلٍ اهتمّ بـ...

السيد دمورا: اسمعا، سوف أكتفي بتلخيص حالي. فمنذ أن صرت في فرنسا، فعلت كل شيء كي أندمج في حياة الفرنسيين. لأنني، أولاً، كنت في بلدٍ غير بلدي؛ ثانياً، ما كنت أقدر أن أفرض لغتي وعاداتي، إذن كان عليّ أنا أن أندمج وأن أفعل العكس. طيب، اندمجت أحسن اندماج، وسرعان ما صرت في فريق المدينة لألعاب القوى. فشكّلنا، نحن البرتغاليون، فشكّلنا اتحاداً، وشكّلنا فرقة فنون شعبية، وشكّلنا نادي كرة القدم، وبنينا بمساعدة المحافظة بناءً للاتحاد، وكان هذا طبيعياً للغاية. وكنت جزءاً من هذا لوجودي المستمر في هذه المدينة، كنت مدرب كرة قدم لمدة ستة أو سبعة أعوام، وحتى إلى ما قبل سنتين كنت ما أزال عضواً في النادي [بعصبية كبيرة]. عال، عندما ساهمت، عندما أمكنني أن أقدّم، كانت الأبواب العريضة مفتوحة أمامي، وبمجرّد توقفي، لم يعد أمامي شيء: فقد انغلقت الأبواب. ولم يعد لأصدقائي وجود.

❖ عقب الحادث الذي وقع لك؟

السيد دمورا: هذا هو واقع كرة القدم، فيوم كنت أقدر أن أكون حاضراً وكنت أكسب جيداً في حياتي، وكنت أقدر أن أساهم وأن أعطي دون أن أطلب قرشاً واحداً، فلا مشاكل على الإطلاق، كل الأمور كانت «تكرج» على زلاجات. استقبلت هواة من تولوز–عندما كانوا يأتون، أستضيفهم في بيتي، فكنت جزءاً من المجتمع وأحد أعضائه – لكن في اليوم الذي عجزت فيه عن تلك المساهمة، لم أعد أحد أفراد ذلك المجتمع.

❖ نعم، فهمت، معك، نُبذتَ خارج اتحاد كرة القدم؟

السيد دمورا: نُبذتُ كلياً، حتى... 18 عاماً في خدمة النادي وأنا أقدّم، لأنني ساهمت بمال كثير، حتى المال، دفعتُ نقداً وأجور التنقّلات، والوقت الضائع، مع دفع إصلاحات النادي في نهاية كل موسم، دون أن يعطيني النادي

قرشاً واحداً. أنا الذي دفعت من جيبي، لأنه كان العالم المحيط بي؛ يا عيني، واليوم كي أدخل إلى الملعب، يجب أن أدفع. إذن، بإمكانكما رؤية مدى الظلم الكبير الواقع عليّ. 19 عاماً في خدمة النادي، دون أن أستفيد أبداً من أي شيء كان، وساهمت دائماً وأبداً؛ بصفة مدرب، أنا الذي قدّمتُ أكبر عدد من الألقاب، أنا الذي حقّقتُ أحسن إعداد هنا وأنا يعتبرونني نكرةً لا شأن لها على الإطلاق. كل واحد منهم جاءته ميدالية من المحافظة للخدمات المقدّمة. أما أنا، لم أحصل أبداً على شيء أي شيء كان، هه.

❖ نعم، ما فعلته لم يُعترف به.

السيد دمورا: أي نعم، لأنه، لو كان اسمي ديبون أو ديران، كنت حصلت على ميدالية. لكن اسمي دمورا.

❖ تظن أن الأمر يعود إلى هذا؟

السيد دمورا: نعم ونعم. أنا ما كنت لأصدّق هذا سابقاً... (...) لكن أصدق بالفعل الآن. الآن وقد أصبحت في الجانب الآخر من السور، فأنا...

[...]

لأن اسمي دمورا

السيد دمورا: ما هو حاصل في فرنسا، أن هناك مجتمعين، فهناك الخراف وهم الأغبى؛ ونحن من هذه الخراف. هذا هو الاختلاف الموجود. عدا عن وجود أشياء أخرى كثيرة على المستوى الاجتماعي لا يمشي حالها، لأن هناك من يعرف القانون جيداً، فهؤلاء يصلون إلى الأمور الإدارية الرسمية، سواء إلى الضمان الاجتماعي، سواءً إلى أي مكان يريدونه، فهم لهم حقوق؛ أما نحن، فيجب أن نقاتل إلى حتى النهاية. على أن البرتغاليين، بين البرتغاليين، نسبة عشرة بالمئة من الفضلات الواجب رميها، كما في جميع الأجناس (...) فهؤلاء ما باليد حيلة تجاههم. لكن النسبة الباقية، لها حقوق، وعليها واجبات، فإذا كنتُ أحترم واجباتي، لا أعلم لماذا لا أحصل على حقوقي. هل تفهمان؟

❖ **لم يعد أحد يعترف بك، هه؟**

السيد دمورا: لم يعد أحد يعترف بي. حتى أنني سوف أعطيك مثالاً حالتي والحادث الذي وقع معي. توقفت أيضاً عن العمل حتى 27 تشرين الثاني بسبب الحادث، وكان عليّ تسوية أموري مع التأمينات الاجتماعية لأن اسمي دمورا، فالطبيب المستشار قال، «اعتباراً من تاريخ 19 لا يحقّ لك أي تعويض» وأنا متوقف عن العمل بموافقة ممنوحة حتى 27 تشرين الثاني. لكن في اليوم 19 يجب أن أذهب إلى العمل. انتباه، سوف أشرح لكما.

السيدة دمورا: لا، إنما أنا لا أجد...

السيد دمورا: {مقاطعاً زوجته، بانفعال شديد} انتظري، انتظري، دعيني أتكلم. التأمينات الاجتماعية وافقت على منحي حذاءاً طبياً. كان عليّ أن أذهب للعمل هكذا، بحذاء قماشي، هل في رأيكما هذا طبيعي؟ التأمينات الاجتماعية تحظر دخول المصنع دون أحذية واقية ومنحتني حذاءاً طبياً وأرسلتني التأمينات الاجتماعية إلى العمل دون مراعاة هذا الأمر. فوصلت إلى العمل، ليقول المعلّم، «لا أقبل أن يعمل ما لم يلبس حذاء الوقاية»، طيب دبّرنا الموضوع مع طبيب العمل؛ وخابر طبيب العمل التأمينات الاجتماعية، الأخ الذي أجرى لي العملية خابر التأمينات الاجتماعية، فمنحوني حتى تاريخ 7 كانون الثاني، لكن من يمكنه أن يؤكد إمكانية أن أعود إلى العمل؟ في مثل الحالة التي أنا فيها؟ لكن، حيث أن طبيب العمل هو الذي كان يريد...

السيدة دمورا: لكن هذا...

السيد دمورا: [متابعاً، دون إعارتها أي انتباه] أنا مُجبر على الذهاب، ما باليد حيلة.

السيدة دمورا: {معتبرة أنه يبوح بأكثر مما يجب ورغبةً في إسكاته} لا حاجة لمعرفة هذه الأمور.

السيد دمورا: تفضّلا... بلى، وبلى، يجب معرفة هذا، لأنه هذا الأمر،

هذا الأمر (...) [مخاطباً زوجته] ماذا حصل لكِ، أنتِ؟ [مخاطباً إيّانا.] وهي لم تحصل على أيّ حق، لم تحصل على أيّ حق، كانت مشلولة، أما اليوم فلم تعد كذلك.

السيدة دمورا: ما زلت أعاني قليلاً. في الجهة اليمنى.

السيد دمورا: تعلمان لماذا لم تتكفّل التأمينات الاجتماعية بها؟ إذ أنها حينذاك لم تقبض...

السيدة دمورا: أنا أتألّم بشدّة.

السيد دمورا: التعويضات اليومية، ومع ذلك، فخلال عام، كان من الضروري مرور عام للحصول على الحقّ في التعويضات اليومية؛ فمن جرّدها من التعويضات اليومية؟ التأمينات الاجتماعية دون سواها. قالوا لنا إننا لم نقدم طلباً على الإطلاق، لكن، لكن معي الرسالة التي تثبت أننا قدمنا الطلب، وقد رُفض الطلب لعدم مرور عام.

السيدة دمورا: جاء لزيارتي صحفي مؤخراً للتحقيق، وبالمناسبة، فقد اشتكيت قليلاً من المجتمع الفرنسي، من الإدارة الفرنسية، لكن أنا لم أشتكِ من جيراني. فإذا أطلق عليّ شخص ما حكماً سلبياً... أظن، يعني، لن يحبّني، وهذا أسكت عنه؛ لكن عندما أصل إلى هيئة فرنسية حيث يلاحظون قليلاً لكنتنا الأجنبية، فنطلب شيئاً ما، لكن لا أحد يقدم إلينا المعلومات. فنتعذّب...

السيد دمورا: نحن أصلاً معلوماتنا ناقصة.

السيدة دمورا: تُقدّم لنا المعلومات الناقصة. لذلك، كما تعلمان، عندما لا يكتب واحدنا جيداً بالفرنسية، وعندما لا يكون عنده... يعني، لا يتدبّر أموره جيداً، وأنا، شخصياً، عنيدة نوعاً ما، فأنا، عندما يزعجني أحد...

السيد دمورا: وتوجد مشكلة اللغة، أنا، أنا أتكلّم الفرنسي.

السيدة دمورا: نعم، فأنا تذهب بي الأمور بعيداً، فليس هذا كل شيء، لأننا لا نعلم كل شيء والناس لا يقولون لنا الحقيقة، وهذا، هذا مزعج.

{تكلّم السيد والسيدة دمورا عن مصاعبهما مع اللغة الفرنسية: فهي لا تكتبها، لأنها لم تدرسها أبداً في المدرسة، بعكس زوجها، الذي يشتكي من أنه «تعلم اللهجة السيئة هناك».}

لفظوني في كل مكان

السيدة دمورا: فوجدت أني ملفوظة، لفظوني في كل مكان. لفظوني في التأمينات الاجتماعية، حيث كانْ لنا أحاديث متنوعة مع مدير المصلحة الذي خدعنا قليلاً مع بعض الكلمات المعسولة، فقال، «اسمعي، أنا، يعني...»، فقلت، «اسمع، هل أخذت بعين الاعتبار أنني بعد كل شيء اشتغلت في فرنسا 20 عاماً، ولم أعمل ثماني ساعات في اليوم؛ أنا كنت في كل مكان تقريباً، على هوى حاجة المعلّمين الذين كنت أعمل عندهم، لم أقل لهم أبداً لا، كنت أكسب، هذا أكيد، لكن أبداً لم أعرف كيف أقول لا، وعندما جاءني المرض...».

❖ متى جاء المرض؟

السيدة دمورا: منذ سبعة أعوام.

السيد دمورا: في عام 85.

السيدة دمورا: بدأت أبالغ، نعم، في عام 85. كنت في تلك الحالة، وكنت أظن أنّ لي تغطية نظراً لأنني كنت لدى ربّ عمل في المدينة. أنا كنت مستخدمة في... المدارس.... لمدة 13 عام. فبعد 13 عام من الشغل في المدارس، ظننت أن لي دون شك تغطية ولو قليلة؛ وتعلمان أنني حتى اليوم، كنت أقبض رواتبي أثناء مرضي، وكان هذا طبيعياً، ولكن... (...). يعني عفواً، على كل حال، أثناء مرضي الطويل، دفعوا لي نصف الأجر ومن بعدها ثلاثة أعوام لم أقبض فيها قرشاً، فلم أحصل... اشتغلت طيلة حياتي في فرنسا، منذ 20 عاماً.

❖ لكن، هكذا هي القوانين الاجتماعية، نظام الإدارة العامة، فهناك فعلياً ثلاثة أعوام للمرض الطويل الأجل، من بعدها لا تدفع أجور.

السيدة دمورا: نعم، ولكن في حالتي، كنت في وضعية البالغ المصاب بعاهة. كان عندي زوج، يعمل ويكسب... لكنه لم يكن يسدّ نفقاتنا. كان عليّ قروض، وكنت أقبض 113 فرنكاً في الشهر لمدة عامين...

السيد دمورا: 107.

السيدة دمورا: 107 فرنكاً شهرياً لمدة عامين، إذن لن تقولا لي أن المحافظة لا تدرك هذا، والشرطة أيضاً، والتأمينات أيضاً، فإذا كان عندهم أجانب يشتغلون في المدينة أيضاً، فكان من الواجب استدراك البطالة على أقل تقدير! فلماذا يستخدمون أناساً لهم حالات خاصة، برتغاليين أو جزائريين أو أسبان ولا يرون أن المرض يمكن أن يأتي، كما جاءني أنا وكما حلّ بغيري، لماذا لم يقولوا، «حسناً، نحن علينا رغم كل شيء استدراك البطالة إذا ما حلّت بهؤلاء الأشخاص»، كنت سأسرّ أكبر سرور لو كان للبطالة...

❖ نعم، ولكن الوظائف العامة لم تلحظ تعويض بطالة الـ...

السيد دمورا: ما لا أفهمه أنها، وهي مريضة، تُسرّح من عملها دون أن يمكنها...

السيدة دمورا: دون تعويض.

السيد دمورا: دون تعويض، لكي تبدأ... ودون أن تستطيع... دون النظر في أنها قد يمكنها القيام بعمل آخر في الوقت نفسه...

السيدة دمورا: أي نعم، عرضوا عليّ...

السيد دمورا: ... هي صرفت من العمل، هكذا، دون طلب أي شيء، حتى دون أن يعرف أحد أنها صُرفت!

السيدة دمورا: نعم، وأنا لم أكن قد أنهيت شهري.

❖ هذا هو نظام الوظائف العامة. فأنتِ تصرفين من العمل بسبب العجز، بعد مضي فترة محددة.

السيدة دمورا: التأمينات الاجتماعية لم تعترف بي.

السيد دمورا: سرّحوها بسبب طول فترة المرض... لأنها لو اشتغلت في مصنع، لكان لها الحق في...

السيدة دمورا: نعم، كنت سأعامل كعاطلة عن العمل.

[...]

❖ أنتِ عشتِ هكذا كم سنة؟

السيدة دمورا: 20 عاماً، منذ مجيئي إلى هنا، إذ عندما وصلت هنا، ما كان عندي لحاف، ولا شرشف، ولا قطعة موبيليا لأنام عليها، إنما بفصل السيد ×...، رئيس اتحاد كرة القدم، وصلت... مع أولادي الأربعة، وكان عنده في مستودع المؤونة بعض الأشياء، مفرش سرير، بعض الأغطية...

السيد دمورا: لهذا السبب لا أريد أن أذكر فرنسا بسوء لأن الناس ساعدوني على الفور، عندما وصلت.

السيدة دمورا: عندما وصلت هنا، بدأت أشتغل على الفور. دون أن أكون على علم، كنت أسجّل بيدي ما تكون ممسحة الأرضيات، لأتعلّم في اليوم الثاني ما تكون المكنسة-الفرشاة، إذ رحت أشتغل هنا وهناك عند أرباب العمل...، في فندق، عند الطبيب أ.، عند المحافظ، عند مدام س.، أصحاب المصانع، وحيث كانت الحياة شاقة، بوصولي وفي رقبتي أربعة أولاد، ولا شيء سوى بيت فارغ، يعني رغم قسوة الحياة في البرتغال، كان عليّ أن أدبّر رأسي. كان بالإمكان كسب المال. ومن ثمّ، بدأت فوراً بالعمل. بدأت بتجديد الأشياء التي نحن بحاجة إليها. الأسرّة بشكل رئيسي، لأننا لم نكن مرتاحين في سكننا؛ من بعد ذلك المفروشات بحيث أمّنت شيئاً فشيئاً حاجياتي يعني على التيسير، وهكذا فقد وصلنا، وتوهّمنا أننا سوف نظل في نفس... حتى رغم الشغل الكثير (...) [صمت، تنهيدة]. كنا نظنّ أن المرحلة الأصعب انقضت.

❖ نعم، ظننتما أن الشقاء انتهى...

السيدة دمورا: الآن، المرحلة الأصعب رجعت، لأنني، عندما حصل معي هذا، كان عليّ القرض.

❖ أه، كان عليكما التزامات بسبب البيت؟

السيد دمورا: ومازلنا.

السيدة دمورا: وما زلت. لمدة أربعة أعوام. لمدة أربعة أو خمسة أعوام. لكن هذا ليس بالكثير. فعندما وقع ذلك الحادث، يعني، لحسن الحظ كان عندنا تأمين صغير، يعني لولا شركة التأمين ما كنا نستطع... أن نعيش.

وقعت عليّ مظالم هائلة...

بعملي الدائم في خدمة الفرنسيين.

السيدة دمورا: أنا مبسوطة جداً لوجودي في فرنسا وأحب الفرنسيين حقاً. لكن وقعت عليّ مظالم هائلة. الكثير، هه، خصوصاً أنا! بعملي الدائم في خدمة الفرنسيين.

❖ نعم، بالعمل الذي قمت به كمستخدمة في...

السيدة دمورا: لأنني أستطيع أن أؤكد لكما في حال توجّب اليوم أن يقولوا، «كانت حاضرة في كل يوم اقتضت الحاجة حضورها» فسوف أحصل على أكثر من وثيقة. من الأشخاص... كان لي عجوز، وكانت والدتها مريضة، وهي عضو في نادي الروتاري وبعض الأمور، هه - فكانت تقول لي، «يا ليندا، أنا بحاجة لك لأن أمي لا تريد غيرك، إذن تعالي اليوم الفلاني أو اليوم العلاّني في الليل، فساعة رجوعنا أعيدك إلى بيتك». وتعلمان، غالباً ما كانت تدوّر هذه الأسطوانة، على أني كنت أقول، ليست القضية قضية مال، القضية أن هذه الإنسانة تحبني ثم أنا لا أريد أن أقول لا. كم من المرات، على مدى ثلاثة أعوام، أمها العاجزة في البيت... وأنا أعود، أعود في الرابعة صباحاً، عندما يرجعون، لأن اجتماعات الروتاري غالباً، تستمر إلى وقت متأخر، هه، في الليل. إذن، كانوا يوصلونني في الرابعة صباحاً. أنا غير نادمة على شيء؛ فأنا أدّيت خدمات حتى وإن أعطوني أجري، لأنها بالفعل دفعت لي، فهي ساعات كان يمكن أن تكون غالية الأجر ولكنني قبضت دائماً بسعر الساعة العادية. يعني، بالتالي، لم أفعل...

السيد دمورا: وأحياناً لم يدفعوا.

السيدة دمورا: كان هذا بالنسبة لآخرين غيرها وهذا عادي، لكن، على أي حال، لم أكن أتوقّع هذا، لا. لا، كنت أتوقّع رغم كل شيء أن المجتمع الفرنسي، خاصة المؤسسات التي تدفع، لا بدّ أن تعترف بإنسانة اشتغلت طيلة حياتها، أنا في الحقيقة... لو كنت أعلم أنني سوف أمرض وأن هذا سوف يحدث لي، إذن لكنت بحثت عن عمل في مصنع. كنت بحاجة للعمل حينها، فكان يمكن أن أبحث عن عمل في مصنع. ما كنت لأشتغل في مؤسسة لا توفرّ تأمين تعويض للعاملين فيها. وفوق هذا، لو كانوا لطيفين معي، إذن لنصحوني أن أتابع العمل قليلاً، لأن من الضروري تمضية 15 عاماً، على ما أعتقد، ليكون لي الحق في قبض، في قبض...

السيد دمورا: (باستنكار) ما كان بإمكانهم أن يقولوا لها، ما كان بإمكانهم إعلامها في المحافظة؟

السيدة دمورا: ما كان بإمكانهم أن يقولوا لي؟ آه، بلى، كان بإمكانهم! بلى، كان بإمكانهم!

❖ آه، نعم، نعم.

السيد دمورا: يوجد بالفعل مستوى اجتماعي، في هذه القصة.

السيدة دمورا: في هذه القصة، يوجد بالفعل إهمال، في...

السيد دمورا: لكنهم كانوا مستهترين كلياً بالقصة!

السيدة دمورا: مضى عليّ 13 عاماً من العمل في المحافظة، بالضبط 13 عاماً ونصف. 13 عاماً ونصف.

[...]

السيد دمورا: على كلٍ، هذا معقّد جداً، على الفرنسي معقّد، فكيف بالنسبة لنا، ونحن أجانب... ما رأيت شبيهاً لقصتها وإضبارتها، هذه إضبارة وزير...

❖ ما كان يجب عليهم، هو... القصة أنهم لم يشرحوا لكما هذا.

السيدة دمورا: هذا هو لومي لهم، ثم في داخلي، لم أكن أريد استخدام صفة «عنصريّ»، ولكن... في رأيي، مع ذلك، أنه كان هناك من لم يكن يريد وجود أجانب في الخدمة. وهذا، يظل في رأسي، حتى عندما لا أقوله، فأنا أفكر به مع ذلك. أفكر بالفعل لأنني في يوم، كنت أتكلم مع مستشار في البلدية، هنا، على هذه الطاولة، وهذا الإنسان، كنت أظنه صديقاً لنا، ثم هو قال لي، «على أي حال، أتمنى ألاّ يُعرض عمل... عمل واحد في الإدارة على أجنبي»، فقلت له، «اسمع...»

السيد دمورا: مثله مثل الأخ الثاني الذي لم يكن يريد أن نأخذ تعويضات عائلية.

السيدة دمورا: نعم، بالضبط. عندها قلت، «فكيف هذا؟».

السيد دمورا: ما كان يعلم لماذا يقبض الأجانب تعويضات عائلية.

السيدة دمورا: عندما طلبوا مني القيام بذلك العمل، لم أقدم حتى أي طلب إلى المحافظة، لأنهم حينها كانوا يعرفون بأنني أسارع من مكان لآخر، وكان هذا في السنة التي ارتفعت فيها الحرارة كثيراً، في عام 76...؟ في عام 76... فكانت المستخدمات مريضات جميعاً: لأنهن لم يكن باستطاعتهن تحمّل الحرارة، ثم هناك اثنتان أجريت لهما عملية المرارة... فجاءني هاتف، لأنني كنت أريد الذهاب للعمل، خابرتني مستخدمة في المدارس كنت أعرفها. فقلت، «نعم، سوف أبدأ فأشتغل بضع ساعات لمساعدتك في...»، ثم، من بعد ذلك، أبقتني المحافظة في العمل. إذن، حتى لم أقدم طلباً، هه، هل تلاحظان، لم يكن ينقصني عمل حينها. لا، لا، العمل كان ينزل دائماً عليّ مثل التراب وكان عندي منه فائضٌ عن استطاعتي. ثم من بعدها، أبقوني عندهم. وفيما بعد... قال لي مستشار في إحدى المرّات، «لا، أتمنى إعطاء هذا العمل للفرنسيين»، لا... فهذا ظلّ في رأسي، وأخونا، أقدر أن أقول لكما من يكون، لكن...

السيد دمورا: لا، لا، لا تقولي.

السيدة دمورا: وأنا قلت، «فكيف هذا؟»، على أي حال فقد تجادلت

قليلاً معه، وقلت «إيه! هات نوّرنا، فنحن ندفع الضرائب مثل جميع الآخرين، ونساهم في جميع النفقات»، علماً أنني، من جانبي، لم أحصل أبداً على معونة، حتى الآن، وحول هذا النقطة، لم أحصل أبداً على معونة، مع أنني كان يجب أن أحصل عليها. نقطة، من أول السطر، لأنني لم أعد أستطيع تدبّر الأمور. على أنني أتكلم عن تلك الفترة، فقلت له، «اسمع، أنا أشتغل مثلي مثل الآخرين، وقد عرضوا عليّ هذا العمل، طيب، فوجدت أنه، يعني الأولاد بدأوا يكبرون، كان بإمكانهم أن يعيشوا دون أن أعمل في التنظيف، هنا وهناك، كان هذا أكثر ثباتاً ومن جميعه»...

السيد دمورا: غلط، غلط، غلط خطير.

السيدة دمورا: وثمّ، قبلتُ، «آه لا، لا، أقول لك بصراحة، هذه الأعمال لا يجب إعطاؤها للأجانب، أتمنى أن تُعطى للفرنسيين». كان في المحافظة أجانب، لكنهم مجنّسون كفرنسيين. (...) وقدمت طلباً كي أتجنّس، ثم، من بعدها، لم أكن أعلم ماذا نقص على مستوى... على مستوى النتائج فأهملت الموضوع، ثم لم يكن يخطر لي أنني سوف أمرض، علاوة على أنني لم أكن أعرف هذه الحقوق، لأنني لو علمت، لكنت جعلت طلب الجنسية ينطلق من جديد. (...) مدام دو لـ. كنتُ أظنها إنسانة جيدة، أمام اليوم فأنا قليلاً عندي... أشك فيها قليلاً، (...) فلو قالت لي، يوماً مدام دمورا، تعالي لمراجعتي لأنني أحتاج إلى رؤيتك بخصوص عملك عندنا، تعلمين أنك مريضة منذ عامين، فبعد انقضاء ثلاثة أعوام نحن مجبرون، إما أن نعرض عليك عملاً بنصف دوام، وإما...»، لا أحد تحرّك! لو علمت لكنت... في جميع الأحوال ذهبت وقلت، «يا مدام دو لـ.. لا بدّ أنك سوف تكلّمين المجلس أو حضرة المحافظ إن كان هناك ما أُندب لعمله بنصف دوام»، لو علمت أن الأمور سوف تجري هكذا، لكنتُ قلتُ شيئاً ما.

السيد دمورا: بقيتْ، وُسرّحتْ. وفي المجلس البلدي، كانوا على علم أنها في مدى شهرين أو ثلاثة شهور سوف تُسرّحَ.

السيدة دمورا: نعم، في شهر أيار من هذه السنة.

السيد دمورا: إذن، تلاحظان تماماً كيف تجري الأمور. [رافعاً صوته.] كان يجب عمل شيء! كان يجب عمل شيء!

عليهم أن يعلمونا هل يريدون منا الاندماج
أو يريدون منا الكذب، والتهريب...

السيدة دمورا: يعني، زوجي، بدأ يفقد قسماً ضخماً من راتبه، إذ، في الشهرين التاليين لمرضه. دفع المصنع راتبه إنما دون مكافآت، لكن بعد نهاية الشهر الثالث، صار يقبض 4000 فرنك وأنا، أنا لم أكن أقبض شيئاً، 107 فرنكات. إذن لم نستطع مواجهة أعباء الحياة، وعندها جاءتني فاتورة ماء بقيمة 1100 فرنك. عندها، أنا، عفواً، كنت في غضب كبير، فكتبت رسالة، أخذتها إلى سيادة المحافظ، وقلت، «للمرّة الأولى، أطلب المعونة، فلا أقدر على مواجهة مصاريفي من بعد المرض، فمن جهة إهمال المحافظة، وثانياً زوجي الذي وقع معه مؤخراً حادث- وكل الناس كانوا يعرفون هذا- فأنا لا أستطيع أن أدفع... لذلك أطلب من مكتب العون الاجتماعي أن يسدّد هذه الفاتورة عني بشكلٍ استثنائيّ». من بعد شهر، أرسل الجابي لي إنذاراً. فخابرت يوم جمعة أطلب المحافظة، وقلت، «أريد أن أكلم سيادة المحافظ»، فقالوا لي، «لا يمكن، هو غير موجود»، فقلت، «يا مدام، من الشخص المسؤول عن مكتب العون الاجتماعي؟»، «آه، أنا بنفسي، مدام أ.»، فقلت، «يا مدام أ.، أنا مدام دمورا، قدمتُ إليكم رسالة منذ شهر ونصف أو أكثر، وذلك لطلب...»، فقالت لي، «آه،لكن طلبك مرفوض!»، «كيف؟ فلا أستحق حتى مجرّد الجواب، فما تكون هذه المحافظة؟ الجواب لا، تعلمون هذا، ولم تتكرّموا حتى بالردّ» قالت، «حسناً، اسمعي، إذن تعالي لرؤية السيد ×.»، أي الشخص المسؤول في المكتب الفني، هناك، أو ما لا أعلم، فقلت، «أنا لا شغل لي عند السيد×. شغلي هو عند المحافظ، أريد أن أراه»، فرجعت إلى المحافظة دون أن أخبر زوجي بشيء، وقلت، «يا سيادة المحافظ، نحن قصدناك»، فقال، «مدام أ. حكت لي، فاتورتك سوف ندفعها عنك»، سيادة المحافظ، أنا عاتبة عليه قليلاً في هذه القصة، لأن زوجي خدم دون كلل في

ملعب كرة القدم جميع الآحاد وفي جميع الأيام؛ فهذا [بلهجة استعطاف] هذا كل شيء. وفي قصّتنا، حتى لم يتنازل بمكالمة هاتفية من بعد حادث زوجي؛ علماً كان هناك... شرطة البلدية، وبعض الذين كانوا معه في كرة القدم، وجميعهم، عندما سمعوا صوت سيارة الإسعاف، كانوا على علم أنه هو المصاب، فجاءوا هنا، كانوا أصدقاء، فحضروا هنا. وهناك آخرون غيرهم، من المجلس البلدي، يعني علموا بالحادث في 20 أيار عندما قدّمتُ طلبي، عندما تحدّثتُ عن حالتي وتخلّفي عن الدفع، وفي اليوم التالي، كان يوم سبت، جميع مستشاري البلدية، تلفنوا لنا، قالوا لنا، «هذا مرعب فعلاً، علمنا منذ قليل ما حلّ بكما، نحن لم نكن على اطلاع، ولذلك، يعني... إذا كنت بحاجة لشيء، اطلبيه».

{مناقشة حول المجلس البلدي.}

السيدة دمورا: ومنذ ثلاثة أعوام، وأنا مريضة، تلفن المحافظ وقال لي، «يا مدام دمورا، عفواً، الموضوع محرج جداً، لكن هذا وقت عيد المناولة هنا» كان في أيار، و، «نحن محرجون جداً، فالفرنسيون الذين قبلوا باستقبال الوافدين... يعني، هناك عدد كبير ولا أعلم أين أوفرّ لهم المبيت»، فقلت، «يا سيادة المحافظ، ماذا تريدني أن أفعل، يمكنني كالعادة إطعام شخصين، وبشأن المبيت أستطيع استقبال العازبين»، فقال، «عظيم، هذا لطف منكِ». ما كنت أريد نشر هذه الأشياء من فوق الطاولة، لكن أعتقد أني في يومٍ سوف أقول له، لأنهم حتى هذا اليوم، عندما يحتاج إلى شيء، فهم يعلمون أن الناس الذين يتجاوبون هم دائماً حاضرون. أما عندما يتعلق الأمر بإعلامٍ بسيطٍ للمجلس والقيام بأقل الواجب كي لا تصبح حياتنا في خطر... ثم كما تعلمان فأنا حتى الآن غير محجوز على بيتي، سوف أقول لكما لماذا لم يُحجز البيت بعد، فهذا لأن أولادي تربّوا بالروح... البرتغالية، وهم أعطوني المال، لأن بيتنا لم تُدفع أقساطه لبعض الوقت، وهناك قرض السيارة، لكن هذا، هذا القرض انتهى.

[...]

السيدة دمورا: أنا لا أوجّه كلامي إلى الناس، ليس الناس من أشعر أنهم عنصريّون، بل الإدارة الفرنسية.

السيد دمورا: تعلمان، في بعض الأوقات أقول لنفسي، لماذا الاندماج بالمجتمع الفرنسي؟ فالحقّ معهم؛ أنا، كان الأفضل لي لو عشت بالمعونة الاجتماعية هنا، فأوفرّ منها وأرسل إلى البرتغال. الحصول على المعونة الاجتماعية هنا، وتجميع ثروة في الطرف الثاني، أليس أفضل؟ نعم، فهذا باب من أبواب البلاهة! عليهم أن يُعلمونا هل يريدون منا الاندماج أو يريدون منا الكذب، والتهريب، والتلاعب من وراء ظهر القانون، لا، نحن لنا حق، لنا حقوق والتزامات. طيب، نحن أدّينا التزاماتنا، فليعطونا حقوقنا. هذا ما يجعلني أنفعل وأثور. (...) فعندما كنت من العائلة، كان كل شيء على ما يرام، أما في اللحظة التي «يطبس» فيها الواحد في «الكع كع»، لا يرى أحداً بجانبه. حتى وإن كان له حقوق.

كانون الأول 1990

بيير بورديو

معلّقة بخيط

ترجع ببداية مآسيها إلى تاريخ شراء بيتها، «ذلك الجنون»: 12 مليون بالإضافة إلى أجور الكاتب بالعدل لإنجاز نقل الملكية وكانت تظن تلك الأجور من ضمن ثمن البيت. تحاول إيجاد الأعذار لنفسها، على امتداد الحديث الذي دار بيننا. كانت غير مرتاحة في الكتلة الأسمنتية التي كانت تسكنها، وكانت راغبة بأن يكون عندها حديقة. عندما كانت شغّالة في شركة للتنظيف الصناعي (أحد القطاعات التي لا يمكن فيها الاطمئنان إلى احترام حقوق العمل)، كانت قد سعت إلى شراء بيت، كان سيكلّفها أقلّ، لكنهم رفضوا طلبها، بحجج مختلفة.

وتلاعب بها القدر: فمن بعد ذلك الشراء، جرى «تسريحها اقتصادياً»، كنتيجة غير مباشرة لـ «إعادة هيكلة صناعة الحديد»، وظلّت سنة بأكملها، على عاتق والدتها. التحقت حينها بـ «كوم من الدورات»، من بعدها وُفّقت بعمل في اللوكسمبورغ لكن، لعدم توفّر وسيلة النقل (فأولئك الذين كانوا ينقلونها في سيارتهم سُرّحوا من العمل)، اضطرت للتخلّي عن تلك الوظيفة.

كان عمرها يقارب 35 عاماً. في ذلك اليوم، كانت خارجة من دورة أطلقوا عليها اسم «أمّيّة» - هي أيضاً إجراءً مؤقتاً، أو بالأحرى، مهلة - وعقدوها في المكاتب الكبيرة لشركة «إيزينور» التي تحولت إلى «دار

للإعلام». تتكلّم بعنف يظل تحت السيطرة، موقّعةً أقوالها بحركات صغيرة وعنيفة من رأسها تعقبها فترات صمت، بلهجة مباشرة وشديدة الخصوصية هي لهجة مرافعة أكثر منها لهجة مكاشفة. موقفها بأكمله، نظرتها، يعبرّان عن رغبتها العارمة في أن تُعار أذناً صاغية هذه المرّة، أن يتم الاستماع لما تقول، كما يعبّران عن سرورها بإيجاد من تتكلّم معه، من تشرح حججها أمامه، أو، على الأفضل، أن تشعر أن الآخرين أعذروها، قبلوها؛ ومقابل هذا، تغمرها مودة شديدة، حتى أنها، شيئاً فشيئاً، هي التي تولّت توجيه دفّة الحديث، مطلقةً أسئلة أو اقتراحات مستوحاة خصوصاً من أملها في الحصول على تشجيعات أو مواساة.

وتستعرض اللائحة الطويلة للأقساط المستحقة عليها شهرياً، للسيارة، للبيت، لكاتب العدل، للهاتف، وتتضاف إليها جميع النفقات الجارية، رغم تقليص مصروفها إلى الحد الأدنى، حتى بالنسبة لابنها، وضريبة السكن، وضريبة التلفزيون، أي ما يقرب من 3000 فرنك كل شهر؛ وتعبرّ عن سخطها حيال الاضطهاد الحقيقي الذي تلاقيه من موظفي البنك، إذ يتصلون هاتفياً بمنزلها، أو حتى ببيوت معارفها، مهدّدين بإجبارها على بيع بيتها، لعجزهم عن أن يدركوا أنها تودّ من كل قلبها أن تدفع، لو كانت قادرة على ذلك: «أنا إنسانة شريفة، أريد فعلاً أن أدفع، هاتوا لي المال وأنا أدفعه لكم على الفور، لكن إذا لم أقدر، فهذا يعني فعلاً أنني لا أقدر. هذه كل الحكاية، لا أقدر أن أتصرّف بشكل مختلف» (فهذا أيضاً ما قاله، تقريباً كلمة بكلمة، مهاجر جزائري عاطل عن العمل).

وأقسى ما يعانيه من يعيش في تلك الظروف هو دون شك الكراهية، التي تحمل بعض الاحتقار، كراهية ومعاداة العائلة، وما ينتج عن هذا من عزلة. فباستثناء صاحبة لها، هي أيضاً بلا عمل، وباستثناء أمها، وهي عاملة قديمة، تركها زوجها فاضطرت بمفردها لتربية بناتها الأربع، الجميع، في محيطها، بدلاً من مساعدتها، يكيلون لها اللوم على وضعها: حَمْوهَا، العامل اليدوي المدمن على الكحول، والمكرَه هو نفسه على البطالة، حماتها،

التي تمنعها من استعمال الهاتف أو تتأخر في تبليغها معلومات بخصوص وظيفة ممكنة، وخصوصاً أختها البكر، الغيورة من المساعدة التي تقدمها أمها، فهؤلاء مجتمعين يتفنّنون في تذكيرها بوضعها، بإسماعها أنها هي وزوجها ليسا في بطالة إلاّ لأنهما من الخاملين وأنهما لا يفعلان شيئاً في سبيل الحصول على شغل، متجاهلين تلك الجهود والتضحيات الخارقة التي يقدمانها بغية إيجاد العمل، والعقبات الخارقة هي أيضاً التي تقف في طريقهما.

هذه العزلة المخيفة، المفروضة في جانب، والمرغوبة في جانب، بنوع من أنواع عزّة اليأس، تجد تعبيراً لها في غياب أي ملجأ يقصدانه لمواجهة التهديد المرهوب كل الرهبة، تهديد انقضاء الأجل الأقصى للدفع. وعندما هيمن علينا التعاطف مع هذا الشقاء العميق، وأصبحنا تحت وطأة الرغبة في تقديم التشجيع أو المواساة، استعرضنا على التوالي أبواب الدعم التي قد يمكنها أن تلجأ إليها في عائلتها، عند أخواتها أو أزواجهن، عند والدَيْ أو أخوة زوجها، شاهدنا، في كل اقتراح، انصباب صنوفٍ جديدة من البؤس. فأختها الصغرى، ألطف في تعاملها معها من الأخت الكبرى، لكنها معاقة، والشاب، العامل اليدوي، الذي تزوجته منذ فترةٍ وجيزة هو الآخر عاطل عن العمل. فلا يمكنها إلا الانطواء على نفسها، على زوجها، الذي تدافع عنه بحنان كبير في وجه اتهامات الأسرة، وعلى ابنها، الذي تساعده جهدَها في التغلّب على الصعوبات الدراسية، المرتبطة بمشاكل نفسية خطيرة.

لقد أطبقتْ عليها حلقة البؤس المفرغة، فهي لا تستطيع شراء دراجة بمحرك خفيف أو سيارة لتتمكن من الاستجابة لعروض العمل المطروحة في نهاية الدورة (كما أنها ليس معها شهادة سواقة ولا تستطيع أن تحصل على مثل هذه الشهادة لعدم إمكانية دفع كلفة التدريب). كانت، مع زوجها، عرضة للتكرّر المثبّط للوعود ومن بعدها الرفض، لقسوة أرباب عمل مجردين من كل رادعٍ أخلاقي يستغلّون سوء وضعهما لتقديم رواتب بائسة مع التلويح الكاذب بأملٍ التوظيف الثابت نهائياً، وهذا ما دفعها لتجرّب عبثاً إيجاد سند في

مكاتب المعونة الاجتماعية التي أرهقتها بطلب ثبوتيات لا تنتهي («لكن غير ممكن أن يطلبوا كل هذا!») وأجبرتها على إعادة المساعي إلى ما لا نهاية للحصول على معونة الجدّ الأدنى للإدماج RMI، التي تعلّقت بها جميع آمالها.

ونفهم كيف تعرض على التناوب، تقريباً في الجملة نفسها، الثورة المقهورة على ظلم دون اسم ودون وجه، واليأس الذي يدفع إلى ترك كل شيء. «هذه ليست حياة، على هذه الصورة؛ أحياناً تراودني الرغبة في التخلّي، وحتى أحياناً، عندما تعترضني مشكلة أوراق رسمية، تراودني الرغبة في ترك كل هذه القصة تنام في الأدراج، من شدة شعوري بالقرف.»

وأما إحساسها بأنها تُقابَل كيفما تحركتُ بسوء النيّة والأذى («كان المجتمع شريراً معي حتى أصبحت ناقمة على جميع الناس») فقد يكون ذا صلةٍ بذلك النوع من الكابوس الذي غالباً ما يسيطر عليها، الاستذكار اليائس لقصة بدأت بهجرة وموت الأب، مع مضايقات الأخت الكبرى، وهذا ما يبدو أنه يتكرر دون انقطاع: «هناك أيضاً القليل من... هناك أبي، فقد مات، إيه، يعني افتقدته كثيراً، ثم، يعني، لقد تركنا أيضاً في البؤس، وكل هذا... فهذا، عندما أقع في مشاكل، هنا أرى كل هذا كمن يقرأ في كتاب.»

وتقول وتعيد أكثر من مرّة إنها تشعر بأنها على حافة هاوية، معلّقة كما لو بخيط باستمرار أمها على قيد الحياة، لارتباطها الكامل بها في كل شيء: «عندما رأيت أن أمي جاءتها النوبة، هنا، قلت (وصلنا، أنا انتهى كل شيء بالنسبة لي، أنا سوف أصير في الشارع، لن يعود لي بيت، سوف أصير، لن يهتمّ أحد بي.)» كم من الوقت يجب عليها، ويمكنها، التماسك هكذا بين الحياة والموت الاجتماعي، بين بيت أمها الذي تشعر أنه يُؤويها، وبين بيتها الذي لم يُستكمل، وهو الآن دون كهرباء، بانتظار تدخّل المساعِدة الاجتماعية التي قد تنظر في تقديم «إضبارتها بصفة الاستعجال» للحصول على الـ RMI، أو التوظيف، الدائم أخيراً، لزوجها؟

مع عاطلة عن العمل

حديث أجراه بيير بورديو

«كل الأحوال واقفة...»

❖ بقيتِ لفترة طويلة جداً، جداً، دون أي مورد...

ليديا د.: نعم. عام، عام تقريباً وبحبوحة، نعم، لم أكن أحصل إلا على 200 فرنك في البداية كي أعيش، هذا كل شيء. لم يكن عندي أي مورد. لا هو، زوجي، ولا أنا.

❖ كانت أمكِ هي التي تؤمن لكما الطعام؟

ليديا د.: نعم، نعم، كانت تؤمن لنا الطعام، ومن جميعه... نعم.

❖ وهذا معناه لم يكن لكما طلعات، ولا شيء، ولا...

ليديا د.: آه لا، كنا نلازم البيت. هذا كل شيء، وهذا ما كان غير ملحوظ.

❖ طبعاً، وبالنسبة للثياب، وكل هذا...

ليديا د.: الثياب، أنا عندي ثياب كنت قد اشتريتها سابقاً، في الماضي عندما كان معنا مال؛ اشتريت لابني فيما بعد؛ وعندما تكون هناك مشاكل، فأمي، أحياناً، كانت تشتري للصغير، يعني. من غير هذا، ما كان بإمكاني أن أشتري، هذا ليس...

❖ وهذا، هذا وقع فجأة على رأسك. ففي العمق، كانت الأمور تمشي جيداً، وكنتِ مسرورة، كان عندكِ صغير، وكان عندكِ بيت...

ليديا د.: حينما اشتريت البيت، لم تعد الأمور تمشي، في كل شيء.

❖ كان عليك دفع أقساط كبيرة؟

ليديا د.: آوه نعم، يا لطيف! عندي قسط السيارة الذي لم ينته بعد وعندي قسط «ماذا يسمونه»؟... للبيت، وماذا يسمونه؟... الكاتب بالعدل، وعندي الهاتف، يعني، عندي استحقاقات 100،000 فرنك، ولم أكن أستطيع الدفع، فبدأ الدَّيْن يتراكم فأصبحت تحت، حيث تأخرت بسبب البطالة، أصبحت تحت مليون و «بحبوحة»، وقد صفّيت أيضاً قسماً لأنني كان عليّ ضريبة السكن، وضريبة التلفزيون، فدفعت كل المتأخرات السابقة، ففي هذا، هنا، كنت نظامية، كنت أدفع عند كل استحقاق، ثمّ ترتّب عليّ أيضاً، لم أعد أعلم ماذا... آه، نعم، قرض مستحق عليّ لأحد البنوك، وأمور أخرى من هذا القبيل، لم أعد أتذكر جيداً، أعلم أنها مبالغ لا يستهان بها، أن هناك مبلغاً لا يُستهان به من الديون، نعم.. لا يُستهان به.

❖ كم يستحق عليك كل شهر؟

ليديا د.: 3000، 3000 فرنك وبحبوحة، كل شهر، ويجب أن يكون هذا...

❖ ومتى يتوقف كل هذا وينتهي؟

ليديا د.: بعض القروض عليّ تنتهي في مدى عام، بعضها في عامين، وعندي لمدة ثلاثة أعوام، ولمدة 60 شهراً. القروض متنوعة، ليست نفسها. لو معي مال، كنت صفّيت بعضها مثل الهاتف، 1000 فرنك، كان يمكن تصفيته بوجود المال، لكن غير ممكن... غير ممكن... لأنني طلبت قرضاً لسداد الديون الفائضة، وبشكل طبيعي، فقرض الديون الفائضة، يعملون له سلّماً على أساس ما لدينا، لكنهم وضعوا سلّماً مرتفعاً أكثر بكثير مما أستطيع دفعه، فقلت لهم... قالوا، «إما هكذا أو نبيع لك بيتك. اختاري»- فأنا لم أعد أعرف ماذا أفعل، أنا قلت، «طيب، يعني»...- لم أكن أريد أن أقول لأنه

كان يعمل في بانيفرانس [شركة صناعية لصنع المعجنات والحلويات] وعادة فكان هناك احتمال (قال يعني، حسب قولهم، لكن عندك أرباب عمل أنجاس) احتمال أو إمكانية توظيف دائم؛ عندها، كان قد التزم بعقد لمدة شهر، كان العقد لشهر لا غير، ثم من بعدها إمكانية التوظيف؛ عندها، لم أكن أريد الكلام عن هذا، نظراً لأنه بالكاد، بدأ العمل منذ أسبوع، لهذا قلت، «طيب سوف نتحدث في هذا، نظراً لأنهم يريدون بيع البيت، طيب، قل لهم أنك وجدت عملاً»؛ لكن كان هذا كي نتدبّر أمورنا، لأن من البنوك المقرضة من كان يتصل بنا هاتفياً، «متى تدفعون إذن؟»، كانوا يقولون لنا هذا، كما لو أننا لم نكن نريد أن ندفع! فقلت، «أنا إنسانة شريفة، أريد فعلاً أن أدفع، هاتوا لي المال وأنا أدفعه لكم على الفور، لكن إذا لم أقدر، فهذا يعني فعلاً أنني لا أقدر، هذه كل الحكاية، وما بيدي أن أتصرف إلا هكذا»، والشخص المكلف نغّص علينا حياتنا، ومن جميعه؛ بل لقد اتصل بأناس حتى ما كانوا يعرفوننا، ولا أعرف من أين علموا باسمنا، لأننا، نحن، لم نكن نعرفهم، فقالوا، «قولوا لها أن تتصل»، من بعدها، عندما عاد زوجي، بعد دقيقتين، وكان قد اشتغل هناك، في بانيفرانس، اتصل بنا الشخص المكلّف ثانيةً كما لو كان يعلم أن زوجي عاد مباشرة وعلى الفور كي ينكدّ علينا، وكان هناك دائماً إضبارة، ولم يكن أبداً الشخص نفسه المسؤول عن القرض من يهتمّ بأمرنا، بل كان دائماً غير السابق، وسيط ومن جميعه، ونحن كنا نجد أسماء غريبة، وما كانوا يقولون من طرف من، يعني كان لدينا أسماء ورقم هاتف ولم نكن نعلم من أين جاء هؤلاء، «أشياء» من هذا النوع، وكان من غير المقبول رؤية مثل هذه الأشياء. كان ذلك من أنواع الخبث!

❖ نعم، هو باب من أبواب التعذيب والاضطهاد...

ولماذا لا تعملون؟

ليديا د.: نعم. أنا، لو حتى استطعت القيام برذالات، ما كنت لأتأخرّ، لأن المجتمع هو وحده الذي كان سيئاً معي، أساءوا إليّ حتى صرت ناقمة على الجميع، صرت ناقمة أكثر مما... حتى بشأن العمل، عندما كانوا كلهم

يكلموني عن العمل، لأن حَمْوي، كان يتكلم عن العمل، فيقول، «آوه، ما عندك عمل ولا أي شيء»، كان يتكلم عن العمل ودائماً، فقلت، «لا تحكي عن الشغل، لأني صرت أكرهه»، لأنه لم يكن يحكي إلا عن هذا، فقلت، «توقّف عن هذا، عن هذا...»

❖ نعم، كما لو أنك تتقصّدين البقاء دون عمل...

ليديا د.: نعم، وكان يعتبرني خاملة؛ ودوماً، دوماً ينظر إلى ابنه على أنه خامل؛ كنا نسمع هذا في كل مكان، «ولماذا لا تعملان؟» و «لا يحصل هذا إلا معكما»، من هذا القبيل. فأقول، «إذا لم يكن عندنا حظ، فهذا ليس غلطنا»، ثم عندك أرباب عمل، في مجتمعنا الحالي، عندك أرباب عمل، لا يريدون أن يدفعوا للناس، فالشباب اليوم، يريدون أن يعمل الناس مقابل لا شيء على الإطلاق. لأنه اشتغل في بعض المواقع، فقالوا له، وعدوه بالدفع، لكن في النهاية لم يحصل على شيء، فتوقف عن التعامل معهم، بل لقد اشتغل في محافظة «موز»، معلوم، يجب عليه، وإلا فهو خامل، وكان حتى ينام في السيارة! إذن، كي يحصل على عمل في المنشرة في محافظة «موز»، في بلدة ك. إيه، فكان ينام في السيارة، بل إنّه كان يكابد الفشل، لأن أحدهم كان قد أعارنا أرضاً، وكان يأكل هناك، ولولا ذلك لما كان لديه عمل، لكنه لم يكن يكسب سوى... ليس كثيراً، 200، 300 فرنك، هذا كل شيء، وهو غير كاف. أنا قلت له عندها «إذا كان القصد العمل، تحقيق شيء، فإنّ ما تحصل عليه لايكفي بالنسبة لمسافة الطريق وغيره، فلا ضرورة لتستمر في مثل هذه الظروف، هذا غير ممكن، هذا غير ممكن» حتى مع عائلتي، فبقائي... طيب، أنا آكل عند أمي، لكن تواجهنا دائماً حكايات، «نعم، حضرتك لا تدفعين أي أجر للماما» ومن هذا، ومن ذاك...

❖ من يتدخل في هذا؟

ليديا د.: أختي، هي حسودة... عندي مشاكل على هذا المستوى.

❖ ماذا تشتغل؟

ليديا د.: تشتغل في المسبح على صندوق المحاسبة. لكنها تغار دائماً،

«نعم، أنتِ لا تدفعين أجرة»، وما شابه. علماً أن عندها البيت وكل شيء، عندها كل اللازم، لكنها حتّى لا تبقى في بيتها، بل تأتي لتنغّص على أمي، ومن جميعه؛ وهي تقوم بحضانة طفلٍ عمره عامان، وحتّى لو كانت أمّي مرهقة، بل إنها كادت تموت العام الماضي، كدت أفقدها؛ عندما كنت أشتغل في اللوكسمبورغ، كدت أفقدها، فعانيت من المشاكل بهذا الشأن أيضاً. فكان عليّ، كان عليّ... الذهاب لرؤيتها في المستشفى، كانت قد أصيبت بوذمة رئوية، يعني، كل المشاكل تراكمت، فعلاً في عام 90، ثم حتى الآن كم من الهموم.

❖ نعم، هي فترة سيئة. وهذه الأخت، ألا يمكنها تدبير شغل لكِ...؟.

ليديا د.: يعني، كانت تقول لنا عن مراكز شاغرة فهذا كل شيء، لكن في كل مرّة كانت تلك المراكز تطير منا، فجميع الناس... هناك بطالة كبيرة. فهم يسارعون فوراً إلى كل شاغر. وهذا غير ممكن، هذا لا يُصدّق. ثم، يعني يكفي أن يأتينا الخبر متأخراً قليلاً، يجب أن نعلم. أحياناً، يقولون، «لا، الأمر فوري» فنتصل هاتفياً فيكون المركز الشاغر قد طار في هذه الفترة القصيرة. على أي حال، يجب القول أيضا أنّه لم يكن من السهل عليّ الاتصال بالهاتف. حماتي لم تكن تسمح لي بأن أتصل من بيتها، كانت لا تريد، يعني. كان لديّ هاتفٌ في فترةٍ معيّنة، ثمّ لم يعد لديّ هاتف، والمشكلة نفسها عندما كنت في بيتي في س.، فكنت ألاقي صعوبة في الاتصال مع أمي، كان عندي مشاكل، ولم أكن أستطيع الاتصال هاتفياً بسهولة؛ كان بالقرب من مسكني كابينة هاتف لا تعمل إلاّ نادراً جداً، لم أكن أستطيع الاتصال هاتفياً، فهي أحياناً لم يكن عندها أية أخبار عني، ولهذا...

❖ كنت ساكنة في البيت الذي اشتريته؟

ليديا د.: نعم، نعم.

❖ إذن ما كان باستطاعتك تحسينه، لا شيء؟

ليديا د.: لا. فعلاً لا. كان هناك إصلاحات يجب القيام بها، حتى لا أعلم ما هي بالضبط، فكان عندي الباب، يعني هناك نهفة بخصوص الباب،

فالهواء يتسرّب منه، لكن كان عندي ماء ساخن مع هذا، وكان هناك بعض الأمور المريحة، أفضل من قبل. لأنني من قبل ما كان عندي ماء ساخن، ما كان عندي شيء، لم أكن أدفع مبلغاً كبيراً، 400 فرنك، لكن لم يكن عندي أي شيء. لم يكن عندي ما يلزم للراحة، وما شابه، كنا نشعر بالبرد في الشتاء، لم يكن للبيت عزل وكل شيء، كنت ساكنة في الطابق الرابع، في مجمّع سكني، ثم، يعني، حياة المجمّعات، أنا ما كنت أحبها ثم كنت أريد حديقة، عندها كان زوجي يزرع، فكان هذا يساعدنا قليلاً، موضوع زراعة الحديقة، إذ بغير هذا ما كنا لنستطيع تدبير أمورنا، نعم هو هذا.

❖ وفوق هذا، فمن حولك يرى الناس..

ليديا د.: نعم، مشاكل كهذه، فهم ينتقدون. هم حتى ينتقدون ويزيدونها..

❖ حتى في الأسرة؟

ليديا د.: ولهذا فأنا، الأصدقاء، من الأصدقاء ليس عندي الكثير. أنا أستبعدهم. أنا وحيدة وحدة كاملة، أكاد لا أختلط بأحد. لعلّي انعزالية، لكن أنا هكذا، صرت هكذا، أشعر بأنّ هذا أفضل بالنسبة لي، لأن الجميع ينتقدونني وما شابه، «أنا لا أفهم كيف تبقين مع زوج كهذا، لا يشتغل»، كم من التعليقات كهذه، فأقول، «من لا يصدّق، فليشرّف معي إلى البيت، ليس إلا أن يُشرّف ويرى الرسائل لديّ، هذا غير ممكن، أوه! سوف نحتفظ بالطلب إلى حين يتوفّر عندنا شيءٌ ما»، ولا نسمع إلا هذا، «زعبرات»، ووعود، وأختام أيضاً، فبالنسبة لهذا (...) في وقتٍ معيّن، لم يكن هناك إلاّ الأختام، جدول كامل من الأختام والمضمون لا شيء بالمرّة.

أنا محاصرة في كل شيء...

❖ وما هو اختصاصه في..

ليديا د.: إيه، هو عامل يدوي دون تأهيل. كما ليس معه شهادة التأهيل المهني CAP. هو يفهم قليلاً في كل شيء، فاشتغل كلحّام، ودهّان

بناء، وفي البناء. فماذا اشتغل أيضاً؟ وكيل شركة، وقام بأعمال صغيرة غير قليلة من هذا النوع. في أي شيء، هو، لا يبالي.

❖ ما دمتما متفاهمين بشكل جيد، فهذا سلفاً...

ليديا د.: في هذا، هو لطيف، هو لطيف... هو لطيف.

❖ هذا شيء مهم.

ليديا د.: لكن المشكلة التي حلّت بي، أنني فقدت أبي في عام 89، والبيت، كان مقدّراً أن أحصل عليه في عام 89، لكني لم أتمكن من تدبير الحصول عليه إلا في عام 90. وهذا البيت حينها كان قد أعطاني مليوناً لأعيد تدبير البيت قليلاً. وفي النهاية، عادةً يشمل قرض البيت، كان المفروض أن يشمل تكاليف التسجيل عند الكاتب بالعدل، ولكن هذا لم يحصل، عندها سحبوا مني المليون- الخبثاء- لاستكمال معاملة التسجيل عند الكاتب بالعدل، فهذا يعني أني تكلّفت مليونين إضافيين، وهنا أصبحت عندي شركتان مختلفتان بهذا الشأن.

❖ كم كلّفكِ البيت؟

ليديا د.: 12 مليون. وأخذته في الحالة التي كان عليها. لم أجدّد أي شيء.

❖ وهذه الدورة كيف حصلت عليها؟

ليديا د.: حدّثتني المساعِدة الاجتماعية عنها، ثمّ قالت، «لكن، هذا غير طبيعي، قالت لي، طيب، هل بدأتِ؟»، فقلت، «لا، حتى الآن، لا»، فقالت لي، «مستحيل، تكلّمنا معهم من أجل أن تنتسبي إلى دورة وكل شيء»، لكن كان هناك أيضاً مكتب العمل إلى حد ما، فهم اتصلوا واستدعوني، يعني من هذا القبيل، لأني كنت في نهاية فترة الاستحقاق. عندها طلبوني ومن ثم انتسبت إلى الدورة. وهناك، حالهم مثل حالي، فهناك يؤمّنون عملاً لمدة أسبوع في المشاريع، قال يعني، وربّ العمل، على ذمته، كان راضياً عني ومن ثم قد تكون هناك إمكانية توظيف دائم؛ وهنا، تكون عندي مشكلة لأنني لا أملك واسطة نقل، ما معي شهادة سواقة، ثم أين أجد السيارة، فزوجي

بحاجة لها، فأينما أردت الذهاب لأشتغل، لا أستطيع، إن كان هنا في موقع قريب، عال، ماشي الحال، ولكن بالنسبة للباصات فلا تشتغل على خط ف. انطلاقاً من م. لا يوجد باصات. وبالنسبة للدراجة الخفيفة، أنا، لا أستطيع أن أصمد عليها، جرّبت، فلم أنجح في الموضوع، عدا عن أنه يجب عليّ في هذه الحالة شراء الدراجة الخفيفة، وهذا أيضاً لا اقدر عليه، أنا، بالراتب الذي أحصل عليه، هذا غير ممكن. أنا محاصرة في كل شيء. ولا حلّ بيدي: لا أستطيع شراء سيارة ثانية لأن الإمكانية المالية غير متوفرّة، طيب، وشهادة السواقة ليس معي إياها هي أيضاً، يعني كل أموري واقفة.

❖ وهنا، ألا يقبلون بـ «حركات» من أجل شهادة السواقة؟ نعم، فعلى قولك أنتِ محاصرة في كل شيء، فعندكِ مشكلة المال، ولا سيارة ولا عمل...

ليديا د.: نعم، كل شيء، كل شيء عندي يتشابك وتختلط أوراقه في الوقت نفسه. لا يوجد مخرج. الأمر مزعج، لا يوجد مخرج. لا يوجد حلّ. لا يوجد مخرج، أعلم... توجد حلول، وأنا أرغب فعلاً بالدراسة من أجل شهادة السواقة، لكن عليّ في هذه الحالة أن أتمكن من الذهاب إلى مدرسة السواقة، فأنا بودّي حقاً الحصول عليها...

❖ نعم، إلا إذا حصل زوجكِ على شغل دائم، فهذا كفيل بإخراجكما من هذا المأزق.

ليدي د.: نعم، لكن ما دام يعمل في منطقة م. سان م. وساعات عمله غير معقولة، فإنه لا يقدر، لأنّه يبدأ في الرابعة صباحاً، ولا يوجد باص في الرابعة صباحاً في م. سان م.، فهذا غير ممكن. هو بحاجة إلى السيارة.

❖ ما دوامه إذن، دوامه في الرابعة صباحاً...؟

ليديا د.: دوامه من الرابعة صباحاً حتى الواحدة عصراً، من بعدها عنده من الواحدة عصراً إلى التاسعة مساءً؛ فهذا دوام دوّار هكذا... نعم، هكذا، وهذا غير ممكن.

❖ ويكسب جيداً؟

ليديا د.: هذا لا نعرفه، فهو بالكاد بدأ الشغل، هو يشتغل من ثمانية أيام لا غير، فلا نعرف.

❖ لم يقولوا له كم سيكون أجره؟

ليديا د.: عادة، سوف يأخذ الحد الأدنى للراتب، وهو شيء لا يُذكر، يعني 5400، وحتى هذا غير مؤكد أن يكفي لدفع كل ما عليّ فعله عدا عن فترة التأخير، لن أخرج من هذه الورطة أبداً، هذا غير ممكن! كم من الوقت ينبغي أن أحرم نفسي هكذا، هذا غير ممكن، هذا غير ممكن!

كنت أرى كوابيس ...

❖ لا بدّ أنك لا تنامين دائماً في الليل، هه؟

ليديا د.: كنت أرى كوابيس فيما مضى، كوابيس، وكل هذا من أجل..

❖ يعني؟

ليديا د.: يعني، كنت أحلم بالمشاكل التي على كتفي، كنت أرى نفسي، يعني، كنت أرى نفسي أعيش في الشارع لأنني عندما رأيت أمي وقد جاءتها النوبة، عندها، قلت، «اكتملت، عظيم، عال العال، انتهى كل شيء بالنسبة لي، أنا سوف أصير في الشارع، لن يعود لي بيت، سوف أصير، لا أحد سيهتمّ بي لأن أختي لا تشغل نفسها بي».

❖ وأهل زوجك؟

ليديا د.: إيه... ليس لي أن اعتمد عليهم. هم مؤذون، فعلاً مؤذون. حتى معي. حتى معه و... (...) فالأب، يشرب. ثم هو مؤذٍ، فكل النهار، يلوم هذا، وذاك، كل الناس. فنحن جميعاً في العائلة تنابل برأيه. حتى بشأن ابنه، يقول عنه، تنبل، حتى بعد أن وجد الشغل، فهو يعامله على أنه... لمجرّد أنه لفترة معيّنة كان عاطلاً عن العمل، إيه يعني، فقلت، «الدولاب يدور يوماً، لا يجوز أبداً التهكّم، قلت، يوماً ما، إذا حصل ما حصل، سوف تصبح عاطلاً عن العمل»، إيه عظيم، وهذا ما حصل فقد وجد نفسه عاطلاً عن العمل

وأحيل باكراً على التقاعد، وجد نفسه عاطلاً عن العمل، علامات تصنيفه ضعيفة، عندها صار في بطالة.

❖ نعم، فما كان عمله؟ كان في مصانع الحديد؟

ليديا د.: كان إلى حد ما كعامل يدوي، هكذا إلى حد ما.

❖ في صناعة الحديد؟

ليديا د.: نعم، في صناعة الحديد، كان. (...) لكن حماتي، هي أيضاً لا يستهان بأمرها، فهي تلوم وتنتقد، من جميعه، ليست عائلة طيبة، فوق كل شيء. أنا، أنا لا أذهب لزيارتهم. تقريباً بالمرة.

❖ كنت تقولين أنكِ ترين كوابيس، فهل كان لها علاقة بشغلك؟

ليديا د.: نعم، كل هذا. وما شابه من المشاكل، ثم العائلة إلى حدٍّ ما وما شابه.

❖ تفكرين بحماتك وكل هذا؟

ليديا د.: نعم، وبنات الحمي... كل هذا... فبنات حميّي من النوعية نفسها، فلا نخالط بعضنا، منهن واحدة أخالطها، وواحدة ثانية أيضاً، أما الأخريات فلا اختلاط لي بهن.

❖ نعم، وهذا مرتبط دوماً بالعمل والانتقادات التي توجّه إليك، أشياء من هذا القبيل؟

ليديا د.: تماماً. نعم، هي مشاكل من هذا النوع.

❖ نعم، وهذا كان شديد الوطأة عليك... كل هذا... نعم.

ليديا د.: هذا صحيح. يعني، وعندك أيضاً إلى حدٍّ ما... هناك أبي، فقد مات، إيه يعني، افتقدته كثيراً، ومن ثمّ فهو، يعني، تركنا في البؤس، وكل هذا، عظيم، فهذا... عندما أقع في مشاكل، هنا، أرى كما لو كنت أقرأ في كتاب، كما لو أن هذا...

❖ كان يتكرّر؟

ليديا د.: أرى شريط حياتي، منذ أن كنت صغيرة، والمشاكل التي وقعتُ فيها، ومن ثمّ حتى الآن، هذا...

❖ ماذا تقصدين... أنك تتذكرين كل شيء؟

ليديا د.: نعم، أرى كل شيء يمرّ أمام نظري.

❖ وعندما تقولين أنك ترين المستقبل مغطّى بالسواد، فما قصدك؟

ليديا د.: هذا... هذا بسبب جميع المشاكل التي عشتها، منذ كنت صغيرة، حتى الآن. هو هذا، فلا أرى...

❖ وأنتِ خائفة بشأن المستقبل؟

ليديا د.: ممم، ممم، لا أرى... لا أرى التحسّن في الأفق. لا أعلم. أنا لا أصدّق هذا. لم أعد أصدّق شيئاً. لا لم أعد أقدر أن أصدّق، مع كل تلك الوعود التي قدموها إليّ، يعني، أنا لا أقدر. هذا غير ممكن. لا أقدر. فأقول، أو حينها، إذا أمكن أن يحصل شيء طارئ غير متوقّع، فأقول، «ستحصل معجزة إذن». وأقول، «هذا غير ممكن». لن أتمكن من إصلاح ما تخرّب، أقول، «هذا غير ممكن». لا أؤمن بأي شيء على الإطلاق، حتى ولا بالقمار، ولا بأيّ شيء، أنا لا ألعب القمار وضربة الحظ وكل ما شابه، لا أؤمن بشيء.

❖ لا، بهذا الشأن، أظن بأنّه ليس من هذا الجانب عليكِ أن...

ليديا د.: لا، لا، بهذا الشأن، أقول... حتى ألعاب القمار، لأن زوجي، أحياناً، هناك ألعاب من باب الضحك على اللحى، وهو يكتب ويعيد الكتابة، بأمل، «لقد ربحت...» وأنا أقول له، «لا تكتب، هذه زعبرات، هذه زعبرات»، وأقول، إذا لم يتدبرّ العمل لنا، لن نحصل على شيء، فهذا هو الحل لنا. أنا لا أؤمن بأي شيء. أنا من جهتي، أؤمن بأننا إذا لم نشتغل، فأنا أؤمن أنه لن يكون حلّ. فنحن الذين نصنع (علامتنا؟)... وليس الآخرون، يعني، وهذه هي الحالة.(...)

لأن هذه كارثة...

ليديا د.: هذه هي الحالة. وهذا غير مفهوم [ضحكة صغيرة]. لكن أعلم أني لست الوحيدة التي تواجه مشاكل كهذه، فأحياناً، هذا يواسي، أقول

هناك من هو أسوأ حالاً مني، عال العال، لحسن الحظ، أقول لحسن الحظ أني لست الوحيدة وإلا لكانت كارثة، لكني أقول، «هذا غير ممكن أننا نعيش في عصر مثل هذا»؛ أنه ما تزال هناك مشاكل مثل هذه. يقولون عن التطور إنه في تقدم لكن هذا غير صحيح. أنا، في رأيي أنه في تراجع أكثر مما هو في تقدم. هذا غير ممكن، يجب إيجاد حلول، يجب أن يتحرّكوا. هذا غير ممكن، لا مجرّد إعطاء وعود، ومن بعدها لا شيء في الواقع. هذا، هذا سهل، أنا أيضاً أستطيع إعطاء وعود، أو أن أكون في مكتب أقول، «عملنا الأوراق»، ومن ثم يتغاضون عن الأمر – هذا، أنا سبق أن رأيت هذا – يتغاضون في جهة ثم يقولون، «سوف ننهي هذه، ولن ننهي هذه»، هذا، أنا أعرفه؛ أستطيع أنا أيضاً أن أكون بيروقراطية وأفعل هذا. أنا بإمكاني أن أكون بيروقراطية هكذا، أفعله مباشرة، بكل سهولة، بسبب انتشار الفوضى، هذا غير ممكن، بشأن الأوراق الرسمية. سبق أن قدّمت أوراقاً وضيّعوا الأوراق، فكان عليّ إعادة تحضيرها من جديد. حتى عندها استخدموا الحواسب الإلكترونية، بقيت الزعبرات، شيء غير ممكن. أنا، أعطوني رقماً في الحواسب، على أساسه صرت مولودة في الخارج. وأنا لم أولد في الخارج، أنا مولودة في فرنسا. اعتنت بي سيدة، بعينيّ، أجريت لي عملية في العين، في إحدى المرات، كانت لديّ مشكلة، اضطررت لمراجعة، لا أدري كم، 50 مكتباً! «أه لا، لا، لست أنا المسؤولة» يصرفونني من ثمّ ويطلبون مني انتظار استدعائهم لي، ومن بعدها، «لا، ليس هذه، بل تلك»، وأنا، يعني الحياة هكذا ما هي حياة؛ أحياناً تراودني الرغبة في التخلّي، وحتى أحياناً عندما تعترضني مشكلة أوراق رسميّة، تراودني الرغبة في ترك كل هذه القصة تنام في الأدراج، من شدة شعوري بالقرف...

❖ لا أعلم إن كان بإمكاني صنع معجزة، بودّي فعلاً.

ليديا د.: نعم، هذا غير مفهوم. هذا قاسٍ. هذا غير مفهوم. وأحياناً أتساءل كيف يمكن أن العالم، صار هكذا، لأن العالم من قبل، كان أقل سوءاً منه الآن، بل أحياناً عندما تذهب أحياناً إلى بعض الأمكنة حتى لمجرّد طلب

معلومات، يتهرّبون من الإجابة أو رذالات من هذا الباب، أحياناً. كما حصل مع زوجي، ففي إحدى المرّات، طلبوا منه مقابلةً بتاريخ 20، للحصول على معونة RMI (الحدّ الأدنى للإدماج)، لقد ربحت، فقال لهم، «أوه! لكن لا أعلم إن كان بإمكاني الحضور في هذا الموعد؟»، فهل تعلم بماذا أجابوه؟ «أوه! عفواً، لم تعد لك حاجة بتلك المعونة التي تطلبها؟» فعندما قالوا له هكذا، قال، «بلى، لكن ماذا إذا لم يكن بإمكاني الذهاب؟»، هل لاحظت؟ ومن ذلك التاريخ وهو على مواعيد، يعني مع المحافظة، لكن لم يتحقق أي تقدم. لم يتحقّق أي تقدّم.

❖ ولم يحصل بعد على تلك المعونة؟

لیدیا د.: لا، ليس بعد.

❖ هل طلبها؟

لیدیا د.: حضّر جميع الأوراق ومن جميعه، لكنه لم يحصل حتى الآن على شيء. لا يزال في النقطة نفسها. (...) فالمحافظة قالت إنها إذا لم تتحلّ القضيّة، فسوف تتدخّل لأنها قالت، هذا غير ممكن، وقالت: «ملفٌ كهذا، قالت، يمشي فوراً»، قالت. وقالت، «هذا غير ممكن». فصرت أقول أحياناً لنفسي، هل هناك من يزرع الفوضى هكذا في حياتي دون علم مني، لأنني صرت أفكر، من غير الممكن أن يرى المرء أموراً كهذه!

❖ أن يكون لدى المرء مثل هذا الحظّ السيّء المتفاقم؟

لیدیا د.: بدأت أتساءل إن كان هناك من يتسلّى بتعذيبي.

❖ إن كان هناك من يرميك بقدر منحوس؟

لیدیا د.: نعم، بدأت أسأل نفسي.

❖ إلى هذه الدرجة؟

لیدیا د.: أي نعم، لأن هذه كارثة، لا أعلم إن كان هناك من هو مثلي، حالياً، أنا لا أعرف ما يشبه حالتي؛ أعلم عن وجود من عندهم مشاكل لكن ليس بقدر مشاكلي، حتى على مستوى الدورة.

❖ حتى هناك؟ علماً أنهم في الدورة أناسٌ عندهم مشاكل...

ليديا د.: عندهم مشاكل، لكن ليس مثل مشاكلي؛ أعرف مشاكلهم، فهي ليست بقدر ما أعانيه؛ فليس عندهم... منهم من عنده مشاكل، لكن لا أحد عنده ديون مثلي، وحكايات هكذا، يعني، مثلاً، مشاكلي مع الأوراق الرسمية؛ هم حصلوا على معونة الـ RMI، بينما أنا لم أحصل عليها. أنا الوحيدة التي وضعُوها «قيد الدرس»، حتى أنني دوّنت هذا، لأننا عند التسجيل في الدورة، دوّنت أن معاملتي هي «قيد الدرس»، لأنني لم أكن أعلم... هكذا فأنا أسأل نفسي أحياناً، إن لم يكن هناك من يتعمّد إيذائي على مستوى الأوراق، أو شخصٌ يعرفني ممّن لا يستطيعون مواجهتي...

❖ يخرّب ما تقومين به؟

ليديا د.: نعم، يخرّب كل أوراقي ومن جميعه، هذا غير ممكن! هذا غير ممكن! طلبوا مني أوراق أرسلتها إليهم، وعادوا يطلبونها منّي ثلاث مرّات.

❖ نعم، من المؤلم أن التأمين الاجتماعي هي هكذا...

ليديا د.: لا، لا، إنما أنا بشأن معونة الـ RMI. لا تعلم ماذا قالوا لي أيضاً على الهاتف، أنا قلت، «أريد أن أعرف ماذا بشأن إضبارتي عن معونة الـ RMI، يعني كل هذا، لأنني لم أحصل حتى هذا التاريخ على شيء» فهذا لأنهم قالوا لي سابقاً، «في بحر عشرة أيام، تستلمين المبلغ»، وما شابه. لكن دائماً لا شيء، فمرّ شهر، يعني، فقلت، «طلبتم البيان لعام 90 عن زوجي، بيان مصادر الدخل، وأنا أرسلته إليكم، ولا يمكن إلا أن أقول، هذا غير ممكن!» هذا ما قلته. من بعدها، قالت لي، «لكن هناك أمر آخر» فقلت، «لا، مسجّلٌ على الورقة 90، مصادر الدخل عند زوجي». والآن، صاروا يطلبون الورقة التي تثبت أني كنت مريضة. قلت، «لكن المفروض إعلامي، أنتم سجّلتم لي طلباً واحداً على ورقة، ولم تسجّلوا الطلبين! ثم، لحسن الحظ أني اتصلت هاتفياً، وتطلبون مني شيئاً آخر»، قلت، «لا، لا يجوز الظن بالناس أنهم مغفّلون!» عندها، راحت تجعر، «لا، نحن لا نظن بالناس

أنهم مغفّلون، ليس غلطي إذا كانت المحافظة في فوضى»، هذا ما قالوه لي، ردّت عليّ هكذا. فهل أدركت الموقف؟

[...]

إضبارة قيد الاستعجال

ليديا د.: يرمون المسؤولية على غيرهم...

❖ بالضبط، بين المحافظة والـ...

ليديا د.: نعم، عدا عن أنها سلسلة لا تنتهي حلقاتها.

❖ ... ومعونة الـ RMI. فكل هذا، ولم يسألك أحد ليحقّق بشأن معونة الـ RMI، لم يكن إذن تحقيق...

ليديا د.: لا، أنا يعني، زوجي ذهب إلى اجتماع، إلى موعد، شيء من هذا. فقالوا «لم تحصل عليها»، هذا ما قاله له المسؤول، «على كلٍ، سوف أكتب رسالة ثم أؤكّد على تفعيل الموضوع، إلى أين انتهى الأمر، وما شابه، وسأقول بأنّ هذا غير عادي؛ سوف أسجّل رسالة هامة». وما زلنا ننتظر. وقد قال خلال 15 يوماً، أو لا أعلم كم من الزمن، «سوف يصلكم الجواب». ونحن الآن تجاوزنا المهلة، تجاوزناها. أنا لا أفهم، أو ربما أنهم نسوا أمر الرسالة، أو ربما أهملوا عملهم، هذا غير ممكن، جماعة المحافظة. القصة فيها ما يريب.

❖ وأنت التي تحضّرين كل الأوراق، كل شيء مع زوجك؟

ليديا د.: زوجي وأنا. فأنا أعرف كيف أنظّم البيانات، وما شابه، فلا بأس بمعرفتي. بل أعرف هذا الأمر أكثر بقليل من زوجي، لذلك، فأنا التي ملأت جميع البيانات، وأعدتُ إرسالها؛ حتى أنني سريعة في هذه الأمور، ففور استلامي لأي شيء، أعيده ثانيةً على الفور. قيد الاستعجال، في كل مرة يرسلون لي ورقة عليها، «إضبارة قيد الاستعجال»، هذا ما هو مدوّن على جميع الأوراق أيضاً. هذا غير ممكن!

❖ لعلّ هذا في طريقه إلى التسوية.

ليديا د.: لا أعلم. لا أعلم. فبهذا الشأن، من فترة غير بعيدة، كان لزوجي مقابلة مع مشرِفة اجتماعية في س. تابعة للمحافظة. فقالت له، «أنا سوف أرسل الرسالة، حول موضوعك». الآن أنا على انتظار، وحتى هذا، فات موعده، فقد أرسلت الرسالة في شهر شباط، وهي كان المفروض أساساً إرسالها في كانون الثاني. أظن الأمر في منتصف كانون الثاني، على ما اعتقد. وحتى الآن لا شيء. هذا غير ممكن. علماً لا تحتاج الرسالة إلى أكثر من ثلاثة أيام، أو أسبوع، لا أعلم كم... هذا غير ممكن! توجد مشكلة. لا أعلم من يخلق مشاكل من هذا النوع، لا أعلم، لا أستطيع أن أحدّد. (ألا يوجد إلا مشاكل كهذه؟) من بعدها طلبوا ورقة لإثبات أنني لم أعد أقبض التعويض عن الولد، فهذه آخر ورقة أرسلتها إليهم؛ وأنتظر، ودائماً لاشيء. ويطلبون مني أوراقاً مستحيلة. متى كنت مريضة، كيف دفعوا لي، وبيان الـ 90 عن المصادر المالية وبيان الـ 89 عن المصادر المالية، وأنني لم أعد أتقاضى التعويض العائلي عن الولد، كومة من الأوراق، وأمور بدأت بعدها أشعر بدوخة، من طلب كل هذه الثبوتيات هكذا. هذا، هذا غير ممكن. هذه الأوراق كلها، ما فائدة كل هذا!

❖ لعلّ هذا سوف «يتحلحل» فجأةً، ممكن جداً.

ليديا د.: بل جعلوني أفتح حساباً لصالح إعانة الـ RMI عندما نُظمت لي الورقة، ولم أحصل حتى الآن عليها. منذ 5 تشرين الأول من عام 90! نعم، لم أحصل بعد على شيء، وهم جعلوني أفتح الحساب من أجل هذا. هل لاحظت... هذا غير ممكن. بل حتى دفعت؛ قالوا لي، «لن تدفعي»، ومع هذا دفعتُ 50 فرنكاً، كانوا قد قالوا لي، «عادةً حكاية إضبارة الـ RMI لا تُلزمك بدفع شيء»، ودفعت 50 فرنكاً. لم يكن معي حتى 50 فرنكاً، فأمي هي التي أقرضتني إياها. هذا غير ممكن! في الحكاية ما فيها! لا أعلم كيف يتصرّفون. حتى بهذا الشان فعندي الكهرباء مقطوعة؛ قطعوا عني التيار؛ لأن عليّ تسدد فواتير بقيمة 10،000 فرنك، فقطعوا الكهرباء، لم يقطعوا التدفئة لأنهم لم يستطيعوا، فالتدفئة في الداخل وكان البيت مغلقاً،

لكنهم قطعوا الكهرباء. أحياناً نظلّ في الظلام، لأنني في يوم العطلة، أعود إلى بيتي. من أجل الترتيب، وما شابه، فعندي أيضاً كلب. كلب لي، وعليّ الاهتمام به.

❖ وهو يظلّ هناك؟

ليديا د.: لا أقدر أن أجلبه معي، عند أمي، لأن الشقة صغيرة، شقة من نوع F3؛ كما أن حماتي ترفض إيواءه عندها. كان عندها كلب، لكن حَمْوي يختلق الأعذار، فهذا ينبح، الخ.؛ علماً أن عندهم كوخ مناسب للكلب، فلا يكون منه إزعاج. إنما، يعني، هو أيضاً ضخم بالقياس إلى الكلاب. فهذا يزعجهم. أنا، كلبي، احتفظ به. أحب الحيوانات. أموت في الحيوانات.

❖ نعم، خصوصاً عندما يكون تعلّق ولهفة. وزوجك، يشتغل قليلاً في الحديقة.

ليديا د.: في الحديقة، البستنة، من جميعه.

❖ يذهب هناك من أجل هذا؟

ليديا د.: نعم، من أجل الحديقة، وما شابه، يرتّب بعض الأصص، ومن جميعه. نعم، يرتّب الأصص... يهتم كثيراً بكل هذا...

❖ نعم، وهذا يساعدكما على العيش؛ هذا يوفرّ لكما دخلاً.

ليديا د.: نعم يعني. م م م، لكنْ ... ليس بالضرورة.

❖ لا، هذا صعب... ليس بالضرورة.

ليديا د.: هذا صعب، هه (...)؛ وأقول، «لماذا برأسي وليس برأس الآخرين» وكنت لا أقبل في البداية. كنت أبكي، أغرق في الدموع، وأمي كانت تقول لي، «توقفي!». ثم تراني أبكي، فتقول لي، «ما الذي حلّ بك، شي أبداً». وكانت تنهرني أيضاً. فأقول لها، «أنتِ، لستِ على ما يرام، ومع ذلك فأنا لا أبرير في وجهك، إذن، اتركيني بحالي، هذا كل طلبي». هذا ما قلته لها. لأنني أعلم بأن أمي وقعت في المشاكل ذاتها وأنها لا تريد أن تراني أبكي. تعرّضتُ لمشاكل مالية. وأنا قلت، «لا يمكنكِ عند المشاكل أن تمنعي

نفسك من البكاء». فكانت توافقني، وتبكي معي. فأقول، «أنا، حالي من حالك، أرجوكِ لا تزعلي مني لأنني أبكي. الأمر ما بيدي».

❖ أكيد، وهناك سبب وجيه.

ليديا د.: هذا كما كان شأن شقيق زوجي، فكان يريد مني أن أرحل إلى مرسيليا على أني، أنا، لم أقبل؛ من أجل إيجاد عمل. قلت، «أنا لا أريد. فعندي بيتي، ولم أنتهِ من الدفع، وأنا، عليّ ديون وما من حقيّ الرحيل هكذا. غير ممكن»، هذا ما قلته. ثم، أين سأشتغل؟

شباط 1992

بيير بورديو

حياة ضائعة

بيير ل.، البالغ 59 عاماً، وهنري ف. مزارعان نشطان جداً يمكن القول عنهما إنهما قد نجحا، في تلك المنطقة التي عانت بشدّة من الهجرة الريفية ومن العزوبة، وذلك على عكس معظم الرجال من جيلهما.

لقد ورث هنري ف. أرضاً زراعية صغيرة بمساحة 18 هكتار، تقع بعيداً عن القرية، على الهضاب ذات المنحدرات القاسية جداً- مما جعل استثمارها صعباً وباهظ التكاليف. لكنه من بعد بذل جهود مضنية («لم أسافر في مدى تسعة وعشرين عاماً لأكثر من يومين») تمكّن من زيادة المساحة القابلة للزراعة بما يقرب من عشرة هكتارات. وبغية تمهيد وزراعة الأرض التي انتزعها من الغابة، اضطر لاقتناء معدات هامة جداً، هامة بما يكفي، حسب ظنه، لاستثمار ملكية 100 هكتار في السهل. عندما تحادثنا معه، كان قد علم لتوّه أن ابنه البالغ 27 عاماً والذي تزوّج مؤخراً من ابنة مدينة، قرّر، نزولاً عند ضغط زوجته، أن يترك البيت العائلي الريفي، ليعيش في بيت جدة زوجته. فكانت خيبته كبيرة وزاد من وطأتها أنه لم يتهيأ مسبقاً لمثل هذا الانعطاف المباغت كلياً: فمن بعد رجوعه إلى المزرعة، بعد دراسة في ثانوية زراعية، كان ابنه قد أظهر عزمه الوطيد على متابعة المشروع الزراعي الذي بدأه والده. كان الوالد فائق الحيوية والنشاط، فساهم بقوة

في الدفاع عن هذه المهنة، وعلى هذا الأساس دعاه بيير ل. للاشتراك معنا في هذا الحديث.

يمتلك بيير ل. أحد أكبر وأهم استثمارات المقاطعة زراعياً، بما لديه من هنغارات بالغة الضخامة، مخصصة لتجفيف التبغ وتخزين الأعلاف، بناها بالكامل هو نفسه، شخصياً، أو تقريباً كذلك، وبما لديه من إسطبلات حديثة للغاية، مجهزة بكل المعدات اللازمة للحلب، ولمعالجة وحفظ الحليب، وهذه الإسطبلات معدّة لإيواء القطيع العائد له وفيه ما يقرب من مائة بقرة حلوب. كان عضواً ناشطاً في حركة الـ JAC في شبابه، فشارك في الزخم المجدّد الذي عُرف في الخمسينات، وتزوج (في زمن كان فيه معظم رفاق عمره قد حافظوا فيه على عزوبيتهم) ورزق بابن، هو الآن في حوالى الثلاثين، وكان قد أمضى سنتين في مدرسة زراعية، عاد من بعدها يعمل معه في المزرعة، لكنه ما يزال عازباً. والأب معروف وموضع تكريم لدى القرية بأكملها، وخاصة في التجّمع التجاري، حيث يقوم هو نفسه بتسليم الحليب كل يوم، وقد شغل لفترةٍ مديدة منصب مستشار بلدي، أبدى فيه نشاطاً فائقاً. توفّيت زوجته منذ سنوات قليلة من بعد مرضٍ طويل. وقد أجريت له، هو نفسه، عملية جراحية خطيرة، لإصابته بالتهابٍ في مفصل الورك، يعرج منه عرجاً قوياً.

وهكذا فالأب والابن يعيشان بمفردهما، مستثمرين دون مساعدة خارجية، إنما بفضل معدات ضخمة، مساحة كبيرة من الأراضي، هي في معظمها على نظام الاستئجار الزراعي. وعندما يحلّ عليهما الزائر فجأة وهما يعملان (كما هو الحال مع تلك الاقتصادية الصينية التي قُدّر لي أن أرافقها لاطّلاعها على أوّليات الزراعة الأوربية) يجدهما منشغلين بنشاط، في بدلة العمل الزرقاء، ومن حولهما الطين وروث البقر، في وسط يوحي قليلاً بالإهمال (الأواني العتيقة، الأدوات الزراعية البالية المرميّة هنا وهناك)، وتفوح منه في كل مكان رائحة خانقة مقرفة، رائحة الأعلاف المحفوظة في سيلوات.

كان لدى هنري ف. وبيير ل. في بداية حياتهما تَركة صغيرة جداً، لكنهما تمكّنا من توسيع استثمارهما، مضحّين في سبيل هذا باستثمارات ضخمة، بالمال، «بفضل» القروض وبالعمل على وجه الخصوص، كما استطاعا تجميع رأسمال هام نسبياً، بشكل أراضٍ زراعية، وخاصة أبنية، وأدوات، ومواشٍ. على أن موضوع الإرث في حالتهما وأوضح من أية حالة أخرى، لعب بهما لعبة القدر أو ما شابه ذلك: فهناك، كما يذكران بشيء من مرارة، من كان أوفر حظاً منهما بما ورث عن أسرته لكنه هاجر إلى المدينة، مثلما هناك أيضاً أولئك الذين تقاعسوا عن العمل المضني، واستسلموا للحياة السهلة تاركين «بيت العائلة» يموت بهدوء فقدره دون شك أن يزول بزوالهم، أو أنهم يؤمّنون من بيع بعض قطع من الأراضي الوسائل الكفيلة بالمحافظة على استثمارهم وبيتهم دون اللجوء إلى القروض؛ أمّا هما ف «بقيا ملتصقين بالأرض»، كما يقال، ربما وفاءً منهما للأم أو الأب؛ لقد استدرجهما بادئ الأمر ذلك الإرث، ثم انجرفا مع الاستثمارات الاقتصادية، بل والنفسية أيضاً، تلك الاستثمارات التي كرّساها للأرض، فعلقا في ما يشبه شبكة من المسنّنات المتداخلة المترابطة، مسنّنات التجديد السابق الذي يستوجب التجديد اللاحق: وقد سارا، كما لو رغماً عنهما، على هدي التوجيهات والتحريضات المتنوعة للمرشدين الزراعيين، وغرف الزراعة، والهيئات المانحة للقروض، والجمعيات المختصة بتسويق الحليب، إلخ.

هما الآن يسيطر عليهما التناقض: فهما رأسماليان لكنهما لا يستطيعان جمع رأسمالهما (إلا ما كان من «خسارة بيع» هائلة على المستويين النفسي والاقتصادي، إذا ما طرحا ممتلكاتهما للبيع)؛ وليس تحت تصرّفهما إلا سيولة قليلة، فما يعود عليهما من دخل أقرب إلى دخل العامل المختص منه إلى دخل العامل المجاز (ولو أرادا تجاهل هذا الأمر، سرعان ما يذكّرهما به رجوع الأهالي المهاجرين إلى المنطقة أثناء العطلة)؛ وهما عاملان مأجوران متنكّران، يشتغلان لصالح مشروع معمل ألبان لديه كل الصلاحية في التعامل معهما أو الامتناع عن ذلك، وهو يفرض عليهما توجيهاته بـ «تعليمات إدارية»، كما في إدارةٍ مركزية، ويحدّد لهما فعلياً

ساعات العمل، ويشرف بانتظام على جودة المعدات والمنتوجات لديهما، إلخ. هما يستطيعان التوهمّ، ذلك التوهّم الذي يدعمانه معاً، أنهما سيدان في مزرعتيهما، وأن يستثمرا الأسطورة المتوارثة عن الأجداد، أسطورة حرية الحياة الفلاحية. وكما تبدّى لي فجأة أثناء طرحي الأسئلة عليهما من أجل الاقتصادية الصينية التي كنت أرافقها، فقد رأيت في وضعهما إلى حدٍّ ما ما يشبه وضع كولخوزيين قاما شخصياً بتمويل كولخوزهما. أمّا تقلبات القرارات السياسية للدولة أو المتطلبات الاجتماعية فهي، رغم بعدها عنهما، تتحكّم مباشرة بدخلهما المادي، وأحياناً بقراراتهما بشأن الاستثمارات الإنتاجية، بصورة مشابهة في قسوتها ومباغتتها لما كانت تفعله في الماضي- بل واليوم، تقلبات المناخ والكوارث الطبيعية رغم أشكال الحماية والضمانات، الظاهرية أكثر مما هي واقعية، التي تقدّمها الدولة - الرحمانية-.

فالمزارعون المنتشرون أينما كان، في مزارعهم النائية المعزولة والمرتبطون بحكم الأعراف المتوارثة بطمأنينة العمال المستقلّين باتوا اليوم مرتبطين بخيوط خفية تشدّهم إلى عجلة «الدولة»، المتمثلة بينهم باستمرار من خلال قراراتها التنظيمية، وبمساعداتها الضرورية والمشكوك فيها على حدٍ سواء. وهكذا يمكننا أن نفهم كيف أن هؤلاء الناس، الذين شبّوا على النفور الشديد من الفوضى «وترك الأمور على عماها»، وهو ما يصمون به عالم المدينة الذي بنوا جميع حياتهم على رفض النزوح إليه، باتوا الآن مدفوعين، كما لو كان رغماً عنهم، إلى قيادة المظاهرات التي تصبّ احتجاجاتها جميعاً بنسقٍ موحّد عند أسوار دور المحافظة؛ وهم إمّا يندفعون إلى الحدود القصوى بتضحيات انتحارية (كما حصل على سبيل المثال في القتل المجاني لحيوانات المزرعة) تحت ضغط عنف طائش لا هدف محدّداً له بنتيجة ازدواجية القرار المتحكم بهم، وإمّا تدفعهم نزعاتهم «التي لا يمكن التعبير عنها سياسياً» إلى البوح، عند توقّف شريط التسجيل، بتعاطفهم مع رئيس الجبهة القومية التي كانت آنذاك في بداية صعودها، وهذا التعاطف يعبرّون عنه مع إطلاق تنهيدة عميقة. ويصلون إلى هذا الموقف، من بعد دورات والتفافات حذرة، مفعمة بالحرج والتشويش إلى أن تتجلي وتصبح

ضمن نطاق الفهم، حول مظالم العدالة، حول كلفة اليوم الواحد في المستشفى وكلفة الاعتناء بالمجرمين قيد الحبس، حول البطالة «التي تتلقى مساعدة زائدة»، حول الهجرة ومظاهر الفوضى في المدينة (الأمر الذي ليس لديهم عنه أية تجربة مباشرة) حول تواطؤ رجال السياسة، رغم تعارضاتهم (وقد حصلت الجبهة القومية، بُعيد سنوات من حديثنا، على 72 صوتاً في ذلك التجمّع الريفي البالغ تعداده قرابة ألف نسمة).

وهكذا، فازدواجية القرار الماثلة في بنية المشروع اقتصادياً وبشرياً هي في صلب منظومة متناقضة في داخلها، ومنقسمة تقريباً على نفسها، منظومة قوامها قابليات وآراء يحكمها التناقض، المأساوي بحق، لكنه تناقض يتخفّف من أستاره فينجلي، إنما متخفيّاً باستمرار، بمعنى أنه دائماً يجد تعبيراً عنه في الجزئيات، دون شك لأن كشف الأستار كلياً قد يكون فاجعاً لمن يقوم به، أو هو يداور ويناور باتجاه البدائل، مع إطلاق أفكار عنصرية غامضة، كفيلة بخداع صانعها مثل قائلها سواءً بسواء. وأفضل ما يكشف كشفاً كلياً عن التمزّق الداخلي وعن انصهار الفرد وقوف هؤلاء الوارثين المرتبطين بإرثهم أمام أنفسهم عندما يضطرون لطرح مسألة نقل هذا الإرث إلى وارث لا يريد أن يرث (أو أنه، بحكم العزوبية، لن يكون بإمكانه إكمال التوارث من بعد)، ويواجهون بداهة الاستمرار المستحيل لمشروع، هو في الأساس ما كان يجب أن يوجد أصلاً. فالابن كان لهنري ف. «نهاية» مشروع حياته بأكملها، الهدف الضمني لمخطّط حياة حفلت بالنشاط والعمل حتى النهاية، مثلما هو بالنسبة له «الشرط اللازم» لاستمراره، فما بالك وهو يرى هذا الابن رافضاً لأن يخلفه في الأرض، فيرى كل شيء ينهار بضربة واحدة، ويتلاشى «معنى» وجود بأكمله، ذلك الوجود الذي إذا ما رجع به إلى الوراء رأى فيه العبث اللامعقول منذ لحظة الاختيار الأولى، وكان اختياراً بعيداً عن التعقّل. فرحيل الوارث توقيع على صك موت المشروع الزراعي- الذي بيّنّا أن أخصّ خصوصياته الاستمرار البيولوجي للعاملين فيه، أي لقوة العمل اللازمة لاستمراره وتجدّده؛ كما أن ذلك الرحيل حكمٌ في الوقت نفسه على الانتظار الطويل لحياة بأكملها، وعلى ذلك الذي عاش هذا الانتظار، وهو

الآن لا يستطيع إلا أن يشعر (دون أن يمكنه بالضرورة مصارحة نفسه) أنه لا يمكن أن يندب ابنه نفسه، هذا الكيان الآخر المجسّد له اجتماعياً والذي وضع فيه «جميع الاستثمارات»، للالتزام بمشروع محكوم عليه بالموت حسب كل الظواهر. وهكذا، فالابن الذي يرفض أن يرث تركة الأب ينجز «قتل الأب» بأرهب من الجريمة الساعية إلى أخذ موقعه، خلفاً له، أي «لإعادة إحيائه» كما يقول «رجال القبائل»، لقتله إنّما بغية تأمين استمراره، وتجاوزه من خلال الاحتفاظ به، بما يشبه الـ Aufhebung (الإلغاء) المرتّب والمعترف به اجتماعياً. على أن الابن، في حالتنا هذه، يلغي ليس القبول بالأب، والخضوع للعرف بشأن الإرث وحسب، وإنما يلغي أيضاً وخصوصاً الإنجاز الأبوي، ذلك الإنجاز الممتد لعمر كامل، لأن الإرث ها هنا يكون بأكمله تقريباً من تحصيل المورِّث الذي يريد نقله إلى الوارث. فهو يضع أباه أمام اختيار من شدة الوطأة بحيث أن هذا الأب لا يستطيع ذكره إلا في حديث، وقفات الصمت فيه، وتلميحاته، ومواربته، وتناقضاته، تعمل على الإخفاء والكشف سواءً بسواء؛ فإمّا أن يدفع ابنه ليعلق بتلك المسنّنات الفاجعة التي علق هو نفسه فيها (اشتغلت بزخم واندفاع خلال سنوات عديدة وأنا أقول لنفسي: «هنا، أنا عندي مصدر رزق، والأمر يستحق الجهد»)؛ وإمّا ينقذه من ذلك القدر المحتوم مشجّعاً إياه على هجر الأرض (تركت له الاختيار. قلت له: «انتبه، توجد ملكية صغيرة؛ ويمكنك أن تشتغل موسمياً في الجمعية»). وهو اختيارٌ على جميع صغار الملاّكين مواجهته في يوم من الأيام، مواجهةً مباشرة تماماً، عندما يحضّهم الابن، بنوعٍ من الابتزاز اللاشعوري إلى هذا الحّد أو ذاك، على شراء أيٍ من المعدات الغالية الثمن (بشأن هذا الموضوع، كان المطلوب: «جهاز التعبئة وإلاّ فلا»، فهذه الطلبات قد تبدو لازمة من خلال تخيلّ ما سيؤول إليه المشروع مستقبلاً وهذا ما يشدّ إلى عجلة المسنّنات المتشابكة)، وتحت ضغط التهديد بالرحيل.

وحده الوهم الذي ترعرع عبر التاريخ حول الفرادة المستعصية للإنسان الفرد يعيقنا عن «قراءة الأعراض» الظاهرة للعيان في التجارب التي توصف بكونها فردية، والتي يمكن فعلاً أن يعيشها الأفراد بصفتها هذه

دون أن ينتقص ذلك من كونها نتاج دمغة يفرضها على النسق الاجتماعي نوعٌ خاص من التجارب الاجتماعية المبرمجة سلفاً لتكون قادرة على التحقق من خلال مظاهر فردية متمايزة. فليس من باب المصادفة إذن إذا ما فرض أتفه الأحاديث المقبولة أغلب الأحيان نفسه، في أشد مناسبات الحياة اليومية جدّيةً، باعتبارها الطريقة الوحيدة لقول ما لا يمكن قوله: إن أشدّ الأمور ابتعاداً عن الطابع الشخصيّ لا يتوافق مع التعبير عمّا هو معاش بصفتها أكثر تلك الأمور شخصيةً إلاّ لأنّ أشدّها شخصيةً كثيراً ما تكون غير شخصية، كما هي الحال هنا. ومن قال، مثل قول أولئك الذين يوضعون غالباً في وضع الشخصين اللذين حاورتهما، بأن «الأرض الزراعية عليها السلام»، فهو إنما يستخدم السبيل الوحيد المعقول، بالنسبة لأناسٍ تماهى وجودهم مع مشروع زراعي لا أمل له في الحياة والاستمرار، فيتكلّمون عن موتهم الشخصي، ويصرخون دون أن يكونوا بذلك محطّ سخرية، العبارة القلقة والحاملة للتدمير الذاتي في داخلها، والتي يرتفع بها صوت الممثل على المسرح: «أنا من الأموات».

مع مزارعين من منطقة بيارن

حديث أجراه بيير بورديو

«هذه سلسلة مترابطة، نحن مجبرون»

بيير ل.: مستقبل الزراعة سوف يزداد صعوبة أكثر فأكثر. بسبب مشاكل الاستثمار أولاً، ومن ثمّ هناك في كثيرٍ من الأحيان المشاكل العائلية. فهذه على سبيل المثال هي الحال عندي شخصياً. مشكلة الوضع الصحي تلعب دورها هنا. يعني، أنا، بسبب ضعف همتي (...) فمبدئياً يجد الابن نفسه بمفرده تماماً... على الأقل في مواجهة الأعمال الضخمة. والمزارع فوق أرض زراعية شاسعة، الإنسان الذي يعمل بمفرده لا يستطيع أن ينجز ما يريد... (...) في مدى عشر سنوات... يصبح لدينا هنا سبعة من العازبين من بين كل عشرة أشخاص (...). فلا بد أن يتمّ تحرير عددٍ كبير من الاستثمارات الزراعية. لكن، كيف ستكون عملية التحرير تلك؟

هنري ف.: لا بد أن بعض أبناء المزارعين سوف يبقون وسوف يشعرون بالحرج في اختيار الأراضي: فلن يمكنهم الاهتمام بكل شيء.

بيير ل.: لكن هل سيتمكنون من الحصول عليها؟

هنري ف.: يعني إذا كان باستطاعتهم الحصول عليها...

بيير ل.: لأنك سوف ترى... انظر إلى وضع الجار، تاجر المواشي الذي أراضيه بالاستئجار. لقد تكلمت معه. فأنا أعرفه (...) وعلمتُ إلى حدٍّ

ما المبلغ الذي يطلبه. قال لي، «أنا أعترف بذلك، فأنتم المزارعون لن يكون بإمكانكم دفع هذا المبلغ... نحن، تجار الماشية، نضع في الأرض المواشي، فهذه تسمن هناك، بينما أنتم، أنتم لا تستطيعون» ... (...) يجب «شمل المزارعين المستأجرين بالضمان الاجتماعي».

خيبة، خيبة كبيرة جداً

هنري ف.: الآن الشباب، يعني يتزوجون من فتيات لسن من... لهن وظيفة غير الزراعة مثلاً. وبالنسبة لي، لأنني مسؤول زراعي في المقاطعة، فأنا أتجادل في هذه الحكاية مع الشباب (...). أنا أقول لهم، «هذا يمشي تماماً ما دام الأهل العجائز إلى جانبهم للمساندة. لكن في اليوم الذي يصبح فيه هؤلاء الشباب- أو بالأحرى الشاب بمفرده لأن مدامته العزيزة سوف تكون بعيدة عنه- أمام الصحن الفارغ عند الظهر » : فإن كان عنده صغير يجب الاعتناء به، وهو وحده في العمل. عندها، في ذلك اليوم، لن يفيده في شيء كونه قد أراد الحصول على أراضٍ كثيرة من أجل... لأنه لن يعود بإمكانه العناية بها...

[...]

أنا زوّجت الابن منذ وقت قصير (...)، وهو لا يسكن عندنا. رحل عند الجدّة. بالنسبة لي، هذه خيبة، خيبة كبيرة جداً. لأنني كنت قد قضيت هذه السنة في ترتيب البرّاكة بعض الشيء. ففي آخر لحظة، قال لي: «زوجتي قرّرت أننا لا نستطيع أن نعيش من بداية زواجنا مع الأهل. على أنها لن تكون وحيدة في السكن، هي سوف تسكن عند جدّتها... » فهذا، هذا أصابني بالخيبة... بمجرّد أن يكون الزواج من فتاة لا علاقة لها بالزراعة، ممّن يعملن موظفات أو عاملات (...) أولئك الشباب عندهم أوقات فراغ كبيرة بالقياس مع المزارع. فتلقائياً يندفع المزارع إلى الاستقالة من عمل الأرض، أراد ذلك أم لم يُرد، فالاعتبار عنده يصبح لعطلة نهاية الأسبوع، لساعة السهر مساءً، وفي الصباح لجهنّم إذا رنّ المنبّه أم لم يرنّ

في ساعة مبكرة... هذا الواقع أصبح خطيراً. نحن، من جانبنا، إذا تمكنّا نحن وأبناء جيلنا من تحقيق شيء، فذلك لأننا لم ننظر إلى الساعة.

[...]

بيير ل.: وأين يمكنك أن تجد الفتاة المرتبطة بالزراعة؟ على أي حال، البنات وجدن أنفسهن مضطرات، حسب إمكانياتهن، لمتابعة الدراسة، في سبيل الوظيفة، من أجل... إذن هنّ لم يعدن في الأراضي الزراعية، بالكاد أنك تجد بعض الوارثات، وهذا كل شيء...

[...]

هنري ف.: أنا أفكّر بالمستقبل أكثر مما أفكّر بالحاضر، عندما يصبح الشاب فجأة دون معينٍ من أهله. (...) ففي اليوم الذي يصبح فيه بمفرده، حينذاك سوف (...) أو أنه يستقيل فعلياً، ويلحق بزوجته ذات الوظيفة (...)

بيير ل.: وماذا يفعل حينذاك؟ أي شيء لا على التعيين؟ حتى ولو أصبح سائق شاحنة... أو أي شيء. لعلّ ابن المزارع يجد عملاً بسهولة كبيرة. (...)

❖ الذهاب لسواقة شاحنة بينما يكون لدى السائق زوجة في البيت... بيني وبينك...

هنري ف.: يعني العمل الشهري هو الذي يتغيّر...

بيير ل.: فالعمل الشهري على المضمون، عدا عن ذلك الوقت الحرّ... وقت الفراغ... إذا كانت زوجته تحرّضه...

هنري ف.: نعم الحكاية حكاية وقت الفراغ. حتى يومنا هذا لم نكن قد سمعنا عن هذا، لكن في كل يوم نزداد اقتناعاً أنه قد يكون من المفيد إحداث وزارة لوقت الفراغ، لوجود أناس (...) عندهم الكثير من وقت الفراغ. وهذا ما يجعل بعض المزارعين الشباب يستقيلون...

[...]

{في رأي بيير ل.، هذا طبيعي: فالعلاقات بين الأجيال كانت في أغلب الأحيان قائمة على التنازع الشديد.}

هنري ف.: أنـا مـا أوجّـه إليـه اللـوم... لا أعلـم... يعنـي... هـو أمـرٌ شخصي، بمعنى ما يحصل في البيت. فالشباب هذه الأيام أصبحوا شديدي القسوة، ولا يعبأون بكونك ضيّعت كل حياتك، فهم يريدون كل شيء وعلى الفور. مثلاً أذكر من سنتين تقريباً، كنت أريد شراء حصّادة لتأمين الحصاد على الأقل بسهولة. لا ثمّ لا، جهاز التعبئة وإلاّ فلا. لكن، جهاز التعبئة وإلاّ فلا، فيها الحكاية مليون ونصف زيادة عن الحصّادة... هم كثيرو الطلبات، ومن بعدها لا يتابعون حتى النهاية. في بعض الأحيان، كان يقول لي، «ليس إلا هذا، لا نفعل إلا هذا ...». ليس إلا أن يفعل ما يريد، فأنا قرفت أيضاً. فبعد أن تقضي أكثر من... لعلّي أنا ماركة خاصة. لقد حصلت على ملكية بمساحة 22 هكتار في عام 53، خمسة منها فقط صالحة للزراعة. في مدى 30 عاماً، جعلت 18 منها صالحة للزراعة. لكن كان من اللازم التشمير عن الزنود... ففي تلك الفترة لم تكن البلدوزرات موجودة.

بيير ل.: خصوصاً أنها ليست من الأراضي السهلة.

هنري ف.: هي كلها أراضٍ أصلح ما تكون للتزلّج، لو كان يوجد ثلج. هي من الأراضي الشهيرة بوعورتها...

بيير ل.: عدا عن أنها «مخنّقة» بالماء...

هنري ف.: ... واضطررنا لتأمين تصريفها... وفي الهضاب... نحن، نحن ثلاثة نعمل على هذه الأرض، فلو كنا نكسب نحن الثلاثة فعلاً الحد الأدنى للدخل SMIG، لكان معنا الآن قليل من المال (...). ليتني انصرفت إلى إعادة التشجير بدلاً من الاستصلاح، إذن لكان هذا حقق دخلاً أفضل؛ لأننا عندما كانت الأرض مغطاة بالأشجار، لم نكن نرى الماء تحتها. فمن بعد سبع- ثماني سنوات، أصبحت مستصلحة، فطلعت لنا المياه.

[...]

عند استكمال الاستثمار، لا بد أن تستمر. هي حلقات مترابطة. وشيئاً فشيئاً، تصبح عالقاً بالمسنّنات، ومن ثم تستهلك كل جسدك في العمل. وتستسلم للتيار...

[...]

يجب فعلاً معاينة الأمر على الواقع، رؤية الأمر، لإدراكه... فالملكيات الصغيرة في الهضاب، للمحافظة عليها في وضع سليم، يلزمك عمل كثير، وهو عمل يدوي (...). الشباب يزداد عزلة أكثر فأكثر فهو بمفرده... نحن، نحن أمضينا عمرنا في بعث الحياة في هذه الأرض وفي شراء معدّات ورؤية الشباب الذين... سوى أنني، شخصياً أخاف من أمر واحد، أن يهجرونا نهائياً وبشكل قطعي، أن يستقيلوا. فأنا أشعر أنهم لم يعودوا مطمئنين... وهذا يجعلك قلقاً، لأنني أنا، أجد نفسي... في الشهور الأخيرة، صرت قلقاً... لأنني أولاً لم أكن أتوقّع أن أراه يرحل وأعتقد أنه بدأ بالرحيل (...) كي يرحل دون رجعة (...) وهذه الحالة عندنا في البيت، وهو، من بعد تقدّمه في العمر (عمره 27 عاماً)، يجب عليه أن يكون قادراً على أن يستقرّ في الأرض خلال ستة أو سبعة أعوام كي يستفيد من المساعدات المقدّمة للمزارعين الشباب، وأنا، من جهتي، أفتى من أن أتحوّل إلى التقاعد. ليس عندنا ما يكفي من الأرض لتأمين GAEC. يلزمنا ضعف المساحة... يلزم 26 هكتار تقريباً.

[...]

فهنا، هذا ما يؤسف له، نحن في منطقة وعرة، هذا نعلمه، كان المفروض على الأقل اعتبارنا منطقة هضبية. لأنك إذا رأيت مثلاً سهل أزاب (عندك عشرة كيلومترات، مسطّحة هكذا، بمجموع استثمارات في حدود 60 هكتاراً، مسطحة هكذا، وكل مستثمر عنده 70 أو 80 رأساً من الماشية، فهم يجنون منها ثروات)، في آخر التصنيف فهم منطقة جبلية. كان ينبغي إجراء كل تصنيف على حدة، لكلّ مزرعة على حدة. ففي آسّون أضخم مستودع للحليب لصالح معمل ألبان فيلكونتيل، هنا في روتينيون، 4500 ليتر حليب، في منطقة جبلية، ومن جزّ الصوف يربحون عن كل رأس 150 فرنكاً...

بيير ل.: هم يأخذون مساعدات أكثر من الآخرين.

هنري ف.: أما نحن، في منطقتنا غير المحظوظة، مثلاً، لتكن أرضي مبدأ للقياس، فما عندي فيها شبر يمكنني أن أستهلك فيه أقل من 80 ليتراً

للهكتار في الفلاحة الواحدة. (...) طلبت أن نحصل على... الوقود الأخضر (...)، أن تُرفع الضريبة على الوقود في المنطقة الوعرة كما في المنطقة الجبلية، لكن رفع الضريبة أيضاً في السهول.لأننا، نحن، نستهلك وسطياً 80 إلى 100 ليتر في الهكتار في مروج الرعي، أما في السهل فيستهلكون 25 إلى 30 ليتراً في الهكتار.

{الأرض مصنّفة إلى أربع فئات: منطقة جبلية، منطقة هضبية، منطقة وعرة، سهل. الفئتان الأولى والثانية تستفيدان من رفع الضريبة عن الوقود؛ أما المنطقة الوعرة فلا تستفيد. فإذا حسبنا ثمن 80 ليتراً بواقع 2،50 فرنك لكل ليتر يكون المصروف 200 فرنك، لكل فلاحة (تحضير الأرض). في السهل، يستغرق وقت فلاحة الهكتار الواحد ثلاث ساعات، أما في الهضاب فيبلغ ثماني إلى عشر ساعات لتحضير الأرض ومثلها للفلاحة.}

هذا الاستثمار المستمر
ودوماً يتجدّد، دوماً يتجدّد.

هنري ف.: لن يعود بالإمكان إيجاد أناس من معدننا يقبلون بالعمل لسنين عديدة أكثر فأكثر، ليربحوا بالنتيجة أقلّ فأقلّ. هذا يحصل منذ عشر سنين... الشبان الآن لن يكون لهم رغبة في هذا... هم سوف... لقد ذهبوا إلى المدرسة أكثر منّا، فلعلّ الطبيعي ألا يقبلوا هذا. هذا ما حصل. لقد رجعت إلى بعض الفواتير من عشر سنين. شيء مخيف معاينة ما حصل. في عام 73، بليتر الحليب كان يمكن شراء 2.06 ليتر من الوقود، أما اليوم بليتر الحليب الذي ثمنه 1،50، لم يعد بالإمكان شراء سوى نصف ليتر، أي ربع ما كان يمكن شراؤه في الماضي. وعندك جرّارات ازدادت قوتها أكثر فأكثر فازداد استهلاكها من الوقود أكثر فأكثر. فإذا ما أراد...

بيير ل.: نحن مجبرون. هي سلسلة من حلقات مترابطة، ونحن مجبرون. فعندما كان عندنا جرّار واحد لا غير بقوة 20 حصان، كان الأمر... - بالقياس مع زوج الثيران، كنا في السموات العليا - لكن الآن ماذا تستطيع

أن تفعل بجرّار قوته 20 حصاناً؟ لا يمكنك فعل أي شيء بالمرّة... هذا الاستثمار المستمر، دوماً يتجدّد، دوماً يتجدّد... أقلّه، كما تقول، أن يكون عند الشباب القليل من الطموح، فهم لا داعي لإجهاد أنفسهم في حساب الاستطاعة عندك في...

هنري ف.: أنا، من جهتي، عندي معدات تكفي لتشغيل مساحة 100 هكتار، أنا متأكد أن المستثمر لـ 100 هكتار في أرض سهلية لا يحتاج لجميع المعدّات التي لديّ...

بيير ل.: نعم، هذا عبء زائد له وطأته الكبيرة...

هنري ف.: إذن، هي لعبة، هي لعبة. لأنني فيما مضى، منذ سنوات قليلة، كنت أستبدل الجرّار كل ست سنوات. كان هذا سهلاً، بوجود ضريبة القيمة المضافة الـ TVA ... فكنا نضيف القليل من المال، فيكون عندنا دائماً معدات جديدة. الآن آخر جرّار عندي، مضى عليه ست سنوات ونصف... وأنا غير جاهز لشراء واحد جديد، لأن الثمن خلال هذه الفترة تضاعف. فالجرّار، الذي ليس فيه أية وسيلة للراحة، هو نفسه كما كان من ست سنوات، ولكن ثمنه الآن (...). يتطلّب الأمر التفكير لتحصيل الضعف، وعلى الرغم من حذف ضريبة الـ TVA، فسوف نحصّل، لنقل مليونين من الـ TVA، لكن هذا عبء ثقيل. بينما في الماضي في السنوات التي كان الدولاب فيها يدور، حوالي... حتى الأزمة... كنت أبدّل بسهولة كل خمس سنوات... مع البال المرتاح بعدم وجود أي إزعاج... فهذا ما سوف يسوء كثيراً، فبعد وقت ما، سوف تكون الأحوال مخيفة...

{الاستثمارات الزراعية التي ظلّت ناشطة قليلة العدد، تقريباً 150 (مقابل 220 في 1970)؛ من بينها ما يقرب من خمسين يُقدَّر لها الاستمرار، بوجود الوريث، من تاريخه وحتى عشرة أعوام}.

بيير ل.: في هذه الاستثمارات الخمسين، هناك علامة استفهام فالحالة التي نقلتها لنا عن الشاب المستثمر والذي... الذي رِجْل في البيت، ورِجْل خارجه، ففي جميع الأحوال مثل هذه الحالة، فكأنه عازب...

❖ هل لن يكون بإمكانهم إيجاد حلول أخرى...

هنري ف.: هنا، في زاويتي قد يكون الحل في الكرمة، التي قد يكون من ورائها دخل، لكن الشباب، عموماً، لا يحبونها.

❖ لكن هذا يكلف عملاً كثيراً...

بيير ل.: نعم، هذا وقطيع الحيوانات اللبونة، فيه جهد كبير...

هنري ف.: أعرف بعض مزارعين جرّبوا إفهام الابن، أنه، باللجوء إلى الكرمة، يمكنه الراحة في الويك- إند، إلا في فترة القطاف. أما بالنسبة للمواشي فهذا غير ممكن. (...)

❖ لا توجد طريقة منظمة يمكن بها التعاون...

هنري ف.: يجب أن يكون الشخص ابن المصلحة... وموجود في المكان نفسه... لكن هذا أصبح الموضة الدارجة: فالشباب يرحلون. نحن، من جهتنا، لم نرحل. مضى على زواجي 29 سنة أظن أنني لم أتغيب إذا ما حسبنا بالأيام (...) في 29 سنة لم نتغيّب أكثر من يومين اثنين.(...)

{إيجاد البدلاء لاستلام العمل يكلّف غالياً. والمساعدة العابرة أيضاً (أجر وضمان اجتماعي).}

هنري ف.: يجب أن تكون قادراً على القيام بالعمل بنفسك، يعني مع العائلة، وغير هذا فالأفضل ترك هذا العمل. الآن، عدد العمال الزراعيين هنا قليل جداً.

بيير ل.: أوه! فهذا باب من أبواب الترف... والرهيب في الموضوع، أنك لا تجد أحداً، رغم انتشار البطالة إلى حدٍّ كبير...

هنري ف.: البطالة يُدفع لها تعويض أكثر مما يجب - لو أن جميع العاطلين عن العمل كانوا من جماعة الحد الأدنى للراتب، فربما كانوا سيحاولون إيجاد عمل... لكن هناك فارقٌ كبير... فالعاطل عن العمل الذي يحصل على الحدّ الأدنى للأجر يجد لنفسه عملاً. لكن ذاك الذي صار عاملاً مؤقتاً... (...). يعني بسبب نقاط كثيرة معلّقة... ذاك المساء، في

الجمعية التعاونية، عندما أخبرتهم أننا سوف نأتي لمقابلتك، طلب مني رئيس الجمعية التذكير بخطة إعادة التنظيم الهيكلي لأراضي الكرمة. فهذا حبر على ورق، فهم، على ما أعتقد، أعلنوا عنه منذ بداية هذا السنة، فاندفع الشباب. وغرسوا، وهم الآن ينتظرون «الفلوس»... فكلفة غرس هكتار بالكرمة، هذا شيء يبعث على الإحباط... دائماً يجب الانتظار هكذا... طيب، الأشياء الموعودة يجب أن تحصل...

❖ متى كان الوعد، بهذا ...؟

هنري ف.: هذا متداول من عام 82. (...) والعقد مع مناطق الـ «بابيز» أيضاً. ولم نر وصول أي شيء. انطلقنا في مصاريف، في هذا المجال... ولم نرَ أي شيء. (...)

{وقفة جانبية بشأن عمل الجمعية التعاونية للكرمة في «جورانسون». احتجاج على التنظيم الريفي الذي يُلزِم بتقطير النبيذ الفائض، علماً بأنها سنة ممتازة على مستوى إنتاج العنب. والأشخاص أنفسهم يتعرضون للأذى في سنة (بشراء الفائض منهم بأسعار حقيرة) أو للعجز المادي في سنة تالية (بعد حصول بَرَد مثلاً). «فهذا ما يحرق القلب، أنك خاسر في الحالين»}.

هنري ف.: والحكاية نفسها مع الحليب. شيء رهيب تطبيقهم الضريبة علينا في الوقت الذي تتصبّ علينا كل مشاكل العالم لتحقيق الإنتاج وعندك صناعة الألبان التي تطالبنا دائماً بالمزيد من الحليب؛ هم واقعون في الخسارة لتأمين دوران عجلة الإنتاج ويصرّون على تطبيق النظام علينا... مثل أصحابنا (اللهمّ إلاّ في الجبال حيث...). عندنا هنا الطلب على أشدّه... فعندنا التعاونية الزراعية في منطقة لون (ULP). (...)

{تتفق أقوالهما بشأن التنظيمات الريفية قانونياً، حيث يصفونها بأنها ظالمة خاصةً بحق المنتجين الفرنسيين؛ وأن المساعدات الموعودة يتأخر وصولها كثيراً أو أنها لا تصل بالمرّة وأن الكثيرين يروحون ضحية لتلك الوعود. «كم عندك هنا من خائبي الرجاء... ».}

هنري ف.: أنا، ما يخيفني قليلاً، هو أنهم {الشباب} لا يريدون تحمّل الكثير من المسؤوليات. نحن، من جهتنا، اعتدنا في فترة كان شغلنا فيها بمحض اختيارنا. كما كنا... كنا نحاول أن نجاري وقتنا... هذا يؤلمني. لأنه حين يرى المرء شخصاً مثل ذاك الذي عندي.

❖ هذا أمرٌ يرتبط بالمدرسة. إلى أي عمر ظلّ يذهب إلى المدرسة؟

هنري ف.: آه، لا! لم يكن هناك سوى السنتين اللتين قضاهما في «مونتوندون». من بعدها...

❖ كان في المدرسة حتى سنّ 16-17.

هنري ف.: حتى سن 18. لكن أظنه كان أكثر ارتياحاً عند انتهائه من المدرسة. لأنني كنت قد تركت له الخيار حينذاك. قلتُ له، «انتبه، عندنا أرض صغيرة، يمكنك أن تشتغل موسمياً في الجمعية التعاونية للحبوب وتكسب (...)». كان يريد الاحتفاظ بكل شيء. «فكر إذن، عليك آجلاً أو عاجلاً التفكير في شيء محدّد».

[...]

فكم اشتغلت بنفسٍ راضية طوال سنوات وأنا أقول لنفسي، «لديّ مورد، وهو يريد منه». لكن عندك... عندك الشباب يحرّضون بعضهم أيضاً. أحدهم لديه شيء، والآخر لديه شيءٌ آخر...

[...]

الأفكار التي تأتيني الآن، منذ... لم تكن هذه تصرفاته في الماضي، لكن منذ سنتين، حصل هذا معه مرتين في كل سنة، فيقول لي: «أنت أجدب، لماذا لم تغتنم الفرصة لتأخذ إجازة». وأقول له «ما شاء الله، لو فعلت ما كان عندك كل هذه المعدات تحت تصرّف جناب حضرتك». يعني، أنا أتذكرّ بهذا الشأن أن ابنتي عندما حصلت على البكالوريا، أحد وكلاء التأمين مرّ عليّ، «يمكنك أن تدفع لابنتك تكاليف عطلة جميلة». أدفع لقضاء عطلة؟ بالنسبة لي العطلة هي شراء أداة جديدة علاوة على ما عندي... بالمال الذي يلزم كلفة قضاء عطلة، أشتري أداة قد تجعلني أعمل

بسهولة أكبر قليلاً، يعني (...)، لأن من الآخرين من لم يشتر كل هذه الأدوات لكنه يعمل مع ذلك. أقلّ منّا. ربما كان في جيوبهم مال أكثر مما لدينا. الخلاصة، لم يكن عندهم الطموح نفسه. نحن لعلّنا... الانطلاق من لا شيء والرغبة والتصميم على فعل شيء، فهذا... هذا سيء جداً.

بيير ل.: الخطير، هو أن الأب يضيّع وقته في التفكير (...) بابنه، لأن الابن لا يرى أبداً ما يراه الأب... وعندك المحيط الذي له تأثيره...

هنري ف.: منذ سنوات قليلة ظننت أنه أصبح إلى جانبي على طول الخط، يعني، لأني عندما عرضت عليه أن يظل في الجمعية التعاونية...

❖ وزوجته، ما وظيفتها؟

هنري ف.: هي الآن موظفة في مكتب كسكرتيرة. عندها بعض التأهيل. ففتّشتْ عن عمل لكن لم تجد. والآن، هي في أمانة سرّ دار للعجزة في س. لكنه عمل مؤقت (...).

بيير ل.: هنا أيضاً، أصاب الإحباط هؤلاء الشباب الذين كان عندهم زوّادتهم من بعض التأهيل فهم... اشتغلوا... فإذا لم يحالفهم الحظ للقيام بعمل آخر، رضي بعضهم أن يتعلّق بعمله، بينما الآخرون أصابهم القرف، وهذا نهايته القيام بـ...

[...]

هنري ف.: (...) إنّما جميع الشباب الذين أخلي سبيلهم هم الآن يشتغلون بتهريب المخدّرات، إلخ.، من غير المقبول رؤية (...) عندما نرى الآن من الشباب من عنده أسلحة في بيته...

[...]

أعتقد أنهم في الحكومة السابقة، أعطوا رجال الشرطة بعض الحريّات لاستخدام السلاح، لكن أظن أنه كان من الأفضل القبول ببعض التجاوزات بدلاً من رؤية... (...) أنا شخصياً لا أفهم... عندما يقرّرون وضع حاجز للشرطة، ليس عليهم إلا حسن الاستعداد، فأول مشاغب يتحرّك... (...) ليس لنا أن نصيح في وجوه رجال الشرطة (...) حتى عندما يكون

أحدهم قد أطلق رصاصة إضافية، (...) هم يدينونه. أنا شخصياً عندما أقتل خنزيراً برّياً، فإن لم يمت من الطلقة الأولى، أناوله الثانية، وأ... وأضع نفسي مكان رجل الشرطة إذا... (...) يطلبون منّا... يوجد شيء صدمني. يطلبون (...) أجرة السرير في المستشفى لإنسان ذهب هناك للتداوي، ثم عندما نحسب كم يكلّف إيواء أحد كبار المجرمين في السجن، هذه فعلاً كارثة. الأفضل إخلاء بعض الأماكن هناك لتوفير الدفع على المواطن البسيط عندما يمرض ويضطر إلى دخول المستشفى... على أني أرى من بعيد... أنا لست من رأي جميع الآخرين. لكنني أرى بعض الأشخاص الذين يوجد أربع أو خمس قتلى برقبتهم (...) لا يمكنك أن تشفق على مثل هؤلاء الناس... فالمجتمع بأكمله هو الذي يُطاح به...

بيير ل.: نعم، نعم، البوصلة اتجاهها غلط (...).

هنري ف.: هم [رجال السياسة] من واجبهم التضامن رغم كل شيء في ما بينهم (...) إلى حدٍّ ما مثل محاميَيْن متواجهين: كل منهما يدافع عن موكّله، لكن في النهاية هما متفقان قبل المجيء إلى الجلسة. فهنا، في السياسة، يجب أن يكون الأمر مماثلاً...

❖ أحياناً يكون الأمر أسوأ بكثير في نفس...

بيير ل.: ... في نفس المجموعة.

هنري ف.: لكن مع ذلك، هناك الكثير من التساهل. مع كل ما يجري، ينبغي الاعتراف بأن المرء يفهم أولئك الذين يدافعون عن لوبان... هو، على الأقل، يقول بعض الحقائق...

1983

❖ ❖ ❖

كان من الصعب جداً تدوين هذا الحديث، وأحياناً تعذّر ذلك، بسبب سوء حفظ الشريط الذي سُجلّ عليه.

❖ ❖ ❖

كنت قد أدرت هذا الحديث، في 1983، بنيّة غامضة الملامح، نيّة إجراء ما يشبه تجربة ثنائية الأبعاد سياسياً وعلمياً: كنت بصدد إعطاء أناس أعرفهم منذ فترة بعيدة، من المزارعين، والعمال، والحرفيين، وصغار الموظفين، إلخ.. فرصة التعبير عن الضيق والاستياء العميقين، أي ما يصعب التقاطه ونقله على الأدوات العادية للتواصل بين «القاعدة» والـ «قيادات»، سواء أكان ذلك بالأفكار والتحريض من خلال المؤتمرات أو من خلال عمليات استقصاء الرأي العام. كان من رأيي بأن علاقة التحقيق التي يتم فيها التعامل مع الأشخاص الذين يتم استجوابهم عبر مستجوِبٍ يُنظر إليه على أنه قادرٌ على نقل أقوالهم إلى الجهات المعنيّة، ويستحق بهذه الصفة أن يُؤخذ على محمل الجدّ، سوف يحرّضهم على الخروج من الموقف الذي يتصّف بشيءٍ من عدم المسؤولية الذي تصفهم به التحقيقات العادية، ويجعلهم بالتالي يقدّمون أنفسهم بصفتهم ناطقين مفوَّضين، مصممين على طرح مشاكلهم، وهمومهم، ومطالبهم (مثلما فعل هنري ف. الذي كان بيير ل. قد طلب إليه أن يشاركه، نظراً لصفته «التمثيلية»، فأخذ على عاتقه الاتصال بالجمعية التعاونية للكرمة قبل المقابلة كي يكون أمامي على مستوى النقل الأمين لطلباتهم والوعود التي ينتظرون تحقيقها). وواقع الحال أنني أخذت وضعية المتلقّي كلّيّاً، وهذه وضعية استثنائية تماماً في الحياة السياسية وحتى في الحياة اليومية، فبنى الاثنان منطق حديثهما معي على اقتناص هذه الفرصة لقول كل ما كان يحزّ في نفسيهما: لقد فرضا عليّ، في معظم الأمور، المشاكل، الشخصية تماماً في الظاهر (مثل مشكلة رحيل الابن)، وهي المشاكل التي يرزحون تحت وطأتها، والتي، إذا نحّينا جانباً بعض الأمور مثل سعر الأرض أو المساعدات من أجل الوقود، تشترك جميعها بأنها مستبعدة كلّياً من عالم الخطاب السياسي الخالص. وفي هذا ما يكشف، بالاتجاه المعاكس، عن زيف وتكلّف الإجابات، التي يقدمها «المحقَّق معهم» العاديون، بشكل من أشكال الاستخفاف، ودون بذل أي جهد للتفكير، على المشاكل التي تفرضها عليهم (وغالباً تطرح طرحاً سيئاً) التحقيقات

الكثيرة المتمحورة، مثل معظم استفتاءات الرأي، على مصالح أولئك الذين يموّلونها و«يصيغونها في أذهانهم».

لقد جاءا ونُدبا لطرح بمشاكل سياسية، وعامة، فعرض عليّ محدّثاي مشاكل توصف بأنها شخصية أو خصوصية. فالقسم الأكبر من الحوار (لمدة أكثر من ثلاث ساعات) في ما بيننا دار حول رحيل ابن أحدهما. ورغم انتباهي، منذ فترة طويلة، لأهمية هذه المشكلة (وكنت قد وضعت في الستينات دراسة حول عزوبية الابن البكر في المنطقة)، لم أستوعب حقيقة ما كانا يقولانه لي. وهذا مردّه دون شك إلى أنني لم أجد في الأقوال التمهيدية (خاصةً بشأن «الشباب») للشخص الذي كان حاضراً أمامي بصفته «المسؤول الزراعي في المنطقة» إلا افتتاحية قسرية كان لا مهرب من «تحمّلها» قبل الوصول منها إلى «الأمور الجدية»، أي إلى ما كنت أنتظر منهما سلفاً. وأجد لزاماً عليّ الاعتراف هنا أنني لم أستطع، إلا من بعد تدوين الحديث بأكمله وتمثّل جميع ما ورد فيه بعمق، إدراك معنى ما لم يكفّ هنري ف. عن ترديده أمامي بلغة التزم فيها ضرورات التحفّظ الإعلامي، دون شك بغية المحافظة على اللياقة والكرامة، وأيضاً لتجنّب ألم اعتراف شديد الصراحة، وهي لذلك لغة صيغت بشكلٍ جيد كي توقظ الانتباه الشارد الذي نوليه لمظاهر البؤس عند الآخرين. لقد قال لي، إنما دون كلمات، لأنه لم يكن قادراً على قول هذا لنفسه، إن ابنه، بالمعنى الحقيقي، كان قد قتله. وكان لا بدّ لي من ملاحقة تسلسل الشرح، ذلك التسلسل الفريد والتعميمي، عن رفض استلام الميراث وبالتالي قتل الأب الذي أنتجه، لكي أفهم عندها، وعندها فقط، بعض الجمل من مثل هذه: «الشباب هذه الأيام قاسون جداً، ولا يأبهون بكونك ضيّعت كل حياتك» (فهنا «الشباب» استخدمت بدلاً من «ابني»، كما في جميع حديثه تقريباً)؛ أو هذه الجملة الثانية التي قالها بيير ل.؛ الذي وضعه أقل مأساوية إلى حدٍّ ما، إذ ابنه باقٍ معه في البيت، لكنه عازب، وهكذا فهو قريب جداً في وضعه من صديقه هنري ف. فلا يصعب عليه فهم مأساة ذلك الصديق، وها هو يقول: «يضيّع الأب وقته في التفكير بابنه، لأن الابن لا يرى أبداً بطريقة

الأب.» فالفهم الحقيقي لما هو مأساوي في العمق لا يمكن تحقّقه إلا بالالتفاف عليه بواسطة ما هو أبعد الأمور عن الذاتية، أي بالكلمات التعميمية، هنا، في بحثنا، ما كان بشأن تحقيق استمرار المورّث من خلال الوارث، وهو ما يندرج ضمن وحدة إطار وضعٍ اجتماعي يُخشى منه في مجمله. وليس ما يمنع من التفكير بأن النموذج المبني بخصوص حالة خاصة قد يمكنه مساعدتنا على فهم الهمّ المقيم (وهو همٌّ ليس بالطبيعي ولا الشمولي)، همّ الاستمرار على قيد الحياة من خلال الوريث أو الميراث (المادي أو المعنوي)، مثلما نراه يتجلّى في (وتحت) بعض الشروط الاجتماعية؛ أفلا يجب أن نرى فيها انتزاع الوجود بأكمله من قبضة العبث، وذلك بتجنّب انتهاء الغايات الفردية بانتهاء الفرد، تلك الغايات التي جعلت للحياة معنى (كما هو حال حماية اسم وشرف العائلة، إذا كان الفرد من النبلاء)، فهي إذا ما صارت إلى العدم والتلاشي جرّدت الحياة من معناها، الذي حملته عند خطّ الانطلاق؟

باتريك شامباني

السقوط

بيير ك. تاجر نبيذ في مدينة ريفية صغيرة عدد سكانها 3000 نسمة تقريباً، وتقع في شرق فرنسا. عمره يزيد عن 65 عاماً لكنه يرفض التقاعد، متعلّلاً، من بين أسباب عديدة، بالصعوبات، الحقيقية جداً، جداً، التي قد ترافق تصفية تجارته. أعرفه منذ فترة طويلة وكان لي معه، في لقاءات عديدة، من تلك الأحاديث العابرة التي تستثيرها تداخلات الحياة اليومية والزيارات العفوية أو الاضطرارية التي يدور الحديث فيها كيفما اتفق، عن حياة البلدة، عن أحوال الجو، عن العائلة، أو عن كل ما يُعتبر، من خلال نشرات الأخبار المتلفزة، «الأخبار اليومية» الوطنية. على أن المناقشات مع المقرّبين منه، من أصدقاء وأقارب، خصوصاً المناقشات المتعلّقة بمواضيع سياسية، بدأت منذ فترة من الزمن تقلّ وتصبح نادرة لأنّ خاتمتها تكون في كثيرٍ من الأحيان سيئة. هو خدوم، كريم، «قلبه فوق كفّه»، لكنه بالمقابل «إنسان حازم الطبع»، كما يقال، ولذا سرعان ما ينفعل، مطلقاً كلمات تُعتبر مُفرطة وتُحدث بعض الحرج، بل الاستنكار أحياناً («كيف يمكنك أن تقول هذا !»). ولذلك يتجنّبون الحديث معه في السياسة، تلافياً لهذه المشاحنات غير المجدية، علماً بأن كل حديث معه يمكن أن يؤدي إلى موضوع السياسة. وإذا ما انفعل، يتركونه يتكلم «النقاش معه غير ممكن» بانتظار أن ينتهي بلهجته الحادّة، من قول ما هو حريص على قوله، وما «يحفظه عن ظهر قلب» جميع من حوله.

يعطي الحديث فكرة صحيحة عن أقواله وعن طريقته في التحدث من خلال مونولوجات طويلة، دون أن يستمع فعلاً للأسئلة التي تُطرح عليه أو للاعتراضات التي يمكن أن توجّه إليه - فهو مقتنعٌ تماماً بأنه على حق - وهي مونولوجات يمكنه الانتقال فيها من الزيادة الأخيرة لنسبة ضريبة القيمة المضافة TVA على المشروبات الكحولية، إلى «الرجل والأب الطيب بيتان»، الذي كان معه كل الحق، وإلى ديغول، الذي يصرّ على التذكير بأنه «كان فاراً من الخدمة في عام 40». لقد أعدتُ تركيب هذه الأقوال كلمة بكلمة تقريباً وهو ما سمعته منه في السابق أكثر من مرّة، وهذه الصياغة الدقيقة تشكل الأهمية الأولى لهذا الحديث الذي أنقله دون أن يكون قد تشوّش بتكلّف التحقيق الصحفي، بل بيير ها هنا في وضعية تكاد تكون «طبيعية»: وقد قبل بسهولة وجود المسجّلة ثم نسيها تقريباً بعد فترةٍ وجيزة. لكن هذا لا يعني غياب كل رقابة ذاتية داخلية. فهو لن يقول مثلاً، إنه يصوّت مع لوبن كما أنه يخفّف من معاداته للثقافة والمثقفين وهو ما سمعته يتحدث عنه على المكشوف في ظروف أخرى (أما هنا، في الحديث فيكتفي بالإشارة إلى أولئك «الذين قاموا بدراسات عليا » لكنهم يعجزون عن قراءة كشف حسابات).

وإذا كنت لا أستطيع أن أندهش فعلاً من أقواله العدوانية التي كنت أسمعها منذ فترة طويلة دون أن أفهمها حقيقةً، فأنا بالمقابل أدهشني مدى انسجامها سوسيولوجياً فور إرجاعها (وهذا ما لا يحصل في الوضع العادي أو هو يحصل إنما بصورةٍ إشكالية) وربطها بالوضع الاجتماعي لقائلها. ربما كان جميع القريبين من بيير يعلمون أن تجارته لم تعد موفّقة ومزدهرة منذ فترة بعيدة وكنا جميعاً نتشكك قليلاً في مواقفه المتطرفة (فهو «رجعي» سياسياً، «أصوليّ» على المستوى الديني، «تقليديّ» في كل شيء) ونقول إنها على الأرجح انعكاس لوضعه المهني الصعب. ولكن، للإشارة إلى هذه التصرّفات وتلك الآراء وتسميتها فالأوصاف السياسية («هو عنصريّ»، «عنده أفكار يمينية مغالية قليلاً»، إلخ.) أو النفسية («هو مزاجي»، «نزق»)، التي غالباً ما ترد عند الحديث عنه، تعبرّ عن الرغبة في دمغ الأفراد بدمغة ما أكثر مما تعبرّ عن الرغبة في فهمهم.

وهـذا الحديـث، دون كـل مـا سـواه، لا يمكـن تقديمـه كمـا هـو لأننـا نجازف، حسب وضعية كل فرد في الحيزّ الاجتماعي، بأن نجعل منه روائز إسقاطية، نعرف من خلالها ردود الفعل تـأييداً أو اسـتنكاراً لا غـير. فأقوالـه تعبرّ- بالاستنكار الأخلاقـي («كلّهم يتنصّلـون ويهربون، مـا عـاد مـن احـترام لشيء»)- عن سقوط اجتماعي يبدو له غير عادل. وهو، بحدّ ذاته، التجسيد الحقيقي للفضيلة المعاقَبة، فيقول، إنه (إن كـان لا يعـرف كيـف يخـرج مـن ورطته فما ذاك إلا لأنه «أشرف مما يلـزم»)؛ وهـو ليس عليه أي لـوم بل ولا يشعر بأنه، في وقت ما من حياته، لم يفعل ما كـان يجـب فعلـه: فجميـع مصائبه، كما يرى، برمجها له «متآمرو المالية» والـ «سياسيوّن». فكل شيء جرى التخطيط لـه مسبقاً، وعن قصـد. وإذا كـان لا يتمـالك نفسـه مـن أن ينفجر، فذاك لأنهم اغتالوا التجارة الصغيرة الشريفة بوسائل غير شريفة (فما تفعله محلات السوبر ماركت الكبرى، هـذا مـا كـانوا يطلقـون عليـه فـي الماضي اسم الشعوذة والتحايل).

يعاني بيير من تدهور اجتماعي جاءه بثلاث صيغ مختلفة. كان وجيهاً هاماً في منطقة، ولم يعد اليوم سوى مواطن عادي من بين مجموع سكان البلدة. وكان تاجراً غنياً، فأصابته محلات السوبر ماركت بالإفلاس. وكان، أخيراً، يبيع نبيذ المائدة، المشروب النبيل، سابقاً، والعابق بروح وطنية صوفية، بل وحتى قومية (كان آنذاك المشروب الذي ساعد، على الأقل كما يتخيّل أبناء الشعب، «ذوي الشوارب في الأعوام 14-18»على الصمود وعلى كسب الحرب)، أما اليوم فقد فقد قيمته، حتى بات أحياناً موضع الازدراء (« الأحمر الفجّ») واستُبدل في الاستهلاك اليومي بالمشروبات التي هي، في نظره، أقل فرنسيّة، مثل الكوكاكولا أو الويسكي، أو الأقل طبيعية مثل عصير الفواكه المجفّف.

كان وارثاً عن أهله، ولكنه مع ذلك استلم الميراث دون حماس. فلم يكرّس أبداً كل الطاقة والوقت اللذين كان يجب تكريسهما لتجارته، مفضّلاً قضاء الساعات الطوال في ورشته الميكانيكية، ممارساً هوايته الحقيقة في

تصليح ما تيسرّ من الأدوات. والمشروع العائلي، عندما استلمه، منذ ما يقرب من 40 عاماً، كان في الواقع من أهمّ مشاريع المنطقة. فتجارة النبيذ، في ذلك النطاق الزراعي الفقير حينها، الواقع على مقربة من كروم الشامباني الغنية، كانت مجالاً مزدهراً غاية الازدهار: كان هناك، بعد الحرب، ثمانية تجار في المنطقة (اثنان منهما في بلدته نفسها). أما اليوم فلم يعد هناك سوى اثنين، و، عشية تفكيره بالتقاعد، ها هو يكتشف- وهو ما كان يعلمه الجميع على أي حال، إلى هذا الحد أو ذاك، ومنذ فترة طويلة- أنه عملياً في وضع الإفلاس. فمنذ سنواتٍ عديدة، لم يعد يمكنه الصمود إلا «بالإنفاق من أصل رأس المال» وبالاعتماد على المدّخرات الشخصية لزوجته (التي تدفعه، قدر استطاعتها، للانسحاب والتقاعد). وبينما كان يتنقّل في شبابه مستخدماً سيارة «هوتشكيس» فخمة اشتراها أبوه، هاهو اليوم يتنقّل في سيارة عتيقة مهترئة «أم حصانين» 2CV.

وقد بدأ سقوط هذا الولد الأصغر المدلّل لعائلة من أربعة أطفال منذ شبابه، حين رفض، على الرغم من تحريضات والديه، إنهاء دراسته الثانوية وتزوج، قبيل استلامه للمشروع، صبيّة منبتها من عائلة عمالية في البلدة. ورغم وقوف زوجته بنشاط إلى جانبه، لم يمكنها أن تؤمّن له رأس المال ولا الكفاءة (فهي لم تدخل المدرسة) اللذين كانا لازمين ليقوم بنجاح بالتغييرات الجذرية ولمساعدته في المحافظة على النشاط التجاري في قطاع اهتزّ اهتزازاً عنيفاً بتبدّل العادات الاستهلاكية ومنافسة أسواق السوبر ماركت. ولم تكن تلك حالة أخيه البكر، الذي استلم هو الآخر تجارةً للنبيذ في بلدة صغيرة واقعة على مسافة ما يقرب من ثلاثين كيلومتراً من المشروع العائلي، وقد استطاع التخلّص من التدهور بزواجه من ابنة عائلة فلاّحيّة غنية في المنطقة. أخته، هي أيضاً، نجحت اجتماعياً: فمن بعد دراستها الثانوية (وهو ما كان نادراً بين الفتيات آنذاك)، كان من حظّها «زواجٌ موفّق» من بائع تحف أثرية سليل عائلة معروفة من العائلات البورجوازية في مدينة ليون (وزواجها آخر زواج عظيم الأبهة في تلك البلدة الصغيرة وذكراه ما تزال في أذهان

النـاس): فصعودهـا الاجتمـاعي، الـذي تَمثّـل رمزيـاً، مـن بـين أمـور كثـيرة، بالمسكن الإضافي الفخم الذي استطاعت الحصول عليه في الجنوب، لم يكن من شـأنه إلا أن يعمّق لـدى بيـير وعيـه لسـقوطه الاجتمـاعي، ويجعلـه أقـلّ احتمالاً، وهو الذي كان يلتقي بأخته بشكلٍ منتظم، خصوصاً في العطل.

على أن هذا السقوط إنما هو سقوط مهنـة بأكملها وشكل كامل من أشكال التجارة. فتجارة النبيذ، التـي كـانت مرتبطـة أوثـق ارتبـاط بالحيـاة التقليدية في الأرياف، عانت مثل لسـع السياط من صدمـة معظم التغيرّات الكبرى- الاقتصاديـة والثقافيـة- فـي فـترة مـا بعـد الحـرب، وجميـع هـذه التغيرّات كان من نتيجتها الغياب الكلّي تقريباً لأنمـاط الحيـاة القديمـة، وفـي الوقت نفسه، تحطيم هذه المهنـة بصيغتها القديمـة. لقد هـاجر أبنـاء الريـف تدريجياً ممّا أنقص عـدد زبـائن المقـاهـي- المطـاعم فـي الريـف، وترافق هـذا التطور وتدعّم بـالانطواء العـامّ علـى جوّ الأسـرة. وهكذا تباطـأ نشـاط هـذا الصنـف مـن التجـارة تبـاطؤاً شـديداً، واضطـر معظـم التجـار إلـى التلاشـي. والاحتفـالات الريفية، التـي تمثّل إحدى أواخـر المناسبات لتكريم فئـة يـزداد تمزّقها يوماً بعد يوم، تشكّل اليوم إحدى اللحظـات القويـة النـادرة اقتصادياً واجتماعياً علـى السـواء لهذه التجـارة عندمـا تكون لا تـزال موجـودة. وطيلـة فـترة طويلـة، كـانت هـذه الاحتفـالات المحلّيـة القنـاع الـذي أخفـى عـن بيـير، جزئياً، سقوطه، لأنـها كـانت إحدى المناسبات النـادرة التـي يسـتطيع فيـها أن يشـعر أنه ما يزال لازماً وضرورياً، بل ولا يمكـن الاسـتعاضة عنـه بـأيّ بديل: فـهو يُنفـق حينـذاك دون أن يحسـب وقتـه وطاقتـه، ويقـدّم المشـروبات، ويُعـير بهذه المناسبة الطاولات والمقاعد الطويلة (التي يسمّيها فـي كشـوف حسـاباته «زينـة الاحتفـال»، وهـو مـا يسـبب لـه نزاعـاً صغيراً مـع مصلحـة الضرائـب)، إلخ.

عـلاوة على ذلك، كـان علـى تجـارة النبيـذ، شـأنها شـأن تجـارة المفـرّق، مواجهـة منافسـةٍ اقتصاديـة تتمتـع بقـوةٍ اسـتثنائية. فالتوجّـه الفـردي المـتزايد فـي استهلاك المشـروبات تولّتـه بشـكل رئيسـي شـبكات التوزيـع الجديـدة التـي

توسّعت في السبعينات، وخصوصاً شبكات المخازن الكبرى- السوبر ماركت. (فقد افتُتحت ثلاث صالات كبرى عام 1992 في البلدة التي يسكنها بيير). وهو يندّد تنديداً عنيفاً بالمخازن الكبرى التي، من وجهة نظره، تمارس منافسةً غير شريفة. وينتقد عدم كفاءة البائعين وأساليب الإدارة التي لا ترتكز إلى إدارةٍ شريفة كالتي يقوم بها ربّ أسرةٍ صالح، بل إلى « التآمر المالي» («فما عادوا تجّاراً، إنما هم مموّلون»).. لقد تغلغل النظام الرأسمالي المالي في منظومة التوزيع، وتحوّل المنطق الاقتصادي والمالي فجأةً إلى الاستقلالية المتزايدة، وما كان لهذا التغيير إلا أن يصدم قيمه الأخلاقية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتجارة الريفية التقليدية. وهاهو يعود، بشكل طبيعي تقريباً، إلى الاتجاه المعادي للسامية في انتقاده للرأسمالية المالية، أو في التنديد، بمنطق إيجاد كبش فداء، بالجمعيات الماسونية التي يصل تأثير نشاطها حتى إلى قلب الوسط السياسي.

يجسّد بيير تجسيداً تاماً التاجر الريفي التقليدي. فهو ينتمي، ويفخر بهذا الانتماء، إلى عائلة تجارٍ استقرّوا في البلدة منذ أكثر من قرن من الزمان، أمّا المخازن الكبرى التي توزّعت ضمن دائرةٍ لا يتجاوز محيطها كيلومتراتٍ قليلة، فيتولّى إدارتها مدراء يتغيّرون باستمرار، ويحتلّ بيير منذ بداياته وحتى تاريخه مستودعاً قديماً في عمق باحة داخلية، فزبائنه الدائمون هم حصراً وتحديداً من أبناء المنطقة. وقد تكدّست البضاعة في محله في فوضى كبيرة. وترى في تحرّكه مشية المتمهّل الهادئ الذي لا يستعجل أبداً. الزمن لا يكلّف شيئاً بالنسبة له، فلماذا يحسبه، يستوي في ذلك زمنه وزمن زبائنه، الذين يتوجّب عليهم في كثيرٍ من الأحيان الانتظار إلى حين تلبية طلباتهم. ولم يتمكن النشاط التجاري الذي يمارسه أن يستقلّ في يومٍ من الأيام استقلالاً كاملاً عن العلاقات الشخصية التي تربط بينه وبين زبائنه: فهو يتأخر في إرسال الفواتير إليهم وهم بدورهم يتأخرون أكثر في دفعها دون أن يخطر له أن يتشكّى من هذا، مقدّماً إليهم على هذه الصورة قروضاً مجانية، وتاركاً لزوجته مهمّة التحصيل عندما يبالغ بعض

الزبائن. وأخيراً، فهو ميّال إلى التكتّم بما يخّص إدارة مشروعه، ليس بغية إخفاء عمليات مشبوهة، لكن لشعوره بضرورة إفساح هامش من الغموض حول الدخل الذي يحصل عليه. باختصار، فهو جزء لا يتجزأ من تجارة تدور اليوم رحاها باتجاه الخسران و الضياع، ويجد دائماً سبباً وجيهاً لتأخير موعد تقاعده رغم أن زوجته تدفعه إلى الانسحاب.

وتثور ثائرته على الدولة التي لا تكتفي بأن تدفع للموظفين من أموال الضرائب، وهم في رأيه عديمو الفائدة وأعدادهم أكثر مما يجب، وإنما تمارس أيضاً علاوة على ذلك، إعادة توزيع لهذه الأموال في غير وجه حق: {ففي الماضي} «لم نكن ندفع الـ RMI، لم نكن ندفع هذا، لم نكن ندفع ذاك. هم مبسوطو اليد كل البسط في الحقل الاجتماعي، (فيزيدونها) فعلاً» .لا يعرف بيير إلا ما يمكن أن نسمّيه «الدولة الشريرة»، الدولة التي تسبب الدمار والإفلاس للتجار بالأعباء الاجتماعية الثقيلة، وتبتز و تختلس أموال المواطنين الصالحين بالضرائب، الدولة التي تجعل من «الدعاية» المعادية للنبيذ سياسة لها، رغم أن النبيذ نصح به - كما يقول - العالم باستور، أو هي الدولة التي تضطهد دافع الضرائب الشريف بمراسيمها المحكومة بوسواس التطبيق الحرفي. والتشدّد الأخلاقي الذي دمّر تجارته اقتصادياً يقوده إلى منازعات، خاسرة سلفاً، مع الإدارة الضريبية وهذا لا يمكن إلا أن يعمّق حقده وكراهيته حيال الدولة، والسياسيين والبيرقراطيات. وهو يرى، على أي حال، بأن وجود وزارة المالية في بيرسي، على موقع سوق النبيذ القديم، إنما يحمل ما يشبه الدلالة الرمزية. ورغم أن العديد من التعديلات في تجارة المشروبات لا علاقة لها إلا قليلاً، وأحياناً بالمرّة، بالتدخل الإرادي المقصود للسياسيين، فالإغراء كبير لدى أولئك الذين هم ضحية لها، كي يحمّلوا الدولة ورجال السياسة المسؤولية عن جميع المصائب.

هو مندمج اندماجاً قوياً بالحياة المحلية، وبالتالي فهو سجين العادات والقيم التقليدية، ولذلك فقد عانى، دون أن يفهمها حقاً، من التحوّلات التي أصابت مهنته والمجتمع الريفي. وهكذا، فقد رفض، على سبيل المثال،

التشارك مع تاجر آخر من المنطقة لشراء النبيذ بكميات كبيرة من المنتجين لأنه لم يكن يريد أن يختفي اسمه في المعاملات التجارية. وبتحويله لعجزه عن التغيّر إلى اختيارٍ انتخابيٍّ في الماضي، فلم يكن بإمكانه أبداً أن يتحلّى بالقدرة على التنبؤ بالتغيَرات - وهذا ما يقوله، إنما إنكاراً، عندما يردّد أن «كل هذا كان متوقعاً»-، كما لم يستطع اتخاذ القرارات اللازمة للصمود في هذا القطاع. وحتى هذا اليوم، مازال يتكلم عن التغيرات السالفة كلاماً مبهماً، والاستراتيجية الوحيدة التي يتبناها، «لو كان عليه الرجوع من البداية»، مازالت هي، على وجه الخصوص، أنه ما كان ليفعل أي شيء. ولا يدلّ عجزه على افتقاره إلى بعد النظر: فهو يعرف جيّداً الآليات الاقتصادية التي انهالت ضرباتها على تجارته (وقد اقتطعنا كثيراً من تحليلاته التقنية جداً أثناء الحديث). هو لا حاجة به لفهم ما يحصل، لأنه يعلم ذلك سلفاً. إلا أن كل شيء يدفعه إلى رفض هذه التحوّلات ويقوده إلى دمار يعلم أنه لا مهرب منه.

ويطرأ على قريته التحول حتى ليصعب التعرف عليها، فهو لم يعد يشعر فيها أنه بين أهله و إخوانه. ويسيطر عليه الشعور بأنه ضحية غزو من الغرباء الذين يرى فيهم علّة شقائه (هو لا يعرف المهاجرين الذين يثور عليهم إلا من خلال الأحداث المتنوعة المبثوثة تلفزيونياً). ولذا تراه يؤمن بحراسة الحدود التي تحمي و تطمئن. وهو مع إعادة إقامة الحواجز المادية، ويأسف، مثلاً، لسقوط «جدار برلين» الأمر الذي يخشى أن يفسح الطريق لتدفق الروس على أوروبا، ومن بعدها، مجيء «الوباء الأصفر». هو مع إعادة تأسيس الحواجز الأخلاقية، وإذ ينـدّد بالحقوق المتجددة باستمرار والمطالَبِ بها، فهو يقدّر أن من الأفضل التذكير بالواجبات والالتزامات التي، في رأيه، هي الوحيدة التي تسمح بتحديد التطلعات تحديداً معقولاً.

وقد كانت أقواله العنيفة متناسبة مع عنف المجتمع، خصوصاً السياسي والاقتصادي، وهو العنف الذي حل به وقاسى منه والذي، يوماً بعد يوم، دمّره وأصابه بالإفلاس هو، وزوجته أيضاً، وقد وصل الزوجان مراراً

إلى حافة الانفصال. لقد سجن نفسه داخل مفهوم الرجل الفحل المسيطر، الذي يعلم كل شيء ولا يحتاج، خصوصاً، لأن يتلقى دروساً من النساء («النساء الصالحات لا يفهمن شيئاً» هذا ما قاله لاحقاً في الحديث أثناء ظهور خاطفٍ لزوجته)، وهو بهذا لم يحسن الإصغاء إلى ما كانت تشير به زوجته عليه منذ فترة طويلة («عنيد عناد البغال»، هذا ما تردّده في اغلب الأحيان)، واضطر إلى أن يواجه بمفرده وضعاً متأزماً كان يتجاوزه. ولقد اكتفى، خاصةً، في إطار ذلك المجتمع الريفي الصغير الذي لا يغيب فيه شيء عن كائنٍ من كان، بالتنديد بالإجراءات النادرة التي اتُخذت في صالح التجارة وهو يقارنه بالمساعدات الهامة التي قُدّمت إلى المزارعين كي يتمكنوا من تحديث عملهم. فكيف يمكنه ألا يكون على يقين من أنهم «فعلوا كل شيء» من أجل أن «ينفلق التاجر ويخلي الساحة» وكيف يمنع نفسه من التفكير بأنه «لم يعد باقياً أمامه إلا تناول الحبل ليشنق نفسه»؟

مع تاجر ريفي

حديث أجراه باتريك شامباني

«نحن، اغتالونا»

❖ عندما أخذت موقعك {في بداية الخمسينات}، هل كان لتجارة النبيذ أهمية في نظرك، وهل كنت تراها ذات ديمومة، كيف حصل معك ما حصل؟ ومتى بدأت تشعر أن الأمور في تدهور؟

بيير: كان من المناسب استلام تلك التجارة والاستمرار فيها. كانت مهنة متماسكة، تقف على قدميها بقوة. أما الآن، فتوجد سياسة ضد النبيذ، ضدّ استهلاك الكحول، وقد استندت السياسة المعادية للكحوليّة ضدّ النبيذ وليس الويسكي أو باقي المشروبات الروحية، ومن ثمَ شهّروا بالفرنسيّ باعتباره أكثر المدمنين رسوخاً في العالم قاطبة، متناسين المدمن الروسي، أو المدمن الأمريكي على الويسكي و البيرة. وفي جميع التشخيصات للإدمان الكحولي، لم يأخذوا أبداً بعين الاعتبار استهلاك البيرة، بحيث ظهرت فرنسا أكثر بلدان العالم إدماناً. فلو أخذوا استهلاك البيرة بالحسبان، يعني، ما كنا ظهرنا أسوأ من أي بلد آخر.

❖ تقصد أن الأمر بدأ يسوء شيئاً فشيئاً في هذه التجارة، مع الحملات الدعائية لمحاربة تعاطي المشروبات الروحية في ظل حكومة منديس؟

بيير: أي نعم! منديس فرانس! كان على رأس مهزلة حدّث ولا حرج، وهو الذي بدأ بإنشاء مصنع للحليب في منطقة تورنوس. وأنا رأيت المصنع وهو يُبنى في عام 56. وبدأوا يقدّمون الحليب في المدارس وفي الجيش، لكن خانهم التوفيق. فالمصنع الذي أنشأه هناك، كان محض حلمٍ مجنّح تسيطر عليه فكرة ثابتة لا علاقة لها بالواقع، إذ أن منطقة السون واللوار لم يكن باستطاعتها إمداد المصنع بحاجته الكاملة، فتوجّب جلب الحليب الطازج من الآردِن ومن جميع المناطق الأخرى حيث يتوافر البقر الحلوب. وهذا معناه أن الحليب الطازج الذي كان يصل إلى المعمل يكون قد حُفظ لمدة ثلاثة أيام، فهو لا يعود طازجاً بالمرّة. من بعد هذا، وضعوا تشريعاً، بشأن الحليب، يمنع بيع الحليب الطازج في البلدان التي يقلّ عدد سكانها عن 3000. وهم اليوم يسقونك الحليب الخالي أو نصف الخالي من الدسم، بينما الحليب الطبيعي الطيب، الخارج من «بزّ» البقرة، لم يسبّب الموت أبداً لأي إنسان. ولم يكن عند المواطن نسبة كولسترول أعلى مما هي عليه الآن. وعلى أي حال، ففي يومنا هذا، لم يعد في زاويتنا أية بقرة حلوب. لقد اختفى البقر الحلوب، لأن الاتفاقات الأوروبية كان من شأنها إغراق السوق بالحليب (....) فكانوا يبيعون حليب البودرة إلى إيطاليا من أجل تربية العجول الفرنسية. ومع معونة من أجل التصدير! ومتى قلت معونة، فحدّث ولا حرج عن الفهلويات وتنافس مراكز القوى، في بعض المستويات، بين الناس المسكين بمقاليد اتخاذ القرار.

هذه هي النهاية، فرنسا في حالة إفلاس

❖ هل يمكنك أن تحدّد متى بدأت تجارتك بالتدهور؟

بيير: أوه! يمكن بكل سهولة تحديد كل هذه الأمور. كان هذا متوقعاً. فالعسكري الجيد هو سياسي رديء، صحّ أم لا؟ والسياسي الجيد اقتصاديّ رديء. هذه «الشورية» التي غطسنا فيها - أقول شورية، لأنّنا لسنا الوحيدين، بل كل شيء {في كلّ مكان}. على أننا لا يجوز أن نُجري مقارنة مع البلدان الأخرى، نحن علينا أن نرى ما يجري في فرنسا. فلم يكن أسهل

عليهم من أن يقولوا، «أغلقوا مصانع الحديد، فالأفضل شراء الحديد من بلدان أخرى بدلاً من إنتاجه محلياً، لأنه يكلّف كثيراً عندنا». هذه مناقشة منطقية قائمة على المغالطة بالتبسيط. وهي ليست سياسة يمين أو يسار، هي قضية أفراد ارتأوا اتخاذ قرارات. فخلقوا العاطلين عن العمل، الفلزّ ما يزال موجوداً في ترابنا، لكننا لم نعد نحسن استثماره. خلقوا كل هذا وها نحن اليوم ولم يعد لدينا ما نفعله، وكل ما يبرعون فيه إخراج النقود ليشتروا بها من الآخرين. من اللازم معرفة المطلوب! نريد أن نشتغل أو ألاّ نشتغل.

❖ لكن، تجارتك أنت بالذات، يعني، متى شعرت..؟

بيير: عظيم، يعني أنا، تجارتي من أبسط ما يمكن، فقد تطوّرت في اتجاهٍ معيّن، مثل كل ما يتطوّر وهذا طبيعي إلى حدٍّ ما. لكن اقتصاديينا أخطأوا في حساباتهم، أو هم، على أقل تقدير، قاموا بهذه الحسابات في ظل منظومة شاءوا لها تعطير قسم من الناس على حساب جميع الآخرين السائرين في طريق الانهيار، بل هم انهاروا. ليسوا في طريقهم إلى النهاية، بل هم انتهوا. هذه هي النهاية، فرنسا في حالة إفلاس في وقتنا هذا، بعد أن اصبح بإمكانها جرّ القدمين نحو أوروبا لتطلب من أوروبا أن تتولّى أمورها لأنها غير قادرة على إدارة أمورها بنفسها والآن من المستحيل معاودة النهوض. من اللازم ما لا يقل عن عشر سنوات، إذا مشت الأمور على ما يرام، وإذا أراد الجميع العمل من جديد، لإعادة إنهاض الموقف على قدميه، وهذا، أنا غير مؤمن به. كل ما حصل كان متوقّعاً. أما أولئك الذين لم يتوقّعوا هذا ولم يتنبّأوا به فمن الواجب إعدامهم بالمقصلة. من الواجب «درزهم» بالرصاص. لأنهم كانوا يعلمون ماذا سيحصل.. أو أنه لم يستمع أحد لرأيهم، أحد احتمالين لا ثالث لهما.. فلعلّ إشارة الخطر وصلتهم، ولعلّهم قالوا، «أوه أما انتهينا من هؤلاء المجانين العتيقين.. هؤلاء الرجعيين المتخلّفين، فالمستقبل هو..». المستقبل عليه أن يمشي هكذا، فلا يجوز الوصول إلى السقف، لأنك عند السقف، تصبح في بداية الهبوط المتدحرج. وها نحن الآن و قد «سقّفنا»، وها نحن وأنوفنا في طريقها للتمرّغ بالتراب. هذا بسيط جداً، هه.

❖ أنا أسألك عن تجارتك أنت بالذات، متى شعرت بذلك؟

بيير: إيه، يعني، تجارتنا، هوجمت- أقول عن عمد هوجمت- بالنبيذ. فهم «قرّفوا» الناس من شرب النبيذ.

❖ في أية فترة حصل هذا؟

بيير: آه! عندك منظومتان. منظومة للدعاية تُثمر جيداً. ومتى قلت دعاية، فأنت في حقل الإعلان. لقد دعموا سياسة عصير الفواكه المصنوع لا من عصير الفواكه الحقيقي، إنما من الفواكه المجففة، المحوّلة إلى مسحوق، المجففة بالتجميد، التي نضع الماء داخلها و«نعبّها» هكذا، التي إن وضعتها في زجاجة، ثمّ نظرت إليها تحت عدسة المجهر بعد ثلاثة أيام، تجد الجراثيم تملؤها. هذا ممتازٌ للأمعاء، لأولئك الذين لديهم نوعٌ من الكسل من هذه الناحية، فهي فعالة! لكنها ليست طبيعية. بدءاً من اللحظة التي تأخذ فيها حبّة فاكهة وتعصرها، وتضعها في كأسك، فإنّك تستهلك شيئاً طبيعياً. أما إذا أخذت مسحوقاً ووضعته في الماء...، أثناء تناول الناس لهذه القذارات، يعني! ما عاد أحد يشرب أي مشروب آخر، مثل نبيذ المائدة. هم قرّفوا الناس من شرب النبيذ عندما أطلقوا عليهم اسم: مدمنين على الكحول. لقد انتبهوا إلى الخطأ الذي وقعوا فيه، وفي عام 78، اتخذ جيسكار ديستان قراراً بنشر الدعاية للنبيذ(...). وقد فُرضت ضريبة سنتيمٍ واحد لتمويل الدعاية الموجّهة لإعادة الروح إلى استهلاك النبيذ، بعد أن أمضوا عشرين سنة وهم « يخبطون» على ظهر النبيذ لأنه كحول وسكّرٌ وعربدة! وكان هذا قولاً مغلوطاً. خذوا ما كتبه باستور، فالنبيذ جزء من النظام الغذائي. وهو مثل جميع ما سواه، فإذا أفرطت في شرب الويسكي، سكرت. وإذا أفرطت في شرب النبيذ، أطاشك السكر، وهذا لا يعني أنك مدمن. ثم، هم غيّروا طريقة التوزيع، ومع هذا التغيّر لم يعد الناس يأكلون في المطاعم الصغيرة. فهذا المطعم - المشرب تدحرج منقلباً ثلاث مرّات. فهو يأخذ أسعاره معفاة من الضرائب {على المشروبات التي يشتريها}، فيضاعف سعر البيع ثلاث مرّات. وهو مجبر على هذا لأن هذه المشروبات

في تصنيف الأعمال التجارية تُستوفى منها في النهاية ضريبة على أساس ثلاثة أضعاف السعر المعفى من الضريبة الذي يدفعه التاجر أساساً. أما الناس عموماً، فوُجِّهتهم إلى المخازن الكبرى لبيع الكحول التي هي أقل سعراً حتى من مصدر الإنتاج، يستوي في هذا الريكار والويسكي. هنا أيضاً لديك نشاز فظّ معيب. وعبثاً يحاولون التستّر باسم الشراء بالجملة، أو كيت، أو كيت، فهذا غلط في غلط(...). فهل تتكرّم وتشرح لي كيف يمكنهم بيع الويسكي حتى بكميات كبيرة بهذه التسعيرة المنخفضة؟

❖ لابد أنك تعرف، أنت، كيف يتمكّنون من هذا؟

بيير: كيف يفعلون؟ على عيني، فلا بد من استمرار نص عتيق من القانون السابق لعام 68، قبل تعميم الـ TVA. {شرح لي التشريع المالي الشديد التعقيد حتى أن النواب أنفسهم، في رأيه لا يعرفونه معرفة صحيحة.} باختصار، أقول لك إن المشكلة هي في أولئك الذين باضوا بنود تشريع دون أن يعلموا كيف يمكن تطبيقه. وهم لا يعلمون هذا حتى تاريخه(...). فالمخازن الكبرى لا تدفع الـ TVA في مديرية الضرائب في المحافظة، بل يدفعون مباشرة إلى وزارة المالية حيث لا يدري أحد كم يدفعون(...). قد يكون للمخازن الكبرى مستحقّاتها من الـ TVA أو امتياز ما على التجارة التقليدية، وأما نحن، فعالقون في الفخ... والعامل المأجور عالق مثلنا، فهو... بالمختصر، يشتري الآن كل ما يلزمه من السوبرماركت فمنذ 15 سنة -لأن تاريخ هذا، حكاية عام الـ68، يعود إلى 15 و20 سنة) - بدأ افتتاح المخازن الكبرى في 68... 69 أو 70. وفي ذلك التاريخ، تبيّن لي بالاستقصاء، وجود شطارة الـ 20٪ على الـ TVA.

[...]

المخازن الكبرى، أنا اسمّيها «الوكالات الاستعمارية»

❖ إذن، أنت، من بعد الـ 68 حصل معك...

بيير: بعد الـ 68، كان.. «الخرى». نعم، «الخرى» بسبب تعميم

الـ TVA. فمن جهة، خسرت مراكز الأقضية ضرائبها المحلية. لم يستعد رؤساء البلديات ميزاتهم أبداً. علاوة على هذا، في الأرياف، اضطر جميع صغار التجار للهرب، لأنهم خضعوا من بعد عامي 72 أو 73 للتأمين الإلزامي بحسب الضمان الاجتماعي. فاصبح على السمّان الصغير، أو الفرّان الصغير، أو اللحّام الصغير الكثير من الالتزامات الباهظة، بحيث لم يعد بإمكانه حتى أن يؤمّن لقمة العيش. كان يمكن له أن يعمل عشر ساعات أو 12 ساعة يومياً، وحين ينتهي من الدفع - أحياناً كانت امرأته تعمل معه - لا يتبقّى بحوزته حتّى راتب شخصين في نهاية العام حين ينتهي من دفع الضريبة المهنية. (...) حسناً، حسناً، كل هذه الأمور قلبت الأحوال رأساً على عقب، ثم اختفى كلّ شيء. وحين بدأت تظهر المخازن الكبرى بعد بضع سنوات، وجد صغار التجار أنفسهم مضطرين، إمّا بسبب العمر أو لأسباب مالية، بسبب نقص المبيعات... وفي مطلق بلدة صغيرة كان عندك الفرّان الصغير وما شابه من الخدمات. كان عندك كل ما يلزم لتموينك في متناول يدك، عند باب الدار، عظيم، فالآن تدوخ في ست أو ثماني مناطق قبل أن تتوفّق بتاجر في هذه الزاوية أو تلك. لقد فرّغوا كل شيء. لقد وضعوا الضريبة من أجل هذا، يعني تحديداً (...) لأن هذا كان مخطّطاً له «و على الدوزان» لدى اقتصاديينا، أن «الوكالات الاستعمارية»- أعني المخازن الكبرى فأنا أسميها «الوكالات الاستعمارية» - أن الوكالات الاستعمارية سوف تلتهم جميع صغار التجار حتى لا يستطيع أحدهم في النهاية أن يبيع تجارته. وحينذاك تدفع هذه الوكالات الاستعمارية ضريبة الغرض منها توفير دفع تعويض للتاجر الذي يصل إلى سن التقاعد ولا يبيع تجارته. إذاً، من البداية كانوا يقدّرون لهذا العجوز أن «يفطس» و«ينقلع». والمبدأ نفسه بشأن صنف تجار النبيذ، إذ قدّروا لهم أن يفطسوا وأن ينقلعوا. لقد نظّموا سياسة معادية للنبيذ، والدليل على ذلك في باريس، حيث النبيذ هناك... لأنّ تجارة النبيذ كانت طاقةً كامنة، بشراً، شيئاً قائماً بذاته، تديره المؤسسة المختصة، وتدرّ الأموال على الدولة. سوق النبيذ، لقد بدأوا سياسةً ضدّ النبيذ... لقد قاموا بسياسةٍ ضدّ النبيذ، لكن هذا الأمر أفادهم للإستيلاء

على مساحاتٍ كبيرة (من الأرض) في باريس. فطار أول ما طار سوق هال النبيذ الذي بنوا فوقه المدرسة الطبية {في الواقع قام هناك بناء كلية العلوم}. معي في هذا؟ ثم استمرّ دوران الدولاب، إيه فعندك اليوم بيرسي، التي جُعلت مجمّعاً رياضياً، ثم تابعوا في بيرسي فأنشأوا وزارة المالية. أي نعم، أجهزوا إجهازاً تاماً على مهنة بأكملها كي يشيّدوا وزارة المالية على طرف من نهر السين، وتقابلها في الطرف الآخر المدرسة الطبية {يستطرد حول الطب}. إذن، بالطبع، الطبّ هو أيضاً نظام... لديك شبانٌ صغار، ولا تعرف ما الذي تفعله بهم، تجعلهم يقومون ببعض الدراسة، تجعل منهم... نبدأ بالطبّ البيطري، هو أقوى، فالطبيب البيطري كي يصبح طبيباً، يجب أن يقتنع بهذه المهنة. إن لم ينجح في الطب البيطري، بإمكانه أن يتحوّل إلى الطبّ البشري، {وإن فشل} في الطبّ البشري، بإمكانه أن يدرس طبّ الأسنان، و{إن فشل} في طبّ الأسنان، يمكن أن يجد نفسه معالجاً فيزيائياً، ثم ينتهي الأمر بهذه الصورة، ربما صيدلانياً. {الأطباء} آلة توقيع، فالضمان الصحي هو من يدفع الفارق! إن كنت مريضاً، فالضمان! حين كنا نمرض، ولم يكن هناك ضمان، ربما لم يكن الأمر أفضل، لكن كان الأمر مبالغاً به جداً (...). لو كان الطبّ مجانياً، لكان لديك طبيبك الذي يعالجك، ولكان عدد الأطباء أقل، لأنه ينبغي أن يكون لديهم حماس لهذا العمل، ولن يعودوا تجاراً، وهذا يثقل على نظام إعادة الربحية في إنتاجية فرنسا. هذا شديد الثقل.

ويشرح رأيه في إجحاف نظام التأمينات الاجتماعية والصحية التي «تشفط قروش الربح القليلة عندك دون أن تؤمّن لك بالمقابل عناية علاجية أفضل».

ما عاد هناك تجّار، هؤلاء رجال مال

❖ هناك إذاً أعباء وتكاليف، لكنك قلت أيضاً إن هناك تنظيماً يشجّع نشوء المخازن الكبرى.

بيير: لأنهم يشترون كمية كبيرة، فلهم أسعار خاصة. وأنا رأيتهم في

بعض المخازن الكبرى يبيعون البيرة في صناديق صغيرة لست زجاجات، مع جميع الضرائب ضمناً بالسعر نفسه الذي أشتري أنا به البيرة بالتعليب الكامل، ومعفاة من الضرائب، ومن المصنع مباشرة!

❖ كيف يكون هذا ممكناً في رأيك؟

بيير: عال، وأنا طرحت هذا السؤال على المصنع، لكنهم لم يردّوا أبداً. سوف يقولون لك في جوابهم إنني أشتري صندوقاً أو خمسة صناديق أمّا هم فيشترون مقطورتين أو ثلاث مقطورات، أو أربع مقطورات بيرة. فمن جهة. كانوا قد منحوا في يوم من الأيام حتى 120 يوماً مهلة دفع- وقد منع هذا اليوم وعادوا إلى 90 يوماً. لكن تخيّل المبلغ المرقوم بالقياس إلى ما يباع يومياً والمال الصافي الذي يدخل إلى جيوبهم قبل أن يدفعوا ثمن المقطورة الأولى من البيرة أو من الويسكي أو من النبيذ. فماذا يفعل هذا المال؟ وأين يذهب هذا المال؟ فهذه شركات مع حواسيب، فينظّمون الجَرْد الأوّلي في 15 يوماً، ويعلمون بالتالي النتائج الفعلية لمشروعهم- هم ما عادوا تجاراً، هؤلاء رجال مال- ويرتّبون بالتالي ما يُسمى فوائض الجَرْد. (...) وهنا يكون التنافس التجاري والتلاعب. فلا تعود أمام تجارة تقابل تجارة منافسة؛ لأن القانون التجاري لا يعني «بلف» الزبون. وفائدة تاجر من التجار، هي تحقيق توازن ميزانيته، وما يتبقىّ له فهو مقابل الخدمة التي قدّمها لزبونه عندما قام بتموينه، ووضع بضاعة في متناول يده، وهكذا دواليك. أما المخازن الكبرى فليست تجارة. هي تجني فوائد مالية... وأنا أسمّي عملهم بالتحايل، أنت معي، في زمننا كان اسم هذا السلوك البيع الاحتيالي: فالسلعة تباع ثلاث مرات قبل أن يكون ثمنها قد دُفع.

{يضرب بيير مثالاً إحدى بيوتات النبيذ التي قام أصحابها بتحديثها كي يعملوا مع المخازن الكبرى ولم تستطع الالتزام بالأسعار التي فرضتها تلك المخازن}.

في المخازن الكبرى، يتجمّع المال في الصندوق قبل أن تدفع للمورّد! المخازن الكبرى تبتلع جميع مورّديها. (...) في مدى أربع سنوات من الزمن،

أصبحت بيوتات النبيذ جرداء! لقد ابتلعوا كل شيء، الكروم، والقصر، وكل شيء! كل شيء بيع لنمرة من لندن كان قد سبق له شراء ملكية في منطقة بوردو. واليوم، هو في لندن، باقٍ هناك- فهكذا تكون البطالة - وعنده مكتب، ما أدراني، وأربعة أو خمسة موظفين، شيء من هذا القبيل، وفي المستودع هنا، بقي موظفان أو ثلاثة. فيُخزّن المحصول في الأواني، ويأخذون صهاريج النقل المليئة بالنبيذ إلى بوردو، حيث تكون التعبئة في القناني، ومن ثم يُشحن كل شيء إلى الخارج، وعلى الدنيا السلام. أما الفرنسيون، فلم يعد لديهم نبيذ، وأما المشروع الفرنسي، فكبّر عليه، لأنه اختفى. هو مشروع يفتقر إلى كوادره. كل شيء انتقل إلى يد الأجانب. لماذا؟ لأنهم لعبوا ورقة المخازن الكبرى!

الرأسمالية المالية نوع من أنواع القوادة.

❖ من يقف وراء الإجراءات لصالح المخازن الكبرى؟

بيير: هي تمر من خلال السياسة، من خلال رجال السياسة وراء ستار...

❖ من تحديداً يريد هذا؟

بيير: النظام المالي! نعم، هذه هي المضاربات المالية. ومن لفّ لفّ هذا الوسط. عندك فِرَق. الفرق الدينية لا نريد أن نتكلم عنها أكثر مما يجب. فالكاثوليك لا شأن يذكر لهم، هم يصلّون؛ والبروتستانت مثلهم. بالمقابل، عندك فرق متماسكة وأصلب مما يخطر لك، فمن جهة اليهود، ومن جهة جماعة الماسونية. هم متلاحمون عندهم قنواتهم في الوسط السياسي، عندهم القنوات في الميدان المالي، والمال عصب كل شيء. النظام الرأسمالي في حدّ ذاته لا غبار عليه. أما الرأسمالية المالية فهي نوع من أنواع القوادة. فنحن، المشاريع، صغار التجار، لو أعطونا في الصناعة والتجارة من 30 سنة التسهيلات المالية للاقتراض بفائدة أقل من 10٪، لكنّا بألف خير. نحن في هذا القطاع منذ 30 سنة، من 50 سنة، بل أقول من 100 سنة أيضاً لأن

أجدادي آنذاك كانوا قد بدأوا بمزاولة هذه التجارة، لكن، على أي حال، لنقل إن بيتنا التجاري كان في موقعه منذ مطلع القرن. كان علينا القيام بكل شيء. فليتهم أعطونا تسهيلات لشراء المعدات، وللدخول في النمط الحديث، مجاراة لتطور الزمن... لأننا بدأنا توزيع النبيذ في براميل خشبية، ثم انتقلنا بعدها إلى عبوة الليتر، فكان يجب أن نتزوّد بالصناديق، بالقناني، بآلات الغسيل، ومن جميعه. فهذا قسم من التطوّر.

[...]

وحالياً، «تتصُب» علينا البنوك. إن كان لديك عجز، فالفائدة تبلغ 18٪. قل لي، فبأي ثمن يجب عليك أن تبيع السلعة كي تتمكن من دفع فائدة الاقتراض البالغة 18٪؟ وعلى فرض أنك وفرت بعض سنتيمات قليلة كربح تأتيك الدولة «لتركب عليك» بورقة الضرائب! خبّرني، فماذا يبقى لك؟ يبقى لك الحبل لتشنق نفسك. فهكذا تنتهي أعمالنا. أترى، إنها سلسلة كاملة. حسناً، خلال الحرب، فإنّ الأب بيتان، الذي كان عجوزاً ماكراً – لحسن الحظّ أننا حصلنا عليه، لأنّ جماعة بوش كانوا سيأخذون على مراكبهم عدداً أكبر من الفرنسيين وربما كانوا سيرمون بالبزة على ظهر الفرنسيين بالقوة، لقد أخذوا متطوّعين، لكن موضوع المتطوعين هو شأنهم الخاص – لكن لولا الأب بيتان... لأنّ هتلر كان يحترم بيتان، فقد كان من المحاربين القدماء في حرب الـ 14، وكان من الذين يوصفون بالصلابة. على كل حال، أنا أعتبر أنّ ديغول، الذي هرب في العام 1940، وكذلك توريز، حيث أنّ توريز ذهب إلى روسيا عام 40، وهو هرب، أي أنّه هرب مثله في ذلك مثل الكثيرين الذين كانوا في إنكلترا ثمّ بقوا فيها.

{يستعرض بيير تحديث مزارعي المنطقة وينددّ في تلك الأثناء بالفوائد التي جناها بعضهم من القروض ذات الفائدة التشجيعية بتحويلهم لجزءٍ من هذه المساعدات إلى إيداعاتٍ للمضاربة والاحتكار. ويورد، بقليلٍ من المرارة، كيف أن الفلاحين الذين كانوا فيما مضى فقراء أصبحوا أغنياء (يقصد أغنى منه) رغم انهم يعملون كموظفين «120 يوماً في السنة، أو 150

يوماً في السنة، أي تقريباً دوام المعلّم الابتدائي.. فهم ينتظرون نموّ مزروعاتهم(؟)».}

❖ ❖ ❖

طالما قلت وأعدت، إنّ عار الرأسمالية المالية يتمثّل في أنها عملت على تكريس التضخمّ، إذن، فاعتباراً من اللحظة التي بدأوا فيها بذرّ الرماد في العيون، راحت الأمور تتهاوى وازدادت سرعة السقوط بعد عام 68. لكن حتى من قبل الـ 68، صار من الصعب المحافظة على التوازن. وأبونا ديغول، رضي أن يمتطيه جماعة الجزائر، عندما أعاد فرنسيّي الجزائر من عام 62، فضاعت منه مقاليد الأمور بعد الـ 65. لأن الفرنسيين العائدين من الجزائر، فهؤلاء مستعمِرون كانوا قد تمرّسوا باستغلال العرب (...). فهؤلاء الناس، في سنوات قليلة، عادوا إلى التسلّل، والتغلغل في جميع الخدمات - إلى حدٍّ ما مثل الماسونية - فتمركزوا قليلاً في السياسة، في المال، ومن ثمّ في جميع القنوات المتشابكة. وهم أعادوا إلى حدٍّ ما استيراد نظامهم السابق، طريقتهم التي اتبعوها في استغلال العرب. ولا ننس أنهم هم الذين جاءونا بالعرب كي يلمّعوا لهم أحذيتهم، فالأهل الذين كانوا يعملون كخدمٍ لهم استقدموا أبناءهم وكانت فرنسا بحاجة لهم لنقص اليد العاملة في فترة من الفترات، هذه حقيقة. على أي حال، كان من اللازم قبولهم، إنما بعقود قصيرة الأجل. وباختصار، فجميع قوّادي البنك أولئك هم الذين قضوا علينا. فكانت الأعباء الاجتماعية شديدة الوطأة علينا وتحالفت البنوك على المشاريع. والدولة التي أصبحت مشاركة في المشاريع بواسطة الـ TVA. عندما كانت حدودنا محفوظة، كان نظامنا الداخلي يمشي، لكن منذ أن بدأوا يصنعون أورُبا الموحّدة تفجّر كل شيء، ونظامنا الاقتصادي، لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه. لا يعرف إلى أين وجهته. فالنظام الاقتصادي بأكمله أخذ يتأرجح بتأثير ضربات

نظام جماعة الجزائر، وهو نظام استغلال اليد العاملة بأرخص الأسعار. فعدّلوا وبدّلوا بهذا النظام الفرنسي.

[...]

فهل تعتقد بأن هذا سوف يدوم طويلاً؟ وهل يمكن أن ترى العديد من الناس الذين يستلمون ورقة الضرائب ويستطيعون الدفع؟ لم يعد إلا القليل ممّن يستطيع الدفع! فالتجارات، لم يعد عندك تجارة تمشي، لم تعد التجارة تمشي، هذه حقيقة! هنا، ثلاثة أو أربعة مطاعم - مشارب مطروحة للبيع. وعندك فندق- مطعم، لكن لا أحد يشتري.

❖ وأنت، بكم تقدّر قيمة تجارتك، لأن القضية واردة عندك أيضاً؟

بيير: قيمة التجارة تحسب بمعدل 10٪ من الربح الصافي من الضرائب.

❖ يعني، كم يساوي هذا حالياً؟

بيير: 15 مليون. لكن أين من «يشيل»؟

❖ لا يوجد من يشيل بـ 15 مليون؟

بيير: جاءني من يشتري، وهو نصّاب. وأنا كنت في غاية الشرف. فقد حضروا عندي ومعهم زوج وزوجته. كانوا يريدون الاحتيال على الزوجين ب 10 أو 15 مليون، إذ كانوا يريدون تقديم قرض لهما لشراء متجري...

❖ كانوا يريدون استلام المتجر منك؟

بيير: نعم، يستلمون المتجر، وكان الزوجان بعمر 35 سنة. الزوج كان عليه التجوال، وأما الزوجة فتستلم المكتب. لكنهم طالبوا الزوج بأن يتكفّل بتأمين 60 أو 80 زبوناً في اليوم. هذا غير ممكن. أنا ابن مصلحة، وأفهم فيها. في أحسن الأحوال، عندك 35، وفي الصيف، عندما يطول النهار ولا تبالي بعدد ساعات جلوسك في المتجر، يمكنك أن تحصل على 45 زبوناً، لكنهم كانوا قد ضلّلوا الزوجين وأوهموهما بأنهما سوف يربحان شهرياً مليون ونصف على أساس 60 إلى 70 زبون يومياً.

❖ إذن، أنت قلت لهما، «لن يكون عندكما 60 زبوناً؟»

بيير: قلت، «يا ليت، يا ليت، لكن، إذا أردتما الصدق والأمانة فلن تحصلا أبداً على 60-80 زبون». كان الزوجان قادمين من هال أحذية، سوق للأحذية الرخيصة التي تباع بالكيلو، فتأتي وتشتري مثلاً 500 كيلو «صرامي»، ثم تبيع هذا، تعرضها على طاولة. حينها، أسرع السمسار التجاري الذي رأى أنني أتبجبح في الكلام وأقول لهما الحقيقة فطلب منهما كتابة العقد. لكنهما لم يكتبا شيئاً على الإطلاق. فلو لم أقل لهما أي شيء، واكتفيت بأن أطلب منهما التوقيع على العقد، يعني، تمام التمام، كنت وضعت في جيبي 20 مليوناً، وعليكم السلام.

[...]

هذا ما عاد له علاقة بالتجارة.

❖ الأمر المسيطر الآن هو التوزيع، المخازن الكبرى؟

بيير: نعم، المخازن الكبرى! (...) وهناك قانون «روبير». روبير ذاك، خسفوا به الأرض، سخروا منه في فترة من الفترات، واصفين إياه بالمضحك، وكيت، وكيت. لكنه كان رجلاً مستقيماً ويدافع عن التجارة. كان رجلاً... ممتازاً. لكنهم سخروا منه لأن جميع الآخرين الذين كانوا مطّلعين على أحوال البنوك، من جماعة المال ومن قوّادي النظام، جميع هؤلاء كان من مصلحتهم تسيير الأمور وفق منظور مختلف. (...) المخازن الكبرى فعلت دائماً ما تريد! ففيها عمولة، فيرفضونك في مركز المنطقة، ويرفضونك في البلدية، فتمضي صاعداً حتى الوزارة، وهناك يكون عندك صاحبنا أبو الماسونية أو رفيق الحزب، على اليمين أو على اليسار، لأنهم جميعاً في مغطس واحد. أنا شخصياً لا أفرّق بين الأحزاب السياسية، فالنظام الاقتصادي لا سياسي، وليست القضية قولك، «هؤلاء هم الاشتراكيون» أو «هؤلاء جماعة اليمين» أو «هؤلاء هم اليساريون»، فهذا غير صحيح! النظام الاقتصادي هو نظام... هو إدارة مشروع، هو الأب «بيني». فماذا فعل بيني؟ كان رئيس مشروع، كان عنده مدبغة، فكان يعلم ماذا يعني الجرد، والميزانية،

والأعباء، ما كان يجب دفعه، ما لم يكن من الواجب دفعه. عندما تضع بعض الناس في مواقع في الوزارات ويكونون من أصحاب الدراسات الرفيعة المستوى (باحترام مزيّف)، فأنا معهم في الرأي، لكن هل يحسنون قراءة أي كشف؟ أنا أعرف نائباً، أنا الذي حسبت له معدّل الـ TVA. كافة المخازن الكبرى تمثّل طاقةً شرائيةً كامنة، تمثّل طاقةً قابلةً للتمويل، إنها مالٌ طازج يصل إلى المصارف. (...) إذن، لم يعد لها أية علاقة بالتجارة.

[...]

بالنسبة لنا، انتهى كل شيء، نحن، اغتالونا، اغتالتنا المخازن الكبرى. وقد تحدثت في هذا مع المحاسب، منذ خمس سنوات، قلت، تأمّل ماذا سيحصل في أوروبا. لنفترض أن عمري 35 سنة، فأغلق دكاني، وألمّع أدواتي وأجعلها جاهزة دائماً للاستعمال، أجدّد كل شيء وعندما تصير أوروبا الموحّدة - الموحدّة أخيراً، الملتحمة الأجزاء وليست أوروبا عرجاء، حين تصبح أوروبا جاهزة، يعني بعد ثلاث أو أربع سنوات من ذلك التاريخ أعود فأفتح من جديد وأشتغل. لكن، حتى ذلك الحين، ... نحن نغوص في الوحل ولن نستطيع الخروج». ولن نستطيع الخروج. ومن ثم، يعني، لن نجعل السياسة حديثنا لأن...



{يروي بيير حينها أنه قَبِل أن يدرّب عنده طلاب مدرسة مهنية في المنطقة، ولكن رفض أن يضع بين أيديهم كشوف مشروعه، لاقتناعه بأن هذه المعلومات عن الحالة الصحيحة لمشروعه قد تستخدم أسلحة في وجه مشروعه الشخصي، وفي وجه التجارة الصغيرة عموماً: «قلت، طلابكم النجباء، لا، لن أصفهم بأنهم من الجواسيس، لكن بوجود النظام المعلوماتي صاروا يعرفون كل ما يجري في أية منطقة، وفي جميع أنواع المهن. من تاجر النبيذ حتى تاجر الأحذية، حتى بائع الفستق، حتى بائع الثياب الجاهزة، وهذا، وذاك.»}

حقوقك، لا اعتراض عليها، لكن عليك واجبات

بيير: نحن بلوتنا كانت مع ذاك السخيف ميتران ولوائحه حول حقوق الإنسان التي «خرّى» بها جميع بلدان العالم! الواجب هو الواجب، وهذا حال حقوق الإنسان. حقوق الإنسان! حقوق المرأة! حقوق الطفل! والواجبات، أين هو محلّها؟ حقوقك، لا اعتراض عليها، لكن عليك واجبات والتزامات، ولا بد من حدود في بعض المواقف لنقول، «عظيم، حرية الأفراد تتوقّف عندما تبدأ حرية الآخرين». فلو كانوا يضعون هذا موضع التطبيق، كان العالم سيعيش بسلام، وينتشر تفاهم عميق ممتاز بين الجميع، لكن بمجرّد أن يصبح المنطق، «انقلع من مطرحك لأجلس محلّك، أناولك دفعة قوية وآخذ مطرحك، ومن بعدها لجهنّم مهما حصل»، نكون في بداية طريق الفوضى. عظيم، لكن الأخ الفصيح، صاحب حقوق الإنسان، غورباتشيف، أراد منح الحريات، دون أن يكون شعبه مهيّأً للحرية بين عشية وضحاها. أنت يعالجونك بالأوكسجين، تتنفس اصطناعياً الأوكسجين، لأن صحتك معلولة، وفجأةً، يقال لك، «مبروك، شُفيت»، ويقطعون عنك الأوكسجين، ويضعونك في الهواء الطلق، فتمضي راكضاً، فأنت... أنت تشعر بالاختناق، لا يمكنك التصدي لهذه المفاجأة المباغتة، فلا بدّ من مرحلة انتقالية.

[...]

وهنا أيضاً نجد المضاربة والتنافس، التنافس التجاري المالي، تجارة المضاربة، وليس التجارة التجارية النزيهة، فمثلاً، عندما كانت ألمانيا الشرقية تنتج أبقارها، فهذا كان من أجل تغذية الروس. فبين عشيّة وضحاها، اعتمدوا القوانين الأوروبية، وتحدثوا في بروكسل عن أبقار ألمانيا الشرقية... وها هم تجار اللحم المشبوه، المضاربون بالمال، جماعة تجارة المضاربة، يشترون الأبقار بأسعار زهيدة هناك. فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة تجويع الروس الذين كانوا بحاجة لتلك الأبقار من أجل توازنهم الاقتصادي، من أجل أن يأكلوا. كما أن هذا التصرّف جوّع مربّي الأبقار الفرنسيين الذين كان عندهم أبقار ولم يتمكنوا من بيعها. يعني، فما هو هذا العالم العظيم، الباهر الجمال؟ هل كل هذا إلا من باب «التعريص»؟

❖ صحيح، المشكلة الروسية شديدة التعقيد...

بيير: «الرذالة» التي ألوم الفرنسيين عليها، لجميع أفراد طاقم عام 1989، جماعة حقوق الإنسان، والحريّات، وكيت، وكات... أن الواجب يقضي بوجود الحرية، محاربة التضييقات والمنغّصات، لكن من الواجب أن تكون في جميع الأحوال حرية ذات حدود! لا يمكن إعطاء الخبز الأبيض لجميع الناس، لا يمكن إعطاء عطلة صيفيّة لجميع الناس، لا يجوز أن نسترسل مع الأحلام، هذا لم يوجد أبداً، ففي أي مكان يمكنك أن تجد المال؟ وحين تترك صنفاً معيناً من الناس يموتون، أين ستجد البقية؟ فهذا نظامنا الاقتصادي والاجتماعي، وهو غير مطابق للواقع. علاوةً على ذلك، هناك أجانب في فرنسا، تتكفّل بهم الدولة، فهم عاطلون عن العمل، وهم.... طيب، مادام معهم بطاقة أجنبي، إذا لم يعد لدينا عمل لهم، فمن الواجب تقديم مبلغ للعاطل عن العمل، ليعود من حيث أتى مع هذا الرأسمال، وهناك في بلده يشتري بقرة، خنزيراً، ما يريد، ويؤمّن رزقه في بلده. الأب بيني كان رجلاً عظيماً، رئيس مؤسسة، وكان يعلم ما هي الإدارة. أنت ترى، حين يكون لدينا وزراء، فإنهم يوضعون تارةً في التعليم الوطني وتارةً في الزراعة، تارةً إلى اليمين، وتارةً إلى اليسار، وسوف تقول لي، «لا يمكن تغيير الوزارات، فالوزارة إلى استمرار دائم»-، أمّا أنا فرأيي أنّه يلزمنا رجال من أصحاب الاختصاص ويعرفون ماذا يقولون.

❖ نعم، نعم، نعم، معك على طول الخط في هذا.

بيير: لكن المشكلة التي لا يفتح سيرتها أحد، والتي تنبّأ بها الأميركان، فهي أنهم بتقسيم روسيا مثلما فعلوا، فإنهم يقومون بإضعافها، سواءً في المجال التقني، لأن الروس كانوا أول من ارتاد الفضاء. إيه، فالحالة الخطيرة فعلاً في عام 2000، هي حالة الصين، لأن روسيا هي درع حماية أوروبا من الاكتساح الصيني، فإذا تقسّمت روسيا، إيه، يا عيني، فسوف يحصل الصينيون على أجمل فرصة. وسوف يتقدّمون، فذاك هو الوباء الأصفر. والروس في عام 2000 سوف يلعبون في الساحة مع الصينيين، سوف يتدافعون مع الصينيين، وهدفهم إزاحة أوروبا.

◆ هل تقصد أن سياسيّينا ليس فيهم من لديه الاستعداد لافتداء زميله، وأن ليس فيهم من...

بيير: .. من يخبط بقبضته على الطاولة ليقول، «انتهى زمن التهريج، المطلوب العمل والمطلوب وضع العدّاد على الصفر»، هذا ما تريد قوله؟

◆ لا أعلم، أنا أطرح السؤال كي أعلم كيف ترى الأمور؟

بيير: على عيني، لتأمين الإصلاح الاقتصادي {يجب خفض} معدّل الفائدة، معدّل الإقراض للبدء بإصلاح الوضع المصرفي في جميع المشاريع. فكل المشاريع مدينة للبنك، هي مضطرة للاستدانة من البنوك، والبنوك تعهّر جميع المشاريع. وما قولك في نظام البطاقة المصرفية للحصول على المال، هل تجد هذا الأمر طبيعياً؟ ألا يوجد لديهم ما يكفي من الموظفين لأداء هذه الأعمال؟ علماً أن منهم من يتقاضى رواتب 17 شهراً في السنة، فهم متخمون من القبض. وعشية يوم عيد وتعطيل لا يعملون!..(...) معك أن هذه تقنية جديدة، حكاية البطاقات، والكيت، والكات، عظيم، عظيم، ولكني ضد هذا النظام : فعندما تفرغ حصّالات التوزيع، لا يحصل الناس على المال المطلوب! أنا لم أحمل أبداً بطاقة مصرفية لأنني ضد هذا. معي دفتر شيكات، فأنظّم شيكاً بما هو مطلوب مني. وعندما أحتاج إلى مال، أذهب إلى محاسب المصرف. وكل هذا كي لا يزعج موظف المصرف بنفسه، فيقع العبء في العمل على صاحب العلاقة. تماماً كما يحصل في المخازن الكبرى: فالناس يخدمون أنفسهم بأنفسهم، عندك عاملان أو ثلاثة عمال يرتبون البضائع على الرفوف، وأما الزبائن فيخدمون أنفسهم ويمضون إلى الصندوق حيث المحاسبة التي تقوم بالعمل. فهذا يتولّد عنه عاطلون عن العمل، لأن هذا النظام لا يخلق فرص عمل، أقصد نظام المخازن الكبرى، على عكس المشاريع الصغيرة التي توجد أعمالاً مختلفة. ولماذا لا يوجدون فرص عمل؟ بكل بساطة، لأنهم وضعوا القوانين الاجتماعية. فعندما تشغّل عندك أحداً ما، لا يمكنك بعد ذلك طرده (...) ثم أنت مجبر على أن تسحب دفتر شيكاتك «وتجبر خاطره». لقد ذهبنا بعيداً في هذا النظام، ويجب

التراجع عنه. وليس في هذا أي موقف رجعي... إذن، أول شيء البنوك أغلى مما يجب، يأخذون أكثر مما يجب، ويتقاضون نسبة فوائد ونسبة مضاربات أعلى بكثير من طاقة أي مشروع يريد أن يتطور. حتى الشاب الذي يريد توفير تجهيزاته، يخنقونه. بمختلف الأعباء والضرائب. فلديه ضريبة مهنية. أي نعم، إذا اشتغلت بـ«زبّورتك» وسكّينك، فهنا لا تندب لدفع شيء! أما، بمجرّد أن تشتري سيارة صغيرة للنقل، مجموعة تعبئة، آلة لغسيل القناني، عربة رفع أثقال، يحسبون لك الضريبة على معدّاتك.

❖ إذن، العلاجان في رأيك، هما، واحد، البنوك، طيب، واثنين...؟

بيير: رقم اثنين، الأعباء الاجتماعية حسابها غير صحيح من أساسه. ولتخفيف وطأة الأعباء الاجتماعية، فالأمر الأول اللازم فعله: الطب المجاني. فيجب إلغاء الضمان الاجتماعي مدى الحياة. إذن الأعباء الاجتماعية، الطب المجاني من أجل تخفيف الأعباء الاجتماعية، والضرائب المهنية الباهظة.

[...]

لا نحتاج إلى نصوص قوانين، نحتاج للمنطق السليم

بيير: عليّ تقديم بيانات سنوية إلى اتحاد استرداد تعويضات الضمان الاجتماعي والتعويض العائلي (الـ URSSAF)، لكني في بعض الأحيان، أشعر بضيق شديد. تفضل، فهذا ما استلمت منذ فترة [يُريني بيانات فارغة]، فهذا هو التصريح السنوي الذي يجب تقديمه عن العمال المأجورين عندي. يجب تقديمه لبنك المعلومات في 31 كانون الثاني. في عام 91، عملت كل هذه «التركيبات»، ومعي النسخة الثانية الخاصة، وتاريخها 23 كانون الثاني، وقد أرسلتها أصولاً. ففي الأول من آذار، جاءتني رسالة مسجّلة من الـ URSSAF تُعلمني أنهم استلموا أوراقي بتأخير عن الموعد المحدد، وأنه نظراً للبند الفلاني، والفقرة الفلانية – لا يوجد ما يمكن دفعه، فذمّتي بريئة، والبيان في أساسه مجرّد إعلام عن الرواتب التي دفعتها لعمّالي كي ينظّموا لكل منهم إضبارة التقاعد لاحقاً– فأنا يترتّب عليّ غرامة تأخير 400 فرنك! عندها

قلت، «يا سلام سلَم!» (...) أخذت الإشعار، وذهبت أقابلهم وأطلب تفسير هذا. قلت، «هاتوا المغلّف وختم البريد، أريد أن أتأكّد، لأنني كلّفت شخصاً غيري بإرسال البيانات»، - «آ، إي، آ، نحن لم نحتفظ بالمغلّف!»، فقلت، «أنا غير موافق، كان يجب أن تبلغوني في 2 شباط، أو في 5 شباط، أو حتى في 10 شباط، إذا فرضنا أن الاستلام كان في 10 شباط، لكن ليس بعد مرور شهر كامل من آخر مهلة للاستلام». (...) في نهاية أيار جاءني توضيح يبينّ أنني دفعت منذ سنتين، مستحقاتي للـ URSSAF، لكنها أكثر مما يجب، فهم قرّروا التعويض عليّ بعد سنتين قائلين، «طيب، اطّلعنا على كشف حسابك، ونحن مدينون لك بـ 3200 فرنك سوف نحوّلها إليك في شيك بتاريخ 31 تشرين الأول 91». (...) بتاريخ 31 تشرين الأول، لا شيك ولا يحزنون. في شهر تشرين الثاني، لا شيك ولا يحزنون. ففي 10 كانون الأول تقريباً، مررت في طريقي على «تروا»، وقلت، «ماذا جرى؟ على أساس أنكم سترسلون لي شيك بـ 3200 فرنك»،- «آ، إي، آ، نعم، بخصوص الشيك، نعم، بالفعل، سوف نرى هذا، لكن علينا أن نحسم الـ 400 فرنك المستحقة عليك كغرامة تأخير»، قلت، « هذا ملفّ، وهذا ملفّ، كيف أمكنكم رؤية أنني...؟»- «في الحاسوب!» «قلت، هذا معقول، لكن رأيي أن القضية مختلفة، فكل مبلغ وله ملفّه، وهما قضيتان مختلفتان.»،- «طيب، سوف نرسل لك الشيك». وقد أرسلوا لي الشيك، إنّما بمبلغ 2800 فرنك، «لطشوا» عليّ 400 فرنك. فهذا التصرّف منهم غير شريف. قلت لهم بعدها، إذا كنتم تريدون ملء الصندوق عندكم بـ 400 فرنك من هذا وذاك، وأنتم تقولون لأنهم أشخاصٌ طيبون، لن يقولوا شيئاً، وسوف يرسلون الـ 400 فرنك.

❖ ولم تصل بعدها أخبار عن هذه الحظوة الرحمانية؟

بيير: سوف أنتظر شهراً آخر. لكن صدّقني، إذا لم تصلني أخبار ولم أقبض المبلغ المقطوع، فسوف أبعث إليهم برسالة مسجّلة «من كعب الدست»، وسوف أودع لهم فيها بطاقتي الانتخابية، مخبراً إيّاهم، أنه ما دام هناك إدارات غير شريفة، فلا حاجة بي للانزعاج والذهاب إلى صندوق الاقتراع!

إذا كانوا لا ينظرون إليّ على أنني مواطن، فليس عليهم سوى النظر إليّ على أنني عربي أو مشاغب، وقد قلت للسيد ×. «إذا رأيتني لا أشارك في الانتخاب، فهذا لأنهم لطشوا مني 400 فرنك». وليس الغرض موضوع الـ 400 فرنك، لكن لماذا أشارك في «تعريصة» انتخاب المجلس الوطني العام. فما قولك، وكل شيء على هذه الشاكلة... نحن لا نحتاج إلى نصوص قوانين، نحتاج للمنطق السليم. والمنطق السليم يهدينا إلى الحلول. ذات يوم، وكان ذلك في بداية حكم ميتيران حين نجح عام 81، لا أعلم إن كنت تتذكر، كان هناك تخفيضٌ ضريبيّ بنسبة معينة، لم أعد أتذكّر كم كانت، 3–4 ٪ أقل على الرواتب المنخفضة. كافة الرواتب التي لم تكن تتجاوز 4200 فرنك صافية كانت تدفع إعانة، لم أعد أتذكر، لا أريد أن أعطيك رقماً غير صحيح، بدلاً من 14 ٪ مثلاً من الضرائب الاجتماعية، فإنّ كافة أولئك الذين لم تكن رواتبهم تتجاوز 4200 فرنكاً لم يكونوا يدفعون إلاّ – لا أتذكّر، أقول رقماً تقريبياً – 10 ٪. تخفيض بمقدار 4 ٪. كنت لمدة ستة أشهر حيث كان لديّ موظّفون تقلّ رواتبهم عن الحدّ المعين، ثم حصلت زيادة في الرواتب. لم يرسل أحدٌ لنا بورقة تقول: «انتبهوا، أنتم تتجاوزون 4200 فرنكاً، نذكّركم بأنّ...» كان لديّ موظّف داوم بضع ساعات إضافية وتجاوز راتبه 4200 فرنكاً. لكن، امسك أعصابك، أعتقد بأنّ راتبه بلغ 4208 فرنكاً و20 سنتيماً، كانت الزيادة لديه 820 سنتيماً. وبعد عام، جاء مراقبٌ من URSSAF وأخذ كافة الملفات. آه، يا لها من قضية! كان هناك 820 سنتيماً زيادة لهذا «الزبون». إذن، صدّقني إن شئت، أنا قلتُ لنفسي بأنّ المبلغ تافه. «آه! قال لي، الأمر ليس كذلك، هناك 4 ٪ إضافية.» وحسب نسبة الـ 4 ٪ بالنسبة لِـ 4200 فرنكاً، لكن بما أنه جاء متأخراً سنة أو سنتين، فإنّ الفوائد... كذا بالمائة. فقلتُ، ربما كان نصّ القانون هكذا، لكنني أقول، ضع نفسك مكاني، وأضع نفسي مكانك، وتجلس مكاني».- «آه، قال لي، لديك دائماً إمكانية الاستئناف، يمكنك أن تناقش إن كان هذا...». فرفعتُ الملفّ، واستأنفتُ، وأزعجتُ نفسي في إدارة قلم القضايا الإدارية في المجمّع الإداريّ للمحافظة. فنظروا إلى ورقتي، وقالوا لي: «أوه! بلى، لا يمكننا فعل الكثير،

ينبغي طلب هذا، ينبغي طلب رأي القاضي.» وذهب الملفّ إلى المحكمة، وكانت القاضية واحدة «شخاخة» خرجت بالتأكيد لتوها من شرنقتها، ووصلتُ مع كافة أوراقي، وكافة العناصر التي لديّ كي أبرهن على أنّه في ما يتعلّق بالفرنكات الثمانية والسنتيمات العشرين التي تجاوزت الحدّ، هناك مشكلة منطق... لم أوكّل محامٍ لأنّه في تلك اللحظة... امسك أعصابك، لقد تقدّمتُ وبحوزتي أوراقي، وأردتُ أن أرافع، والقاضية لابدّ أنها وُلدت هكذا، وقالت، «حسناً، القضية التالية!». فقلتُ، «لكن لم يتسنّ لي الوقت الكافي لأدلي بأقوالي»، «لا، لا، انتهينا. القضية التالية!». لم تعطني الوقت كي أشرح، لا شيء على الإطلاق، وذهبتُ وأنا أشعر بالغثيان. كان هناك امرأة محامية أو محاسبة من الـ URSSAF كانت تمثّل... التقيتُ بها في الممر، وقلتُ لها، «أتعلمين، أنتم بصدد قتل المشاريع الصغيرة، قلتُ، أنتم تجعلونني أشعر بالغثيان»، وقد كلّفني ذلك 1200 فرنكاً، من أجل 820 سنتيماً زيادة! اللعنة! هل هذا نصّ قانون؟ قلت، «هل هذه هي العدالة الفرنسية؟ ثم قلتُ، لا أبالي، سوف يدخل إلى خزانتكم 1200 فرنكاً، وسوف تحصلون عليها، هل أنتِ مسرورة؟ قلتُ، أتعلمين، المؤسسات التي من نوع مؤسستنا سوف تختفي، وسوف تذهبين للبحث عن ذلك في المخازن الكبرى». وكل هذه تفاصيل صغيرة. هل تعلم، غداً هناك انتخابات، لن أزعج نفسي بالذهاب. ومنذ فترة طويلة كان يمكن لي ألا أشارك في الانتخابات. لولا أن البلدة صغيرة، وهم يرون من أتى ومن لم يأتِ إلى صندوق الاقتراع. لأن جميع هؤلاء الميامين عندنا بمجرّد انتخابهم، لسان حالهم، «لجهنّم، نحن في المجلس لمدة ستة أعوام..» أوه، فهؤلاء لن يكونوا مع تخفيض تعويضاتهم.

❖ فعلاً مثل هذه الحكايات تثير الغضب.

بيير: هو أمر محزن، فهم من صغار النفوس. هم، ربما، يقبضون رواتب عالية ضخمة، لكن، في نظري، هم من صغار النفوس. وأرى أنهم لا يستحقون إلاّ الإهمال والتجاهل.

كانون الثاني 1992

لويس بانتو

مسارات مهنية محطّمة

يُخرج التسريح الأفراد من اللعبة إلى أجلٍ غير مسمّى ويعجّل بانهيار ما بُني من أحلام: فعلاوة على تناقص الدخل، يصيب بالاعتلال المزاعم البرّاقة حول المستقبل، بما يشلّ أو ينتقص من مجموع الاحتمالات التي كانت ممكنة في الوضع الوظيفي السابق. ومن بين النتائج الأليمة الناجمة عن فقدان العمل التكذيب الصريح للنرجسية التي يشجّعها المشروع أحياناً في أوساط كوادره الإدارية القائمة على رأس عملها. والعمل والطاقة المبذولة فيه شرطهما اللازم لدى العديد منهم الإيمان الفعّال بالآمال المرتبطة بفكرة «المستقبل المهني»، الذي يراكم منافع مادية (راتب، مكافآت...) ورمزية (شهرة، علاقات...). وهذا الضمان هو الذي يسمح بالتزامات وثيقة إلى هذا الحدّ أو ذاك، سواء كان هذا في العمل (منصب في الأقاليم، في الخارج، تخصّص...) أم في الإطار الخاص (الحياة الزوجية، الزواج، الأطفال، أوقات الفراغ والتسليات، القروض العقارية...). والتسريح من العمل ينتج عنه التشكيك بكل التزام من خلال الشخص، من مزايا «فردية» («مثل الديناميكية»، والاندفاع، والأمانة)، ومن طموحات وظيفية وخاصة على حدٍّ سواء. وذاك أن التسريح يُغرق المستقبل في ظلال القلق ويُجبر صاحبه على ما يشبه إجراء جرد بالمصادر المالية التي يمكن الاستعانة بها ويُظهر بوضوح، عند بعض المسرّحين، نواقص كانت حتى تاريخه مكتومة أو متخفّية. وما يجعل نظرة الآخرين لا تطاق، نظرة الشريك

الزوجي، الأصدقاء أو الجيران، هو أنها تساعد على إظهار التنافر الماثل بين الوضع الراهن والمزاعم التي كانت موضع التأكيد لفترة طويلة في الماضي.

ولا يمكن لهذه المحنة أن تأخذ الدلالة نفسها عند الجميع. فالطريقة التي يعيش بها المسرَّح محنته، وكيفية تجاوزها أمرٌ يرتبط بالرأسمال المتوفّر لدى المعنيّ. ويمكننا في هذا المجال الحديث عن طرفي نقيض في حدّهما الأقصى، فمن طرف، لدينا الكوادر الإدارية الذين يتحلّون بمجمل الخواص الإيجابية - درجات علمية نادرة، جنس مذكّر، شباب...- ومن طرف أخر، أولئك الذين حرموا من كل هذا حرماناً تاماً. وهكذا، يوجد تفاوت في الانتساب إلى «الكوادر الإدارية» (تبعاً للتعريف الاجتماعي السائد في وقت من الأوقات)، وبالتالي تتفاوت الأضرار التي تتعرض لها تلك الكوادر في مجال البطالة. وأوّل المتضرّرين هم الذين كان انتسابهم إلى هذه الشريحة هشّاً ولا مقاومة له، وخصوصاً أولئك الذين استلموا مناصبهم بفضل ملابسات استثنائية ونادرة، وهي ملابسات على ارتباط وثيق بربّ العمل. فهؤلاء الأفراد ضحايا للحدود التي فرضتها عليهم طريقة وصولهم إلى وضعية كادر، ولما ينجم عن سيرتهم الشخصية والدراسية، وكذلك لمظهرهم الخارجي، ولغياب شبكة العلاقات عندهم، ولكفاءتهم التي يُحكم عليها بأنها محدودة أكثر مما يجب، الخ. فيكتشف هؤلاء آنذاك أن التقدير الذي نعموا به، والكلمات اللطيفة من الرؤساء، وحتى صفة «كادر» التي حملوها، لم تكن جميعها إلا علامات نجاح سريعة العطب والزوال.

صالة انتظار

منذ 10 سنوات يبحث السيد سابان عن عمل دون أن يُوفّق في بحثه حتى انتهى به الأمر إلى فقدان الأمل. لكنه في الـ 51 من عمره، وما يزال خفيف الحركة وبمظهر خارجي صلب، فهو أبعد ما يكون عن سنّ التقاعد. كان قد اشتغل في شركة ك.، وهي مشروع ضخم لتعبئة المياه المعدنية عمل فيه من سنّ 26 إلى سنّ 43، ما يطلقون عليه اسم «كادر متنقّل». لم يكن في جعبته من شهادات إلا البكالوريا (حدثنا عن شهادتيه في البكالوريا)، لكنه

سرعان ما ترقّى إلى صفة كادر بوظيفة زائر محلّي مهمّته إجراء اتصالات مع الهيئات الطبية. فهو قد نجح دون أدنى شك في فرض الاحترام والاعتراف لحسن تصرّفه وقدرته على إقامة العلاقات الإنسانية. وقد رفض أن يكون مجرّد «وكيل تجاري» يقتصر عمله حصراً على الترويج للسلعة في المخازن الكبرى، وأراد بالمقابل أن يكون مُحاوراً للاختصاصيين الذين كان يمكنه أن يخوض معهم في مناقشات «هامة». كان يسافر، ويقابل الكثير من الناس، وكانت له «مسؤوليات» (في الحصول على الطلبيات وفي التأهيل). أمّا بشأن تسريحه، فيبدو اليوم موزّع الرأي حول الأسباب بين تفسير الأمر بالسوق الذي أعطى الأفضلية لضرورة تحديد عدد العاملين في قطاعٍ بدأ بالتدهور، وبين تفسيره بسياسة التوظيف، التي أعطت الأسبقية على المكشوف لـ «الشباب» على حساب «القدامى».

ولم يكن من الصعب مقابلته بمناسبة «الأيام السنوية» التي يُنظّمها اتحاد كرّس نفسه للدفاع عن العاطلين عن العمل. هو أنيس المعشر وسريع التجاوب، فيُعطي الانطباع بأنه يسعى لاقتناص أية فرصة ليتكلّم عن نفسه وبشكلٍ ثانوي عن نظامٍ اجتماعي تقع عليه مسؤولية البطالة. ويبدو ظاهراً للعيان اعتياده لاستلام زمام الكلام أمام الجمهور، فقد ظهر ذات مرة في التلفزيون. وتشاهد رغبته في الحصول على الاعتراف الاجتماعي واضحةً في الوسواس المسيطر عليه في أن يستثير اهتمام محدّثيه. هو ابن عائلة متواضعة من الشمال وقد أصبح يتيماً منذ وقت مبكر في حياته، وكان قد داعبه الأمل لفترة في متابعة دراسته العليا لكنه أوقف هذا المسعى في بحر سنة واحدة، وهذه العلاقة البائسة مع نظام التعليم فيها بعض سمات التجربة الشخصية الأساسية التي حُكم عليه أن يعيشها مراراً وتكراراً. فرغم عدم تمتّعه بشهادة رسمية، يعتبر أنه من نفس المستوى. ولكن افتقاره لتلك الشهادة المكفولة رسمياً هو من وراء تناوب الثقة والشك اللذين يظهران باستمرار في تعابيره: فيقول عن نفسه إنه تلميذ نموذجي لكنه «غير لامع»، ويؤكد حصوله على دبلوم في علم الصحة ليضيف من ثمّ أنه ليس من حملة الدبلوم فعلياً، وهو كادر إداري، لكن ليس بالمعنى الدقيق للكلمة، الخ. هو

مزدوج الشخصية في العمق، لتأصّل مشاعر النجاح والفشل فيه على حدٍّ سواء («في داخلي شخصيّتان»). وكان من الموظفين الإداريين، لكنه الآن عاطل عن العمل، وفي الوقت نفسه يعيش كصاحب دخلٍ ثابت لأنه وفّق، بفضل مجموعة تركات موروثة من العائلة، في جمع رصيد من الملكية المنقولة وغير المنقولة يستمدّ منها عائدات إضافية، وهي مصدر طمأنينة نسبية لديه. يكاد يعتبر نفسه من الأغنياء لكنه، بفعل وسواس التوفير، يعيش عيشة متواضعة. هو تلقائياً «يساري»، ولذلك يرى أنه يختلف عن جيرانه المالكين للبناء الميسور الذي يسكن فيه (وقد أخبرهم بالصوت العالي حقيقة بطالته). وهو «معادٍ لما هو تقليدي»، ولذلك يرفض المظاهر البورجوازية: فشعره طويل تقريباً، مشعّث إلى حدٍّ ما، كما يلبس كنزة بياقة طويلة حول العنق. ويظهر هذا الازدواج نفسه في آرائه السياسية: هو «يساري» لكنه يعادي المهاجرين، والنساء، والشباب، والمعلّمين، إلخ. وتبدو في ثقافته أيضاً «دمغة» النبذ والإقصاء: فيتحدّث بافتخار عن كتبه الـ«3500»، وينثر في حديثه استشهادات متفاصحة، أحياناً في محلّها وأحياناً في غير محلّها، ويتباهى بقدرته على «التحدّث لنصف ساعة» في موضوعٍ مثل بولونيا في فترة حكم بولسودسكي، بل يفوز أحياناً في بعض برامج الألعاب في التلفزيون. ورغم اهتمامه بالسياسة، فالتزامه معتدل، إنما بدقة ووجدان، بالدفاع عن العاطلين عن العمل ويؤدي بعض الخدمات التي تُطلب منه. وهو أبعد ما يكون عن الاستسلام لأوقات الفراغ، فيجد دائماً ما يشغل نفسه به، ويبدو في هذا وكأنه قد وجد المفتاح، المرغوب والمطلوب، مفتاح البطالة «الموفّقة» بمعنى من المعاني. وإذ تعلّم كيف يستسلم، فهو يبوح، عن طيب خاطر، ببعض النصائح المفيدة حول فن التقتير والاقتصاد. ويُلزم نفسه بأسلوب حياةٍ «متقشفة»، لكنه لا يفعل هذا إلا في محاولة للتوفيق بطريقةٍ بارعة بين حاجاته ومدخوله المتقلّص، وفي الوقت نفسه لتعليل التزامه شبه الأخلاقي الذي يرتكز، جزئياً، على إعادة رسم الحد الفاصل بين مستوى الضروري والكمالي.

هذا هو الانطباع «الإيجابي» إلى حدٍّ كبير، الذي يريد السيد سابان

إعطاءه بصدد الوضع الذي هو فيه. لكن، من بعد استرساله في الكلام لمدة ساعة تقريباً، هاهي سيدةٌ شابة تنبثق أمامنا في الحجرة، وتقاطعه مع الاعتذار، طالبةً أن تتكلم هي أيضاً، مصرّحةً بأنها مصرّةٌ على أن تتدخل في الحوار. هي عصبية المزاج: ونظراً لمعاناتها المريرة من وضعها كعاطلة عن العمل، تأتي كلماتها أقل رضوخاً واستسلاماً.

كانت مدام لوران مشرفة في أحد أقسام العاملين بمسؤوليات لم يُعترف بأنها من مسؤوليات «الكوادر». و«النقمة» التي أدّت إلى تسريحها جعلتها تفهم كل ما كان في وضعها السابق من حظوة. فهي امرأة، وكان عملها في وسطٍ غير متعاطف بشكلٍ خاصّ مع النساء، ولم تكن حائزة على أي دبلومٍ عالٍ لتكون في منأى عن مزاجية رب العمل: علماً أن تلك الدبلومات، حتى عندما تحمل صفة «اختصاصي» (DESS أي دبلوم عالي متخصص في إدارة العاملين) تكون من بين «الدمغات» الهابطة أمام الشهادات الحديثة التي يمنحها النظام التعليمي لتلبية تزايد عدد طلاب المدارس. وكأنما أيقظت هذه الأقوال الواقعية السيد سابان يقظة مباغتة فهاهو، حينذاك فقط، يسمح بتسرّب «نثرات» من الحسرات (فأسنانه لن يستطيع مداواتها، والعطل تفوته لأنه لا يملك المالَ ولا الرغبة تحديداً)، ومن المخاوف، والرغبات المكبوتة، أي كل ما كان قد أخفاه أولاً في حديثه، حتى في لحظات الاندفاع.

مع كادرين عاطلين عن العمل

أحاديث بإشراف غابرييل بلزاك ولويس بانتو

«لا أعلم ما هو المستقبل»

السيد سابان: أنا غير مصنف في أية فئة...

❖ لماذا؟

السيد سابان: لماذا؟ لأنني بالولادة ضد ما هو تقليديّ، فلم أكن أبداً في توافقٍ مرحليّ مع اتجاهات الرأي العام، باختصار أبداً. فكنت ضد الديغولية حتى العظم في سن الـ 25، وميتراني أربع مرّات متوالية، أما الآن... أنا أنتظر، أنتظر تغيّر الأكثرية، ليس بسبب الانتماء إلى اليمين (فأنا لست في الأساس من اليمين) لكن نظراً لكوني ديمقراطياً، ففي رأيي أن التناوب ينظّم المشاكل تنظيماً مفيداً؛ باختصار يجب فهم بعدي عن النمطية، لأن حياتي سارت في طريق غريب: فقد أصبحت يتيم الأم في سن السادسة، ويتيم الأب في سن التاسعة عشرة، ودخلت سن الرشد مبكّراً، فكل هذا جعل مني نموذجاً فريداً بعض الشيء؛ وفوق هذا، طريقي في الوظيفة، كلا ليس هو بالطريق اللامع، لكن أسعفتني مع نهاية الدراسة المجيدة شهادتا بكالوريا، مع سنة دراسية في مدرسة عليا للتجارة؛ وأذكر أنني اجتزت المسابقة، وكان ترتيبي الثاني على 275، لكنني لم أتابع لأن أبي مات في السنة نفسها، فرأيت أني دون سند عائلي لمتابعة الدراسة العليا بنجاح. أقول هذا لأن ابنتي عمرها 21 سنة، وهي من جانبها، سوف تمضي

بعيداً في الدراسة، في الوقت الحالي هي في الليسانس، لكن، بشكل طبيعي، كان يجب أن تكون أستاذة... أنا نجحت في البكالوريا الأولى فرع العلوم الاقتصادية، وكان هذا الفرع متعثراً ما يزال في بداياته، ومن بعدها قرفت منه فحصلت على بكالوريا فرع الفلسفة... بشهادتَيّ بكالوريا في ذلك الوقت، مهنياً، كان يمكن العمل في كل مكان، ولم أكن منسجماً مع الدراسة كما يجب، ولم يكن لديّ وجهة محددة، ولم يكن لديّ السند العائلي، الإطار العائلي الواقي. تعرّفت على المرأة التي أعيش معها منذ 35 عاماً – هذا الوضع مستمرٌ منذ 35 عاماً – وكان عمري وقتها 16 عاماً، فتزوجنا سريعاً. اشتغلت لبعض الوقت موجهاً في وزارة التربية، وكانت زوجتي تعمل، زوجتي ليست مثقفة لكنها على أي حال امرأة ذكية جداً، قدماها راسختان على الأرض، وذهنها متفتّح. كانت تعمل سكرتيرة في إدارة؛ كانت مندمجة تماماً في دنيا العمل وهي موضع تقدير وذات فعالية عالية.

❖ كان عملك في أساسه...

السيد سابان: كنت أزور الأطباء، يعني، في البداية كان هذا في الشمال من فرنسا وكان القطاع الذي أعمل فيه قد سبق له الانتفاخ قليلاً لفترة في الشمال، في البيكاردي ومقاطعتَيْ النورماندي؛ كنت أسكن في مدينة «ليل»، فأُمضي نصف السنة أعمل لأعود إلى بيتي مساء وأمضي النصف الآخر في السفر، مثل الطيور المهاجرة، كنتُ أرحل منذ شهر آذار، لأعود في الشتاء إلى بيتي... كنت أطوف في سيارة كارافان، وهذا استمر لبعض الوقت، لأنني من بعد مخبر أو مخبرين صيدلانيين، انضممت إلى شركة ك. في سن السادسة والعشرين، وهذه الشركة جعلت مني بسرعة كادراً إدارياً في مدى سنتين. وقد حوّلوني بناءً على طلبي إلى قطاعٍ آخر في مدينة نانت. لقد حوّلوني لسببٍ وجيه. لأنني لم أعد أنفع لشيء. وجدتُ نفسي في نانت، وكانت مهمتي إقامة علاقات عامة مع الناس، وكما ترى فأنا كنت من الذين يتصلون بسهولة كبيرة جداً مع الناس ويقيمون العلاقات بسهولة ويسر. (...) فلا أخاف من شيء، وفي آخر مناسبة من «الأيام

السنوية»، تحدثت أمام 600 شخص، ووجّهت خطابي إلى مدير الوكالة الوطنية للتشغيل ANPE في حينها؛ لا أعرف الحذر... لكن هذا بحكم العادة لأن مهنتي جعلتني ألتقي بعشرات من الأشخاص المختلفين؛ شاركت في مؤتمرات عديدة جداً لأننا كنا نلتقي مع أعضاء الهيئة الطبية (..) في نانت، وجدت نفسي عملياً مع 20.000 شخص يجب الطواف عليهم، وهكذا فكانت مهنتي ساحرة في نظري... كنت أزور من أشاء، من ممرّضة المستوصف إلى المدير الأعلى الذي كنت ألتقي به في مؤتمرات أو أحضر معه أمام طلابه حيث كنت ألقي حديثاً لمدة 20 دقيقة عن موضوع حمض البول، والاستطباب، إلخ. كان عملي في غاية التنويع، فلم يكن عندي نهار يشبه الآخر، بل كنت دائماً في أماكن جديدة، ولسبب وجيه. إذن لم أكن محبوساً داخل جدران المؤسسة، ومن يريد أن يفهمني، (وهذا أساسي في رأيي) فعليه أن يرى: 25 عاماً من النشاط المأجور إنما ليس داخل المؤسسة. وحيث أنني لم أكن مرتبطاً بنتائج، فلك أن تنظر...

❖ أي نعم... ولكن، كنت مع ذلك مرتبطاً بِـ ...

السيد سابان: كانت نتائج غير مضبوطة بأرقام. يعني، نعم، كانت الإدارة في البداية تتقبلنا باستحسان، ومن بعدها، عندما جاء من يشتري شركة ك. فالمدراء المالكون للشركة أنزلونا لتخفيف الحمولة. وعندما أتيت إلى نانت كنت أعلم حقّ العلم أن الشركة في وضع متأرجح، لأنهم كانوا لا يستعيضون عن الذين يتركون العمل، ولا عن المتقاعدين، ثم، من بعد ستة أعوام عقدوا اجتماعاً للجنة المؤسسة، إلخ.، وما عادوا يريدون الاحتفاظ بنا كزوّار طبيين، وكان معهم حق؛ فالإعلان في التلفزيون احتل مكاننا، ولم تعد لنا فعلاً فائدة. حينها. صرفوني...

❖ اسم العمل الذي كنت تقوم به، هو زائر طبي؟

السيد سابان: نعم، كان الاسم زائر أدوية، مندوب، مندوب أدوية، لكني كُلّفت في السنوات السبع، الثماني الأخيرة، رغم أني كنت قبلها من الكوادر الإدارية، لكن حينها فعلاً كنت من تلك الكوادر إذ أشرفت على إعداد

50 شخصاً في تلك الأثناء، وكان ذاك في زمن توفرت فيه فرص العمل بكثرة، كانوا من الوكلاء التجاريين، وكي أعطيهم المبادئ الأولية عن الجانب الطبّي في منتجاتنا، أهلّتُ أكثر من خمسين شخصاً، ووظّفتُ منهم ما يقرب من ثلاثين، وعندما يريدون توظيف عناصر جديدة، كانوا يستدعونني إلى باريس مع زميل آخر هو بمثابة مثيلي في مونبلييه، فكنا نقرر بصدد كل متقدّم... فنأخذه أو لا نأخذه. ومن بعد التوظيف، كنت مكلّفاً بالتأهيل، حتى لقد اضطرني هذا عملياً، على مدى سنوات طويلة، إلى تكريس أيام الأحد لاكتساب مزيد من المعرفة الطبية؛ وعندما كنت ساكناً في الشمال، أرسلتني شركة ك. لمدة ثلاثة أعوام إلى مشفى أوتيل ديو، فهذا أتاح لي تحصيل المستوى المناسب لتأهيل الناس. أما «معلّمتي» التي كانت طبيبة فكانت تثق بي: فكنت أوظّف، وأؤهّل، وأرافق الناس ... (...) وإذن كان هذا عامراً بالحيوية لأنني كنت أرى الناس، عدا عن أنني أختار من أريد من الأطباء، فكان زملائي الطبيّون يذكرون لي أن الطبيب فلان هو بعبع، سيء الطبع، كان عندي أسماء 20،000 في فهرسي الخاص وقمت باتّصالات رائعة مع الأطباء (...).

لقد شاركتُ بمؤتمرات كثيرة في باريس وفي أماكن أخرى، شاركتُ في مؤتمرات في الخارج (أتكلم الألمانية بصورة صحيحة جداً جداً وكذلك الإنكليزية)، يعني. فعلاً، كان الأمر ممتعاً لأنها قضيّة علاقات خالصة مع أطباء كانوا يستقبلونني بالأحضان لأني كنت حاسماً بشأن الجانب المنغّص لدى المختبرات. وكان معظم الأطباء الشباب يجهلون وصف العلاج بالمياه المعدنية لأنهم لم يتعلّموا ذلك، لا، كان عملي في غاية الظرافة. كان نهاري ينتظم بشكل مرن...؛ وكان أسبوع العمل عندي يشمل ثلاثة أيام ونصف، أما عندما أسافر، فأكاد أموت من كثرة العمل لأنني كنت أشتغل أحياناً 12 ساعة يومياً؛ فكنت أبدأ مشواري عند أطباء يستقبلون مرضاهم في السابعة صباحاً، وأكون قبلها قد خرجت من عند أطباء بعد منتصف الليل بنصف ساعة. لكن هذا لم يكن يزعجني نظراً لأنني كنت حراً طليقاً، عدا أن هذه

المهنة قائمة على التنقّلات الكثيرة (إنما أقلّ مما قد يخطر بالبال). فكنت إذن أتنقّل مع ما في السفر من وطأة العزلة، بالطبع العزلة قاسية لكن كان عندي امرأة صامدة؛ ثم، إذا دخلنا إلى العمق، فعلى صعيد العواطف الزوجية، كان هذا... يعني هذا أيضاً كان له حسناته.

ثقافة وتركة من الأهل.

❖ لماذا قلت إن الشركة صارت في وضع متأرجح، ماذا حصل...؟

السيد سابان: سرعان ما اكتشفوا وجود مياه معدنية أرخص، فانهار سوق المستشفيات، انهار! تخلّوا عن كل الموضوع، وبالنسبة لي اقترحوا عليّ إعادة تأهيل لعمل آخر لا يناسب على الإطلاق، لأنني كنت قد تقدمت في العمر. عندها قالوا لي، «إذا أردت، نعم، إذا ما أردت: عندك التسريح إنما نسرّحك ونحفظ لك حقوقك بالكامل»، فتركت العمل بتعويض 45000 فرنك. وطبعاً لم أشتر بهذا التعويض سيارة B-MW، إنما شغّلته على الفور، وهذا ما يسمح لي، بالرجوع إلى ما كنت أقوله بالأمس عندما استعرضت هذه الشروط: الثقافة، روح النكتة، السخرية، والإرث؛ فأنا شخص يمكنه أن يعتبر نفسه ميسوراً بالقياس إلى مجموع العاطلين عن العمل. (....)

❖ لأنك شغّلت هذه الأموال بالإيداع، أودعت هذه الأموال...

السيد سابان: ورثت عن جديّ بيوتاً، الخ.، حتى، إذا شئت، يمكن اعتباري من الذين نجحوا، بحيلة ضريبيّة، في ألاّ أكون خاضعاً للضريبة (...) لكن، طبعاً، لا أمشي على الذهب. لنقل إنني حالياً أعيش بـ 9000 فرنك شهرياً. وحيث أنني نملة مقتصدة وأعرف جميع الحيل لأعيش حياتي دون أن أصرف إلاّ أقلّ ما يمكن، فإنني أحافظ على نمط بورجوازيٍّ في الحياة؛ أسكن في بناء بورجوازي لا يسكن فيه إلا الموظفون، بل عندنا في البناية نائب محافظ سابق، وقائد شرطة، إلخ.، ويعلم الجميع في بنايتنا أنني عاطل عن العمل، لأنني أعلنت هذا، دون أي تكتّم...

❖ بالصوت العالي وبقوّة...

السيد سابان: نعم، بالصوت العالي وبقوّة. فبعضهم أردت إزعاجهم، وبعضهم أردت ببساطة أن أقول لهم الحقيقة؛ هذا لا يسبّب لي أية مشكلة، هذه ميزة التأهيل والثقافة، فأنا في حوزتي بعض المهارات الاجتماعية وأساليب الكلام التي تسمح لي تماماً بتجاوز هذا الفاصل الاجتماعي الحاصل بيني وبينهم. على أي حال، فأنا الآن راقت أحوالي أكثر بقليل، الأقساط التي أدفعها للبيت تناقصت، وفي سن الـ 60، سوف يكون واردي الشهري التقاعدي 12000 فرنك.

❖ نعم، معك، اعتباراً من ذلك سوف تكون الأمور على ما يجب...

السيد سابان: لأنهم في وكالة التشغيل ANPE صرّحوا لي ذات يوم وجهاً لوجه- وأنا أشكرهم على هذا، والذي كلّمني كان ممّن سبق أن دخلت معه في علاقات إيجابية جداً... إذن، حصل أنه قيل لي في الـ ANPE، «شخص مثلك لن يجد أبداً» ... ظهرتُ في التلفزيون، ونظروا نظرة إعجاب لانتقادي اللاذع للنبذ بحكم التقدّم في العمر. فوضّحت (لأنني إلى حدٍّ ما ممثّل وأعرف كيف أعطي لكلماتي وقعها)، «أعتبر شخصياً العنصرية بحق المتقدّمين في العمر معادلةً للعنصرية حسب لون الجلد»، وهذه العبارة أذيعت! ما عاد عندي أمل في إيجاد عمل، على الإطلاق، وإليك البرهان، فعندي صاحب عتيق، بقي من جانبه في الشركة، ثم قَبِل أن يكون في قسم المبيعات كوكيل تجاري... أما بالنسبة لي، فهذا العمل التافه، ما كان لي أن أقبل به، لأذهب إلى المخازن الكبرى وأساوم، وأفاوض حول الميزانية... لا، ثم لا! هذا فوق ما أحتمل...

❖ هذا لم يكن يناسبك بالمرّة...

السيد سابان: لم أدرس كثيراً لكنني شخص يقرأ 150 كتاباً في العام، يقرأ صحيفة «لوموند» من 30 عاماً، فأنا رغم كل شيء مثقّف إلى حدٍّ ما. وكي أعطيك فكرة عن مستواي، فأنا أحلّ الكلمات المتقاطعة في اللوموند والفيغارو في نصف ساعة فقط؛ فهذا يوضح لك مستواي الثقافي ولن أيأس في الظهور يوماً ما على التلفزيون، في برنامج «أسئلة لبطل»، فعندي

ذاكرة هائلة، أنا في هذا المجال أكثر قدرة مني في مجال الذكاء، لا، لا أعرف نفسي فريداً في الذكاء، لكنني متفوّق التأهيل، متفوّق الـ... أي نعم، والسبب المهنة التي مارستها، حيث الناس الذين لا أعرفهم سابقاً، الأطباء، فأدخل إلى مكتب الطبيب، وتعلم أهمية الوصول إلى ما تريد في 30 ثانية، فتعلم مبدأ الكلمات الثلاث الأولى، الخطوات الثلاث الأولى، والنظرات الثلاث الأولى... كان عليّ أن أفهم حتماً! كل شيء حتماً كل شيء، حول الشخص الماثل أمامي: «نموذجه وطبعه»، والديكور... حيث أكون قد استوحيت شخصيته مما هو موجود في صالة الانتظار، إلخ. وهذه هي نوع من الرياضة الذهنية، يل هذا مخيف لأنني اكتشف ما في داخل الإنسان في 15 ثانية. (...)

في داخلي شخصيتان

❖ ذكرت أن الأمر كان قاسياً في البداية...

السيد سابان: نعم، بالفعل، إذا أردت، لكنني الآن أمامك وأقول، ما شي الحال. فالصفعة التي يتلقاها الإنسان في وجهه، عندما يقولون له في سن الـ 45 «الله معك» ! فهذه لا تُحتمل. على أنني، في الحقيقة، لم أكن داخل المؤسسة. وأنا في الوقت ذاته جبّار في العمل، فأستطيع أن أشتغل 12 ساعة في اليوم، وقد شاركتُ في مؤتمراتٍ في باريس طيلة شهرٍ كامل، لكنني بالمقابل أستطيع أن أكون كسولاً عند اللزوم؛ فعندي، لنقل، تصوّر متقاعس إلى حدٍّ ما عن الوجود دون أن ينتقص هذا من كوني من أصحاب الحيوية... على أي حال، لقد أبرزت مهنتي جدارتي لأنها كانت مهنةُ شديدة السخاء. فكان عملي الاتصال بأطباء، كانوا، من جانبهم، في غاية اللطف! فكانوا يدعونني إلى تناول الطعام معهم.. إلى تناول كأس، وكانوا... ذات يوم، وقعت على طبيبٍ قال لي، «سوف نستمع سوياً للموسيقى»، وترك جميع من كان في صالة الانتظار... أنا لم أكن في يوم من الأيام مدمن عمل، كانت محاور اهتماماتي متعدّدة، وكنت أعرف جميع متاحف النورماندي. لكن حتى إذا كنتَ من جماعة التنبلة، حتى لو حملتَ علانية احتقار العمل وكنتَ

من المتأثرين بعمق بـ «تقريظ الكسل» كما جاء عند لافارغ [صهر ماركس]، فلن تشعر بمشكلة عندما تقع في الفراغ والكسل. على أي حال، أنا قابلت حظي المنحوس بطيب خاطر...

❖ نعم، لكنه توجّب عليك إعادة تنظيم حياتك...

السيد سابان: يعني، بهذا الشأن، اسمع، أن أعيد تنظيم حياتي، فهذا لم يكن بالأمر الصعب، فأنا لم أكن داخل المؤسسة، كنت سيّد جميع أوقاتي، فلم يتغيّر الأمر عليّ... وقد استعددت، لأن في الموضوع جوانب إيجابية، استعدت أسرتي، لأنني قضيت معظم وقتي في التنقّلات، وهذا لا يسلّي، لحسن الحظ...

❖ نعم، بالفعل، يكدح واحدنا لأنه لا شيء آخر لديه يفعله.

السيد سابان: لا، أنا كنت أتناول الكتب.. جميع الصحف، لكن الحياة في الخارج، ليست مسلّية، مسلّية، مع أنني قابلت أناساً مهمّين، من الرجال والنساء، الخ.، ولكن هذا لا يسلّي، فلا يمكنك ممارسة نشاط رياضي، ولا يمكنك ضرب مواعيد منتظمة للتسلية ضمن الأسبوع، متى كان عملك الانتقال من مكان إلى آخر، فأنا كنت قد قلت هذا لأسرتي.. يعني، كان عندي علاقات لا بد من إقامتها، وأنا في أيام السبت والأحد كنت أحشو رأسي بالمجلاّت الطبية. إيه ما العمل؟ نعم أمضيت أيام أحد كاملة في قراءة الصحافة الطبية، في تحضير ملفات، في كتابة محاضرات لزملائي، إلخ. ولذلك أشعر أنني استعدت عائلتي.. ولست ذاك المهووس بالعائلة، بل وعلاقاتي سيئة جداً مع ابني؛ أنا وزوجتي متفاهمان وأحوالنا ماشية جيداً؛ ابنتي من الفتيات المثقفات، لكننا «لا نبثّ على الموجة ذاتها»؛ على سبيل التوضيح، فهي صوّتت بالرفض [في الاستفتاء على معاهدة ماستريخت] لأنها مصابة بعدوى أفكار لوبن. علماً، لا أعرف كيف يمكن.. يعني، أب يساري، وابنة يمينية. ما العمل، لكنني أتقبّل، هكذا ببساطة.. وسوف تتغيّر، سوف تتغيّر.

❖ هل غيّر هذا ليس فقط تنظيم حياتك، وإنما غيّر أيضاً رؤيتك للعالم؟

السيد سابان: نعم، رؤيتي للعالم! آه، وهذا بسيط! كنت في اليسار دون تحفّظ، لكنني قاطعت الانتخابات عندما كانت لليسار المتطرّف.. فالتصويت للشيوعيين، لا. وأبعد من خيبة الأمل بالانتخابات، فأنا من المتشائمين، أنا متشائم، متشائم يعلن وقوع المصائب لأن عندي الأمل ألا تتحقّق. (...) ثم أنا لا أؤمن إطلاقاً بالأبراج لكني من برج الجوزاء بشكل نموذجي: الأبراج أمر سخيف، لكن من هو جوزاء أكثر مني، لا يمكن أبداً أن تجده، لا يمكن أبداً أن تجد جوزاء أكثر مني! آه لا، إنما في داخلي شخصيتان، أنا أعلم هذا.. هذا لا يصدّق! في داخلي ازدواجية، ومن هنا بعد النظر، على أي حال!

[...]

لا افرط في الاستهلاك.

السيد سابان: على سبيل التوضيح، ورثت عن أهلي ما يعادل تقريباً ثلاثة ملايين فرنك، بالإضافة إلى شقتي... إيه أنا أدفع 600 فرنك عن هذا البيت؛ إذن أنا عاطل عن العمل غير نموذجي، من خارج هذا الصنف، ولا أستطيع طبعاً أن أحكي هذا لجميع الناس. (...) الإرث الذي بحوزتي غير مثمّن كما قد أستطيع، لكنني عن قصد تركته موزعاً هنا وهناك، لأنني لا أريد وضع البيض كله في سلّة واحدة. فإذا سمحت لي، أنا، عندي جانب فاسد الذمّة، فأنا عرص بورجوازي رأسمالي ملاّك. أي نعم! نعم، هذا جنباً إلى جنب مع الأفكار اليسارية، لكن، في النهاية، أنا هكذا، وهذا لا يسبّب لي أية مشاكل (...) ولا أفرط في الاستهلاك، كما هو حال معظم الناس: فلا رحلات، والسيارة سوف أحافظ عليها، ما دام يمكنها الاستمرار، حتى التقاعد، ولا ما يشير خارجياً إلى الثروة، فأنا ثيابي كما هي عليّ مناسبة وسليمة، ولكن أقضي الأسبوع بأكمله في الجينز، لم يعد لديّ الإمكانيات لإتلاف ثيابي، والبنطال الذي ألبسه، هو لشخص كنت قد أصلحت له النافذة، فأتحفني بأربعة بنطالات، بنطالات رائعة، أعادت امرأتي ضبطها على قياسي، يعني، زوجتي تقوم بأعمال خياطة، نحن من الشمال، وهي

تذهب معي دائماً عندما نذهب إلى الشمال مرّة في السنة - ويعني، عندما أقول، «أنا لا آخذ عطلة صيفية»، فأنا ذهبت إلى الشمال في السنة الماضية (لكن، هل الذهاب إلى الشمال عطلة؟). أنا، بعض الأمور لا يمكن أن تخدعني، ولا أخفي عنك، مثلاً، أنني من خصوم الحدّ الأدنى للإدماج RMI، وسبق لي أن قلت هذا. وإذا كان هناك بطالة، فالسبب وجود عدد من النساء سرقن فرص العمل، فـ «طار» بسببهن آباء أسر مثلي أصبحوا عاطلين عن العمل؛ أنا، هذا الرأي مصرّ عليه لا أتراجع عنه.

❖ هذا ما تفكر به...؟

السيد سابان: هذا رأيي، لكن، مع مراعاة أنني لست من أدعياء الفحولة. فللنساء الحق في الخروج إلى ميدان العمل، في رأيي هذا واضح وصريح. ولكن يجب التجاوز، أنا شخصياً أتجاوز، أتجاوز بحلٍّ أساسه تقسيم العمل. وعلى كلٍّ، فقد أضيف، إذا سمحت، حبّذا لو أنقصنا قليلاً عدد المهاجرين، وأنقصنا قليلاً عدد المطرودين من الأرياف، إلخ.، إلخ... في جميع الأحوال، أنا أنتظر تحقيق أمرين اثنين، أنتظرهما، ولا يخطر لك أن هذا من باب الـ Schadenfreude [الفرح الخبيث]، من باب سياسة الأسوأ، ولكني أنتظر أولاً خفض نسبة الولادات، وثانياً، تطوير صناديق التقاعد إلى أقصى ما يمكن. فالنساء العاملات، (...) الولد الوحيد كارثة، النساء اللواتي يكتفين بولدٍ وحيد يجب معاقبتهن، من الأفضل في هذه الحالة عدم الإنجاب إطلاقاً؛ فهؤلاء أناس لهم في الأسرة رواتب مضاعفة، مليونان ونصف المليون شهرياً؛ في بنايتنا، عندي جارٌ متقاعد تتطّح وأمّن لنفسه مرسيدس مستعملة بـ 17 مليون (يمكن إذن أن تلاحظ ما هو الوسط الذي أعيش فيه)، إيه، قال BMW لحضرة السيد، والفولفو لجناب المدام... أنا لا أقدر أن أفهم عقل النساء! فشروط العمل عبودية حقيقية، «يخرى» الموظف على نفسه، يجب أن نقولها صراحة، في مشروع من المشاريع مع المؤامرات، والدسائس، والسلوك الديكتاتوري عند ربّ العمل. طيب، أنا لا أستطيع أن أفهم ما هي الفائدة في الذهاب وقضاء العمر في العمل. أنا، لو كنت امرأة

وكان عندي زوج يكسب ولديه دخل جيد، فأول ما سوف يشغلني خلق جو من التفاهم الزوجي ثم إن المرأة عندما تختار رجلاً، فالغاية محاولة البقاء إلى جانبه، فلا شيء يعادل الوفاء في الحياة، طيلة حياة بأكملها؛ أنا عندما أرى الطريقة التي يعمل بها الناس ذهـ... أقضي ثلاث سنوات مع مثل تلك المرأة، أوه! والتكاليف التي يدفعها المرء من أجل الأبناء! أوه، لا، فلا... ثم لا! وإذن فعمل المرأة هو السبب في، ما علينا...

{ظهرت حينذاك سيّدة شابة، مدام لوران، فقدمت نفسها، وطلبت أن نسمعها}.

هذا شيء نسيت أن أقوله لك

مدام لوران: ... الأمر الرهيب، إذا سمحت، هو فقدان الحلم، وهذا معناه، أننا لا نعلم كيف سيكون الغد، فنحن ننتظر وفي هذا الانتظار، الأمر الخطير أنه حتى عائلتك نفسها لا يعود بإمكانها التخطيط لمشاريع أيضاً... هذا ما كنت أريد أن أقوله لك لتقوله (...).

السيد سابان: آه، معها الحق، كل الحق! فهذا شيء نسيت أن أقوله لك... أوه، كم أشكركِ، كم أشكركِ! أنتِ بعثتكِ العناية الإلهية! لأنّ هذا... نسيت أن أقوله لك... نسيت...

مدام لوران: ... لأن هذا الأمر خطير، فأنا لم تتراكم عندي بعد مشاكل كثيرة، لأن تعطّلي عن العمل لا يعود إلى فترة بعيدة جداً جداً، ومع ذلك ففي أعماق أعماقي، هذا الأمر يسبب لي الأذى، هكذا، نعم، حتى يصل بك الأمر إلى أن تقول، «لا أعلم ماذا يمكنني أن أفعل غداً»، والحقيقة، لا شيء...

السيد سابان: يا دانييلا، لقد تفاديت الضربة، بالعيش في حاضر خالد...

مدام لوران: هذا ما كنت أود ببساطة أن أقوله لك، لأن الجميع كانوا يتكلمون، فالأمر هكذا، الأمر هو أنك تعيش دوماً في هذا الحاضر، بينما

حتى هذه اللحظة، حياتي، ومعها حياة أسرتي، أقاربي الأقارب فعلاً، كانت في التخطيط لمشاريع، في أن نكون دائماً إلى حدٍّ ما في المستقبل... فليتنا على الأقل كنا من جماعة أبيقور القائلين بأن يعيش الإنسان في الحاضر لأنه أمر خارق، فهو أروع...

السيد سابان: «استمتع باللحظة الهاربة» ...

مدام لوران: لكن ليس حاضرنا الحاضر الأبيقوري، ليس الحاضر على هذه الصورة...

السيد سابان: هذا حاضر شديد الوطأة، نعم. حاضر من الصعب هضمه.

مدام لوران: بالضبط. وهذا الحاضر عندي يكاد يكون بفقدان الرغبة في رؤية الغد لأنني خائفة، خوف من يستيقظ من النوم... وكما لو أن الإنسان يقول لنفسه، «ما يزال الحال هو هو، أنا ما أزال لا أملك شيئاً، لا أعلم ماذا سيكون بإمكاني أن أفعل».. وفي الوقت نفسه يأمل الإنسان، «سوف تصلني رسالة أو يرن جرس التلفون بمخابرة هامة». هذا بكل بساطة ما أردت قوله لك.

السيد سابان: لا، معها حق، كلّ الحق ...

مدام لوران: كما تعلم من الخطير في الحياة أن يموت الحلم، وكلمة «حلم» هنا بكل ما تحمله من معان...

السيد سابان: لا، ولهذا سألت، أي أحلام؟ حلم الليل أم حلم...

مدام لوران: أنا كان لي دوماً حلمي! كل ما كنت أفعله في حياتي، صحيح، هو الحاضر تحديداً، لكنني كنت أقول لنفسي دوماً، «في الشهر المقبل، في الأسبوع المقبل سوف نفعل هذا» في العمل وفي الحياة الخاصة سواء بسواء. أما الآن، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً.. وبالفعل فالأمر هو هذا، هذا عندي أمر خطير، يعني.. يوجد هناك أمور رهيبة أكثر بكثير، على عيني، إنما.. صحيح، ليس معنا قرش، لا، إنما من الخطير على الإنسان.. ألاّ يكون لديه مشاريع، أن يكفّ عن الأحلام.

السيد سابان: خصوصاً في ما يخصّني، حيث عندي البديل الممكن... بوجود ولدين- فابني ليس ذلك النجاح الاستثنائي، يعني، لكنه، في النهاية يكدح، وعنده مشاريع، وابنتي، نظرياً، المفروض أن تذهب في شوطها بعيداً، ربما لا أدري... أقل تقدير الماجستير أو... إذن هما يتابعان بعض الشيء مشروع مستقبلي. لكن في ما يخصّني شخصياً، فالمستقبل لا يخطر لي أبداً على بال. وهذا الأمر صحيح جداً- فأشكرك لأنني قد نسيت تماماً، أنا مستسلم، مستسلم لموجة الحاضر تدفعني... أما المستقبل فلا أعلم ما يكون. وبالتالي، بالتأكيد، أقول لنفسي، «تماسك أيضاً ثماني سنوات قبل التقاعد»، أما التفكير بالغد، لا. ولهذا فإنّ إحساسي بالزمن اختفى تماماً. وأقدر أن أقول لك شيئاً: لم يصبني الأرق أبداً بسبب البطالة، لكن لحظة الاستيقاظ صعبة عليّ؛ فلمدّة شهور استمرّيت أستيقظ على الحلم نفسه: كنت أرى نفسي دائماً في صالة انتظار في عيادة طبيب، والصالة دائماً مختلفة. فإذا كنت قد زرت من الصالات 25000- لعلّي أبالغ قليلاً- وكانت مختلفة بعضها عن بعض. لكني لم أُصب أبداً بالأرق. وأما الانهيار العصبي، في رأيي، فأنا لا أعلم ما يكون.

❖ {الخطاب موجّه إلى مدام لوران} فماذا كان عملك؟

مدام لوران: كنت في قسم الإشراف على العاملين، أقصد.. كما ترى، دائماً أتكلم بصيغة الماضي، «كنت..»! أنا.. يعني هذا هو عملي (لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أقول.. من المؤلم التكلّم هكذا).. زميلتي وأنا، كانوا يعدوننا منذ سنتين أو ثلاث سنوات أن نحصل على صفة الكادر- ووضع الكادر هو فخٌّ نوعاً ما، كما تعلم..

السيد سابان: نعم، فهذه هي الجزرة..

مدام لوران: لعلّنا حتى ما كنا نطالب كثيراً بالراتب، إذا شئت، إنما.. كنا نكافح قليلاً لنأخذ الصفة. وكانت مشكلتنا إلى حدٍّ ما إثبات حضور وشخصية في مواجهة مدير عارض باستمرار فكرة أن تحصل امرأتان.. لكنهم، ما كانوا عموماً من محبّذي الترفيع، خصوصاً في قسمنا، لأنهم كانوا

يعتبرون الانتقال إلى وضعية الكادر الإداري- مع أننا كنا مكلّفات بالإدارة والإشراف مع ما في هذا من مسؤوليات كثيرة-، فكانوا يخشون ألاّ نكون قادرتين على إظهار السلطة الكافية بعد الحصول على تلك الصفة الإدارية: فنكون من جماعة الكوادر، ولا نكون منهم.

[...]

عمل «رائع»

مدام لوران: أنا لست من الإداريين أصحاب المراكز ولكن معي CV (وذاك أن هناك من اتصل هاتفياً بربّ عملي، فأسندت إليّ مسؤوليات كثيرة وهذا قد يبدو غريباً)؛ لكني أعترف، بفضل الشركة التي عملنا فيها، ورغم بعض المشاكل مع شخص في مركز رفيع ضمن التسلسل الإداري، كان حظنا كبيراً (أستخدم صيغة الجمع لأننا كنا اثنتين، وكنا فعلاً على ارتباط كامل في العمل). باختصار، امتيازنا بالضبط هو أننا حصلنا فعلاً على فرص في العمل، وأن نقوم بأمور فائقة. لهذا استفدنا من عملنا لفترة من الزمن، وقلنا، «هذا رائع، يعهدون إلينا بمهمّات، وعندهم ثقة بنا، سوف نتفوّق على أنفسنا، فنحن للإشراف، ونراقب التنفيذ أحياناً»، هذا عظيم بالنسبة لنا! لكننا من بعد ذلك قلنا، «اللعنة!»، فكنا نرى أكواماً من العاملين يرتقون إلى مرتبة الكوادر، وتساءلنا، «لماذا؟». فداخل مؤسسة أغلب العاملين فيها من الرجال، مع قلّة من النساء... وبالتالي تساءلنا، «فلماذا لا تصيبنا نحن هذه الترقية؟». كان هذا سؤالنا في المرّة الأولى، «لماذا ليس نحن؟»- ففي كل سنة كان لنا محادثات، حديث سنوي مع مسؤولينا للتخطيط للسنة التالية- ومن ثم، في السنة التالية، قالوا لنا، «لا» لأسباب واهية كلياً لا أساس لها من الصحة. ومن ثم، ساء الوضع، وعلى التوالي تشوّهت جميع العلاقات، فمديرنا الإداري والمالي، الذي كان يفهم في الإدارة المالية أكثر مما يفهم في شؤون العاملين، لم يكن في الحقيقة يعرف أمور عمله الإداري، كان يشعر بأن القسم الإداري ليس في يده، مع أننا كنا نقوم بشغلنا على خير وجه. كان يرى بأننا عبء زائد، إذا شئت، كان لا يفهم عملنا، وكان يقول، «أنا لا أفهم،

في هذه الشركة، قسم المحاسبة ليس عندي مشاكل فيه؛ وأما قسم العاملين فليس لديّ فيه إلاّ المشاكل».

السيد سابان: لو كنتِ تزوجت ورزقت بأولاد، لما أمكنكِ القيام بالعمل.

مدام لوران: لا، ولكن صديقي قال لي ذات يوم، «أنتِ قدمتِ كل هذه الوثائق، وأنا سوف أرميها من النافذة» كان قد أصابه الضيق! وكان هذا مثيراً حتى قلت لنفسي... أنا لم أعد أريد.. أحياناً، في الويك- إند، كنت أريد أن أعرف، كنت أريد أن أقوم بعملي، ثم، يعني، كنت أيضاً في تنقّل دائم، يعني. فطيلة سنة، كنت أُمضي 15 يوماً كل شهر في سفر، في الخارج، بوردو، كليرمون- فيرّان، وما شابه. إذن، كان الموضوع يتجدّد كل شهر. لهذا، في البداية، ورد الأمر مرّة أو مرّتين، لكنه، من بعد ذلك، أصبح يتردّد بإلحاح دائم دائم و... صديقي بدأ ينشغل باله... وقد انزعج انزعاجاً كبيراً وهو يرى عجزي عن تحصيل حقي في الترقية إلى ملاك إدراري. لأنه كان يعلم أن الأمر بالنسبة لي... أقولها لك، لعل الأمر لم يكن له عندي أدنى أهمية مالياً، بل هو...

❖ نوع من الاعتراف بالجدارة...

مدام لوران: بالضبط! كان سيشعر باعتزازٍ كبير في ما لو... وكان يقول لي، «على الأقل، حقّك وأنتِ جديرة» ...

لا شيء يقع بسبب لا شيء

دُهشنا قليلاً لرؤية مدام فورنيي في وسط أناس لا يجمع بينها وبينهم شيء. فالبطالة لا يجوز، في نظرها، أن تسمح لكائنٍ من كان بإهمال العناية الواجبة بالمظهر الخارجي. كانت ترتدي «تايور» غامق اللون بتموّجات متفاوتة، وتلبس حليّاً من الذهب، مع قصّة قصيرة لشعرها الأشقر، فكلّ ما فيها يوحي إلى حدٍّ ما بالصورة المنتشرة الآن عن «المرأة العاملة» التي تحتلّ مركزاً مرتفعاً نسبياً في المشروع. تتكلم بثقة، لكن بكلمات مدروسة، في محاولة منها لدفع محدّثها على تقبّل «طبعها»، دون أن تطالبه، على ما يبدو بالاستحسان والإعجاب.

أما الطاقة الداخلية التي عبّرت عنها وسط كل المحن فهي على علاقة مع الثقة الراسخة بالنفس التي حصلت عليها بالعديد من الألقاب الدراسية (علوم اقتصادية، شهادات تخصّص متنوّعة) مثلما هي على علاقة أيضاً بخبرتها الوظيفية في مجال الإشراف على الإدارة والخدمات المالية (تحكم على نفسها بأنها «قوية جداً جداً في هذا الميدان»). لم تبدأ بالعمل إلا من بعد طلاقها، في أحد المشاريع المتخصصة ببرامج المعلوماتية في المنطقة الباريسية. وقد استقرت مع ابنتها الوحيدة في الأقاليم ضمن منظور «النجاح الوظيفي» أو بتحديد أدق، بأمل الحصول على منصبٍ هام كمدير مالي: فلّما لم تتحقّق تطلّعاتها في باريس، كان لا بدّ من أن تقبل الذهاب إلى نانت، في شركة مشابهة لشركتها، للقيام بالإشراف على الإدارة وللوصول أخيراً إلى المركز الذي طالما اشتهته منذ البدايات. كان عملها يقوم على إدخال المعلوماتية في إدارة شركة كانت في أوج توسّعها، وقد شغفها هذا العمل: فكان المطلوب «تركيب نظام المعلوماتية، تأمين انطلاقها، تنظيم فرق العمل، الإشراف على المعدات الحديثة للمعلوماتية، تأهيل الناس لوضع برامج، تأهيل الناس للعمل على المعدّات، وفي النهاية هيكلة كل شيء مع تقدم العمل». ولكنها، ضمن «التركيبة العائلية» لذلك المشروع، لم تتأخر في اكتشاف التناقض بين تطلّعاتها المشروعة ظاهرياً وبين رغبة أرباب العمل في التخلص من هذه المنافِسة المحتملة بمجرّد أدائها للوظيفة المكلَّفة بها.

ولقد تعرضت مدام فورنيي لخيبات عديدة، خصوصاً «رفض تعيينها، ثلاث مرّات على التوالي، كمدير مالي لأنهم ماكانوا يريدون لها في باريس حضور مجالس إدارية لا يوجد فيها غير الرجال». وهي في النهاية لم تقبل على عجل وظيفة الإشراف على الإدارة في نانت إلا على سبيل القبول بالأمر الواقع، مع الأمل بالعثور هناك على الفرصة البعيدة المنال، فرصة الترقية رغم المنغّصات التي شعرت بها سلفاً منذ البداية. وهل كان بيدها اختيار آخر؟ «بسرعة كبيرة، علمت أنني سوف أتصادم مع شخصين، المدير وزوجته. كنت أعلم عن يقين وجود مشكلة في العمق، لكني دائماً أمنح الناس

ثقتي، وقلت لنفسي لعلّ وعسى... على أي حال، كنت أنوي الرحيل فيما بعد، فلم يكن يخطر لي أن... لأنني لم أكن آمل هناك بأي مستقبل وظيفي، وأنا كنت أبحث عن هذا المستقبل، فقلت لنفسي، عندما أنجز تماماً...». أمّا ما فاتني حسن التقدير فيه فهو أنني كان المفروض أن أرحل قبل ذلك بقليل، حتى لو لم يكن كل شيء قد... ولكني من النوع المدقّق جداً، وبالتالي كان من الضروري إيصال كل شيء إلى المرحلة المثلى، فجاءتني الضربة المباغتة. لكن ربما أن المشكلة ما كانت لتتغيرّ، لأنني على الأرجح كنت سأكتشف أن تلك المنطقة لا يوجد فيها عمل.»

لقد انفجر خلافها مع الإدارة، انفجاراً له دلالته، أثناء نقاش لم يكن بينها وبين المدير وإنما بينها وبين زوجته، الحائزة من جانبها (عائلياً) على صفة مدير مالي، علماً أنها «بالفعل لا شيء»، فهي، حسب رأي مدام فورنيي، مجرّدة من أية كفاءة وهي ليست سوى التجسيد الحيّ لمنطق «عائلي» لا تفسير له عندها. وكانت الصيغة التي تم بها تسريحها مقصودةً لتذكّر مدام فورنيي بأنها امرأة: فالزوجان المديران دفعاها للاستقالة بمحاولة مسّ كبريائها (مهمّات مستحيلة، مواقف بائسة، إلخ.). «ففي أحد الأيام طلبت مني زوجة المدير شيئاً ما كان بالإمكان إطلاقاً القيام به (غير ممكن القيام به لأنني كنتُ أعمل على نظامين، نظام يدوي، وفي الوقت نفسه نظام معلوماتيّ قيد التأسيس). كنت بمفردي، وكان عندي عمل فوق ما يحتمل فعلاً، كنت أعمل يوم الأحد، وكنت أعمل في الليل، ما علينا... إذن طلبت مني شيئاً ما يوم الجمعة من أجل يوم الاثنين، لأن أميركيين كانوا سيحضرون يوم الاثنين. فقلت، «اسمعي، الأمر مستحيلٌ تماماً، لا أستطيع أن ألبيه لك، هذا غير ممكن». فقالت لي، «لكنني أريده من كلّ بد». وأنا قلت، «لا، هذا غير ممكن». «لكن زوجي يريد هذا الأمر ليوم الاثنين من كلّ بدّ» فقلت، «اسمعيني، أقول لك لو كان ذلك ممكناً من الناحية العمليةن لو كان باستطاعتي أن أعطيكِ إياه، لكان ذلك من دواعي سروري، لكنني لا أستطيع أن أقوم به» يعني، وأخذت أشرح لها «كما تعلمين، فإنّ...» حينها،

انطلقتُ بنوعٍ من الضحك الساخر، فهذا كاد بالفعل أن يسبب لي ما لا تُحمد عقباه، والحقيقة فقد أصابتني نوبةٌ انفعالية! وهنا، تحت تأثير تلك النوبة، قلتُ لها، «أمّا بصراحة، أنتِ نكرة، أنتِ نكرة بشكلٍ رهيب!» لقد انتهى كلّ شيء، وكان بإمكاني أن أزم حقائبي، لكنني مع هذا انتظرت لأنني كنت أريد بأي ثمن أن تقول السبب الذي 0ن أجله سوف تسرّحني، إذ لم يكن هناك أي سبب إطلاقاً؛ فانتظرت لبعض الوقت لأرى كيف تكون مناورتها. حينها وظّفت شخصاً جعلته صلة وصل بيني وبينها، بحيث تجعلني أرحل من تلقاء نفسي. لم تتوفرّ عندها الشجاعة شخصياً لتقوم بتسريحي، إنما... أنا عندي قدرة على المقاومة، وعندي قدرة فائقة على التأقلم، فهذا جزء من تكوين شخصيتي. وهي بالتأكيد أدهشتها قدرتي على التأقلم. أما الأخ- اللزقة (كما يمكن تسميته) فقد نكّل بي على مدى ستة شهور؛ كان يجلس مقابلي، في مكتب زجاجي فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً دون أن يتابع ما أفعله، وما كنت أتلقّى مكالمة هاتفية إلا وأجده قد أصبح بجانبي. وكان لا يكفّ طيلة النهار عن القول، «إلى أين وصلتِ، ماذا فعلتِ؟»، إلخ. لكن لم تبدر عني أبداً حركة عدوانية، أو ما شابه، لا شيء أبداً... كنتُ أريد أن أرى المدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه العلاقة الرهيبة كلّياً. وهذا جعلهم يضطربون فعلاً لأنني لا أقول شيئاً واضطروا بالنهاية إلى اتخاذ قرارات، ففي نهاية السنة، قال لي، «أنا لا أريدك ضمن فريق العمل»، فقلت حينها، «عظيم، عليك أن تعطيني الأسباب الدقيقة»، «هكذا، دون سبب، أنا لا أريدك ضمن فريق العمل»، فقلت، «اسمع إذن، عظيم جداً، سوف أناقش الأمر مع المديرة المالية»، وعندها، لم تعد تعرف رأسها من قدميها، فقلت لها، «الآن سوف تقولين لي لماذا؟»، «آ، إي، آ... أنا... أنا ...»، لم يكن هناك أي سبب، لم يمكنها أن تذكر لي سبباً، فعندها، أنا قلت لها، «اسمعي، أنا غير نادمة على ما قلته لكِ، ففي هذه المصلحة، أنتِ نكرة، وليس لكِ أي وزن. نعم، أنتِ زوجة المدير وتفعلين ما تشائين، لكني الآن أستطيع أن أقول لك إنك لا شيء. وأنتِ لا تستطيعين تحمّل هذا، فهذه مشكلتك، ولكنك

مخطئة بتسيير الأمور هكذا، لأني كنتُ مستعدة لتحمّل كونك لا شيء بالمرّة في مجال العمل، لو أنكِ أعطيتني جميع الإمكانيات لأتمكن من أداء عملي، حتى وإن كان عملاً مفرّغاً من كل مضمون، إيه». ثم قلت، «يا خسارة، يا خسارة بالنسبة لك خصوصاً»، فعندها كتبوا سبباً للتسريح «فقدان الثقة.»

تريد مدام فورنيي التغلب على وضعها بالتحليل والفهم: «لا شيء يقع بسبب لا شيء... ومن مطلق عذاب يجب أن يستمّد الإنسان طاقة كي لا يدمّر نفسه... فعند الإنسان قابلية كبيرة لحلّ الأمور لو أراد أن يستفيد منها...». ورغم أنها عاينت ضيق الإمكانيات المحلية في مجال العمل، فهي ترفض الاستسلام لأية قدرية بل وترعى في داخلها بعض الأفكار لحلّ مصاعبها (على وجه الخصوص إيجاد هيئة محلّيّة تكون صلة وصل بين مجموع الكوادر الإداريين الذين يعيشون في بطالة وبين عالم المشاريع الذي احتفظت بعلاقات مع بعض عناصره). وتساعدها ثقتها الراسخة بقيمتها الشخصية وظيفياً على تلافي مشاعر الحقد والخيبة إذ تيسّر لها إعطاء قيمة نسبية للخيبات التي لا تستطيع أن تجد لها حلاً. ومن هنا تلك النظرة المحايدة تقريباً التي توجّهها، رغم طموحاتها وما وراء تلك الطموحات، إلى العالم الذكوري في مجال المشاريع، ذلك العالم الغريب قليلاً «الذي صنعه الرجال». أمّا وضعها، كالرجال سواءً بسواء، لكل «ذاتها» في «العمل» فهو أمر يبدو لها امتيازاً موهوماً.

أيلول 1992

صدر حديثاً عن دار كنعان :

1- قضايا وشهادات / سعد الله ونوس «دراسات»	مجموعة باحثين
2- الجنرال «رواية»	آلان سيليتو
3- العقلانية العملية «فلسفة»	بيير بورديو
4- بابل والكتاب المقدس «تراث»	جان بوتيرو
5- الرقص مع الذئاب «سينما»	نك يانغ
6- البحث عن السيد جلجامش «مسرحية»	محمد سيف
7- السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 + ج2 «فلسفة»	خالد آغة القلعة
8- وعليك تتكئ الحياة «شعر»	ممدوح عدوان
9- وحوش العاطفة «شعر»	لقمان ديركي
10- بيان ضد الأبارتايد - اللاجئون الفلسطينيون وعملية السلام «سياسة»	د محمد حافظ يعقوب
11- القيمة والمعيار (مساهمة في نظرية الشعر) «نقد»	يوسف سامي اليوسف
12- من دولة الإكراه إلى الديمقراطية «سياسة»	عماد شعيبي
13- القلم والسيف «حوار»	إدوارد سعيد
14- بين الإسلام والغرب «حوار»	مكسيم رودنسون
15- من قريب ومن بعيد «حوار»	كلود ليفي شتراوس
16- شعرية التمرد - جان جنيه «حوار ونصوص»	إعداد . د . مالك سلمان
17- شتاء البحر «قصص»	غزالة درويش
18- زمن يحترق «قصص»	غزالة درويش
19- وميض الأعماق «نصوص في علم الجمال والنقد»	ت. د. علي إبراهيم
20- رائحة الأنثى «رواية»	أمين الزاوي
21- اعترافات عربي طيب «رواية»	يورام كانيوك
22- صعود وأفول فلسطين «سياسة»	نورمان جـ . فنكلستين
23- مواعيد «شعر»	محمد صارم
24- هيروشيما «شعر»	وفيق خنسة

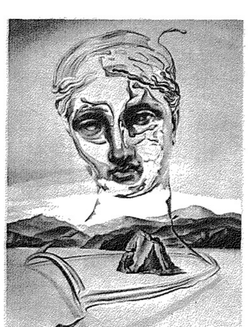
تشكّل مقولة "اقتصاد السوق"، المسيطرة عملياً ونظرياً على المستوى الكوني، المرجع الرئيسي للعالم الذي نعيش. وتبدو هذه المقولة وقد استبعدت، ظاهرياً، السياسة والإيديولوجيا، موضوعية، بل تعبيراً عن "علم خالص" شديد الموضوعية.

ويمتلك السوق، في هذه المقولة، عقلاً خاصاً به، يصحح أخطاء السوق ويمنع عنه عثراته، ويلبي، لزوماً، حاجات الناس، دون الإضرار بهم على الإطلاق.

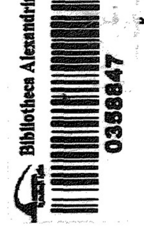
وبسبب "عقلانية السوق"، التي هي صورة أخرى عن علم اقتصادي عقلاني، فإن العالم كله يسير نحو سوق متجانس عالمي، يؤمّن حاجات البشر دون تمييز.



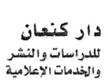
وهذا "السوق العاقل"، وقد سيطر وتعمّم، يفرض على الظواهر الاجتماعية المختلفة أن تكون تابعة له، فتخضع الثقافة والفن لمنطق السوق، وتمارس السياسة دورها بما يحفظ "استقلال" السوق و"عقلانيته".



تمثّل هذه الوقائع، مرحلة جديدة من مراحل الرأسمالية العالمية المنتصرة، مع فرق أساسي، هو أن كل مرحلة جديدة تحمل معها المزيد من الثراء و... معين والفقر والحصار لـ...






دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية